

أدب أمريكا اللاتينية قضايا ومشكلات (القسم الأول)

تنسيق وتقديم :
سير آر فرناندث موريانو
ترجمه عن الإسبانية :
احمد حسن عبد الواحد
راجعته : د. شاكر مصطفى



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

أدب أمريكا اللاتينية

قضايا ومشكلات

(القسم الأول)

تنسيق وتقديم :
سيرار فرنانديث مورينو
ترجمه عن الإسبانية :
أحمد حسان عبد الواسع
راجعته : د. شاكر مصطفى

١١٦ - ذو الحجة ١٤٠٧ هـ - أغسطس (آب) ١٩٨٧ م

المشرف العام :

احمد مشاري العدواني
الرئيس العام للبحاس

نائب المشرف العام :

د. خليفة الوقيان
الرئيس العام المساعد

هيئة التحرير :

د. فؤاد زكريا المستشار
د. أسامة الخولي
د. سليمان الشطي
د. سليمان العسكري
د. شاكر مصطفى
صديقي حطاب
د. عبد الرزاق العدواني
د. فاروق العمر
د. محمد الرميحي

الطرابلس :

توجه باسم السيد الرئيس العام للبحاس الوطني للثقافة والفنون والآداب

سنة ٢٣٩٩٦ الصفاة الكويت - 13100

**AMERICA LATINA EN
SU LITERATURA**

**Coordinación e introducción de :
CÉSAR FERNÁNDEZ MORINO
(8th Edition, 1982.)**

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر عن رأي كاتبها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

تصدّر الترجمة

في حوار جرى مؤخراً على شاشة التلفاز البريطاني * بين الروائي البيرواني ماريو فارغاس يوسا Yossa والروائي الكوبي جييرمو كابريرا إنفانتي Infante بمناسبة ظهور الطبعة الانجليزية لآخر روايات الأخير، احتفى فارغاس يوسا بزميله الكوبي باعتباره كاتباً أمريكياً لاتينياً، بينما أصر كابريرا إنفانتي على أنه مجرد كاتب كوبي. ولم يكتف بذلك بل مضى إلى حد إنكار أنه يرى شيئاً مشتركاً مثلاً بين المكسيك، ذات الهنود، وبين كوبا، ذات الزنوج، والخلاسين والبيض. وأردف مؤكداً أن عبارة «أمريكا اللاتينية» هي عبارة اخترعتها فرنسا ثم عممتها الولايات المتحدة نتيجة إحساسها بالذنب لأنها احتكرت لنفسها اسم أمريكا. إزاء ذلك رد الكاتب البيرواني بأن تسمية أمريكا اللاتينية قد تبنتها بلدان أمريكية عديدة في وقت واحد واستخدمتها في مواجهة إسبانيا خلال حرب الاستقلال. هذه المناقشة تعيد إلى الأذهان قضية مازالت مطروحة أمام عالم كامل أخذ حديثاً في التعرف على ذاته، ووجد في تعبير «أمريكا اللاتينية» عنواناً مناسباً للوحة قسماته المشتركة في مواجهة الاستعمار الأجنبي والتغلغل الإمبريالي. لكنها تسهم، فيما نظن، في توضيح القضية المطروحة على عالمنا العربي نفسها.

فلا نعتقد أن بإمكان أحد أن ينكر وجود أدب كوبي أو بيرواني، إسباني أو فرنسي، فليس الحديث هنا عن حيوية أي أدب من هذه الآداب، عن ازدهاره أو ركوده، بل عن وجوده ذاته. لكن، هل بإمكاننا، بنفس البساطة، الحديث عن أدب «أمريكي لاتيني» على سبيل المثال؟

لا بد من التسليم بوجود صعوبة نظرية يجب حلها قبل الحديث عن أدب

* نقلاً عن صحيفة الباييس الإسبانية، عدد ١٢ سبتمبر ١٩٨٤

«أمريكي لاتيني»، أي عن أدب يعبر عن منطقة تتجاوز حدود الكيانات السياسية التي تكونها. هذه الصعوبة تكمن في إدخال مفهوم غير أدبي بل سياسي كصفة لكلمة الأدب في تعبير «أدب أمريكي لاتيني»، مما يدفعنا إلى محاولة البحث عن العوامل التي تفرض وجود أدب ما ووحدته.

هل تصنع اللغة وحدها أدباً؟

إننا لنجد في العديد من الكيانات القومية أكثر من لغة: فالقشتالية، التي نعرفها باسم اللغة الأسبانية، ليست سوى إحدى لغات أربع متكلمة في إسبانيا. وفي أمريكا اللاتينية، فرض الغزاة الإسبان لغتهم القشتالية على ما أصبح يعرف بأمريكا - الأسبانية، بينما فرض البرتغاليون لغتهم على البرازيل التي تكاد تكون قارة قائمة بذاتها. وظلت حواجز الاتصال قائمة بين الكتلتين اللغويتين الرئيسيتين في شبه القارة. وتلت هاتين الكتلتين نويات من لغات أخرى مع قدوم المهاجرين والعبيد، تخللت اللغتين الأيبيريتين وفرضت تأثيرها على اللغات المتكلمة وعلى الأدب، وذلك علاوة على اللغات الهندية للسكان الأصليين، والتي لم تندثر مع الغزو، والتي تعطي أوضح مثال على تأثيرها في بلد ثنائي اللغة هو الباراجواي. وفيه يتحدث نحو نصف السكان لغة واحدة هي الجوارانية (هندية) بينما الباقيون ثنائيو اللغة بمجملهم تقريباً ويتحدثون الإسبانية والجوارانية.

لقد أصبح التراث المشترك الذي تجسده اللغتان الأيبيريتان في شبه القارة الأمريكية - بمثابة القطب الذي تبلورت حوله في كل بلد عادات ومعتقدات. وأساليب حياة سابقة على الفتح، لم تندثر مع إتمامه، بل بقيت في مستوى جديد وشكلت عوامل تمايز الوجدان القومي في كل من هذه البلدان في نطاق الوحدة التي يشكلها مجال اللغة الواحدة.

اللغة إذن عامل هام، بل وحاسم، في خلق تراث مشترك يقوم عليه الأدب. لكن التأكيد على مجرد اللغة قد لا يثبت وجود أدب مشترك. وأبلغ دليل على ذلك

أن فارجاس يوسا وكابريرا أنفانتي يتحدث كلاهما بالإسبانية . وقد ورثت أمريكا اللاتينية نفسها اللغتين الإيبيريتين ، لكن لا يخطر ببال أحد أن يعتبر أديها الحديث جزءاً من الأدب الإسباني أو البرتغالي . ولسنا بحاجة إلى إيراد العديد من الأمثلة ، إذ نجد الحال نفسها في عديد من بلدان العالم الثالث التي تبنت لغات الاستعمار وأصبحت هي لغات الأدب فيها .

وخلال الفترة الاستعمارية تعرض هذا التراث المشترك للعديد من التعديلات والتشوّهات . وفي أيامنا ، مع سيادة ثقافات المراكز الامبريالية ، ومع التقدم الهائل في وسائل الاتصال ، أصبحت هيمنة الغرب الثقافية والتبعية التي تعاني منها بلدان العالم الثالث للدول الإمبريالية تمثل عاملاً هاماً في تعقيد المكونات الثقافية للبلدان المتخلفة وفي وضع الحواجز والأسوار بينها .

ومنذ زمن بعيد ، بدا أن خوسيه مارتى قد وضع معياراً حاسماً لحل هذه المشكلة حين أكد أنه «لن يكون ثمة أدب هسبانو - أمريكي طالما لا توجد هسبانو - أمريكا . ودلل على ذلك بأنه إذا كان كل أدب «عبارة عن تعبير ، فلن توجد آداب» طالما لا يوجد جوهر تعبر عنه» ، فوجودها «يستلزم أن توجد ، ككيان تاريخي كاف ، المنطقة التي يعد أدباً لها» .

كتب خوسيه مارتى كلماته هذه في وقت كانت فيه الكتلتان اللغويتان الكبيرتان للقارة تدير كل منهما ظهرها للأخرى ، فاقصر على الحديث عن أمريكا الناطقة بالإسبانية . لكن ، مع التواصل الذي نشهد منذ عقود ، تزايدت وتأثره بين البرازيل وبين بقية القارة . ومع الإحساس في الجانبين بوحدة المصير في مواجهة الهيمنة الأجنبية ، يصبح من الممكن تعميم كلمات خوسيه مارتى لتضم شبه القارة اللاتينية بأسرها .

وقد وضع الناقد البرازيلي المعاصر أنطونيو كانديدو معياراً أكثر تفصيلاً حين فرق بين «المظاهر الأدبية» وبين «الأدب بالمعنى المحدد» . فالمظاهر الأدبية ، في نظره ، مجرد أعمال فردية ، أما الأدب بالمعنى المحدد له فهو :

«نسق من الأعمال تربطها عوامل مشتركة واحدة تسمح بالتعرف على النغمات السائدة خلال مرحلة ما. وهذه العوامل المشتركة، بصرف النظر عن الخصائص الداخلية (اللغة، والموضوعات، والصور)، هي عوامل معينة ذات طبيعة اجتماعية ونفسية، تتبدى تاريخياً رغم أنها منظمة حرفياً وتجعل من الأدب جانباً عضوياً من الحضارة».

إذا سلمنا بذلك، يكون وجود المنطقة التي يعبر عنها الأدب ككيان تاريخي كاف، ووجود تلك العوامل ذات الطبيعة الاجتماعية والنفسية والتي تتبلور خلال عملية تاريخية، أمرين ضروريين لوجود أدب مشترك.

هذا المعنى يكون كابريرا إنفانتي كاتباً «أمريكياً لاتينياً» مثلما هو كاتب كوبي. لأنه يعبر في أدبه عن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تؤثر كل كتاب القارة حتى حين يبدو أنهم يحاولون الهروب منها.

وإذا كانت إحدى أبرز مهام الأدب أن يلتقط السمات الجوهرية في واقعه، وأن يقدمها من منظور المستقبل، فإنه بذلك يستبق إقامة كيان سياسي موحد يجمع تلك الأمم التي تعد بمثابة قومية واحدة وليدة موزعة على كيانات سياسية منفصلة، ويصبح بالإمكان الحديث عن أدب أمريكي لاتيني، بقدر ما ينطلق من تلك المشكلات المشتركة ويعبر عنها، وما دام الإيمان بالمصير المشترك هو الهاجس الذي يشغل كتابه.

وكتاب الكتاب الذي نضعه بين يدي القارئ يختلفون في مناهجهم، وآرائهم، والبلدان التي ينتمون إليها، لكنهم ينطلقون من الإيمان بوجود أمريكا اللاتينية ككيان تاريخي واحد، وبمصيرها المشترك. وهم بذلك يعكسون المناخ السائد في الساحة الثقافية لشبه القارة. فالغالبية العظمى من كتابها، مع استثناءات لا يستحق الأمر عناء ذكرها، يؤمنون بالمصير المشترك لأمريكا اللاتينية. ويشارك في هذا الإيمان حتى أولئك الذين يتشككون في وجود ثقافة أمريكية لاتينية بالمعنى المحدد. بل إن هؤلاء الأخيرين يضعون وحدة المصير

كبدل هذه الثقافة المشتركة التي يضعون وجودها موضع الشك .

والكتاب محاولة للتعرف على ملامح هذا الكيان التاريخي الذي تمثله أمريكا اللاتينية كما يتبدى في أدبها بكل مشكلاته . ومن الطبيعي أن نتوقع وجود عديد من أوجه الشبه بين هذه المشكلات ، ومشكلات أدبنا العربي . ويكفي أن نفكر في أوجه الشبه بين الظروف الاجتماعية في الجانبين وبين شروط الإنتاج الأدبي بما تنطوي عليه من مشكلات التخلف والتبعية والقيود على حرية التعبير .

إن الأدب والنقد وجهان لا ينفصلان لورقة واحدة . وازدهار أحدهما يعني إزدهار الآخر . وإذا كانت قد أتيحت لنا كقراء فرصة الاطلاع على نماذج قليلة بارزة من أدب القارة الفتية ، فإن هذا الكتاب يقدم لنا نماذج بارزة من نقدها ، سنجد فيه جوانب أصالة لافتة للنظر ، وجوانب ضعف تستحق إعادة النظر ، لكنه في كل الحالات سيعيننا على فهم أعمق للأعمال الأدبية في سياق محدد . لكن هذا الكتاب يأمل كذلك أن يكون مناسبة لإعادة التباحث في مشكلات أدبنا العربي . وفي اعتقادنا أن النظر في المشكلات الأدبية للقارة اللاتينية يعد بالنسبة لنا ، بمعنى من المعاني ، بمثابة فحص لمشكلاتنا الأدبية من نقطة متقدمة . فقد تضافرت عوامل عديدة على دفع تناقضات الواقع هناك إلى درجة من العمق والاحتدام لعلنا لم نألفها ، لكنها انعكست على الأدب فأعادت خلقه . لكن دراسة مشكلات هذا الأدب قد تضع أيدينا على التناقضات التي أخذت تطرح نفسها على إنتاجنا الأدبي . فالوشائج التي تربط بين العالمين أعمق مما قد نظن للوهلة الأولى .



مُقدِّمة

سيزار فرناندث مورينو*
Cesar Fernandez Moreno

«أمريكا، إذن؛ هي أرض المستقبل، وسوف يتكشف في العصور القادمة شأنها التاريخي وربما كان ذلك على شكل نزاع بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، إنها بلاد الأحلام لكل أولئك الذين ملّوا وضجروا من المتحف التاريخي في أوروبا. القديمة... إن ما يحدث هنا حتى الآن ليس إلا صدى للعالم القديم، أو انعكاساً للحياة الغريبة عنها. كما أنها بوصفها أرض المستقبل، لاتهمنا هنا، إن أمريكا لاتهمنا إلا بمقدار ماهي بلد المستقبل ذلك أن الفيلسوف لا يقوم بالنبوءات.

هيجل (١)

ما هي أمريكا اللاتينية؟

حسناً: قد مر قرن ونصف القرن منذ قام هيجل بنبوءته عن أمريكا في حين

(*) سيزار فرناندث مورينو شاعر وكاتب أرجنتيني (ولد في بونس أيرس سنة ١٩١٩) من أعماله الأساسية: مدخل إلى العقيدة (مكسيكو ١٩٦٢)، أرجنتيني حتى الموت (بونس ايرس ١٩٦٣)، المطارات (بونس ايرس ١٩٦٧)، الوقائع والأدوار (مدريد ١٩٦٧)، مراوغات (كاراكاس ١٩٧٢)، الأرجنتين (برشلونة ١٩٧٢) يدير المكتب الاقليمي للثقافة في أمريكا اللاتينية والكاريبي في منظمة اليونسكو.

(١) هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ العالمي - ج ١. وهذه هي ترجمة النص كما في الاسبانية وقد أورد د. إمام عبد الفتاح إمام هذا النص في كتاب العقل في التاريخ - ط ٢ - دار التنوير ١٩٨١. على الشكل الآتي:

«أمريكا إذن هي أرض المستقبل. فها هنا سوف يتكشف في العصور القادمة عنصر هام من عناصر تاريخ العالم. وربما كان ذلك على شكل نزاع بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية.»

كان ينفي أنه يتنبأ. وما كان مستقبلاً بالنسبة إليه أصبح الآن حاضراً بالنسبة
لأمريكا، والقارة التي كانت بالنسبة إليه طبيعة «أصبحت تاريخاً». وقد تحدث عن
أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية: وفي أمريكا الشمالية تقوم حالياً أقوى دولة في
العالم. أما الجنوبية، تحت الاسم الجديد لأمريكا اللاتينية، فتمثل إحدى أكثر
الأفكار دينامية في العالم المعاصر. وقد وضعتها سلسلة من العوامل في مكان
الصدارة من التوقع العام: أول هذه العوامل هو الانفجار السكاني، إذا قبلنا هذا
التصنيف التكنولوجي التي يصف عملية الميلاد، فمعدل تزايد القارة هو أكبر
معدل في العالم: ٢,٩٪ سنوياً. وتعدادها الحالي يزيد على ٢٧٠ مليوناً من
السكان، موزعين بصورة غير منتظمة على مدى ٢١ مليوناً من الكيلومترات
المربعة. هذا الانفجار، الذي يجري في إطار السياق الاقتصادي المسمى
بالتخلف، يهدد بأن يتحول، بدوره، إلى انفجار سياسي. لكن ما يهمنا الآن
بالتحديد هو أنه بدءاً من هذه السلسلة من الانفجارات، أو الانفجار المتسلسل،
تأخذ أمريكا اللاتينية في توقع انفجار آخر: الانفجار الثقافي.

ورغم ذلك، يظل تعبير أمريكا اللاتينية تعبيراً غير دقيق بصورة واضحة. فما
هي أمريكا اللاتينية؟ وفي المقام الأول، لماذا نسميها لاتينية؟ لقد بدأت كل
اللاتينية في اليسيوم، وهو إقليم صغير مجاور لمدينة روما، وأخذت تنمو في دوائر
متحدة المركز على طول التاريخ: ضمت، أولاً، إيطاليا كلها، ثم اتسعت بعدها
للجزء من أوروبا الذي استعمرته الامبراطورية الرومانية، لتعود فتقتصر على

== انهابلاذ الأحلام لكل أولئك الذين ملوا وضجروا من مخزن الأسلحة التاريخي في أوروبا
القديمة، على أن ما يحدث حتى الآن في العالم الجديد ليس إلا صدى للعالم القديم أعني التعبير
عن حياة أجنبية كما أنها بوصفها أرض المستقبل لا تهمننا هنا لأن اهتمامنا لا بد من أن ينصب
-بالنسبة للتاريخ- على ما حدث في الماضي وما يحدث في الحاضر، أما بالنسبة للفلسفة فإن ما
يشغلها ليس هو الماضي ولا المستقبل (إن شئنا الدقة) وإنما هو الحاضر، أعني ما هو موجود
وما له وجود أبدي: وهو العقل. وهذا كاف جداً ليشغلا اهتمامنا.

والفرق بين النصين واضح [هيجل].

البلدان والمناطق التي تتحدث بلغات مشتقة من اللاتينية، ثم تنتقل أخيراً إلى القارة الأمريكية التي كان أولئك الأوروبيون قد اكتشفوها واستعمروها. على هذا النحو تصبح أمريكا اللاتينية هي الحلقة الرابعة في ذلك التوسع المدهش.

ومن بين الدول التي حققت اكتشاف القارة الجديدة وغزوها واستعمارها كانت ثلاث منها لاتينية لغوياً: إسبانيا، والبرتغال، وفرنسا. ومن ثم، فإن أشمل مفهوم تاريخي للإقليم، يجب أن يضم كل أراضي القارة الجديدة التي سكنتها تلك القوى، المعارضة في مجموعها لأمريكا الأنجلو سكسونية، المتمركزة في الشمال. (٢) يقول إستواردو نونييث «في أواخر القرن التاسع عشر يبدأ التمييز بين ما هو أمريكي شمالي وما هو أمريكي لاتيني، بسبب نشوء الظاهرة السياسية لاستقلال الشمال. . . . ويبدأ بين الكتاب الفرنسيين قبل كل شيء (وربما بين كل الكتاب الأوروبيين) استخدام تعريفات جديدة لأمر أمريكا غير السكسونية، مثل: *états latins d'Amérique* الذي يرد في كتاب ظهر عام ١٨٨٢، و *Peuples Latinoaméricains* و *démocraties latines d'Amérique* . . (٣) وهذه التعبيرات الجديدة تحيل إلى مفهوم هو في وقت واحد عرقي، وثقافي، وسياسي. لكن حدث، كما يؤكد نونييث نفسه، أنها جاءت لتحل محل تعبيرات أخرى ذات مضمون جغرافي صرف، مثل: *Améri-que méridionale*، و *Amérique septentrionale*، و *Amérique de*

(٢) من المثير للاهتمام أن نذكر أن هذا التقسيم الأساسي يتحقق كذلك في التركيبة الجيولوجية: فلم تكن أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية متحدتين في مولدهما. فقد كانت الأولى تشكل القارة المسماة باسم لورنشيا، مع جرينلاند وجزء من الجزر البريطانية (وهي الجزر التي ستصبح بعد ذلك بزمان طويل أصل أنجلو سكسونية أمريكا). بينما كانت أمريكا الجنوبية تشكل قارة جندوانا، مع أفريقيا، وأستراليا، وجزء من آسيا والقارة القطبية الجنوبية (التي تطالب بها الآن الدول الجنوبية من أمريكا اللاتينية).

(٣) ما هو أمريكي-لاتيني في الآداب الأخرى، الفصل الخامس من الباب الأول من هذا الكتاب [المترجم].

Sud، و Amérique australe. هكذا ينشأ الخلط الأول حول لاتينية أمريكا هذه: ففي المفهوم الجغرافي، يظل التعبير مقتصرًا على شبه القارة الجنوبي، الإيبرو-أمريكي بصورة أساسية (أي الأسباني والبرتغالي)، أما المفهوم الجديد فيتسع كذلك للفرنسيين المقيمين في أمريكا الشمالية.

أما بالنسبة للتركيب الحالي لأمريكا اللاتينية فإن خوسيه لويس مارتينث يشير إلى أنه «شيء أكثر تعقيداً من الفسق البسيط الذي ظل حتى منتصف القرن. فقد بقيت هي المجموعة الأصلية المكونة من إحدى وعشرين دولة (هي الأرجنتين، وبوليفيا، والبرازيل، وكولومبيا، وكوستاريكا، وكوبا، وتشيلي، وجمهورية الدومينيكان، وإكوادور، وجواتيمالا، وهاتي، وهندوراس، والمكسيك، ونيكاراجوا، وبنما، والباراجواي، وبيرو، وبويرتوريكو، والسلفادور، وأوروغواي، وفنزويلا). إلا أن بويرتوريكو ولاية حرة منضمة إلى الولايات المتحدة ويحمل مواطنوها جنسية الولايات المتحدة. وبعد عام ١٩٦٠ نشأت أربع دول جديدة هي: جامايكا، وباربادوس، وترينيداد، وتوباغو، وجويانا، تسود فيها اللغة الانجليزية، وتكون جزءاً من الكومنولث البريطاني» (٤).

وكما هو واضح، فإن المحصلة التي تؤدي بنا إليها فكرة اللاتينية تتجاوز تلك الفكرة ذاتها. وإذا حاولنا الآن الرجوع إلى الوضع الأصلي للإنسان الأمريكي، فإن الصفة في تعبير أمريكا اللاتينية تذوب في السياق التاريخي، ونجد أنفسنا غارقين في الجوهر البشري الخاص للموصوف، الذي من الواضح أنه أسبق مما هو أوروبي وغريب عنه. وبذلك نجد أنفسنا في مواجهة الثقافات العظيمة السابقة على الاكتشاف، وفي مقدمتها ثقافات (ميسو-أمريكا) أو أمريكا الوسطى - وثقافات الأنديز.

(٤) الوحدة والتنوع، الفصل الرابع من الباب الأول من الكتاب الحالي. [المترجم].
* ميسو-أمريكا (أو أمريكا الوسطى) هي منطقة الحضارات القديمة شمالي أمريكا الجنوبية. وتحدد بين خط يمر شمالي العاصمة المكسيكية وآخر يمر بهندوراس ونيكاراجوا. وتعد، جغرافياً، منطقة أمريكا الوسطى بالإضافة إلى المكسيك وجزر الأنثيل. [المترجم].

قضى غزو القرن السادس عشر عملياً على تلك الثقافات العظيمة، لكنه، في الوقت نفسه، منحها حياة جدلية جديدة بقدر ماحولها إلى شرط ضروري لعملية «أوروبية». كما أثرت هذه العملية في سكان أمريكا المتبقين، الذين نالوا في تلك الفترة درجات أدنى من التطور: أولئك السكان الذين أطلق عليهم كجنس اسم الهنود من قبل المكتشفين بدافع الخطأ الجغرافي الهائل الذي حملهم على الاعتقاد بأنهم قد وصلوا إلى آسيا (ولم إلى الهند منها).

بالإضافة إلى ذلك، يجب التأكيد، داخل أمريكا اللاتينية الحالية، على وجود عالم آخر غير لاتيني بصورة جذرية: هو الإفريقي. وطبقاً للنظرية المسماة «من القارات إلى الانجراف» فإن أمريكا كانت تشكل، في عصر جيولوجي سحيق، وحدة «عضوية مع إفريقيا، وبانفصالها إثر ذلك بفعل القوى الجوفية في كوكبنا، اكتسبت ذاتيتها كقارة. وفي تلك المغامرة الرائعة، انتزعت القارة الأمريكية نباتات وحيوانات إفريقية فقط، دون بشرها.

كذلك قدم الإفريقيون بعد ذلك إلى أمريكا. بعد ذلك بزمن لا يحصى، أي في العصور التاريخية. ففي الكاريبي الأخضر الشفاف، في ذلك البحر الذي يكشف في دعة عن حميمته، وفي تلك الجزر التي ترصعه بإطار ثمين مزدوج من الطحلب والرمل، جرت خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الظاهرة الفظة لتجارة العبيد: استخدام البشر من لون معين كأدوات من جانب بشر من لون آخر.

تم «اصطياد» ونقل مائة مليون من إفريقيا، لم يصل سوى ثلث عددهم إلى وجهتهم الأمريكية. ورغم ذلك أدت هذه العملية إلى النتيجة المدهشة التي يمكننا الآن رؤيتها: فقد أضاف العبيد إلى سادتهم الكثير ناقلين إليهم كل ما استطاعوا الحفاظ عليه من ثقافتهم، ومعلمين إياهم الكثير من الأمور: من الغناء والرقص حتى النضال من أجل حريتهم.

وفي الوقت نفسه فإن ما هو إفريقي في أمريكا اللاتينية يصبح هو السمة

المشتركة التي تربطها مع أمريكا الأنجلوسكسونية : إذ أن ذلك الجنس وثقافته هما اللذان يتوليان اللحمة بين جزئي شبه القارة اللذين يشكلان الأمريكتين . فجزر الكاريبي وأمريكا الوسطى تمثل انتقالاً بين أمريكا الجنوبية، اللاتينية بصورة نموذجية، وأمريكا الشمالية، الأنجلوسكسونية بصورة نموذجية . في هذه المنطقة لا يصبح دقيقاً حتى ذلك التحديد المتبادل والأساسي بين تلكما الثقافتين المستعمرتين، إذ أن كليهما قد تعايشتا ومازالتا تتعايشان فيها .

وأمريكا الإفريقية هذه محسوسة بقوة، لا في هذه المنطقة الوسيطة فحسب، بل كذلك في حدودها مع المنطقتين الأخرين، أي، شمالي أمريكا الجنوبية، وجنوبي أمريكا الشمالية . بحيث تمثل هذه البنية، (الوضعية الوسطى) في الآن . ذاته حاجزاً وطريقاً معاً كما تمثل في كل الحالات إثراء للنسق الكلاسيكي الذي نشأ منه مفهوم أمريكا اللاتينية نفسه : فالأمريكتان المتباعدتان تتقاربان في ثقافة ثالثة لدرجة أن تشكلاً، سوياً، أفرو أمريكا واحدة، هي صلة الوصل التي تتجه إلى توحيد الأمريكات الجغرافية الثلاث ثقافياً .

جنوبي أحد الأنهار

في إطار هذا التشابك من التوترات في أمريكا اللاتينية، تكاد احتمالات الأفعال وردود الأفعال أن تكون لانهائية، ويتوازي معها الاغراء الفكري بإخضاع مشكلاتها إلى مشكلات أخرى مقاربة أو مشابهة . فكاتب المقالات الأرجنتيني الكبير مارتينث استرادا، على سبيل المثال، يميل إلى المماثلة بين المشكلات الأمريكية اللاتينية والمشكلات الإفريقية، ويؤكد على «عوامل الحياة القومية التي تنتمي إلى غمط من التاريخ لاتناسبه القوالب التي تبنيها من قبل عن النموذج، بل تناسبه قوالب البلدان الإفريقية، حيث تقدم العبودية والإخضاع للمراقب المدقق، تماثلات عامة وغمطية، وأشكال حياة مشتركة بين الشعوب التي تمارس سيادتها ظاهرياً» (٥) .

(٥) Ezequiel Martínez Estrada, Prologo inútil a su Antología, México, 1964,

Fondo de Cultura Económica.

هكذا تعود فكرة الإقليم فتصبح أكثر إشكالية كلما حاولنا المزيد من النفاذ .
ويشير عالم الاجتماع جينو جرمانى إلى مفهومين متقابلين ، «على طرفي نقيض فيما بينهما ، لكنها يتطابقان في الإقرار بوجود حقيقي لأمريكا اللاتينية» . الأول «يشدد على الطابع اللاتيني ، أو الإغريقي الرومانى ، المسيحى ، الأسبانى أو الأيبيرى لشبه القارة الأمريكى» . بينما فى الثانى «تعد أمريكا اللاتينية وحدة ليس فقط بالتعبيرات الثقافية والاجتماعية ، بل كذلك - وقبل كل شىء - بالتعبيرات السياسية . . . والعامل الموحد ينبعث من موضوع خارجى ، معاد ومهدد» . وإذا كان العامل المحورى فى الفرضية الأولى يبدو ثقافياً وفى الثانية سياسياً ، فيجب أن نلاحظ أن كليهما يتحددان بعامل آخر جغرافى : ففي الأولى يجرى الحديث عن «شبه القارة الأمريكية» ، وفى الثانية عن «موضوع خارجى» (٦) .

هذه التحديدات للأسس تكاد تكون حتمية فى كل تحديد للمفاهيم حول أمريكا اللاتينية . كذلك لا يفيد معيار عرقى صرف ، يضع اللاتينى مقابل الأنجلو - سكسونى . ليس ذلك فقط بسبب وجود الهنود والأفريقيين والمهاجرين التالين المتنوعين بل كذلك بسبب المزيج الذى لا يمكن فصله لكل تلك الأجناس والذى يتضح بصورة نموذجية فى العديد من جزر الأنتيل ، حيث تختلط تحت التسمية الشديدة الاتساع للاتينية ، الدماء الهندية الأصلية ، والأسبانية ، والأفريقية (والحالة المتفجرة هي هايتى ، البلد ذو الأغلبية السوداء الذى يجرى الحديث فيه بالفرنسية) . وكذلك بسبب التغلغل العرقى والاجتماعى الذى لاشك فيه للاتين فى المنطقة الجنوبية من الولايات المتحدة ، وفى هذه الحالة تغزو أمريكا اللاتينية من الجنوب أمريكا الأنجلو سكسونية ، بفضل الخاصية الشعرية السكانية التى تصعد من خلال بويرتوريكو ، والمكسيك ، وكوبا ، ويبدو أنها تعوض ، على أساس الخصوبة ، الأراضي اللاتينية التى فقدت خلال فترة تكون القوميات .

كذلك لا يمكن قبول مفهوم لغوي محض يحدد أمريكا اللاتينية على أنها تلك

Gino Germani América Latina existe y si no habría que inventarla, en revista, (٦)

Mundo Nuevo, núm. 36, paris, 1969.

التي تتكون من بلاد تتكلم الاسبانية أو البرتغالية . ويذكر خوسيه لويس مارتينث أنه «من بين الـ ٤, ٢٥٤ مليوناً من السكان الذين يشكلون تعداد أمريكا اللاتينية (عام ١٩٦٨) (*) يتحدث بالاسبانية ٢, ١٦٤ مليوناً، أي ٥, ٦٤٪، ويتحدث ٦, ٨٥ مليوناً البرتغالية في البرازيل، أي بنسبة ٤, ٣٣٪، ويتحدث الباقي بالانجليزية والفرنسية» (٧) والنسبة الباقية ١, ٢٪، تتحدث الفرنسية أو الانجليزية أو حتى الهولندية (كوراساو، وسورينام). ولا يتعارض هذا التعدد للغات الغربية في حد ذاته مع كل تبسيط، بل لا يتعارض كذلك مع بقاء اللغات مما قبل كولبس (وهناك بلد ثنائي اللغة : هو الباراجواي). (**) ولأسباب مماثلة، يجب كذلك رفض مفهوم ديني يعارض كاثوليكية أمريكا اللاتينية بروتستانتية المستعمرات الأنجلو سكسونية (فربع الولايات المتحدة تقريباً كاثوليكي).

ورغم هذا التعقيد في المفاهيم، فإن العالم المعاصر يعيد بدهشة اكتشاف هذا المجموع الذي يصر على تسمية نفسه أمريكا اللاتينية، وهي الكيان الذي لم يتحدد بعد، لكنه يمثل عند النظرة البسيطة اتساق ما هو واقعي . ولو تعمقنا في البحث عن جذور هذه الوحدة العنيدة، فإن تاريخها سيقدم لنا هذه الملاحظة الأولى وهي التبعية المتتالية للمجموع بالنسبة لقوة خارجية . للملكيات الأيبيرية أولاً، ثم للانجليز، حين تسقط هذه، وبعدها يقيم الأمريكيون الشماليون على حساب أمريكا اللاتينية إمبراطورياتهم الوارثة، لا على المستوى السياسي، بل في المجال الاقتصادي .

ربما كانت ملاحظة التبعية هذه أول ما يوضع في الاعتبار عند تحديد المفهوم المراوغ لأمريكا اللاتينية . والملاحظة الثانية هي انغماسها في أقوى استقطاب تاريخي راهن : وهو الهوة التي تنفتح بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة، وهذا

(*) يبلغ عدد سكان أمريكا اللاتينية اليوم حوالي ٣٥٠ مليون نسمة ثلثهم في البرازيل . [المترجم]
(٧) الفصل المذكور.

(**) يتحدث سكان الباراغواي الاسبانية في الحياة العامة ولغة الغواراني الهندية في البيوت .
ولهذه اللغة أدب مكتوب . المراجع .

تقابل أوسع من سابقه ، لكنه لا يتناقض معه ، وهو يتضح في مجموع الأمريكتين ، فالغنية هي الأنجلو سكسونية ، والفقيرة هي اللاتينية . ويكمل ويؤكد هذين المعيارين معيار ثالث أكثر أولية : هو المعيار الجغرافي ، الذي يركز عليه ، صراحةً أو ضمناً ، كل ما ضاهيناه حتى الآن .

وتكون أمريكا اللاتينية هي كل تلك الأراضي الأمريكية التي تقع جنوبي نهر الريبو جراندي أو الريبو برافو (الذي يرسم حدود الولايات المتحدة مع المكسيك) . ويكون شيوع هذا التعبير (جنوبي الريبو جراندي أو الريبو برافو) هو برهان صحته : فجنوبي هذا النهر ثمة تجانس معين ثقافي ، وسياسي ، واجتماعي ، ولغوي ، وديني .

من الدهشة إلى الفن

جرت الإشارة مراراً إلى الحوافز الثلاثة التي دفعت الإسبان إلى استعمار أمريكا : وهي النزعة الحربية المكتسبة لدى استرداد أراضيهم من أيدي العرب ، والصوفية التبشيرية الكاثوليكية ، والنهم (للذهب ، والعبيد ، والنساء) . من بين هذه الدوافع ، يبرز كل مؤرخ ، وكل كاتب ، أكثر ما يؤثر منها على حساسيته ، لكن لاشك في أن مجموع العوامل الثلاثة المذكورة هو الذي يحدد تلك العملية التي كان لها أن تكمل العالم ، عملياً ، بنصفه المفتقد .

كان كريستوفر كولومبس صوفياً ، على نحو ما ، لكن ذلك لم يمنعه من تبني استراتيجية كاملة لإغراء الملكين الكاثوليكين* بذهب القارة الجديدة . وقد كتب «الذهب شيء نفيس ، من الذهب يكون الكثر ، وبه يصنع من يملكه ما يشاء في الدنيا ويبلغ حد إدخال الأرواح إلى الفردوس» (٨) من الذهب إلى الفردوس :

* هما الملكان إيسابل الكاثوليكية وفرناندو الكاثوليكي ، أبطال القضاء على الحكم العربي في

إسبانيا - وكانا ملكين على قشتالة وأراغون وتزوجا فتوحدت المملكتان في واحدة . [المراجع]

(٨) أورده F. A. Kirpatrick في كتابه الفاتحون الاسبان Los conquistadores espanoles

الذي نشر في بونوس آيرس عام ١٩٤٠ ، عن دار Espasa - Calpe Argentina .

عنوان يصلح سيرة حياة لكولومبس . ويرث لوبه دي فيجا باعتباره اسبانياً طيباً هذا الاغراء في عمله الضبابي (دوروتيا) ، ويحلم أن دون بيللا ، غريمه الهندي على وجه التحديد ، يصل من جزر الهند بحراً حتى مدريد! ويمضي ملقياً في مروره قضباناً من الفضة ، وسبائك من الذهب ، ويشرح له معلمه أن «الذهب مثل النساء ، الجميع يتحدثون عنهن بالسوء ، والجميع يشتهونهن» . وعلاوة على السيمياء ، وعلاوة على المعجزات الفلسفية التي كانت تعالج المعادن باعتبارها بداية ونهاية كل الأشياء ، فرجما كان فيض الذهب من أمريكا إلى إسبانيا هو الذي حفز على تمييز المائة وثمانين عاماً من الهيمنة التي مارستها إسبانيا على كل المستويات خلال القرن السادس عشر وخلال جزء من القرن السابع عشر ، باعتبارها «القرن الذهبي» .

نود الآن أن نضيف عاملاً رابعاً هو نتيجة لتلك العوامل الثلاثة : وهو الإحساس الأول الذي غمر قلوب المكتشفين والغزاة ، أو بالأحرى الدهشة . إحساس كولومبس أمام أمريكا الجميلة الذي كان على الدوام مصحوباً بالهذيان : فحين يقترب من مصب نهر الأورينوكو Orinoco يعتقد أنه اكتشف أحد الأنهار التي تنبع من الفردوس ؛ ورغم ذلك ، يمنعه مرض غامض يعميه مؤقتاً من أن يطأ القارة التي كان يدخلها في التاريخ . ولم يستطع بلوغ المكسيك أبداً ، فقد وقع في أحبولة نسيج العنكبوت الهائل لجزر الأنتيل Antillas ، لكنه تنبأ بكل وضوح بوجود بحر آخر إلى الجانب الآخر من أمريكا الوسطى . ويضيف أنه على مسيرة عشرة أيام في ذلك البحر - الباسيفيكي - «يقع نهر «الغانج» . ربما كان كولومبس ، في آن واحد ، ألمع شخصيات التاريخ وأكثرها جنوناً .

وتستمر هذه الدهشة في كل واحد من الاسبان الذين تلوه . فالهنود الذين يدخلون ، على سبيل المثال ، يوصفون من قبل الغزاة على أنهم «رجال ونساء يتمشون وهم يصعدون الدخان من عود مشتعل» (٩) أما غزو المكسيك فيشرق

(٩) المرجع السابق .

بجو رواية من روايات الفروسية . فالغازي والمؤرخ دياث دل كاستيو يقول أن مدينة تينوتشتيلان Tenochitlan - بالمكسيك - «تشبه الأشياء البهيجة التي ترد في كتاب آماديس» . وكورتيس نفسه يكتشف إلى الشمال الشواطئ التي يسميها كاليفورنيا، وهو اسم مستمد من إحدى روايات الفروسية . لم يكن ثمة من يصدق ما يحدث له : لم يكن ثمة من يملك مصيره . فماجلان والكانو يقومان بالدوران حول العالم ضد رغبتهما : كان المشروع هو العودة إلى المكسيك ، لكن الرياح أجبرتهما على الدوران ، في طريق العودة ، حول رأس الرجاء الصالح .

والهنود ، بدورهم ، لم يستطيعوا فهم ذلك الحيوان الخرافي المكوّن من رجل وحصان ، كانوا يذهلون حين يترجل أحد الغزاة عن جواده : كائن ينقسم إلى اثنين ! وكان هنود الإنكا يعتقدون أن الخيول تأكل المعدن (اللجام في فمها) ، وحين يطلب منهم الإسبان علماً لحيواناتهم ، يقدمون ذهباً ! وتستمر دهشة من انقضوا بصورة معاصرة ، على مستوى مثقف ، إذ يتساءل خورخي لويس بورخس :

Jorge Luis Borges :

أكان عبر هذا النهر من النعاس والطمى أن أتت السفائن لتصوغ لي
وطناً؟ (١٠)

حسناً : هذه الدهشة المتبادلة هي البيضة التي ستخرج منها الثقافة الأمريكية - اللاتينية كل فنائها الابداعي . فالفن ، بوجه عام ، ليس سوى التعبير عن الدهشة ، الدهشة التي يولدها الدافع إلى مشاركة الفنان للآخرين فيما رأى أنه خارج عن المألوف . وفي حالة أمريكا ، فإن هذا هو الدافع الذي صنع من الغزاة أنفسهم كتاباً غير منتظرين وحتى من الجنود المتواضعين الذين يكادون أن يكونوا أميين : إذ يحكون ، بصورة بسيطة لكنها عجيبة ، الحقيقة المدهشة التي رأوها أو تخيلوا أنهم رأوها .

كانت الحضارات العظيمة السابقة على كولومبس غنية في العمارة ، والنحت ،

(١٠) Jorge Luis Borges, Obra Poetica : 1923 - 1964, Buenos Aires, 1964, MC.

والموسيقا (وقد وصلت هذه الأخيرة سليمة تقريباً إلى أيامنا) . أما الثقافة الأوروبية فقد جلبت بصورة أساسية اللغة ، والدين ، والتقنيات التي لم تكن معروفة هناك . لكن بقدر ما كان التاريخ يجري كان التراث الثقافي لأمريكا اللاتينية يأخذ في الاستقطاب وفي تقديم نفسه كخيار عقيم يكرر وضع الغازي والمهزوم : كائن أوروبي ، وكائن أمريكي . أو بعبارة أخرى :

(أ) ثمة من ناحية البقايا الثقافية للحضارات العظيمة السابقة على الاكتشاف والغزو ، مثل تلك التي تقع في الجمهوريتين الحاليتين للمكسيك والبيرو .

(ب) وثمة من ناحية أخرى ، الثقافة الأوروبية التي نقلها المكتشف والغازي باعتبارها نتاجاً آخر للتوسع الغربي الذي كانا يمثلانه ، أو باعتبارها نشاطاً نوعياً أوروبياً ، رغم أنها تنجز من جانب المستعمرين في الإقليم الجديد الذي انضم إلى ممالكهم .

هذه الثنائية ستقيم تعارضاً سوف يزيغ خلال زمن طويل العلاقات بين الثقافة الأمريكية اللاتينية والثقافة الأوروبية ، بحيث يقدم البقايا من تلك الحضارات التي لا تكون قد تأثرت بفعل الغزو والاستعمار باعتبارها الشيء الوحيد الأصيل والحقيقي لأمريكا اللاتينية . ومن ثم ، تم في إطار هذا المفهوم ، رفض الثقافة الأوروبية باعتبارها ظاهرة استعمارية ومحاكاة محضة .

وبالفعل ، فإن السكان البدائيين لأمريكا - أي ، الأمريكيين الحقيقيين - حين هزيمتهم عسكرياً ، أبعادوا عن إمبراطورياتهم وممتلكاتهم ، ليتلقوا مقابل ذلك الفوائد القابلة للجدل من وجهة نظرهم الخاصة ، للثقافة الغربية التي تتوسع . لكنهم رغم إبعادهم إلى حدود الامبراطوريات وتحويلهم إلى عمال خارجيين ، لم يبلغ الأمر مبلغ محوهم دون أن يتركوا أثراً . فقد ظلوا موجودين دائماً ، ومازالوا ، ليس بوصفهم تأثيراً ، بل بوصفهم مكوناً حقيقياً في هذا العالم الغربي الحديث الذي يتشكل : لقد سبكوا فيه العديد من خصائص حضاراتهم المختلفة ، وهي

خصائص تعد اليوم من بين أبرز عوامل أصالة أمريكا اللاتينية .
من فعل الاكتشاف في حد ذاته ولدت ثقافة خلاسية ، ليس فقط بسبب
التلاحم الواسع للأجناس ، والذي دفع إليه غياب النساء من الحملات
الاسبانية ، بل كذلك بسبب التغلغل الذهني المتبادل الذي كان يتطلبه التعاطف
المتبادل . فقد كان على الإسبان أن يشرحوا للأمريكيين ماهي أوروبا ، وماذا تمثل
أمريكا للأوروبيين . وكان على الهنود أولاً ، ثم على المولدين من بعدهم أن يعدلوا
من وعيهم بذاتهم كأمركيين . وكان حل ذلك الخيار الزائف بين ماهو أمريكي
وماهو أوروبي يتلخص في أن يكونوا كالاشيئين ، في أن يكونوا مولدين ، حقاً أو
مجازاً : بمعنى الانسان الأوروبي الذي عدلته أمريكا والعكس . بالعكس على هذا
النحو ينتصر في الثقافة الأمريكية اللاتينية الأرقى مفهوم مركب عن ذاتها ، حيث
يتم الإقرار لا بإسهامات الثقافات الأصلية فقط ، بل بإسهامات الثقافات
الأوروبية المكتشفة ، كذلك وبالإسهام الأساسي الإفريقي الذي يصل إلى أمريكا
عبر العبيد ، وأخيراً بانتعاش الينايع العالمية التي تتضمنها حركات الهجرة في
القرن التاسع عشر .

«إن العالم الجديد» - كما يقول بول ريفيه - «كان ، من حقبة ما قبل التاريخ ،
مركز التقاء للأجناس والشعوب . . . ومن المثير للاهتمام حقاً ألا تكون الحقبة
التاريخية من التطور الأمريكي سوى مجرد تكرار للأحداث العرقية التي حددت
امتلاءه بالسكان . فمنذ اكتشافها ، ظلت أمريكا بؤرة جذب لأكثر الشعوب
والأجناس تنوعاً ، مثلما كانت خلال عملية سكنها الطويلة قبل كولومبس» (١١)
على هذا النحو ، يكون الأصل الآسيوي أو الأوقيانوسي المحتمل لكل الشعوب
الأمريكية ، والتكامل الجغرافي السحيق المحتمل لأمريكا مع إفريقيا ، بمثابة
معطيات تضم في إطار مجاها الواسع عالمية أمريكا : شئ من قبيل المقدمة لعالم
المستقبل ، حيث يصبح الإنسان واحداً من وراء الأجناس والثقافات .

Paul Rivet, Los Origenes del hombre americano, México, 1960, Fondo de (١١)

Cultura Económica.

دراسة اليونسكو:

حسناً، هذا العالم الإنساني تماماً هو على وجه الدقة ما نتجهد منظمة مثل منظمة اليونسكو في إثارته. وفي الحالة الخاصة لأمريكا اللاتينية، فإن التأثير الراهن لهذا الإقليم الثقافي الكبير على الثقافة العالمية أمر بدهي وكذلك عدم التحديد الملموس للعوامل التي تشكله على الشكل الذي هو عليه. ولم يكن باستطاعة اليونسكو سوى أن تسجل هذا التناقض، وتولييه اهتمامها، وأن تحاول التقاطه، من أجل تحديده وجعله معروفاً.

إن المقدمة الواردة فيما سبق توضح العملية التي أنتجت الدراسة العامة لإقليمنا، والتي تتسم، بناءً على توجيهات اجتماع ليما، بيئتين أساسيتين:

(أ) اعتبار أمريكا اللاتينية كلاً واحداً، تشكله التشكيلات السياسية القومية الراهنة. وقد دفع هذا المطلب المشاركين في المشروع إلى الإحساس بإقليمهم، والتعبير عنه بوصفه وحدة ثقافية، مما رجع فيهم عملية الوعي الذاتي الذي يود المشروع أن يقويها لأن المثقفين الأمريكيين اللاتينيين هم الوحيدون المدعوون إلى المشاركة فيه.

(ب) النظر إلى الإقليم بدءاً من معاصرتة، ورجوعاً إلى الماضي، بلى، بقدر ما يكون ذلك ضرورياً لفهم الحاضر. هذا التحوط دفع المشاركين إلى مواجهة مشكلات الحاضر الملتهبة بمقدار ما تحدث في الإقليم أو بمقدار يكون لها من نتائج فيه.

وإذا نشأ عن هذه المعايير مأخذ ما، فلن يكون هذا المأخذ سوى الوجه الآخر لمزاياه. إذ أن طابع التعرف على الذات الذي تفترضه الدراسة يحرمها من الرؤية التي قد تكون أكثر موضوعية، والتي كان يمكن أن يسهم بها النقد من خارج الإقليم. كذلك فإن اعتبار أمريكا اللاتينية كلاً واحداً يجبرنا على أن نطرح جانباً، أو على الأقل على أن نقلل من الاهتمام بالسّمات الشديدة المحلية. وقد يدفعنا تفضيل التركيز على ما هو معاصر إلى نسيان قيم أخرى تحققت في الإقليم على طول تاريخه.

في إطار هذه المحددات نصل إلى تقديم الكتاب الحالي ، وهو الأول في سلسلة أمريكا اللاتينية في ثقافتها . وهنا تجب الإشارة إلى التوفيق الذي يتمثل في تبني العنوان المذكور، والذي ستتكرر صيغته في كل أعمال السلسلة، بدءاً من العمل الحالي أمريكا اللاتينية في أدبها . ومن المؤكد أن أبلغ ما في هذا الصيغة من دلالة لا يكمن في الكلمات التي تكونها، بل في حرف الجر «في» . إذ يعني بوضوح أن موضوع هذه الدراسة الذاتية ليس هو الثقافة في ذاتها، الأساليب، وتطورها، أو قائمة الأعمال المتحققة، بل إنه على وجه الدقة، أمريكا اللاتينية ذاتها في أو من خلال تلك المظاهر الثقافية .

وقد حدد اجتماع ليما موضوع الأدب، لينال الأولوية في دراسة ثقافة أمريكا اللاتينية، معتبراً أن الأدب ليس سوى صورة مكثفة من اللغة، التي هي بدورها أكثر وسائل التواصل مباشرة وعمقاً لدى الإنسان . هذا الاتجاه موفق تماماً : فليس أمام كتاب هذا الاقليم، ولنقلها على هذا النحو، إلا أن يعبروا عن العالم المفروض عليهم والذي يحوطهم، باتساع وصخب، عالم من التناقضات والتمزقات، من التأمل والفعل المدمرين .

هذا الحدث قد لا يعدو أن يكون مظهراً لحدث آخر أعم، وصفها الانثروبولوجي البرازيلي دارسي ريبيرو: إذ يحدث في عصرنا، كما حدث في كل لحظات التحولات التاريخية العظيمة (في عصر النهضة، أو في عمليات الانعتاق في القرن التاسع عشر)، أن «تعبّر موجة جديدة من الإبداعية المحرومة» (١٢) . على هذا النحو، فإن اللغة المتعددة الجوانب لأمريكا اللاتينية تصبح أدباً يزداد نقدية، وقوة، وشمولية .

ورغم ذلك، فإن الكاتب الأرجنتيني إنريكي أندرسون إمبرت قد أصدر، سنة ١٩٥٧ ، الحكم التالي على النقد الأدبي للإقليم قال : «إن ما ينتشر بالطبع هو

(١٢) Darcy Ribeiro : Las Americas y la civilizacion, t. 1 la civilizacion occidental y nosotros. los pueblos testimonio., Buenos Aires, 1969 , Cenro Editor de Americalahna.

إنعدام المسؤولية . فعلى وجه العموم تطلق آراء لا تستند إلى مفهوم للعالم ولا إلى إطار من القيم . وفي أفضل الأحوال ، يمكن أن نستخلص من تلك الاختيارات العابثة مبادئ موقف أدبي شديد السطحية : مترمت ، وإنطباعي يعتمد مذهب اللذة» (١٣) .

هذا الوصف يمكن اعتباره تكثيفاً لفكر كامل متشائم بشأن النقد الأمريكي اللاتيني ، يجد جذوره في اليأس العام بصدد وضع ثقافي يفترض فيه أنه تابع لغيره . لكن الزمن قد تجاوز الكثير من العقول في الأقليم ، وجيرمو سوكري هو من يؤكد الآن أن «رؤية الأدب باعتباره عالماً من مستقلاً ، له قوانينه وهياكله الخاصة ، ورؤية العمل باعتباره رمزاً وتجسيداً خيالياً لما هو واقعي ، هما اللذان أضفيا نغمة جديدة على النقد الأمريكي اللاتيني» (١٤) .

والدليل على ذلك هو أن حل هذه المشكلة الأولية قد وجد في نفس المكان الذي طرحت فيه : فقد تشكلت النواة الأولى للنقاد الممتازين الذين يشاركون الآن في هذا العمل ، بالتحديد ، في الاجتماع التمهيدي بليما ، عام ١٩٦٧ ، برئاسة الكاتب البيرواني الذي لا ينسى خوسيه ماريأ أرجيداس . كما شارك في هذا الاجتماع علاوة على ذلك الخبراء التالية اسمائهم : انريكي آنديرسون إمبرت Imbert ، وجوستابو بيهوت Beyhaut ، سيرجيو بواركي دي هولندا Bvarque delo Landa ، وادواردو كاباييرو كالديرون Caballero Calderon ، وجورج روبرت كولتارد Colthard ، وأرخيليرس ليون ، وجيرمو لومان بيتا ، Leman Villena ولاوزو لويث كامبو Lopez Campo ، وألفونسو أرينوس دي ميلو - فرانكو ، وماريو مونتفورت توليدو de Manteforte ، وأنخل راما ، وفريدا شولتس دي مانتوفاني Mantovani ، وليوبولدو ثيا Zeal . وكان ممثل المدير العام لليونسكو في الاجتماع هو الكاتب الفرنسي الكبير روجيه كايوا Caillois ، الذي

(١٣) أورده جيرمو سوكري ، Guillermo sucre الفصل الثاني من الباب الثالث من الكتاب الحالي .

(١٤) المرجع السابق .

يرعى الثقافة الأمريكية اللاتينية دائماً سواء بصورة شخصية ، أو من خلال عمله في اليونسكو، يلهمه في ذلك دوماً حماسة عميقة تجاه أمريكا اللاتينية ، حيث قضى شطراً من حياته .

وفي عام ١٩٦٨ ، تشكلت اللجنة الأدبية التي اجتمعت في ساخوسيه بكوستاريكا في أغسطس من العام نفسه (١٥) والتي شارك فيها النقاد الذين سيتعرف القارئ المهتم على الكثيرين منهم باعتبارهم من أهم نقاد أمريكا اللاتينية وهم : خورخي انريكي أدوم Adoum من اكوادور، وفرناندو اليجريا من تشيلي، وسيرجيو بواركي دي هولندا من البرازيل، وجورج روبرت كولتارد (إنجليزي مقيم في جامايكا)، والأرجنتينيان نوح خيتريك Jitrk ولويس اميليو سوتو، والمكسيكي خوسيه لويس مارتينث، وخوليو أورتيجا وأوجستو تامايو Tamayo فارجاس من البيرو، والكوبي خوسيه أنطونيو بورتوونديو Portuondo، وأنخل راما وإير رودريجث مونيغال Monegal من الأوروغواي .

وبدءاً من اجتماع النقاد هذا، تحددت ، بدورها قائمة الكتاب الحاليين ، التي جرى الحرص فيها ، علاوة على معيار نوعي ثابت ، على احترام التوزيع الإقليمي الذي اقترحه اجتماع ليما . هكذا نجد أن مؤلفي العمل الحالي يمثلون إثنتي عشرة جنسية من جنسيات أمريكا اللاتينية : وعلى هذا النحو، صار المؤلفون موزعين

(١٥) في اجتماع ليما، كان لي، مع الفريدوبيكاسودي أوياجوي Oyague شرف الاشتراك مع روجيه كايوا، وفي اجتماع سان خوسيه توليت مسؤولية تمثيل المدير العام لليونسكو. أما بالنسبة لمهامي في «التحرير» فإنها لم تكن ممكنة بدون التأييد المتصل للسلطات المختصة في القسم المنوط في اليونسكو، وعلى وجه الخصوص : ن. بامات، مدير قسم دراسة الثقافات . كذلك أعتمدت على التعاون الثمين لمنسق العمل خوليو أورتيجا والمراجع هكتور ل. أرينا، وعلى التعاون الصبور لمؤلفي كل فصل من العمل . وعلى طول هذا العمل ، يجب أن التمس العذر لبعض الاشارات إلى عملي الأدبي الشخصي ، التي لم يجد المؤلفون المشاركون من المناسب إغفالها، ولا وجدت سلطات اليونسكو أن من المناسب حذفها .

بصورة متوازنة بحيث يقدمون وجهات نظر ومفاهيم كل واحدة من مناطقهم، رغم أنها مطبقة دائماً على مجموع أمريكا اللاتينية.

أما شمولية الرؤية الإقليمية فيتم الحصول عليها، في المقام الأخير، بالتعويض: إذ مع التسليم بأنه من غير الممكن اشتراط وجودها مسبقاً في كل كاتب اخترناه، فإن التحديد الذي حدده اجتماع ليما يعمل بمثابة مجموعة تعويضية، فالرؤية المنهجية الكلية لكل كاتب تتوجه فعلياً باتجاه إقليمه الفرعي كما تتوجه رؤى الآخرين نحو أقاليمهم الفرعية. وهكذا يمكن أن تكون النتيجة النهائية لهذه العملية العشوائية، كما نتمنى، هي تلك الرؤية الشاملة التي يفقد هذا الكتاب بدونها جزءاً من معناه.

وقد تم الوصول كذلك إلى نوع من وحدة الأجيال، دون أن نسعى إلى ذلك، كنتيجة بسيطة للتوزيعات المشروحة أعلاه. وتسود مجموعتان بين الكتاب: الأولى ولدت حوالي عام ١٩٢٠ والثانية حوالي عام ١٩٣٠ على التوالي. وممثلو هاتين المجموعتين يشكلون ماسمى في بعض دول الإقليم، بدرجة من الصدق لكن دون كثير من الدقة، جيل ١٩٤٠ وجيل ١٩٥٠. وكأمثلة على المجموعة الأولى: الجيريا، وكانديدو، ومارتينث، الذين ولدوا عام ١٩١٨، وبنيدتي عام ١٩٢٠، رودريجت مونيغال عام ١٩٢١، وعلى المجموعة الثانية: خيريك وبريتو المولدان عام ١٩٢٨، وباريرو ساجير وفرناندث ريتامار عام ١٩٣٠، ودي كامبو عام ١٩٣١، وسوكري عام ١٩٣٣. وتستند هاتان المجموعتان الأساسيتان على بعض الأساتذة الأكبر سناً وتتجهان نحو المستقبل من خلال بعض الكتاب الأكثر شباباً.

والأبواب والفصول التي اقترح الخبراء تقسيم العمل إليها - مع التعديلات والإضافات التي اقترحتها الأمانة - هي التالية، بصورة نهائية:

١ - أدب في العالم. وتوضح فصوله الستة انطلاقة الأدب الأمريكي اللاتيني أو بلوغه «سن الرشد» في الساحة العالمية: يجري تحليل التقاء الثقافات في الإقليم،

وتعددته اللغوية ، وتأثيره في الآداب الأخرى .

٢ - انقطاع التقاليد . يجري فيه تحديد النقاط التي يبدأ منها الأدب الأمريكي اللاتيني في تجديد نفسه من خلال إعادة صياغة المواقف التقليدية ، أو ابتكار مواقف جديدة : تجديد الباروك ، وأزمة الواقعية وأشكالها الجديدة .

٣ - الأدب بوصفه تجريباً . تشير فصول هذا الباب الثالث ، باستخدام معيار أكثر تخصيصاً من الباب الثاني ، الى الجوانب التي ينطلق الأدب الأمريكي اللاتيني للتجريب فيها ، طارحاً للتساؤل الأبنية الراهنة ، ومن بينها بنية الأدب ذاته .

٤ - لغة الأدب . يدرس توسيع مفهوم اللغة الأدبية ، ودخول لغات جديدة في الأدب ، ولغة الأدب في غيرها ، وأخيراً ، التواصل المتبادل الأكبر الذي تتمتع به مناطق معينة من أمريكا اللاتينية كنتيجة لهذا العمل الأدبي .

٥ - الأدب والمجتمع . توضح هنا العلاقات الأساسية للأدب مع الوسط المحيط : الأدب والمجتمع ، ووضع الكاتب .

٦ - الوظيفة الاجتماعية للأدب . يوضح هذا الباب الأخير بتفصيل أكثر مفاهيم الأدب والمجتمع التي طرحها الباب السابق : تأثير الأدب ، وصراعات الأجيال . ويعرض فصل آخر الصورة العامة التي يمكن استخلاصها لأمريكا اللاتينية من خلال أدها .

وتشكل هذه الخطوة ، في مجموعها ، محاولة لفهم ، قد يمكن تسميته وجودياً ، لأمريكا اللاتينية من خلال تعبيرها الأدبي . ويجري فحص هذا التعبير في كل مراحله :

(أ) الكاتب ، وضعه في المجتمع ، والأنشطة خارج - الأدبية وفوق - الأدبية التي يجب أن يكرس نفسه لها بحكم المهنة ، وبحكم ضرورة الحصول على القوت .

(ب) الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه هذا الكاتب ، ومن أين يستمد مواد صياغته الأدبية .

(ج) العمل الأدبي في ذاته ، بمعيار جمالي ، وفيلولوجي ، وبنوي .

(د) أثار هذا العمل في الجمهور الذي يتوجه إليه الأشخاص خاصة والمجتمع عامة ، مع تحليل كل المضامين الاجتماعية - الاقتصادية - السياسية لهذا الجزء الأخير من العملية .

وقد جرى إفساح المجال وبصورة موازية لكل المناهج النقدية : تلك التي تركز اهتمامها على الكاتب ووسيلته للتعبير ، أو على العمل نفسه ، أو على الجمهور . لكن بدا لنا أن المقالة بصورة أساسية بما تحمل من جانب شعري - أي ، حدسي ، وتخميني - هي الطريق الأفضل لمواجهة هذا الواقع اللدن ، المنساب ، الذي تمثله اليوم أمريكا اللاتينية . فلا ينتظرن القارئ ، من ثم ، ضبطاً علمياً ، أو دقة سوسيولوجية أو جمالية ، أن ترتباً تاريخياً ، بل قفزاً عصبياً للفكر فوق واقع يتغير بدوره دون إنذار مثل مهر لم يروض .

وبناءً على فهم حديث للنقد الأدبي يقضي بأن يحاول العمل نفسه لا أن يشرح بل أن يضرب المثل ، فقد سعينا بالإضافة إلى ذلك إلى أن يجمع المؤلفون المختارون الملكة الإبداعية إلى معارفهم النقدية . ومن هذا السبيل ، ربما تكون منظمة اليونسكو قد حققت عملاً للنقد الأدبي يكون ، في نفس الوقت ، عملاً أدبياً .

ختم وبدء

أمام هذا المجلد الأول من سلسلة أمريكا اللاتينية في ثقافتها يكون من المناسب أن نعيد طرح طموحنا الأشمل : فالمعرفة المكتسبة عن الأدب يجب أن تفيدنا في إعادة طرح مشكلتنا الأولية بدورها : وهي ، ماهي أمريكا اللاتينية؟ ربما وجب علينا أن تكون قد عرفنا ذلك الآن ، لأن هذا التعبير يمثل عنوان المشروع . إلا أننا مازلنا لانعرفه . أن لدينا مفاهيم متنوعة : قانونية ، وثقافية ، وسياسية ، وتاريخية . لكن النجوم لم ترسم بعد ، ولم يتحدد بوضوح بعد المفهوم العام الذي يضم كل الجزئيات .

إن وحدة أمريكا اللاتينية تبدو غير قابلة للشك بدءاً من مجمل تاريخها، لكنها غابت عن الأنظار خلال عملية تكون القوميات التي جرت في القرن التاسع عشر، وذلك بفعل الظروف السياسية، والاقتصادية، والثقافية التي سادت تلك العملية. هذا كله نذكره ليس بمعنى متزمت، بل بمعنى نقدي على وجه الدقة. بمعنى أننا نعتبر وحدة أمريكا اللاتينية تلك واضحة من البداية: بل إننا نتناول بالأحرى، فرضية عمل نبدأ منها وسوف نثبتها، أولاً، على امتداد العمل.

لهذا طلبنا من كل المشاركين في المشروع أن يحاولوا توجيه أعمالهم انطلاقاً من مفهوم الوحدة ذاك. ومن الواضح أن تلبية مثل هذا المطلب قد طرح صعوبات جدية، مع اعتبار الافتقار التقليدي للتواصل الذي استمر بين بلدان أمريكا اللاتينية، وبالأخص فيما يتعلق بإقليميهما اللغويين: إذ توجد في أمريكا اللاتينية منطقة هائلة، تكاد تكون قارة قائمة بذاتها، تتحدث البرتغالية، ليس لديها على الدوام رؤية كاملة لما يجري في المنطقة التي تتحدث الإسبانية، وبالعكس.

أما عدد الخبراء الذين كان عليهم أن يعملوا في مختلف مراحل المشروع فيبلغ نحو المائتين، من بين أهم مثقفي أمريكا اللاتينية وأعتقد أن مجرد أن نطلب من هؤلاء المثقفين، كنقطة بداية، مفهوماً لأمريكا، يفكرون فيه، وفي نفس الوقت، في المنطقة التي تتحدث البرتغالية وفي تلك التي تتحدث الإسبانية، يمثل في حد ذاته ميزة ضخمة للثقافة الإبداعية لأمريكا اللاتينية. إنها ستفيد، إن لم يكن في الوصول إلى التأكيد القسري لتلك الوحدة المفترضة، ففي الوصول إلى أوضح إدراك للدرجة التي يمكن أن توجد بها أو يمكن إثبات وجودها عندها.

إننا ننطلق من هذا التحديد للأسس من أجل تجاوزه: فإن ما يحاول المشروع فهمه هو مفهوم أمريكا اللاتينية ذاته عبر مظاهرها الثقافية، القائمة على أساس وحدتها التاريخية أو الجغرافية. وبإمكاننا أن نقول، بشكل بسيط، إن الشخص يعرف من أفعاله. حسناً، إن الأمر يتعلق بمعرفة هذه التركيبة الثقافية الهائلة عن طريق أعمالها الثقافية على وجه الدقة، عن طريق إبداعاتها الأدبية، والتشكيلية،

والمعمارية، والموسيقية، وأن ندرك ماهو هذا الإقليم عبر العروض التي ينتجها،
وعبر الأفكار التي يبعثها.

إن المشاركين في المشروع يعملون على طريقة خبير الأشعة أو المحلل النفسي،
في قلب أشد مظاهر اللاوعي الأمريكي اللاتيني: ونقصد النتاجات الفنية
والأدبية. ويتتبعون فوق هذه النتاجات المحاور العقلية الواجبة: الاجتماعية،
والاقتصادية، والايديولوجية. على هذا النحو تأمل اليونسكو أن تحصل على الدقة
الفكرية لهذه الفكرة المسماة مؤقتاً باسم أمريكا اللاتينية. وفي اللحظة الراهنة،
فإن العالم كله وليس أمريكا اللاتينية فقط، «يصغر» بفعل التكنولوجيا، ويبدو من
الملح تحيذ هذا الاكتساب للوعي.

أما الآن، فليس لدينا إلا حدس واضح بهذا الإقليم الذي يطرح على العالم
نتاجاته الثقافية، ورجاله، وأساطيره وهدف هذا المشروع عموماً، وهذا الكتاب
على وجه الخصوص، لا يتعدى نقل هذا الحدس الحاضر إلى ذلك المفهوم
الغائب. أما المستفيدون من ذلك الإدراك فسوف يكونون، أولاً، المثقفين
الأمريكيين اللاتينيين المشاركين في المشروع أنفسهم، ثم، الجمهور الأوسع نطاقاً
الذي يمكن بلوغه. وسوف يساعد هذا العمل الجماعي الأمريكيين اللاتين على
اكتساب الوعي بالأصالة الحقيقية، والوحدة المحتملة للإقليم الذي يكونونه،
وهي غايات تحتل موضع المحور من هذا المشروع.

إن الأمر يتعلق بمشروع، مثل كل المشاريع التي تهم البشر، ينطلق من جهل
يملؤه الرجاء، ويتوجه نحو معرفة طال التوق إليها. ماهي أمريكا اللاتينية؟
الشيء الوحيد المؤكد الذي نعرفه عنها، في اللحظة الراهنة، هي أنها لنا.



الباب الأول : أدب من آداب العالم

الفصل الأول لقاء الثقافات

روبين بارreiro ساجيه*
Ruben Barreiro Saguier

الثقافة الأمريكية اللاتينية ثقافة خلاسية بالتعريف التاريخي، فهي محصلة التطعيم الأيبيري الأول - والإحلال المتزايد بعد ذلك - للجذع المتعدد الأشكال للثقافات الهندية- الأمريكية، مع الإضافة اللاحقة للعنصر الإفريقي ولرواسب الهجرات. ونظراً لتنوع المكونات فإن إحدى المشكلات الجوهرية بالنسبة لأمريكا اللاتينية كانت ومازالت هي العثور على هويتها الثقافية، وهو الوضع الذي يعكسه الأدب في سعيه لاكتساب لغة خاصة به، وتركيز مضمون في لغة مستعارة بدرجة معينة، وذلك داخل إطار سياسي غير موحد. هذا السعي يخدم، ويصبح الصراع واضحاً، في لحظات حرجية معينة من اكتساب الوعي: التحرر الرومانسي، والحداثة، والرواية الاجتماعية، وأدب وقتنا الحاضر.

كان الاستعمار قد طرح اختياراً من اثنين: استخدام لغة السكان الأصليين أم لغة الفاتحين؟ ولم يكد الاستقلال يتحقق حتى انبعثت مشكلة التعبير- مشكلة «اللغة القومية»- في كل أرجاء القارة، وما زالت قائمة في الإنتاج الأدبي حتى أيامنا هذه.

وفي الوقت نفسه وبالتوازي مع القلق على مستوى التعبير، يظهر ويتطور القلق

(*) كاتب باراغواي (ولد في فيينا دو غوارنبياتان ١٩٣٢) من كتبه الأساسية : نظرة شاملة للأدب البارغواي، ١٩٠٠ - ١٩٥٩، (في المجلد الثالث من بانوراما الأدب في الأمريكيتين- طبع لشبونه الجديدة ١٩٥٩)، سيرة غائب (مدريد وأسونسون ١٩٦٤) حلف الدم (بالفرنسية) (طبع باريس ١٩٧١). الباراغواي (باريس، بروكسل مونتريال ١٩٧٢) م كان استاذاً في جامعة اسونسون وهو يدرس حالياً في جامعة باريس الثامنة في فنسين .

بصدد الموضوع، بصدد المضمون: فأمريكا، بلا شك، هي الوسط الجغرافي للقارة الجديدة، لكنها، كذلك، «اختراع أمريكا» الذي قامت به الثقافة الغربية، وهو اختراع يتجدد بالاتصالات المباشرة مثل الهجرة، أو غير المباشرة مثل الإسهامات الثقافية. الاختيار من جديد. هل يكون الأدب أكثر أمركة عندما يشغل نفسه بالقارة مباشرة، أم أنه يمكن أن يكون كذلك بنفس القدر دون حاجة لذلك المرجع؟

كلا المسارين - اللغة والموضوع - يجب أن يخدموا باعتبارهما خطين موجهين في هذا العمل، لأن كلا العنصرين، لغة أدب ما ومضمونة، هما مجالان متميزان يتبدى فيهما بصورة أوضح الصراع الناتج عن اصطدام الثقافات.

١ - سؤالان تمهيديان :

وقبل أن أتناولهما بالبحث، سأتناول سؤالين تمهيديين، بوصفهما دليلين أقدمهما في صيغة مقولتين: (١) الغرض النهائي للثقافة الغربية في أمريكا. (٢) ظهور اللغة الأوروبية باعتبارها وسيطاً للتعبير الأدبي.

لقد أشرت إلى أمريكا اللاتينية بوصفها مكاناً متميزاً لالتقاء الأجناس والثقافات، إلا أن من الضروري تحديد خصوصية العملية، لأن التهجين والمثاقفة (أو اكتساب الثقافة المتبادل *aculturación*) في المقام الأول، ليسا ظاهرتين قاصرتين على هذا الجزء من العالم؛ وفي المقام الثاني لأن أقاليم القارة الأخرى التي لم تعرف تجربة التفاعل الثقافي في صورتها الجذرية - كالولايات المتحدة على سبيل المثال - قد وجدت أنها تواجه مشكلات في تطوير أداة تعبير خاصة لأدبها.

الافتراض الأول هو أن ما يفرض نفسه، في كلتا الحالتين، هو «الثقافة الغربية»، أي مجموع القيم والمعايير التي جلبها الفاتحون. حسناً، على أي نحو؟ إن إبادة مجموعات السكان الأصليين من جانب الانجليز، لاغين بذلك أحد الأطراف الموجودة، قد قضت على العملية الطويلة من المقاومة والتناحر التي

صبغت التاريخ الإيرو-أمريكي . وأدت تلك العملية إلى تركيبة تحددها سمة خاصة هي : التقاء ثقافات مختلفة جوهرياً، وهذا الالتقاء هو، بلا شك، أكبر ما سجّله العصر المسيحي ، وأكثره درامية . لأن حفنة من الأوروبيين، استطاعت بفضل التفوق التقني الذي كانت تمثله الأسلحة النارية، والعجلة، والخيول، أن تخضع مئات الآلاف من الأمريكيين، الذين كان كثير منهم منظمين في دول قوية . وفي الوقت نفسه، كانت الثقافة العقلانية لعصر النهضة هي التي دخلت في اتصال مع العالم السحري للهنود . وربما يفسر تعقيد هذه العلاقة الطابع المتناقض الذي جرت به التجربة التي تستهدف خلق هوية ثقافية أمريكية لاتينية .

الافتراض الثاني، المشتق من فرض الثقافة الغربية والمسيحية في العالم الجديد، وهو استخدام القشتالية - الإسبانية أو البرتغالية، ثم استخدام «اللغة القومية» في التعبير الأدبي، يؤدي بنا إلى طرح مشكلة استقلال الآداب الأمريكية اللاتينية . (١) إلى أي مدى لا يتعلق الأمر في أكثر من امتدادات للأدب المتروبولي؟ إلى أي درجة توجد أمريكا اللاتينية بوصفها كياناً مستقلاً؟ إن الشك ينشأ أولاً، من أن أدبنا يعبر عن نفسه بلغة يُعرّف بالنعته إسبانية، (٢) وهو مصطلح يكتسب إطاراً تاريخياً سياسياً لا يقبل الشك . من هنا فإن التقاليد - وهي عنصر هام في التعريف - تبدو غريبة عنا، كأنها افتراض من غيرنا . ويفاقم ذلك عدم وجود وحدة في أمريكا - الهسبانية، أي عدم وجود دعامة قومية، نجدها في الأدب الإسباني . فحين نقرأ بيو Bello، أو داريو Darío، أو استورياس Asturias، يبدو أننا نفعل تلك بالنقاط المرجعية نفسها التي تحكمنا حين نقرأ ثرفانتس Cervantes، أو كيفيدو Quevedo، أو ماتشادو Machado . إلا أن ثمة

(١) راجع - Mariano Morínigo, Sobre la autonomía de la literatura hispanoamericana, en Estudios sobre nuestra expresión, Tucumán, ed. del Cardón, 1965, pp. 73 - 82.

(٢) بهدف تبسيط الشرح نركز تحليلنا على أمريكا-الهسبانية، مع توضيح أن النتائج صالحة تماماً لتحديد العلاقات بين الأدب البرازيلي والأدب البرتغالي .

اختلافاً يتمثل في الارتياح الذي يعالج به الأسباني لغته، وفي نضال الهسبانو-أمريكي في سبيل تعبيره. ولحل هذه المعضلة، سمى النقاد المضمون «واقعنا» والعامل اللغوي «تعبيرنا». وفي الحقيقة، يتفاعل كلا العنصرين من أجل تحديد الاستقلال. ويبين ذلك ماريانو مورينيغو حين يقول إن «اللغة الإسبانية هي العنصر المشترك بين كلا الأديين...»؛ فلا توجد لغة هسبانو-أمريكية تعمل، بوصفها نسقاً، بطريقة مختلفة عن اللغة الإسبانية... إن سرفانتس وداريو يكتبان النسق نفسه من اللغة، وهذه اللغة تسمى إسبانية بالأسبقية. لكن هذا هو اسم اللغة، وليس اللغة ذاتها. وفعلياً ليس للنسق اسم، لكنه لما كان لا يعمل بصورة مجردة بل لتحديد عالم ذي صورة متعينة، فإن اسم اللغة هو، أولاً، اصطلاح مبرر ثم متجذر». من هذا يستنتج أن النسق، حين يرتبط بعالم متعين، يأخذ في اكتساب ظلال تتفق مع «التلاؤم مع العالم الذي يعبر عنه» على هذا النحو فإن اللغتين، لغة شبه الجزيرة* واللغة الأمريكية، ليستا سوى ظلال للنسق نفسه، لكنها ظلال تكشف عن خبرات مختلفة ومستقلة. ومن هنا يأتي تنوع الأديين، اللذين يوحدتهما النسق المشترك ويفصلهما الظل، وهو انعكاس عالين تاريخيين مختلفين. هذه الخبرة في المكان وفي الزمان هي المضمون، والظل هو التعبير عنه.

وتأتي ملاحظات مؤرخ، هو سيلفيوزافالا S. Zavala، لتؤكد هذا الانفصال بين ما هو أمريكي وما يخص شبه الجزيرة، منذ فترة الاستعمار، وهو ما يكشف عنه التفاوت في تطور كلتا الثقافتين. فلأسباب واضحة، كانت التيارات الجمالية تصل متأخرة إلى أمريكا، لكنها لم تكن تبقى فقط أكثر مما تبقى في المتروبول، بل إنها كانت كذلك تتعايش مع اتجاهات تالية، مما نتج عنه إعادة التفسير الثقافي. يقول ثافالا: «إن الصعوبات في استخدام المصطلحات (الخاصة بهذه التيارات) هي دليل على خصوصية الأوضاع الأمريكية، التي بدأت في الظهور منذ الاكتشاف (أدب جزر الهند الغربية المختلف عن أدب إسبانيا، صعوبة فهم

* شبه الجزيرة الأيبيرية - المترجم

الهندي في المتروبول، المنظر الآخر، التاريخ والعقلية الجديدان)». (٣) ومن الضروري أن نضيف إلى ذلك أنه، بعد الاستقلال، صارت التفاوتات أوضح، وانعكست العملية عموماً: فالرومانسية وصلت إلى أمريكا أولاً (من فرنسا) والحادثة فرضت في إسبانيا بعد عقد من خلقها في أمريكا اللاتينية.

٢ - المشكلة اللغوية

أ - موقفان لإسبانيا:

طُرحت المشكلة اللغوية خلال الفترة الاستعمارية باعتبارها مسألة تتعلق بالسياسة الثقافية للتاج الإسباني في أمريكا. وما من شك في أن إدخال اللغة القشتالية - وإحلالها محل اللغات الأصلية - كان يعني بالنسبة لإسبانيا جانباً هاماً في عملية السيطرة، وأحد أسس الوحدة بين مستعمراتها. حسناً، لم تقتصر مهمة إسبانيا في الأراضي المكتشفة على الاستعمار بل امتدت، بشكل بالغ الخصوصية، إلى نشر المسيحية التي تعدّ بدورها أحد أعمدة السيطرة. ومن ثم، اهتم الملوك بأكثر الطرق فعالية لتحقيق هذه المهمة. وفي هذا الصدد، اتضح موقفان(٤). اتخذ الموقف الأول كارلوس الخامس (عام ١٥٣٦) حين أوصى، بحس عملي ممتاز، بأن يتعلم القساوسة لغة الهنود للقيام بمهام وظائفهم في أمريكا. وشبيه بذلك موقف فيليب الثاني، الذي أبدى معارضته للاحلال اللغوي العنيف. وأوصى باتباع هذه السياسة، التي تمثل في رأي آنخل روزنبلات Rosenblat «انتصار اللاهوتيين على المشرّعين»، اهتم المبشرون بتعلم «اللغات العامة»، أي تلك اللغات التي تقوم على نحو من الأنحاء بدور الأداة التعبيرية لإقليم واسع. وكان أبطال هذه الحملة للتحويل إلى اللغات الهندية - الأمريكية هم الجزويت الذين غزوا منذ بدايات القرن السابع عشر أطراف

(3) Silvío Zavala, Etapas de recepcion de influencias y eclecticismos en la cultura colonial de america, en Revista Hispanica Moderna. num. 1/4, Nueva York, I - X, 1965 .

(4) راجع A. Rosenblat, La hispanización de América, en Presente y futur de la lengua española. Madrid, Cultura Hispánica, 1969.

القارة الأربعة بفيالق التلقين . وجرت أكثر التجارب إثارة للاهتمام في البعثات التبشيرية بالباراجواي . إذ أنهم باتخاذهم اللغة الجوارانية كلغة وحيدة ساعد الجزويت على إبقاء لغة الهنود حية - وهي اللغة التي كانت شائعة في بقية الإقليم - ، ومازالت هذه اللغة باقية في البلاد ، مُشكِّلةً الحالة الفريدة للثنائية اللغوية في أمريكا - الهسبانية(ه) .

ومن الضروري الآن أن نضع في اعتبارنا أن تعلم اللغة بهدف تلقين المسيحية كان واحداً من أكثر أدوات التغلغل السياسي - الثقافي فعالية . لهذا كان الأدب الذي انتشر باللغات الهندية دينياً - مسيحياً في محتواه بصورة بارزة ، أي أدب شعائر (صلوات ، تعاليم ، أمثال ، حيوات القديسين ، إلى آخره) . لم تكن تلك التقاليد الأصلية للهنود بالهامة فقد كان الأمر يتعلق باستبدال مبادئ «الدين الحق» «بالغيبات» الهندية . وبالتالي ، عني المبشرون بطبع أو تسجيل الأساطير الأمريكية ، وحين كانوا يفعلون ذلك - كما في حالة البوبول فوه Popol Vuh ، على سبيل المثال - ، كان ذلك يتم في توزيع محدود ، حتى لا يعوق عمل التبشير . (٦) وضاع الأدب الهندي - الذي كان إلى درجة كبيرة دينياً ، وما أمكن الحفاظ عليه منه إنما كان بفضل التقاليد الشفوية . ومما له مغزى أنه في الباراجواي ، حيث طوّر المبشرون أعظم مهامهم الثقافية بلغة البلاد ، لم يسجل عمل واحد من أصل هندي وذلك بتأثير آباء الطائفة . ولم تعمم كذلك التقاويم المختلفة التي قام بها كُتّاب الشعوب الخاضعة ، وذلك بالتأكيد لأنها كانت تقدم رؤية مخالفة للوقائع(٧) .

(5) راجع H. Clastre y R. Bareiro Saguier, Aculturación y mestizaje en las misiones jesuíticas del Paraguay, en Aportes, num, 14, París, octubre de 1969.

(٦) أعيد إكتشاف المخطوطة الثنائية اللغة للبوبول فوه عند منتصف القرن التاسع عشر ، وحيث فقط تم نشرها .

(٧) تحت عنوان رؤية المهزومين ، نشرت UNAM مختارات من تلك التقاويم UNAM, México, 1959, Biblioteca de Estudiante Universitario

لقد أدت ضرورات إستراتيجية نشر المسيحية إلى اختيار لغوي تكتيكي ذي نتائج متضاربة: استمرار عنصر ثقافي بالغ الأهمية كاللغة، وفي الوقت نفسه إضعاف الرؤية الهندية التقليدية للعالم.

لم يكن الموقف البراجماتي لكارلوس الخامس وفيليب الثاني يتضمن إنكاراً لفرض لغة قشتالة الامبراطورية، وهو الاهتمام الموجود بشكل دائم في المراسيم والتوجيهات الملكية من ناحية، وفي التقارير والمراسلات من ناحية أخرى. وتظهر ضرورة فرضها بوضوح عند طرد الجزويت (١٧٦٧)، وتتحول إلى قسر قانوني مع المرسوم الملكي لكارلوس الثالث (١٧٧٠). لاحظ أن ذلك كان عند نهاية الاستعمار، الذي يأمر فيه بأن «تُحى اللغات المختلفة المستخدمة في المستعمرات (أمريكا والفلبين) ولا يجري الحديث إلا بالقشتالية». وعلى أي حال، ورغم فرض اللغة الإسبانية، فإن الإجراءات السياسية الصرف مثل تلك التي اتخذها كارلوس الثالث، لم تستطع وقف عملية «أمركة» اللغة القشتالية في القارة الجديدة، بمعنى إخصاب لغة الفاتحين بالاصطلاحات، والوحدات الصوتية، والتراكيب النحوية، والتعبيرات، والتراكيب المورفولوجية، وهي العملية التي ظلت تجرى منذ بدايات الإحتكاك الثقافي.

(ب) الحالة الخاصة للبرازيل :

شهدت البرازيل تاريخاً خاصاً فيما يتعلق باللغة الاستعمارية. فخلال زمن طويل سادت اللغة الدارجة *lingua geial*، أي، لغة التوبى Tupi ممتزجة بقليل من البرتغالية، وذلك بسبب قلة كثافة العنصر الأوروبي. ونحو أواسط القرن الثامن عشر، تزاوجت مجموعات النخبة الاستعمارية البيضاء مع الخلاسية، وبفضل الأعمال الحربية لفرق الطلائع* أخذت البرتغالية في الانتشار - وأنشئت

(*) الترجمة الحرفية للكلمة Bandeirantes تعني حملة الأعلام ولكنها تعني في البرازيل معنى آخر يتعلق بمجموعات من الرجال خرجوا من سان باولو وكونت فرق الطلائع bandeiras انطلقت من الساحل لتكشف عمق البرازيل، وكانت للبوبول من كشافة، وجنود، ومستكشفين، وأدلاء هنود، وباحثين عن الذهب أو العبيد، مع عائلاتهم وحققوا أعمالاً جبارة هامة في اكتشاف البرازيل ولهم في تاريخ البرازيل مكانة خاصة. المترجم والمراجع.

الأكاديميات الأدبية- وأزيحت اللغة الدارجة إلى داخل البلاد. ورغم ذلك، ظلت المناطق الساحلية تتكلم خليطاً من التوي واللهجات الإفريقية.

إن تحطيم «النقاء» اللغوي لشبه الجزيرة، في مستعمرات إسبانيا كما في البرازيل - وهو الانقطاع الذي لا يضم اللغة الهندية فقط بل الإسهام الإفريقي أيضاً، يتمتع بأهمية كبيرة في التطور اللاحق للأدب الأمريكي اللاتيني وفي جزء كبير من بحثه الراهن.

وعلى الرغم من التحولات النحوية المشار إليها، فإنه لا يمكن أن نقول الكثير عن البحث عن التعبير الأدبي الأمريكي خلال فترة الاستعمار. فالتبعية السياسية البالغة، والقيود الثقافية (مثل حظر قراءة «الكتب الدنيوية غير المجدية» كالروايات) منعت التعبير الحر عن القيم الأمريكية ويجري الحديث عن الثقة التعبيرية للمؤرخين، وعن تضمينات نصير الهنود رويث دي الاركون Ruoz de Alarcón، وسور خوانا Sor Joana، وفالبرينا Valbuena، ولانديفار Landívar لكن من الصعب في كل تلك الحالات التحقق من الاختلاف بينها وبين أدب شبه الجزيرة، وهو اختلاف دقيق جداً إن وحد. وأكثر الحالات إثارة للاهتمام هي حالة الإنكا جارثيلاسو Inca Garcilaso، الخلاسي الذي يتضح تضارب أصوله في الحنين الذي يدلي به بشهادته عن ثقافته الهندية من جهة أمه. والأوضح من ذلك، في القصد منه على الأقل، كان محاولة الانعتاق - في الأسلوب وفي المشاعر- التي رسم خطوطها في البرازيل في نهايات القرن الثامن عشر جيل ميناش جيرايش الذي يطلق عليه اسم جيل Infidencia.

(ج) «بحثاً عن تعبيرنا»

بعد الاستقلال مباشرة، يصنع الإنقطاع اللغوي أزمة ويتحول إلى برنامج

(*) ميناش جيرايش اسم مقاطعة هامة في البرازيل وتعني الكلمة (المناجم العامة) فقد كانت فيها مناجم المعادن وفي القرن ١٨ مع بدايات القرن بدأت مجموعة من القساوسة والشعراء والشخصيات الهامة في فيلاريكا عاصمة ميناش جيرايش تتابع وتبني الأفكار الثورية في أوروبا والولايات المتحدة وحوكم عدد منهم (المراجع).

عمل. وبالفعل، يجري الحديث في عام ١٨٢٥ عن «لغة برازيلية»، وبعدها بقليل يجري الحديث في أمريكا-الهسبانية عن «لغة قومية» في الأرجنتين والمكسيك على وجه الخصوص (٨). ويعمل اكتساب الوعي هذا على مستويين: المستوى السياسي والمستوى الثقافي.

يتبدى المستوى الأول عبر قوانين ولوائح، ويعكس التحمس للاستقلال على كل المستويات.

أما المستوى الثاني فيمثل عَرَضاً أكثر أهمية، إذ إنه يُظهر بوضوح البحث عن «الاستقلال القومي»، الذي لم يكن يستطيع الاستغناء عن العامل التعبيري. وإحدى لحظات ذروته هي الجدل الشهير بين بيّو Bello وسارمينتو Sarmiento، عام ١٨٤٢. يبدو أولهما محافظاً في مواجهة الموقف التقدمي لسارمينتو، الذي يطالب بالحق في ادخال لغة الشعب في الخلق الأدبي: «إن سيادة الشعب تتمتع بكل قيمتها وغلبتها في اللغة». ويتخذ جوزيه دي أليнкаر José de Alencar في البرازيل الموقف البرنامجي نفسه. وهذا الأخير يميز تمييزاً قاطعاً بين اللهجة العامية البرتغالية وبين العامية البرازيلية، مستنتجاً تفوق الثانية على الأولى، بما لها من سهولة في اختراع الكلمات، ومن سيادة «الأسلوب البرازيلي». (٩).

ويميز ماتوسو كامارا الأصغر Matoso Camara Jr. عند أليнкаر إحدى خصائص اللغة «البرازيلية»، متضمنة «في التعبير الأدبي: وهذه الخاصة هي استخدام اللواحق الصوتية المتفجرة «باعتبارها مقطعاً مستقلاً، وفق طريقة التعبير الشعبية «adevogado, abissolutamente». (١٠) لكن كازيميرو دي

(8) راجع Amado Alonso, Castellano, español, idioma nacional, Buenos Aires, Losada, 1949.

(9) José de Alencar, Obras completas, vol, 1V, Rio de Janeiro, Jose Aguilar, 1960.

(10) Matoso Camara Jr., A Lingua literaria, en A literatura no Brasil, vol. I. tomo 1, edit. por A. Coutinho, Rio de Janeiro, Sul.

أبريو Casimiro de Abreu - وفق تقدير ماتوسو - كان ، هو الذي مضى بعيداً في استخدام اللغة الدارجة من بين الشعراء الرومانسيين .

لم يتعد موقف الرومانسيين كونه برنامجاً للمستقبل ، إذ إن سارمينيتو ، مثله في ذلك مثل من اتخذوا الموقف نفسه في زمنه ومن بعده بقليل - أمثال خوان ماريّا جوتييرث Juan Maria Gutiérrez ، وخوان ألبردي Juan B. Alberdi ، ومونتالفو Montalvo ، وهم المكسيكيون الذين تبّنوا «اللغة القومية» - كانوا يكتبون بإسبانية فصيحة ، طبقاً للمعايير الأكاديمية . وسوف يجري تحقيق ذلك المشروع - إذا أمكن تسميته كذلك - بطريقتين مختلفتين : الأولى شعبية ، والثانية مثقفة .

في الجانب الأول لا بد من أن يكون الكتاب «الكریول» * هم الذين سيحققون جزءاً من البرنامج . جييرمو برييتو Guillermo Prieto في المكسيك ، بعمله (ربة الشعر الضالة) المغروسة في تلافيف الشاعر والتعبير الشعبيين ، وبقوة أكثر سيحققه شعر المواويل الشعبي ، الذي تمنحه الموسيقى أجنحة . والكتاب الجاوشيون (**) في منطقة الريودي لابلاتا - السائرون على هدى سلفهم هيدالجو Hidalgo - أسكاسوبي Ascasubi ، واستلانيلان دل كامبو Estanislao del Campo ، وفي مقدمتهم خوسيه هرنانديث Jose Hernandez بعمله (مارتين فييرو Martin Fierro) . تعرّف الشعب على لغته في هذه الأعمال ، التي كانت وللمرة الأولى تستخدم في العمل الأدبي بصورة مفتوحة اللغة الريفية ، الجاهلة ، الساحلية . إن المذهب الكريولي يمثل ضربة موجهة إلى مذهب النقاء ، ومحاولة - غير واعية - للاستقلال التعبيري . وتندرج بعض مظاهر رواية العادات الاقليمية في الخط نفسه خط ادخال اللغة الشعبية واليومية ؛ إنها الكلمة القبيحة العاتية . أما حركة «الحدائة» فهي التي سيكون عليها أن تحقق ، بطريقة متسقة وفي

(*) الكريول اصطلاح يستخدم لاءاء الاوروبين الموجودين في أمريكا وقد اختلط دمه بدماء السكان الأصليين ويمكن تسميتهم بالهجناء (جمع هجين) (المراجع) .

(**) الغاوشو هم سكان أقصى جنوب البرازيل وأقصى شمال الأرجنتين ويسمون أيضا ماراغاتوس . وهم فرسان تقوم حياتهم على الرعي (المراجع) .

نطاق طريق مثقفة ، تصفية نزعة اللغوي في الأدب الهسبانو-أمريكي . وإذا كان الكريول يجددون اللغة بطريقة حدسية ، فإن المحدثين يفعلون ذلك على مستوى التطوير ، والبحث الجمالي . وبينما كانت الرومانسية معادية لإسبانيا إيديولوجيا ، كان مذهب الحداثة موالياً لفرنسا ، وقد تقبل ممثلة الأول ، روبين داريو Ruben Dario ، برضى صفة «النزعة الغالية العقلية» التي أطلقت على مدرسته . وهو نفسه يقول ذلك : «عند النفاذ الى بعض اسرار التألف ، والظلال ، والإيحاء الموجودة في لغة فرنسا أخذ تفكيري في اكتشافها في الاسبانية وتطبيقها . . . » وكان «مفكراً بالفرنسية وكاتباً بالقشتالية» حين وضع كتابه أزرق ، الذي يحدد نشره نقطة انطلاق حركة الحداثة . ولنلق نظرة على العناصر المستخدمة ، في تقدير المؤلف نفسه : «فيه تظهر ، لأول مرة في لغتنا ، «الحكاية» الباريسية ، وطريقة صياغة الصفات الفرنسية ، وطريقة التعبير الغالية مطعمة في الفقرة القشتالية الكلاسيكية ، والمحسنات البديعية لجونكور ، و«الهدهدة» الشبقة عند منديس ، والانتقاء اللفظي عند هيريديا وحتى بعضاً من كوبيه Coppee» (١١) بهذه المكونات يدخل داريو هواءً نقياً على الخطابة المبتذلة للشعر الهسباني ويضيف تجديداً أساسياً في وسائط التعبير : تعبيرات غالية ، وانعطافات ، وحقاقت ، ونظم صرفية مأخوذة من الفرنسية . وبالنسبة لداريو ذاته ، كانت التغييرات تمضي بعيداً وتأتي من بعيد ، هكذا نخبرنا بلغته المجازية : «حتى فيما هو ذهني ، حتى في اختصاص الأدب ، حطمت طعنة سان مارتان* إطار القاموس بعض الشيء ، كسرت الأجرومية بعض الشيء» . هنا نرى تطبيقاً عملياً

(11) المقتطفات مأخوذة من ألوان الراية Los colores del estandarte ، وهو مقال منشور في صحيفة La nacion في بوينوس آيريس (٢٧ نوفمبر ١٨٩٦) ، وأعيد نشره في كتاب أندرسون إمبرت E. Anderson Imbert, Los orígenes de Ruben Dario, Buenos Aires, CEAL, 1967 والإشارة في الفقرة هي إلى عدد من الكتاب الفرنسيين كالأخوين Goncourt إدمون وجول (١٨٢٢ - ١٨٩٦) (١٨٣٠ - ١٨٧٠) وفرانسوا كوبيه الشاعر (١٨٤٢ - ١٩٠٨) والشاعر جوزيه - ماريادي هيريديا de Heredia (١٨٤٢ - ١٩٠٥) وكاتويل منديس Mendes الكاتب (١٨٤١ - ١٩٠٩) - (المراجع) * سان مارتين هو محرر الأرجنتين خاصة .

للإيديولوجية التي طرحها الرومانتيكيون* الأمريكيون - اللاتين؛ وعلى هذا النحو يكون الانقطاع اللغوي امتداداً لذلك الموقف النظري.

وقد اعترفت إسبانيا بقيمة تجربة الحداثة مع ظهور جيل ٩٨، حين اتصلت الحداثة بشبه الجزيرة الأيبيرية نفسها. كانت تلك هي المرة الأولى التي تفرض فيها المستعمرات السابقة نماذج ثقافية على المتروبول القديمة؛ كان اتجاه التأثيرات قد انعكس.

ولا يعتمد الانتماء الأمريكي لتجديد الحداثة على عناصر بيئية أصلية، أو محلية؛ أو هندية، إنها بوصفها حركة عالمية، راقية أساساً، فقد تنكرت للواقع المحيط - ويعبر داريو عن ذلك على النحو التالي: «انني أحتقر الحياة والزمن اللذين قُدر لي أن أولد فيهما» -، وإذا كنت قد لجأت إلى تلك العناصر، فقد فعلت ذلك بمعيار الطرافة نفسه الذي كان يشار به إلى الشرق أو إلى العصر الاغريقي - اللاتيني القديم. ولا شك أن لغة الحداثة قد ترجمت واقعاً عميقاً للتواصل في أمريكا الهسبانية مع التسليم بأنها قد بقيت زمناً طويلاً بعد اختفاء مشروع الحداثة الذي تنتظمه المدرسة التي تحمل هذا الاسم.

أما الشعر الذي يظهر في الفترة نفسها في البرازيل فإنه متأثر بدوره بالبارناسية والرمزية، مثله كمثّل الحداثة الأمريكية-الهسبانية، لكنه، بخلافها، لا يدخل في أزمة مع اللغة الأدبية لشبه الجزيرة الأيبيرية.

ورغم أن مبادئ كلتا المدرستين مستوردة من فرنسا مباشرة، - حملها البرتو دي أوليفيرا إلى البرازيل -، فإن ذلك الأدب لا يتضمن تحطيماً تعبيرياً بالنسبة للأدب الأيبيري. والانقطاع، الذي كان عنيفاً، يجري مع مقدم الحركة التي حملت اسم نظيرتها نفسه باللغة القشتالية، لكن ليس مضمونها الجمالي نفسه. فقد ظهرت الحداثة البرازيلية عام ١٩٢٢، وتعادل تعبيرات الطليعة في بقية

(*) لم تستعمل كلمة رومانسية مقابل romantic لئلا تختلط بالمعنى الآخر للرومانسية ولم نستعمل كلمة إبداعية لأن الرومانتيكية لا تحمل معنى الإبداع. وحدة وفضلنا الإبقاء على الكلمة الفرنسية (المراجع).

القارة الأمريكية اللاتينية. إن الهزة العنيفة، والعزم على مراجعة القيم مراجعة جذرية، وهما الأمران اللذان دعا إليهما المحدثون البرازيليون، لم يكن بمقدورهما الاستغناء عن الجانب اللغوي. وسارت الأزمة الجديدة على خط الانقطاع الرومانسي، لكن لما كانت الظروف قد تغيرت - بالتطور الاجتماعي، والاقتصادي، والثقافي للبرازيل. فإن حدثها كانت أكبر، وكذلك فعاليتها. وتوجه التحدي صوب عناصر أساسية للغة. فقد رفض المحدثون الاعتماد على القواعد النحوية السائدة، ودعوا إلى تبين نسق نحوي برازيلي. وكان من أشد المشروعات حماسة مشروع ماريودي أندراي، أحد زعماء الحركة، الذي بدأ في تطوير نحو أجرومية* برازيلية Gramatiquinha brasileira، تأخذ في اعتبارها لغة الحديث في مواجهة الأرثوذكسية النحوية - في شبه الجزيرة الأيبيرية. يقول أنطونيو كانديدو: «في مركز هذا الجهد نجد نية تطوير لغة أدبية جديدة، تستفيد إلى الحد الأقصى من إمكانيات الحرية اللغوية، وتضفي أحياناً كثيرة طابعاً مثقفاً على تركيبة الجملة الشعبية، مقربةً بذلك اللهجة الشائعة من اللغة المكتوبة». (١٢) إن الوجود المتفجر لضروب البحث التعبيرية، كما نجد في ماكونايا Macunaima لماريودي أندراي، يجد تفسيره بصورة أوضح إذا وضعنا في الاعتبار الدكتاتورية الطويلة للنقاء «الكلاسيكي» والأكاديمي، الذي كان زعيمه هوروي باربوسا Rui Barbosa

كانت لهجات الأقليات العرقية في البلاد تمثل أحد منابع الهامة للغة الأدبية. فقد أدار المحدثون أبصارهم صوب الثقافتين الهندية والزنجية، ليأخذوا من الأولى كلمات، وتعبيرات، ومن الثانية إيقاعات وأخيلة تعبيرية، علاوة على العنصر اللفظي.

(*) الأجرومية (بتشديد الراء) نسبة إلى محمد بن محمد الصنهاجي المعروف بابي أجروم (٦٧٢ - ٧٢٣ هـ / ١٢٧٣ - ١٣٢٣ م) وهو من النحويين العرب البارزين في فاس بالمغرب وضع الأجرومية مختصراً فيها النحو واشتهرت باسمه. وقد استخدم المترجم الكلمة هنا للمناسبة لا أكثر بمعنى مجموع القواعد النحوية (المراجع).

(12) A. Candido : Introducción a la literatura de Brasil, Caracas, Monte Avila, 1968.

وتتصادف بداية ما يعرف في الأدب باسم مذهب الزنوجة ، في البرازيل ، مع بداية مثيلة في جزر الأنتيل : لويس باليس ماتوس Luis Pales Matos ، ورامون جيراو Ramón Guirao ، وإميليو بياجاس Emilio Bullagas ، ونيكولاس جين Nicolás Guilén ، وخوسيه تاييت Jose Z. Tallet . ويشير رينيه ديبستر إلى الزنوجة فيعرفها بأنها «استخدام عناصر ايقاعية ، وألفاظ تحكي الأصوات ، وعوامل حسية خاصة بالأدب الشفوية للزواج» . والأمريتيعلق بإدخال «مكونات زنجية» باعتبارها موضة أدبية . (١٣) ومن بين من ذكرناهم يبرز نيكولاس جين ، الذي يمضي ، بحكم مضمون أعماله الذي يكشف عن وضعه الخلاسي ، إلى ما وراء الزنوجة . ويشير روجيه باستيد إلى قيمة تجربة اكتساب الثقافة تلك بقوله : «بقدر ما يبدو لنا شعر الكوبي نيكولاس جين أشد «أصالة» . . . فإنه يعبر بالقدر نفسه وببراعة فائقة عن إفريقيا الحية ، أعني الحية في جزر أمريكا البهيجة ، موحدة بين الألفاظ التي تحاكي الأصوات وبين المعجم الأفريقي برطانة اعماقه السحيقة أو القشتالية الكريولية ، وبين الايقاعات الصوتية لطبول زنوج اليوروبا yorubas والالحن الشهوانية للكاريبى» . (١٤) ويعتبر باستيد أن «الثقافات الأفرو-أمريكية لم تمت ، وليس ذلك فحسب بل إنها تستمر مُشعةً تأثيرها وفارضةً نفسها على البيض» .

أما النزعة المحلية الأدبية التي ظهرت في الرواية الأمريكية اللاتينية من عقد العشرينات وحتى الثلاثينات ، فقد كان موقفها ، من وجهة نظر التعبير ، أكثر تهيباً وخوفاً من الزنوجة . وبالفعل ، فرغم أيديولوجية إنصاف الهندي ، ظلت لغتها هي لغة الحداثة ، مع ظلال التطور الذي سببه وجود الواقعية - الطبيعية . وقد استخدمت كلمات ، وتناثرت في الكتابة تعبيرات هندية بدرجة أو بأخرى ، لكن معيار الاختيار ظلت توجهه بدرجة كبيرة نزعة الطرافة المحدثه . لم يتجاوز

(13) R. Depestre, Problemas de identidad del hombre negro en las literaturas antillanas, en Casa de las Américas, nvm. 53, La Habana, marzo - labrol de 1969.

(14) roger Bastide, Las Américas negras , Madrid, Alianza, 1969.

التعاطف مع الهندي إطار الإهتمام السطحي ، الذي يجهل العناصر الواقعية المكوّنة لثقافته .

إلا أن هوراثيو كيروجا Horacio Quiroga ، الذي لم يكن نصيراً للهنود بل ذا نزعة حدائية ، استطاع أن يلتقط ، بصورة لاتزال خجولة ، نفحة الجوارانية ، وهي اللغة التي تتكلمها غالبية الشخصوس في حكاياته عن غابات بعثات التبشير . لكن الذي فجر اللغة القصصية الأمريكية اللاتينية بالشحنة الناسفة التي تملكها الكلمة الأسطورية للهنود ، هو ميغيل أنخل أستورياس . إنه بالنفاذ إلى جذر ثقافة المايا - كيتشي maya — quiche ، يظهر بوضوح القيمة السحرية التي يتمتع بها الفعل في تلك الحضارة ، فهو الذي يغير كل الأشياء . وعلاوة على ذلك ، فإن أستورياس بتوليّه تلك المهمة المقدسة ، وبنقلها إلى مستوى الإبداع الأدبي ، يمجّد سلطة اللغة ، لغة لا تطيع سوى قوانينها الخاصة . إنه الإبداع من خلال الكلمة وفي الكلمة ، كما تفهمه الثقافات الهندية - الأمريكية . إن أعمال أستورياس - وذروتها ، (رجال من ذرة) - هي أوضح مثال على الإسهام الثقافي الهندي في اللغة الأدبية الهسبانو - أمريكية .

وقد انتهج كاتبان معاصران آخران نهج أستورياس ، لكن بطريقة أشد خفاء وأكثر سترا : هذان الكاتبان هما خوسيه ماريّا أرجيداس José Maria Arguedas وأوجستوروا باسطوس Augusto Roa Bastos والأول بيرواني . كانت لغته الأم هي الكتشوا quechua ؛ وفي أعماله ، التي تعيد خلق العالم العجيب للهندي الذي يعيش في الجبال ، يعبر عن نفسه بإسبانية مصبوبة في قوالب اللغة الهندية . ويحاول أرجيداس تعريف أدواته التعبيرية كالتالي : « . . . كتبت بضرب من القشتالية ليس نوعاً من الخليط بل من الأسلوب ، تنبض فيه روح ، وخصائص الكتشوا ، وبلكنه واضحة جداً في الأسلوب القشتالي . » (١٥) ويشرح ماريو فارغاس يوسا Mario Vargas Llosa بصورة أفضل هذا

(15) J. M. Arguedas, Prosa en el Peni Contemporaneo, en Panorama de la actual literatura latino - americana, C. I. L. La. Habans, 1969.

«الضرب من القشتالية» بقوله : «يكمن الحل في ان نعثر في الإسبانية على أسلوب يمكن أن يعطي بتركيبه، وبإيقاعه، وكذلك بمفرداته، المعادل للغة الهندي». ويشير إلى إحدى الطرق لتحقيق ذلك التعادل : «الانقطاع المنهجي للتركيب التقليدي، مما يفسح المجال لتنظيم الكلمات داخل الجملة، ليس طبقاً لنظام منطقي، بل لنظام وجداني وحدسي . . . إن عبارات هؤلاء [الهنود] موسيقية خاصة، ورقة دفيئة تنبع من وفرة صيغ التذليل والنداء، ومن إيقاعها اللاهث والمتذمر، ومن تعبيرها الشعري . إن الأمر هنا يتعلق بلغة شفوية وجماعية . . (١٦) ولا شك في أن كتابة أرجيداس بعيدة عن «الألاعيب اللفظية» لكتاب النزعة الهندية التقليديين، وتشكل حالة حقيقية لاكتساب الثقافة على مستوى اللغة».

وتقدم أعمال أوجستور وواباسطوس تشابهاً كبيراً مع أعمال أرجيداس، فيما يتصل باكتساب الثقافة اللغوي، رغم أن العثور على براهين أمر أكثر صعوبة، ولعل ذلك بسبب عملية التعايش الطويلة في نظام ثنائي اللغة من القشتالية واللغة الجوارانية. فبالنسبة لكل مواطن من باراجواي يولد في الريف هو هي حالة روا- تكون الجوارانية هي اللغة الأم، وثمة مساحة شاسعة من المشاعر والأحاسيس التي يُعبّر عنها بتلك اللغة. ويتخلل فن رواباسطوس القصصي جو نابع من أحشاء اللغة المحلية. فقصصه تنطلق من تكرار الألفاظ، والعبارات، وتنطلق في المقام الأول من تحويل النظم الصرفية الإسبانية وفق النماذج الجوارانية. في هذا النثر (واشير بصفة خاصة إلى الجزء الأول من كتابه وفاة : Moriencia) تبدو ظاهرة تركيز، وتركيب يتحقق فيها الانتقال من فكرة إلى أخرى دون الانتقال التقريري المعتاد في اللغات الغربية. تندرج عناصر الربط التي تحدد السببية، وتصبح العلاقة بين الجملة والجملة ضمنية، إذ تنطلق من سياق تميزه نبضات وجدانية أكثر منها عقلية. هذه الطريقة تغير التصنيفات الصرفية للإسبانية، وتضيف على النثر نسيجاً متناثراً ومركزاً في الوقت نفسه، يكسبه المجاز ليونة.

(16) M. Vargas Llosa, Jose María Arguedas y el indio, en Casa de las Américas, num. 26, La Habana, octubre - noviembre de 1964.

فالجوارانية لغة مواربة، لأنها لغة بدائية. أما استخدام العديد من الصيغ الإسبانية العتيقة، المكتسبة في اللغة الهندية باعتبارها عناصر خاصة بها، فإنه يسبغ متعة كبيرة على الكتابة.

في دراسة ذات نزعة «تاريخية» حول «لهجة الباراجواي الهسبانو-جوارانية»، (١٧). يصدر أنطونيو توبار نبوءة بشأن «اللغات التي يمكن أن تولد في أمريكا». وتقوم نبوءته على أساس «الأمل في أنه على الأقل في أركان هامشية حالياً، في تلك المستودعات العميقة والغنية للتقاليد القديمة، يظل حراً وفاعلاً هذا الانصهار الخصب للثقافات ولامتزاج اللغات».

فهل يبرر هذا الاعلان وجود ما يمكن أن يكون تبشير «لغات مستقبلية» تشكل كمادة للإبداع الأدبي بصورة متزايدة الوضوح في أمريكا اللاتينية؟

إن ظاهرة ذات أبعاد اجتماعية بهذا المعنى تظهر في الهجرة، على الأخص في ريودي لابلاتا أو بالأحرى في بوينوس آيريس، وتشهد على وجودها لغة بعض كتاب أوائل القرن (فراي موتشو Fray Mocho، وجريجوريو دي لافيرير Gre-gorio de Laferrere، وروبرتو بايرو Roberto Payró، وغيرهم). هذا الركام، الذي طالما أرهق اللغويين الهسبانين مثل أميريكو كاسترو Américo Castro، يكتسب كل قوته التعبيرية في النثر المشعث والنابض لروبرتو آرلت Roberto Arlt، ويتأكد في الأدب الأرجنتيني عن طريق ما يسمى «بجماعة بويدو grupo de Boedo» - وهي مثال على الأدب ذي النزعة الشعبية-، أو مع شعراء من أمثال راؤول جونثال تونيون Raul Gonzalez Tunon، لكنه يتأكد في المحل الأول مع الشعر الشعبي الذي يذيع بواسطة موسيقا التانجو، وهو أساس جزء من الأدب الراهن لهذا البلد.

الظاهرة الأخرى هي الرغبة الحالية في تحقيق تركيب من خمسة قرون تقريباً من

(17) Antonio Tovar Espanol y lenguas indigenas, algunas ejemplos en Presente y futuro de lengua espanola, Madrid, Cultura Hispánica, 1964.

الوجود الثقافي المتضارب . في تعبير خاص ، يتحول إلى مركز للانشغال الأدبي ، وهذه الظاهرة تستحق تأملاً جاداً وتحليلاً ينتظر الإنجاز . لم يكن الوعي بهذه العملية بتلك الحدة التي يشهدها إنتاج الجيل الحالي : «إننا نحيا في بلاد كل ما فيها في انتظار أن يقال ، لكن كذلك في انتظار أن يُكتشف كيف يقال هذا الكل . . . إذا لم تكن هناك إرادة لغة في رواية في أمريكا اللاتينية ، فهذه الرواية غير موجودة بالنسبة لي» ، هكذا يعلن كارلوس فوينتس . (١٨) ويبدو أن الطريق هو التقارب بين اللغة المكتوبة واللهجة الحية ، وهي مهمة صعبة وبطيئة ، كما رأينا : فقد حقق الرومانسيون حركة ضد إسبانيا (واقصروا على إعلان البرنامج) ، واقترب المحدثون من الثقافة الفرنسية (وشرعوا في مراجعة أصيلة للغة) ، بينما يجعل الكتاب الحاليون ، الذين ظهروا حوالي عام ١٩٤٥ ، من التجديد اللغوي محور الإبداع الأدبي . والأمر هنا يتعلق بعملية استيعاب متزايد من جانب الأدب لميراث ثقافي ، أصبح موجوداً في التحليل الأخير : هو الإبداع الجماعي المتحقق عن طريق الإسهامات الدائمة ، المطعمة في جذع اللغة الموروثة . وعلى هذا النحو يتكشف «انحطاط اللغة» المزعوم - تلك الخرافة الاستعمارية القديمة - عن كونه بذرة خصبة . وعبر هذا الطريق يتشبع النص الأدبي بالغموض الذي يستلزم مشاركة القارئ وتواطؤه ، هكذا يتحول العمل إلى إبداع شخصي وجماعي في آن واحد ، كما يمكن أن نرى في أعمال خوليو كورتازار Cortazar ، بالدرجة الأولى ، وهو الذي يجبر القارئ على أن يلتزم جانب الحذر بشكل دائم ، بلغته الكلية الحضور ، لغة الحذف والإضافة ، وبالتجارب التعبيرية العديدة التي يقوم بها .

إن اللغة - وحتى اللغة الأدبية - ليست اختراعاً نزقاً بل نتاجاً تاريخياً . وبهذا المعنى - فإن الكتاب الأخيرين ، حينما حطموا خطوط اللغة ، كانوا يحسبون حساب اللحظة الراهنة ، التي تتميز بتعقيد أكبر للعالم الأمريكي اللاتيني .

(18) Carlos Fuentes, Situación del escritor en America Latina (Conversacion con Emir Rodriguez Monegal, en Mundo Nuevo, num. 1, Paris, 1966.

ويسرى هذا أيضا على البرازيل، حيث، مرت اللغة الأدبية بدءاً من تجديد المحدثين الجذري، بعملية مماثلة للعملية التي مرت بها في أمريكا-الهسبانية. والانقطاع الذي أتاح لأولئك المؤلفين إدخال اللغة اليومية واللغة الاقليمية، يفسر ظهور كاتب مثل جوان جيماريس روزا Joao Guimaraes Rosa، الذي عرف كيف يجعل لهجة السرتون عالمية. لقد كان هذا الإقليم أحد المعازل الأخيرة لامتزاج البرتغالية باللغات الهندية والأفريقية. وإلى الطبقات الجيولوجية لتلك اللغة المتكلمة يلجأ جيماريس روزا ليشيد حكاية ريوبالدو Riobaldo المونولوجية الطويلة. «التي تُسمع أكثر مما تُقرأ» في (السرتون الكبير : دروب) grand Serton : Veredas. والحدود الإقليمية المحتملة لهذه اللغة الشعبية، الدارجة، يجري انقاذها بواسطة قدرة الابتكار الضخمة، والطاقة الشعرية للروائي، الذي يستخدم الكلمات باعتبارها حوافز، وتضمينات في حالة حركة، أكثر من كونها تسميات ثابتة.

٣ - مشكلة الموضوع :

الأدب لغة في المقام الأول. وهذا هو سبب البحث عن تعريف الاستقلالية في جانب الكلمة بصورة أساسية. هكذا فهمه الكتاب الأمريكيون اللاتين منذ فجر الاستقلال، وهذا ما يؤكد بدرو إنريكت أورينا Pedro Henriquez Ureña عندما ينحت عبارة «بحثاً عن تعبيرنا»، وكذلك الكتاب الحاليون الذين يدركون اللغة الأدبية بوصفها تجاوزاً دائماً، بوصفها «هجوماً دون هدنة». ومن خلال مسار هذه اللغة الخلاسية، المهجين، المولدة، المخترقة، المكسورة الممزقة، حتى تعود لتبلغ نقاءها الأصلي، قوتها التواصلية، يمكن رؤية محصلة البوتقة الثقافية التي تمثلها أمريكا اللاتينية. ان أدبها شهادة دامغة على ذلك.

(أ) بداهة خادعة :

الموضوع tematica وهو - العنصر الثاني الذي اخترناه لتحليل ظاهرة لقاء الثقافات في الأدب الأمريكي اللاتيني - يتحول بسرعة إلى محور تعريف ما هو

أمريكي ، وكما سنرى ، يتحول إلى برنامج للتححرر الأدبي .
إلا أن البداهة التي يتبدى بها عنصر الموضوع ، أو يطرح نفسه بها ، يمكن أن تكون خادعة . فالموضوع (التيمة) مثل مرآة يمكن لأي شخص أن ينظر إلى نفسه فيها دون أن تظل الصورة منقوشة . في هذه الأرض الزلقة تكمن الصعوبة في احتمال وقوع تلاعب غامض . وعلى سبيل المثال ، فإن المادة الأولى التي تغتذي منها اللغة المفروضة هي الوسط المحيط بها . ويبقى علينا أن نرى الدلالة التي يكتسبها تناول هذا العنصر ، وذلك بالنسبة للانتفاء الايديولوجي والثقافي .

كذلك يتخلل الخطأ العلاقة بين المنتج وإنتاجه ، وبين وضع المؤلف وخصائص العمل . وبالفعل كان أول من وصفوا واقع القارة الجديدة هم الفاتحين أنفسهم . وخلال فترة الاستعمار تظهر حالات معينة يمجّد فيها الأوروبي مزايا الطبيعة والسكان الأصليين ، بينما يُظهر ابن البلد الأمريكي - الكريول أو الخلاسي - تحفظاً أو معارضة لكل ما يتصل بقارته ذاتها . وهذا ما حدث مع ألونسودي إرثيا Alonso de Ercilla ، المعجب بتشتيت الهنود الأروكانيين ، ومع بدرودي أونيا Pedro de oná الكريول التشيلي الذي يبين كتابه (الاروكاني المروّض) حتى في عنوانه موقفه من هنود إقليمه . وتنتج مواقف التناقض هذه على طول فترة الاستعمار وتعد نتيجة العقد المتعلقة بالأصل في مجتمع طبقي - أو مجتمع طوائف - يأتي فيه العنصر الأبيض ، نتاج «نقاء الدم» ، في قمة السلم الاجتماعي ، لكن هذا الوضع ، في الوقت نفسه ، كان - وفي هذا تناقض إضافي - وضعاً يمكن شراؤه . وفي مجال الآداب كان تمجيد ما هو أوروبي هو الثمن الذي يدفعه من لم يكونوا واثقين من أصولهم ويريدون إخفاءها . وليس عبثاً أن نجد جزءاً كبيراً من أدب الفترة الاستعمارية واقعاً تحت سيطرة ازدهار الباروك ، وهو الأسلوب الذي أتاح التواؤم التعبيري ، وقدرته على التحوير المجازي لكتاب «من الكريول أو الخلاسيين أن يعبروا عن مشاعرهم - الحميمة أو ذات القومية الكامنة - بصورة غير مباشرة ، وأحياناً بصورة ملتوية . وأقل من يخفي تلك المشاعر هو الانكا جاريلاسو ، فهو أكثرهم مباشرة في تلميحاته ، التي لا يخفي فيها إعجابه

بالحضارة - المهزومة - لاسلافه الهنود . إن الشروح الملكية تمثل بلا شك لحظة حاسمة فيما يتعلق بالمضمون الأمريكي في أدب الفترة الاستعمارية . ويمكن القول بأن جارشيلاسو يصوغ معيار الابداع الجمالي مع موضوع العالم الجديد ؛ إنها أول محاولة لتقويم الثقافة الهندية . ولا يجب أن ننسى أن الأدب الهندي ظل هامشياً بصورة منهجية ، للأسباب وبالطريقة المينة فيما مضى .

أما في البرازيل ، فقد كان التعبير عن المشاعر الأهلية أكثر انفتاحاً ، منذ مواعظ الأب فراي أنطونيو دي فييرا Fray Antonio de Vieira ، المدافع عن الهنود والزنوج ، والمقاطع الشعرية اللاذعة والشعبية لجريجوريو دي ماتوس Gregorio de Matos . وكلاهما من القرن السابع عشر - وحتى المدرسة الملحمية للقرن الثامن عشر ، المرتبطة بـ « Infidencia ميناش جيرایش » إلا أن كتاب المدرسة الملحمية - مثلهم مثل الجميع تقريباً في ذلك القرن - كانوا يتناولون الموضوعات الأمريكية من خلال المنظور المشوه للأدب الساذج . إنها فترات اختلاط وكثيراً ما كان كتاب شبه الجزيرة ، البرتغاليون والأسبان ، هم الذين يحافظون فيها على الشعور « القومي » . ولا يزول الغموض مع قدوم الاستقلال ؛ إذ يظل كثير من الكتاب يكتبون كما كانت تجرى الكتابة خلال القرون السابقة .

ليس من شأن هذه المعلومات إلا أن تؤكد الصعوبة ، التي عرضناها ، في تملك المشكلة من خلال الموضوع أو المحتوى . ورغم ذلك فمنذ بدايات القرن التاسع عشر وحتى أيامنا ركز كتاب كثيرون على مشكلة الاستقلال الأدبي باعتبارها « اكتشافاً » للقارة ، وباعتبارها وصفاً للوسط الجغرافي والاجتماعي . وفيما عدا ذلك ، أكد نوع معين من النقد دائماً على وضع العنصر الأرضي في الاعتبار عند تعريف أدبنا ، مانحاً بذلك ميزة لجانب المضمون باعتباره مرادفاً « للأصالة » . وتكتسب المشكلة أهمية حين يتحول التركيز إلى برنامج محدد أو يعكس إدخالاً لعناصر تجلبها ثقافات يتم الاحتكاك بها . (١٩) .

(19) راجع Mariano Morinigo, El contorno social y natural en la novela de la tierra y El tema de nuestra novela, en Estudios sobre nuestra expresion, Tucuman, Ed. del Cardón, 1965) وهي المقالات التي أخذ عنها بعض الاطروحات .

(ب) برنامج الرومانتيكيين :

كانت رؤية أمريكا اللاتينية على وجه العموم ، خلال العهد الاستعماري مثالية ، وغير مبالية على كل حال . فحين لم تكن تُنسخ الألفاظ ، أو الشخصيات أو المواقف من الأدب الرعوي الأوروبي ، كان الأمر يقتصر على مجرد الوصف ، وهو عمل المؤرخين الذين لم يكونوا دائماً رواة أمناء . ومع قدوم الاستقلال - وقبله في فكرة الانعتاق لدى النخب المثقفة - تغيرت الرؤية بصورة جوهرية ، وأصبحت هامة رغم أن الموضوعات لم تتغير . وفعلاً ، ظلت الموضوعات هي نفسها تلك التي كانت تجذب اهتمام عديد من المؤلفين في القرون الاستعمارية : ألا وهي الطبيعة الأمريكية . لكن ثمة اختلاف في الهدف ، فقد أصبح الوصف مشحوناً بالخوايا . ووضعت الدفعة الرومانتيكية الأمريكية اللاتينية - وخصوصاً أندريس بيّو في الجزء الذي يتحدث الإسبانية ، وجونسالفيش دي ماجاليائش Gon- Galves de Magalhaes في البرازيل - خطوط برنامج محدد : يجب أن يستجيب أدب مختلف للواقع السياسي الجديد . كان على الاستقلال السياسي أن يمثل تجاوزاً للاستعمار ، على مستوى الثقافة أيضاً . ولكن كيف يمكن تحقيق هذا الانعتاق الأدبي ؟ لا تختلف الإجابات في كلتا اللغتين كثيراً : من خلال « القوة الملهمة لطبيعتنا » ، كما يقول جونسالفيش دي ماجاليائش وجماعته من باريس ؛ وقبلها بقليل يتبنى أندريس بيّو Bello نفس وجهة النظر في « العودة إلى الطبيعة » ، على صفحات (المكتبة الأمريكية) ، التي كان يصدرها في لندن مع جماعة من المهاجرين . لكن ، أي طبيعة نقصد وما هو هدف هذه « العودة » ؟ هناك مرحلتان في هذه المعالجة . الأولى هي تلك التي يسميها مورينيغو « الصيغة النشيطة للطبيعة الأمريكية » ، وهي الفترة التي يكتسب فيها النهر ، والغابة ، والجبل حياة ، وتتجسد تجسداً . وثمة المرحلة الثانية ، ويظهر الإنسان فيها مختلطاً مع وسطه المحيط به ، لكنه في الوقت نفسه على صراع معه . هنا يظهر بوضوح قصد بيّو والجيل الرومانسي : فهذه الطبيعة « المدهشة » الاطار الجدير بالإنسان الأمريكي الجديد ، هي كذلك منبع خصب للثروة ، إنها جراثومة طاقات يمكن الاستفادة منها .

في المرحلة الأولى يجري التعبير عن ذلك الإعجاب بالطبيعة، التي تتمتع كذلك بخاصية «نشطة»، وفي الثانية، يتولى الكاتب، في الأدب غزو مجاله. في هذه الفكرة عن إرادة التغيير لدى الإنسان الأمريكي إزاء بيئته الطبيعية «السرائعة» تكمن عقدة البرنامج الرومانتيكي ويؤكد سارميينتو ذلك ببلاغة في التقابل بين مفهومي «الحضارة» و«الهمجية». والموقف مفهوم تماماً داخل الإطار الاجتماعي-السياسي والاقتصادي للفترة: فمن جهة، يتلخص البرنامج في مواءمة الأيديولوجية الأوروبية عن الحضارة - في مقابل التقاليد الإسبانية، التي تمثل الاستعمار، مع الاستبعاد الواضح للعنصر الهندي-كي تناسب أمريكا، وتطبيقها برؤية مستقبلية؛ ومن جهة أخرى، يتصادف البرنامج الرومانتيكي مع مولد أوليجاريات ملاك الأراضي الكريول، - المزارع، والضياغ، ومشاريع استغلال الغابات، والاستفادة من الطاقة الهيدروليكية، إلخ-، والتي يتلخص نشاط أعمالها بالضبط في تحويل أوجه الجمال والثروة الطبيعيين إلى مصادر للإنتاج الاقتصادي. ومن وضع «البرنامج» في إطاره الاجتماعي - الاقتصادي يبرز تناقضه: الإعجاب بالطبيعة بهدف تحويلها، هي الفكرة التي تنضاف إليها فكرة مناقضة أخرى، أشار إليها مورينيغو، مع الأخذ في الحسبان أن الواقع، وأن القوة الأرضية يفسران من خلال مثالية الكتاب، ومن خلال تطلعاتهم بالنسبة للمستقبل ولتحويل ذلك الواقع.

وفي البرازيل، بعد إعلان مبادئ ماجاليائش وأنصاره، كان من نصيب الرواية، بصورة خاصة، إتمام برنامج القومية الأدبية. وقد حاول هذا النوع الأدبي تناول الواقع على أساس توجه محدد. وفي هذا الصدد يؤكد أنطونيو كانديدو، مشيراً إلى الخيط الداخلي الذي يوحد بين مختلف أعمال الرومانتيكية. أن ما يوجه مؤلفيها كان «الهدف البرنامجي، والاصرار الوطني على انجازه، أكثر من كونه الدافع التلقائي لوصف واقعنا» (٢٠) ويلح في تأكيد أن الرومانتيكية،

(20) Antonio Candido, Formação de literatura brasileira (2 vols.), Sao Paulo, Livraria Uartins, 1964.

بالإضافة إلى كونها «مورداً جمالياً» كانت «مشروعاً قومياً»، وأن كل أنصارها تقريباً كان «يتملكهم شعور بالرسالة». وكان جوزيه دي أليнкаر هو أبرز ممثلي هذا الاكتشاف، لأنه كما يقول كانديدو، تناول كل ألوان الموضوعات المتعلقة بالبحث: المدينة، والريف، والغابة (الهنود). وإن الرواية البرازيلية في القرن التاسع عشر تسير في تطور مختلف عن تطور الرواية الهسبانية-أمريكية. وبالفعل، فإن نضج كاتب من قبيل ماتشادو دي أسيس يشير إلى أن البرازيل قد سبقت بقية القارة في تحقيق مركب من «الحكمة المحلية» و«التطعيمات الأوروبية». وتبدو إضافته إلى «الهوية البرازيلية» متكاملة في أعماله، بينما لا يقوم فيها ضجيج ظهور «أمريكا» ورغم ذلك، قدم ما شادو، - مستفيداً بعمق من تجارب سابقه، «مثالاً على كيفية عمل أدب عالمي، من خلال تعميق الإيحاءات المحلية... إنه أكثر من وُجد من الكتاب برازيلية على الإطلاق، وأعظمهم بالتأكيد؟؟ هكذا يؤكد الرأي الخبير لأنطونيو كانديدو.

ليس ثمة حالة مماثلة لحالة ماتشادو دي أسيس في النثر الأمريكي باللغة الإسبانية في القرن التاسع عشر، فلا رواية الحداثة الباهتة، ولا الفن القصصي الواقعي - الطبيعي، أنتجا أسماء هامة تطاول المؤلف البرازيلي - وذلك حتى عام ١٩١٦، الذي تبدأ به فترة جديدة. على العكس، ففي سعيها إلى الغربية depaysement، أنتجت الحداثة حالات ارتداد أو تراجع، من قبيل حالتي إنريكي لاريتا Enrique Larreta وكارلوس ريليس Carlos Reyles؛ وكلاهما يمجدا المثال الهسباني.

ومهما كان الأمر، فإن برنامج الرومانسيكين - أدب الموضوع والمحتوى الأمريكيين - هو بحث عن هوية القارة، يتمتع بحس بالمستقبل وبمفهوم شامل لأمريكا اللاتينية. بهذا المعنى فإن أدب العادات، والأدب الإقليمي، بتمجيدهما للسماة المحلية، يتناقضان - بحكم تحدد أغراضهما - مع الموقف العالمي لأسلافهم. والموقف المقابل بصورة أكثر جذرية هو الموقف - الرجعي من وجهة نظر البرنامج - الذي اتخذه المؤلفون المواليون لإسبانيا، مثل ريليس ولاريتا

المذكورين، أو مثل ريكاردو بالم Ricardo Palma الذي خلق الخرافة الاستعمارية حول ممتلكات التاج في الأدب الهسبانو-أمريكي. كذلك لم تسهم النزعة الهندية بالكثير في المشروع «القومي»، لأنها رغم نيتها الأهلية في تصوير الهندي الأصلي، وقعت في مأزق النسخ الخاضع للقوالب الرومانسية حول «الهمجي الطيب» الأوروبي. ولم تكن سوى تعبير، سطحي وعابر، عن موضوعة أدبية. ورغم ذلك تكتسب النزعة الهندية، في البرازيل، طابعاً أكثر برنامجية (إن إيراسيما Iracema هي صورة أمريكا)، وكذلك تكتسب نوعية من أعمال جوزيه دي أليكار وجونزالفيس دياز، الأول في الرواية، والثاني في الشعر. يقول كانديدو: «شكلت النزعة الهندية قوة هامة للوعي القومي».

وفي الحقبة نفسها، وقع الشعر المناهض للعبودية من كاسترو ألفيس في مأزق إضفاء الطابع المثالي الأسطوري على الزنجي، وهذا الإضفاء، رغم ذلك، يشكل شرطه مشكلة فعلية، فلم يكن الزنجي سوى مجرد تجريد. لم يكن ينقصه الإخلاص، لكنه كذلك لم يستطع تجنب الايديولوجيا الإنسانية لعصره. هذه الايديولوجية-التي تعتبر العبودية فصلاً مؤسفاً في «دراما المصير التاريخي» وهكذا نظر إلى الزنجي من خلال المنظار البليغ والسطحي لأستاذه، فكتور هيجو.

(ج) مشكلات جمالية واجتماعية.

إن الحداثة الهسبانو-أمريكية، التي أولت أهمية بالغة للمستوى التعبيري، لم تضيف شيئاً لمشكلة الموضوع - وقد رأينا ارتدادها -، فقد قادها همها الكوني إلى تجنب الوسط المحيط بصورة منهجية. هذا الموقف يجد تفسيره في إطار إيديولوجية الفترة. فقد كانت تلك هي اللحظة التي ظهرت فيها المراكز الحضرية الضخمة، والتي دخل فيها الاقتصاد الأمريكي اللاتيني في دائرة الأسواق الدولية. أصبحت التجارة عالمية وصارت الأوليجاركيات كوزموبوليتانية، مثل الأدب الذي تنتجه الفترة. ورغم ذلك، أدار المحدثون أبصارهم صوب أمريكا في لحظة معينة (آرييل Ariel لروودو، عام ١٩٠٠، و أناشيد الحياة والأمل Cantos de vida esperanza لداريو، عام ١٩٠٥، و أغنيات دنيوية Odas

seculares للوجونس Lugones عام ١٩١٠). ولودققنا في تواريخ النشر، لأدركنا أن الكتب الثلاثة قد صدرت بعد أن قامت الولايات المتحدة بتدخلين في أمريكا اللاتينية: في كوبا وبورتوريكو (عام ١٨٩٨)، وفي بنما (عام ١٩٠٣) وما يحاولونه هو الحفاظ على «القيم الروحية التي تشكلها لغتها، وقوميتها، وديانتها، وتقاليدها» (٢) في مواجهة الوجود المقلق لأمريكا الشمالية. لكن الأمر ليس أمر معارضة جذرية، فالإعجاب بالولايات المتحدة كبير، كما يمكن أن نرى ذلك بوضوح في الجزء الأول من قصيدة إلى روزفلت («الولايات المتحدة قوية وعظيمة») وبالأخص في تمجيد إلى النسر، لداريو. كان الأمر، بالأحرى، أمر منافسة «قومية»، إزاء القوة المتعاضمة لأمريكا الشمالية. لعلنا، إذن، لموقف المحدثين بالبرنامج ذي النزعة الأمريكية اللاتينية لدى الجيل السابق عليهم، ورؤية القارة لديهم سطحية، وطرائفية، أو ذات نزوع جمالي (كل الألفاظ والأسماء الأمريكية التي يثرها داريو من بعض قصائده مستخدمة بسبب ثرائها الصوتي أو للغرابة التي يمكن أن يتمتع بها تعبير من أصل شرقي).

ويجد برنامج «الاستقلال الأدبي» لدى الرومانسيين استمراره الكامل في موقف الكتاب الذين ظهروا في العقد الثاني من القرن الحالي، أي ابتداءً من رواية الثورة المكسيكية (من ١٩١٦، سنة نشر أناس الحضيض). فهؤلاء الكتاب بدورهم يتخذون موقفاً أخلاقياً أساساً ويحاولون، مثل الرومانسيين، البحث عن الهوية الأدبية الأمريكية عن طريق الموضوع، عن طريق المحتوى. ويقف التشابه عند هذه النقطة، لأن الزمن كان قد تغير، بالطبع، ولأن الايديولوجيات كانت قد شهدت تحولات. بالنسبة للأولين كانت الشعارات التي يؤيدونها هي شعارات الليبرالية السياسية والاقتصادية، متحدة مع المفهوم الوضعي للتقدم. وحين ظهر جيل الكتاب الذي يسميه خ. أ. بورتوونديو Portuondo جيل «المشكلات

(21) Luis Monguio, De la problematica de modernismo : la critica y el cosmopolitismo, en Estudios criticos sobre el modernismo, editados por Homero Castillo, Madrid, Gredos, 1968

الاجتماعية»، كانت الثورة المكسيكية في أوجها، وبعدها بقليل حدثت الثورة الروسية، وفي أمريكا الهسبانية أجرى الإصلاح الجامعي. وهذه كلها أحداث سياسية بارزة وسمت بصورة عميقة أعمال تلك الفترة، وحددت الاهتمام الأساسي للمؤلفين بالمشكلات الاجتماعية، وأبرزت الطابع الملتزم لذلك الأدب. وقد أبدع جزء من هذا الأدب تحت شعار الأفكار الماركسية، والتي كان أحد منظريها الأساسيين خوسيه كارلوس مارياتيجي José Carlos Mariátegui أحد منظريها الأساسيين وتزداد حدة جهد الخلاص، للسبب نفسه الذي يجعل العنصر الإنساني أشد حضوراً. وبالإضافة إلى اكتشاف الطبيعة - وتحولاتها - كأساس للهوية الأمريكية اللاتينية، تظهر بوضوح المساواة الاجتماعية، التي كان من الضروري علاجها - أو شجبها على الأقل - وكذلك أوضاع الاستغلال.

الآن جزءاً من هذا الفن الروائي - الجزء المسمي باسم «رواية الأرض» ينتهج خطأ يكاد يكون مماثلاً لخط القرن التاسع عشر: الإعجاب تجاه الطبيعة البرية، التي يجب فيها عدا ذلك تقليصها لجعلها منتجة، مواجهة الإنسان مع القوة الجامحة للوسط المادي، تقابل مفهومي «الحضارة» و «الهمجية» (عند رومولو جاجيو Gallegos، وألثيدس أرجيداس Arguedas، وخوسيه إيوستاسيوريڤيرا Rivera، وماريانو ازويلا، Azuala، وأوراثيو كيروجا Quiroga، ونكتفي بذكر بعض الأسماء الهامة) وأغلب ذلك الأدب أدب سياسي، أدب شجب وتمجيد بصورة حاسمة. وفي هذه الأثناء، كان الوضع التاريخي قد تغير منذ زمن الجيل الرومانسي. فقد كفت إسبانيا عن كونها هدف هجوم الكتاب الهسبانو-أمريكيين. كان العهد الاستعماري بعيداً، وكانت المصالحة التي أجراها كتاب عام ٩٨ مع المحدثين قد أصبحت معتمدةً من جانب جيل عام ٢٥ وأثبتتها تضامن الكتاب الأمريكيين اللاتين مع قضية الجمهورية زمن الحرب الأهلية (الإسبانية). ولو حللنا الحقبة التي ظهر فيها «جيل المشكلات الاجتماعية» من زاوية التناظر الاجتماعي - الأدبي، لوجدنا أن من الممكن إثبات أنها تترافق مع

لحظة حادة من التغلغل الإقتصادي، ومن التدخلات المسلحة من أمريكا اللاتينية. يكتب أدب «مناهض للامبريالية» لشجب تلك الغزوات أو الظروف البائسة التي يعيش فيها المضطهدون: في المناجم: وفي مزارع الموز، وفي حقول البترول. ويظهر في الأعمال بإلحاح متزايد نمط «الجرينجو gringo»، (*) مرسوماً باعتباره شخصية جشعة، خشنة، قاسية، سمت اللوحة المزعجة لاستغلال القارة الخلاسية بعجلة، وبغضب، وبأشكال مشوهة، كاريكاتورية، غريبة، وصب فيها من نوايا الشجب والخلاص أكثر مما صب فيها من الرغبة في خلق عالم روائي.

وفي أعقاب الاكتشاف الحداثي العشوائي - والجمالي إلى حد بعيد - للبلاد، غرس الروائيون البرازيليون لعقد الثلاثينات فناً روائياً معادلاً تماماً للفن الروائي لمعاصريهم الهسبانو - أمريكيين. وأكثرهم شهرة هم الذين يطلق عليهم اسم «روائيو الشمال الشرقي»: جراسيليانو راموس، وجوزيه لينس دوريجو، وجورج أمادو.

وضمن التيار الاجتماعي يهمن أن نبرز الاتجاه ذا النزعة الهندية، الذي يرتبط بموضوعنا بشكل خاص. والاختلاف الذي يميزه عن الموقف الرومانسي المثالي لأنصار الهنود هو التركيز الذي يوليه للمشكلات الواقعية للهندي، بوصفه عنصراً هامشياً في مجتمع طبقي. وقد رأينا النتيجة غير المقنعة التي أنتجتها النزعة المحلية على المستوى اللغوي. وبوصفها موضوعاً عانت أيضاً من أخطاء لا يمكن إنكارها: القولية الكاريكاتورية، والموقف الإنساني البارز الذي حاول الدفاع عن الهنود ضد الاستغلال، مديناً من الآن نفسه ثقافته، نتيجة لمشروع المساواة والتكامل في المجتمع «الأبيض» الذي كانت هذه النزعة تنطوي عليه. وكان العكس متوقعاً: فقد قامت النزعة المحلية على أساس المعايير الكلاسيكية الغربية

* الجرينجو: تطلق أساساً على الأمريكي الشمالي المتطرس المغامر الفظ، وقليلاً ماتطلق على الانجليزي، وتحمل معنى الاحتقار - (المترجم).

المتمحورة عرقياً. والكتاب الذين تجاوزوا تلك الخطوط العامة - مثل أرجيداس وأستورياس - هم الذين يؤكدون بوضوح على محددات الثقافة المحلية الهندية من خلال تقييم الاستمرار الذي تتمتع به محاور تلك الحضارات.

المناسبة الأخرى التي يظهر فيها الالتقاء الثقافي الإشكالي بوصفه موضوعاً للأدب الأمريكي اللاتيني، تحدث مع ظهور المشكلة الزنجية. وقد رأينا مولد النزعة الزنجية باعتبارها أداة تعبيرية ذات ايقاعات أفريقية. وبعدها ظهرت «الزنوجة»، التي تحاول تفسير الجذور العميقة لمحصلة تلك الصدمة الثقافية. وتعيب هذه الحركة على النزعة الزنجية عدم ابقائها إلا على الجانب السطحي والفولكلوري لـ «وضع الزنوج في أمريكا» (٢٢). وهي تبشر بتمرد قادر على أن يضع في اعتباره «البحث عن الهوية». وأنجح ما في هذه الحركة أدب جزر الأنثيل، باللغة الفرنسية في المقام الأول، وفي اللغة الإسبانية يكفينا أن نذكر كتاباً من أمثال نيكولاس جين Guillen وأدالبرتو أورتيث Orteiz. إن الموقف الأخلاقي للزنوجة يضمنها إلى تيار «المشكلات الاجتماعية» في الآداب الأمريكية - الهسبانية.

الخلاصة هي أن البحث عن الهوية الأدبية من خلال عمل رواية إجتماعية وملزمة يمثل مرحلة مهمة في عملية تحديد هوية الواقع الاجتماعي ذاته. لكنه كان بحثاً عقيقاً بمعنى من المعاني. وكان معيار «الصدق الوثائقي» نفسه الذي جرى تبنيه خادعاً، لأنه قدم قشرة خارجية شوهتها نية الخلاص التي كانت لدى كل مؤلف. بهذا المعنى يكون طابع الأدب «الاجتماعي» الذي نسب إليه قابلاً للشك (٢٣). وبهذا الصدد يقول ماريانو مورينجو Morinigo إن: «واقع هذا

(٢٢) راجع René Depestre Problemas de la identidad del hombre negro en las literaturas antillanas, en Casa de las Americas, num. 53, La habana, marzo-abril de 1969.

(٢٣) يوجد تحليل لهذا الشأن، على أساس نظريات تيودور أدورنو في كتاب Rubén Bareivo Saguier, Documento y creacion en las novelas de la guerra del chaco, en Aportes, num. 8, Paris, 1968.

الأدب ليس هو الواقعية بل الرسالة، الضمير، الحافز، البرنامج المصنف، الذي لا يمكن فصله عن البراجماتيه الهسبانو- أمريكية: الشجب والقتال». أما الناقد الماركسي خوسيه كارلوس مارياتيغي Mariategui فكان قد أفزعه خطر واقعية تبتعد عن الواقع. ناهيك عن ذكر الاساءات - التي مازالت عواقبها المشؤومة قائمة- والتي قادت إليها المحاولة الضيقة لصياغة أصالة الكاتب الأمريكي اللاتيني على أساس العنصر الأرضي والاحتجاج.

وكما رأينا عند تحليل المستوى اللغوي، كان اسهام ظاهرة الهجرة هامشياً: فقد كانت غالبية المهاجرين أمية، وكان إسهامها الثقافي المباشر صفرأ تقريباً. والآن، فإن وجودها في الأدب يسجل على مرحلتين: في الأولى نجد عدم التوافق الحادث في نظم المجتمع الأرجنتيني التقليدي - ظهور «بابل في بوينوس آيرس، على سبيل المثال - بسبب وصول أعداد ضخمة من العنصر الأجنبي. وقد أنتجت هذه المرحلة من أدب الإنعكاس أعمالاً ذات قيمة مثل أعمال بايرو Payro، وفراي موتشو Mocho أو فلورنثيو سانتشيز، الذين انشغلوا بالمهاجر. والأدب في المرحلة الثانية نتاج لتفريغ الالتقاء ومحصلة بالنزاع الناشئ عن الوضع العميق للفرد الذي لم يندمج بعد في أرضه الجديدة، فالحنين إلى الأصل - المفقود بلا رجعة - يظل يقرض ذكرى أسلافه. وحول هذا الموضوع، الذي أسيء بحثه، أود أن أبرز تفسيراً لروجه باستيد حول بعض جوانب عمل بورخس (٢٤). فهذا العمل يبدو أنه «لا يحفظ شيئاً من الحقائق الأمريكية»، ويبدو كأنه مجرد نتاج «لأساطير شخصية». وعند اجراء التحليل الاجتماعي، يؤكد باستيد أن بورخس يتوحد مع «الفارس الذي هجر سهول اليامبا ليحيا في المدينة الضخمة... التي أقامها التاجر» وليس القروي. وبوينوس آيرس هي «الميناء الذي يشير إلى بقية العالم»، والذي هو بدوره صدى له بسبب الاسهامات اللانهائية التي تلقاها. ويردف باستيد قائلاً «فيه نصادف، بلاشك، أصل أساطير أخرى لدى بورخس:

(24) Roger Bastide, L'Amerique Latine dans le miroir de sa littérature, en Annales, num 1 Paris, 1 - 111, 1958.

أسطورة الكتاب الذي لا يكون البشر فيه سوى أبيات ، كلمات وحروف ، مثل سجلات التجار التي يتلخص فيها الأفراد في أرقام ، وأسطورة المركب الكوني الذي يذكرنا باللغة التحليلية لدى جون ويلكين John Wilkin أو بحساب لينتز ، والذي يقترب بنا ، بإضافته للتجانس على ماهو متعين ، من رياضيات التجار . والتفسير راق ، وجرىء ، ومتمكن مثل كل أعمال روجيه باستيد . وفيه نرى الموضوع بدءاً من عكسه ، متضمناً - باعتباره صراعاً داخلياً - في أعمال كاتب عظيم .

(د) المركب الحالي .

يقودنا هذا إلى بحث جانب «المضمون» في المفهوم كما يفهمه الروائيون الذين بدأوا النشر حوالي عام ١٩٤٥ . إن الكتاب الأمريكيين اللاتين الحاليين يحققون مُركباً (أدبياً) ثقافياً مستفيدين من الاسهامات الثقافية المتعددة ، ومن التوترات الناشئة عن تلك الالتقاءات المتنازعة ، ومن التجارب السابقة والناجمة عن رغبة في التعميق والتجريب . من هذه المحاولة تخرج رؤية الواقع وقد أثراها تعدد المنظورات . وقد شخص بورخس الانتقال من مفهوم الى آخر بعبارة تهكمية وواضحة قائلاً : «الواقع ليس كريولياً بصورة متصلة» . وإذا كان هؤلاء الكتاب يرفضون الوصف الخطي ، السطحي للوسط الاجتماعي - الثقافي ، ويرفضون القصد الأخلاقي الصريح ، فذلك في سبيل أن يتناولوا - بأقصى التنوع والتعقيد ، والانقطاع الاشكالي المتناقض الذي يكتسبه - ذلك الإطار الاجتماعي التاريخي لقارة متخلفة تتأرجح بين قطبين متنافرين : الثورة والتبعية الكاملة . لهذا فإن الواقع الذي يظهر في الأعمال الراهنة هو واقع أسطوري ، أرضي ، مجازي ، خرافي ، أو يومي ببساطة . أو كما يقول خوليو كورتاثار Cortázar ببلاغة : «إن الواقع الأصيل أكثر بكثير من مجرد السياق الاجتماعي - التاريخي والسياسي ، إنه طبيب أسنان يروى وكل سكان أمريكا اللاتينية كل إنسان والبشر جميعاً ، الإنسان المعذب ، الانسان في قلب الدوامة التاريخية ، الإنسان العاقل و الإنسان الصانع والإنسان الأرضي ، الشبق

والمسؤولية الاجتماعية، العمل الخصب ووقت الفراغ الخصب، لذا فإن أدباً جديراً باسمه هو ذلك الذي يؤثر في الإنسان من كل الزوايا (وليس فقط، أو أساساً من الزاوية الاجتماعية السياسية، لكوننا ننتمي إلى العالم الثالث) والذي يتسامى بالإنسان يحفز، يغيره، يبرره، يخرج من موقعه، يجعله أكثر واقعية، أكثر إنسانية...» (٢٥) وفي تأكيد كورتازار وعلى أن الأدب يمكنه ألا يكون ذا «مضمون صريح» يضيف: «ليست الرواية الثورية هي فقط تلك التي يكون لها «مضمون» ثوري بل تلك التي تحاول تشوير الرواية ذاتها، تشوير شكل الرواية...» هنا يظهر جلياً عرض «المضمونية» ومحاولة توسيع هذا المفهوم، وذلك على لسان أحد المنخرطين في المهمة.

وكثيراً ما تستفيد هذه الطريقة من المكونات الثقافية الأساسية. لهذا فإن الحضور الكامن والمترسب للرموز الميثولوجية الهندية بوصفها موضوعاً (ثيمة) يمكن تبيينه في عدد كبير من الأعمال الراهنة خصوصاً بين المكسيكيين (فوينتس Fuentes، ورولفو Rulfo، وأريولا Arreola، ويانيث Yanez)، ولدي كتاب من بلدان أخرى، مثل أرجيداس Arguedas، وروا Roa، باسطوس Bastos. ولانشير هنا إلى الاستخدام المباشر بل إلى التحويل الأدبي، إلى التطوير العصري - بالنسبة للحكاية - للعنصر الأسطوري.

إذا فهم الموضوع أو المضمون على هذا النحو، من خلال المنظار المطروح، يمكن اعتباره بحق عنصراً محدداً للهوية الأمريكية اللاتينية في الأدب، لأنه محصلة أشد الاسهامات الثقافية تنوعاً، وهي محصلة مفتوحة دوماً للإسهامات الجديدة.

ويصبح البحث أكثر صحة إذا وضعنا في الاعتبار أن ذلك المفهوم يتبدى من خلال تعبير يتشكل داخل نسق اللغة الموروثة ومن خلال التمزقات اللانهائية للبراعم الجديدة في الجذع الإسباني العتيق.

(25) Oscar Collazos, Julio Cortazar, Mario Vavgas Llosa, Literatura en la revolución y revolución en la literatura, México, Siglo XXI 1970

في كلتا الحالتين - اللغة والمضمون - أثبتنا أن العملية تبدأ كتأكيد قومي ، تتلوه
مرحلة محاكاة ، وأخيراً تميل إلى العثور على صيغة أصيلة ، أي على مركب يجمع
بين العناصر الخاصة والعناصر الخارجية .

نعم ، كما قلت إن القارة الخلاسية هي مُركَّب ، وأدبها هو مُركَّب لأمريكا
الخلاسية .



الفصل الثاني

التعدد اللغوي

أنطونيو هوايس*

Antonio Houaiss

١ - الأساسان الأيبيريان : الإسبانية والبرتغالية .

من المؤلف وصف أمريكا اللاتينية على أنها متصل Continuum متماثل جغرافياً وديموغرافياً، وتاريخياً وثقافياً ، لكنه يمثل حالياً تعددية لغوية واضحة . ويجب فهم ذلك على أنه ملمح عام لرقعة تمتد من نهر الريبوجراندي ، عند الحدود الشمالية للمكسيك (بامتدادات داخل الولايات المتحدة الأمريكية ، عند نقاط حدودية معينة مترسبة ، وأخذة في الاضمحلال) حتى مضيق ماجلان في أقصى جنوب أمريكا الجنوبية . على هذه الرقعة ، شكلت ثلاثة أنواع من الماضي الإنساني القسمات الحالية : ما يسمى «بالهندي الأمريكي» ، السابق على الاستعمار الأوروبي ، والإفريقي بوصفه أداة للأوروبي من أجل الاستعمار . أما العناصر الآسيوية ، من الهند بالدرجة الأولى ، أو من أصول أخرى ، فهي متأخرة الوصول ولم تؤثر كثيراً في العملية رغم أهميتها الملحوظة في مواقع محددة في البحر الكاريبي ، وفي جويانا البريطانية . وفي الملامح اللغوية الحالية ، التي مازالت غير مستقرة ، ثمة بقايا من مظاهر يجب أن تؤدي ، إذا لم يتغير المسار التاريخي الحالي

(*) ناقد وصحفي برازيلي (ولد في ريو دي جانيرو ١٩١٥) من أعماله الأساسية : ستة شعراء ومشكلة واحدة . (ريودي جانيرو ١٩٦٠) إحياءات لسياسة في اللغة (ريو ١٩٦٠) ، ترجم رواية أوليسيس لجيمس جويس (١٩٦٦) .

بصورة جوهريّة، إلى لوحة لغوية جديدة لن يتبقى فيها من الماضي الهندي - الأمريكي والإفريقي سوى بقايا رسوبية، إذ إنه في سبيل غايات عمومية متصلة للتماسك القومي والتنظيم الاجتماعي - الثقافي، تسود المنطقة اللغتان الإسبانية والبرتغالية بصورة أساسية. وتضم المنطقة المسماة «إسبانية» نحو ١٤٠ مليوناً من البشر، (*) ٩١٪ منهم أحاديو اللغة، وتضم المنطقة «البرتغالية» نحو ٩٠ مليوناً، ٩٧٪ منهم أحاديو اللغة. في الأولى، ٤٪ تقريباً أحاديو اللغة يتكلمون لغة هندية - أمريكية، وفي الثانية، حوالي ٧,٠٪. وفي الأولى حوالي ٣٪ ثنائيو اللغة يتكلمون الإسبانية وإحدى اللغات الهندية - الأمريكية، أما في الثانية، فإن ثنائيي اللغة الذين يتكلمون البرتغالية وإحدى اللغات الهندية - الأمريكية يمثلون كسراً لا يذكر إحصائياً. والباقي في كل من الحالتين هو ثنائي من الإسبانية، أو البرتغالية مع لهجة الهجرة غير - الأيبيرية (٢٪ في حالة الإسبانية، و ٢٪ في حالة البرتغالية). وثنائيو اللغة من هذا النوع الأخير يصبحون، عموماً، أحاديين في الجيل الأول أو، إذا طال الأمد، في الجيل الثاني، دون أن نضع في الاعتبار الحالات الشائعة نسبياً في الطبقات المثقفة، أي حالات الثنائية نتيجة التعليم المدرسي (مع التفضيل المتزايد للغة الانجليزية).

فمن الماضي الهندي - الأمريكي، لا يزال ثمة تنوع لغوي منطوق واسع ومركز مع خطوط عريضة لمحو الأمية. وحين يكون ثمة محور للامية فإن هذا التنوع يشكل في الوقت نفسه طريقة لاكتساب الإسبانية أو البرتغالية (وهذه الحالة معدومة عملياً) إذ إنه يجري بحروف لاتينية تعطى مفتاح محو الأمية باللغة السائدة.

ومن الماضي الأيبيري، الذي جاء مع الاستعمار، هناك بالتالي عملية توحيد لغوي واسعة ومركزة في كل من اللغتين موضع البحث - الإسبانية والبرتغالية -

(*) هم حسب إحصاء سنة ١٩٨٤ حوالي ١٩٠ مليوناً في المنطقة الإسبانية و ١٢٥ في البرتغالية. وقد يبلغون اليوم ٣٥٠ مليوناً. [المراجع].

فيها نجد تكون اللهجات أو اللهجات الفرعية، الحديثة نسبياً، ضعيفاً، ولا يمثل عقبات في وجه التواصل السهل المتبادل بين الأفراد المتحدثين في أي واحدة من المنطقتين فيما بينهم. ويميل هذا إلى الإسراع بالتوحيد، بفضل وسائل الاتصال الجماهيري، وبفضل زيادة محور الأمية، والتغلغل المتبادل المتزايد للأعمال المكتوبة، سواء الأدبية، أو العلمية، أو التي لها طبيعة أخرى. وهناك لغة لاتينية، هي الفرنسية، لها منطقتها المحدودة في هايتي وجزر الكاريبي القريبة منها، ولغتان أوروبيتان غير لاتينيتين - هما الانجليزية والهولندية - لهما امتدادات في الكاريبي وفي شمال شرقي أمريكا الجنوبية.

ومن الماضي الأفريقي لا توجد سوى عناصر مترسبة، أو على شكل عناصر لفظية مندمجة في اللغة العامة (ذات أهمية ضئيلة في مجمل الإسبانية، وذات أهمية أكبر في البرتغالية)، أو في شكل رواسب في اللغات «الكريولية»، التي سنبحثها فيما بعد. ومن بين الخمس مجموعات (اللغوية) الإفريقية (الأفرو - آسيوية، المسماة تقليدياً باسم الحامية - السامية، والنيلية - الزراعية، والنيلية - الصحراوية، والنيجيرية - الكونغولية، والخويسان Khoisan) كانت الغالبية العظمى للعبيد المجلوبين إلى أمريكا تنتمي إلى المجموعة النيجيرية - الكونغولية، لكنهم أتوا وهم يتكلمون عدداً بالغ التنوع من اللغات. من فروع هذه المجموعة (الفولانو، والماندينجا، الإيبو، واليوروبا، والفانتي، المالية (نسبة إلى مالي)؛ الكونغولية، والمبوندو، وكل واحد من تلك الفروع ذو لغات متميزة أو بأشكال من لهجات تلك اللغات). وظلوا دائماً موضوعاً لسياسة عبودية متجانسة: فقد جرى الاهتمام بالألا يتركوا متجمعين حسب انتماءاتهم اللغوية، وذلك من أجل فرض لغة المستعمر عليهم ولإعاقتهم عن القيام بتمردات كبيرة. وحيثما كان لهم وزن عددي كانوا يشكلون، على هذا النحو، اليد العاملة دون منازع، وقد جلبوا تأثيرات دينية عميقة وقاموا بدور حضاري هام، ولما كانوا أكثر تقدماً من العناصر الهندية - الأمريكية في الأعمال اليدوية، فقد أدلوا بدلوهم لغوياً في القاموس المتعلق بالعلاقات بين الكلمات والأشياء، وبصورة عارضة في أسماء الأماكن،

وأدوات العمل ، وفي الموسيقى قبل كل شيء .

وقد عانى عدد الأفراد الذين يتكلمون لغات هندية - أمريكية من تناقص كارثي خلال القرنين الأولين للاستعمار، وربما شهد القرن الثالث استقراراً نسبياً للمستوى المنخفض التي تم الوصول إليه، وخلال القرن الرابع للاستعمار حدثت زيادة نسبية في عدد السكان سواء بين المجموعات التي كتب لها البقاء، أو بتفضيل مجموعات معينة، على حساب أخرى في الهجرة وفي المجموع، ويعتقد أن عدد السكان الهنود - الأمريكيين في هذه اللحظة يساوي عددهم عند بداية الاستعمار. وعلى أي حال، فإن الفصيل الهندي في مجموعته، وفي نسبته المثوية، هو الفصيل الذي يتزايد ضالة من وجهة النظر اللغوية.

إن السيطرة اللغوية للعناصر الأوروبية هي بشكل أساسي نتيجة السيطرة السياسية لفترة طويلة - أربعة قرون - على سكان هنود - أمريكيين وأفارقة، يمثلون في وقت معاً ثلاث خصائص من التنوع: أولاً، غياب الوحدات السياسية الضخمة (حتى في الحالات الاستثنائية، مثل إمبراطورية الإنكا). وثانياً: ونتيجة لما سبق، التفتت اللغوي الكبير، وثالثاً: غياب اللغة المكتوبة التي يمكنها، عن طريق حفظها في كتابات، أن تكون قابلة للتواصل (دون اتصال شخصي) في الزمان وفي المكان. على هذا النحو، فإن كل لغة من لغات المستعمر الأوروبية، رغم كونها لغة أقلية خلال فترة طويلة تجاه مجموع اللغات الهندية - الأمريكية، أو تجاه لغة معينة في كل إقليم جغرافي فرعي، سرعان ما اتجهت إلى أن تكون لغة الأغلبية. وقد أتاح لها ذلك، عند بدايات القرن التاسع عشر، لا أن تكون اللغة السائدة عددياً فقط، بل أن تكون كذلك اللغة الوحيدة الصالحة كأداة للتواصل الاجتماعي العملي، وكأداة للنتاجات الروحية الفنية والعلمية، وكذلك في تشكيل القوميات الأمريكية اللاتينية.

ومن المهم في هذا الصدد التأكيد على أن الأفراد في القوميات الأمريكية اللاتينية يدركون إدراكاً تاماً أن الإسبانية أو البرتغالية تشكلان لغتهم الدارجة «الطبيعية» لكن الجدل الإسمي والقومي وحده أدى، خلال فترة من معينة، إلى

التجنب المصطنع للتسمية الحقيقية، مستبدلاً بها تسمية «اللغة القومية»، من ناحية، أو بتسمية أكثر جذرية من قبيل «الأرجنتينية»، و«التشيلية»، و«البرازيلية»، كما أدى من ناحية أخرى إلى الافتراض الزائف بأننا أمام لغات مختلفة. ويأتي مثل هذا الافتراض من تعليل ميكانيكي مشابه يقيم العلاقة التالية: أن اللاتينية هي بالنسبة - للإسبانية (أو البرتغالية)، مثل الإسبانية (أو البرتغالية) بالنسبة للأرجنتينية أو البيروانية أو التشيلية أو المكسيكية، الخ (أو البرازيلية).

٢ - اللغات الهندية.

في أمريكا اللاتينية حالياً توجد تقريباً نحو خمس عشرة لغة هندية - أمريكية يتكلم كل لغة منها أكثر من مائة ألف شخص، وثلاث لغات فقط يتكلم كل لغة «منها أكثر من مليون، وهي: الكتشوا (حوالي ٥٧٠٠٠٠٠)، والأيمارا (حوالي ١١٥٠٠٠٠) والجواراني (حوالي ١٧٠٠٠٠٠). وفي المجموع يوجد اليوم نحو خمسمائة لغة هندية - أمريكية متكلمة. وهناك عدد كبير، من الصعب تقديره، لم يعد متكلماً واختفى دون آثار لعدم وجوده، كما يفترض، في لغات هندية - أمريكية أخرى. وهناك عدد ليس بالقليل في طريقة للاختفاء دون رجعة - إذا بقيت التركيبة الاجتماعية الراهنة -، إذإنها لغات يتكلمها بضع مئات إن لم يكن بضع عشرات من الأشخاص.

وفترض أنه عند بدايات الاستعمار عرف ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ لغة هندية - أمريكية، أو بالأحرى، نصف اللغات الموجودة الآن على الأقل. ويمكننا أن نفترض، مع التحفظات التي يملها الحرص، أن النسبة نفسها تنطبق على بقية المنطقة. ومن ثم، ومع اعتبار الوجود الحالي لأكثر من ٥٠٠ لغة، يمكننا التسليم بافتراض وجود نحو ألف لغة عند بداية الغزو. ومن الضروري، بالإضافة إلى ذلك، أن نأخذ في الاعتبار أن عملية التوحيد أو الاحتكاك الثقافي اللغوي - بالاختضاع أو الاختفاء المستمر للغات المهزومة - قد جرت قبل الاستعمار. فالفصائل التي مازالت كبيرة العدد نسبياً من الأفراد الذين يتكلمون

الكتشوا، والأيمارا، والجواراني لا بد من أنها جاءت نتيجة لتوسعها «السياسي» على سكان آخرين، متنوعين لغوياً، سواء أكان بينهم تشابه أم لم يكن.

إن اللوحة اللغوية الهندية - الأمريكية، منظوراً إليها في جوانبها الوصفية والتصنيفية الخالصة منذ ما قبل الاستعمار وحتى أيامنا هذه، يمكن أن تقودنا إلى نتيجة أنه على امتداد الفترة الزمنية نفسها - من عام ١٢٠٠ إلى عام ١٩٧٠ - لا توجد قارة أخرى، أو امتداد جغرافي آخر مماثل، بكثافة سكانية مماثلة أو أعلى، تمثل مثل هذا التنوع اللغوي الكبير. والقارة التي قد تقترب من ذلك بدرجة أكبر، وبكثافة سكانية أعلى، هي القارة الإفريقية. وبالنسبة لهذه القارة، من المشروع أن نفترض، في فترة أقدم وأكثر تشابهاً من الناحية الثقافية، وجود تعددية مماثلة إلا أن من الضروري أن نؤكد على أن القارة الأمريكية ككل - بسبب استعمارها الأقدم وخصائص تطورها المادي والروحي - تقدم اليوم وضعاً من التوحيد اللغوي أكثر تقدماً بكثير من غيره. فإضافة إلى تقسيم أفريقيا بين سكان ناطقين بالإنجليزية، وناطقين بالفرنسية، وناطقين بالإسبانية، وناطقين بالبرتغالية، وناطقين بالعربية، يجب أن نذكر حقيقة أن الانجليزية والفرنسية خارجيتان جداً وقد يمكنهما أو لا يمكنهما البقاء كلغتين للثقافة حسب جهد التعليم الكبير، أو الضئيل الذي تمارسه الدول القومية الإفريقية الجديدة عمداً بهذا المعنى، وأن الإسبانية ستكون قريباً في وضع محدود جداً، وأن البرتغالية برغم تجاوزها لأربعة قرون من الوجود في إفريقيا، لا يتكلمها أكثر من ٣٠٠٠٠٠ شخص، بين مستعمرين وسكان محليين - والأخرون على الأقل ثنائيو اللغة على الدوام تقريباً - من بين تعداد يبلغ نحو عشرة ملايين شخص.

لقد تقدمت الدراسات التي تحاول تصنيف اللغات الهندية - الأمريكية بقدر ما تخلصت من الهموم القبلية *aprioristicas* التنيطية، أو من البحث التطوري الذي لا جدال فيه. فهي تبحث عن علاقات لغوية محتملة كامنة *Lato sensu*، مما يتضمن وجود صلات ثقافية لكن دون روابط تطورية، أو تنيطية عامة إجبارية، رغم أنها محتملة. وفي نطاق التعددية العامة الهائلة للغات، فإن

التصنيف بناءً على المجموعات Filos يتمتع بقيمة عملية في هذه اللحظة . وتضم كل مجموعة عدة جذوع أو أسر لغوية متقاربة ، توحيدها سلسلة ملحوظة من الخصائص المشتركة بين مكوناتها . ونعرض ، فيما يلي ، المجموعات التسع للقارة الأمريكية بأكملها ، فثلاثة منها على الأقل ليس لها صدى في أمريكا اللاتينية :

١ - المجموعة القطبية الأمريكية - الباليوسيبيرية . - ártico americano paleosiberiano (التي تشمل لغة الأسكيمو) ،

٢ - مجموعة نا - دينه Na - Dene (وعنصرها الأساسي المكون هو أسرة أتابسكا ، مع لغات شمالية في كندا وألاسكا ، ولغات غربية في كاليفورنيا ، ولغات جنوبية في ولايتي أريزونا ونيومكسيكو أساساً . وبين هذه الأخيرة تدرج لغات هنود الأباش والنافاهو (نافاخو) .

٣ - مجموعة ألبونيكينو - الكبرى macro - algonguino (وعنصرها المكون الأساسي هو أسرة ألبونيكينو التي تدرج فيها ، بين غيرها ، لغات هنود الكريي ، وألبونيكينو ، وفوكس ، ومينوميني ، وبلاكفوت ، في كندا وفي شمال الولايات المتحدة الأمريكية) .

٤ - مجموعة السيوكس - الكبرى macro - sioux (التي تضم ، ضمن غيرها ، أسر السيوكس والإيروكيسا ، في الجزء الشرقي والأوسط للولايات المتحدة) .

[٥] مجموعة الهوكا hoka (تضم ، ضمن غيرها ، أسر اليوو ، والبوما ، والشاستا ، والتلابانيكا ، التكيستلاتيكا ، في كاليفورنيا والمكسيك أساساً) .

[٦] مجموعة البينوتي penuti (وتضم ، بين غيرها ، أسر التشينوك ، واليوكوتس ، والمایدو ، والوينتوم ، والميوك - كوستانو ، والكالابويا ، ولغة الزوني ، Zuni ، في غرب الولايات المتحدة ، وأسرة الميكس - زوكي ، والتوتوناكا والمايا ، في المكسيك وجواتيمالا ، وأسرة الأورو - تشيبايا في بوليفيا) .

٥ [٧] مجموعة الأزتيك - تانو azteca - tano (بأسرتي الكيوا - تانو والأوتو - أزتيكا (اليوتو - أزتيكا) ، وتنتمي إلى الأولى اللغات الكيوا في أوكلاهوما ،

والتيفا، والتيو، والتورا في نيومكسيكو، وإلى الثانية، التي تمتد من وسط الولايات المتحدة حتى شمال هندوراس، ينتمي الناهواتل الكلاسيكي - المعروف أيضاً باسم اللغة المكسيكية أو الأزتيكية - والحديث، في المكسيك، ولغات هنود الكومانشى والشوشوني في كاليفورنيا وكثير غيرها، من بينها اليوته (أوتي - يوتاه) واليايوتي، والهوبي، والباباجو، والياكي، والتاراهومارا، والهوتيشول، والكورا).

[٨] مجموعة الأوتو - مانجي Oto - mangué (بأسر المانجي، والأوتومي، والبويولوكا، والميكستيكا، والتشينانتिका، والزايوتيكا، في المكسيك وأمريكا الوسطى).

والمجموعة الباقية تتركز أساساً في أمريكا الجنوبية، لكنها كذلك تضم أسرة من أمريكا الوسطى.

[٩] مجموعة التشيبشا - الكبرى macro - chibcha (وتضم، ضمن غيرها، أسر الميسوماليا أو المسكيتو سومو - ماتاجالبا، في أمريكا الوسطى، من بنما حتى جواتيمالا، والتشيبشا، في كولومبيا، وبنما، وكوستاريكا، ونيكاراجوا، والوايكا، في جنوب فنزويلا وشمال البرازيل. والبارباكوا، في كولومبيا وإكوادور، والتشوكوفي بنما وكولومبيا، وإكوادور).

وأخيراً، هناك وحدتان ضخمتان ختاميتان هما مجموعتان كبيرتان، أو بالأحرى، كيانات أكثر اتساعاً من المجموعات وذواتا طابع افتراضي أكثر. وكلتاها أمريكية جنوبية تماماً.

[١٠] المجموعة - الكبرى خي - بانو - كاريب Je - pano - karib (التي تضم المجموعة الكبرى - خي في البرازيل، وفيها بين غيرها، أسر التاكانا - بانو، في البرازيل، وجويانا، وفنزويلا، وكولومبيا، وقديماً، جزر الأنتيل، والويتوتو، في كولومبيا، والبيرو والبرازيل، والماتاكو، في التشاكو الباراجواي والأرجنتين، واللوي - فيليلا - تشاروا، في الأرجنتين، وأقصى جنوب البرازيل وأوروغواي، والهواربي، في جنوب الأرجنتين).

[١١] المجموعة الكبرى الإنديزية - الاستوائية andino ecuatorial (التي تضم أسرة الكتشومارا - التي تضم لغتي الكتشوا والأيمارا ، والأيمارا مستخدمة في بوليفيا ، بينما الكتشوا واسعة الانتشار في الإكوادور ، والبيرو ، وبوليفيا ، وحتى في شمال الأرجنتين - و ، فيها ضمن غيرها ، أسر التشون ، في باتاجونيا وتيرا دل فويجو ، الزابارو ، في الإكوادور والبيرو ، والتوكانو ، في البرازيل ، وكولومبيا ، والاكوادور والبيرو ، الكاتوكينا ، في البرازيل ، والبونافي ، في البرازيل وكولومبيا ، والأرواك ، في البرازيل ، وبوليفيا ، والبيرو ، وكولومبيا ، وفنزويلا ، وجويانا ، وقديماً في جزر الأنتيل ، التي انتقلت منها إحدى اللغات إلى هندوراس البريطانية ، وهندوراس وجواتيمالا ، والتوبي - جواراني ، في البرازيل ، والأرجنتين ، والباراجواي ، وبوليفيا ، والبيرو ، وجويانا الفرنسية ، والساموكو ، في الباراجواي وبوليفيا ، وكولومبيا ، وفنزويلا) .

رأينا فيما سبق أنه في المنطقة التي أصبحت تشكل أمريكا اللاتينية ظلت تجري عمليات لغوية موحدة بالمعنى الإثنوجرافي . وفي الوقت نفسه كان يجري فرض اللغات الأوروبية وزرعها ، واستمرت هذه العمليات في أكثر من نقطة من المنطقة موضع البحث . وأكثر الأمثلة غمطية هو مثال لغة الجواراني في الباراجواي ، التي مازالت تفرض نفسها في زمننا على سكان إقليم التشاكو . وحدثت ظاهرة مماثلة مع لغة الكتشوا ، في الجزء الشرقي من البيرو بصفة أساسية ، رغم أنها تبدو اليوم في تراجع ، بسبب سيادة الإسبانية ، هذا التراجع ، الذي سبقه توسع في عصور سابقة على الفتح وتالية له ، جرى بالتأكيد في المكسيك مع لغتي المايا والناهواتل . وفي شمال شرقي البرازيل ، في إقليم هنود الماويه ، يبدو أن عملية مماثلة تجري الآن ، رغم أنها شبه مجهولة : فلغة التوكانو تفرض نفسها بوصفها لغة عامة أو شائعة وتوسع من رقعتها ، على حساب لغات هندية - أمريكية محلية أخرى في طريقها للزوال .

وفي مجال النقل عن طريق التعليم المدرسي نجد أن السياسة اللغوية لأمريكا اللاتينية سياسة غمطية : ففي غالبية البلدان يجري فقط تعليم اللغة الرسمية -

الإسبانية أو البرتغالية-، وفي بعض البلدان نجد أنه بالتوازي مع تعليم اللغة الرسمية تتم العملية المسماة بمحو الأمية باللغات الهندية. وفي كلتا الحالتين تسود في مجال النقل اللغتان الرسميتان، حيث أن محو الأمية باللغات الهندية كان المفتاح على الدوام لمحو الأمية باللغة الرسمية.

والجدول رقم ١ يبين وضع ما يسمى بحملات وبرامج محو الأمية للكبار (١). بينما يوضح الجدول رقم ٢ التعددية اللغوية الهندية الأمريكية في عناصرها الكمية.

وبصرف النظر عن المحاولات الحالية لمحو الأمية بواسطة اللغات الهندية الأمريكية، فإن بعض هذه اللغات لها أشكال مكتوبة جديدة بالتنويه.

ولا تملك لغة الناهواتل كتابة خاصة بها. ومع الاستعمار نجح التلقين المسيحي في إدخال الحروف اللاتينية. وعن هذا الطريق أمكن جمع كمية هامة من التقاليد الشفوية تضم أبحاثاً في المعارف الأزتيكية حول أكثر الموضوعات تنوعاً، وهي منبع ثمين لتاريخ تلك الحضارة. ومع مسار العملية الاستعمارية، تم التخلي عن هذه الطريقة، وهناك محاولات لاستعادتها في الوقت الحاضر.

أما لغة المايا فيفترض أن لها كتابة هيروغليفية (بالرموز وليس بالحروف)، لم تفك رموزها حتى الآن، مثلما في حالة لغة الكيتشي. وقد تكرر في حالتها ما حدث مع الناهواتل، وحصلنا بذلك على بحث مسهب حول الدين والعقيدة.

وفي حالة الكتشوا، التي كتبت هي الأخرى بحروف لاتينية، لدينا ميراث من عدد كبير من القصائد والأساطير. وكانت التقاليد المكتوبة أكثر خطأ من البقاء، حيث وصلت حتى الفترة الحرجة عند بداية القرن التاسع عشر. وحينئذ حدث التراجع نفسه ولم تجر محاولات لاستعادتها إلا مؤخراً.

(١) مع تعديلات طفيفة، نقل هذين الجدولين عن دراسة يولاندا لاسترا.

Yolanda lastra, lingüística y alfabetización en Iberoamérica y en el Caribe, publicado en Estudios lingüísticos, vol. num . 1 y 2, Sao Paulo, julio y diciembre de 1967.

وفي البرازيل كان هناك أدب على أساس التلقين المسيحي مصاغ بلغة التوبي-
نامبا. إلا أن الوثائق الوحيدة المكتوبة بهذه اللغة بواسطة هندي أمريكي برازيلي
عبارة عن مجموعة من نصف دسنة من رسائل فيليبى كامارون إلى زعماء هنود
آخرين، يوجه فيها تعليمات ومعلومات بشأن النضال المشترك للبرازيليين،
والبرتغاليين والإسبان ضد الهولنديين في الشمال الغربي للبرازيل في القرن السابع
عشر.

أما في كتابات الآباء الجزويت في جنوبي أمريكا الجنوبية فقد ازدهر الجواراني،
الذي قام الآباء بتعليمه واستخدموه في أعمال ذات طبيعة متنوعة بدءاً من القرن
السابع عشر. ومع الاستقلال السياسي للباراجواي، في القرن التاسع عشر،
اكتسبت الجوارانية الباراجوايية الشكل الأدبي بصورة حاسمة، رغم أنها تستخدم
في أعمال ذات مذاق وجداني في المحل الأول، وتستخدم الإسبانية لأغراض
إدارية، ولأغراض نشر المعارف التكنيكية والعلمية.

٣ - اللغات «الكريولية».

في أمريكا اللاتينية لا بد من تسجيل وجود عدة لغات كريولية، لكن رغم
ذلك، لاتكاد واحدة منها تتمتع بخصائص اللغة الأساسية.

هذا الخصوص توجد في أمريكا اللاتينية، في خليج المكسيك وفي الكاريبي،
تنوعات كريولية للفرنسية، والانجليزية، والإسبانية. وفي لويزيانا يجري
الحديث حالياً بثلاث تنوعات من الفرنسية.

وفي جزر الأنتيل هناك بضع لغات كريولية قائمة على أساس الفرنسية، ويمكن
فهمها فيما بينها، كما أنها متداخلة مع كريولية لويزيانا وأشهرها لغة هايتي، التي
يتحدثها كل سكان هايتي كلغة أم. وتستخدم لغات كريولية فرنسية أخرى في
جزر الأنتيل الصغرى.

الدومينيكان، والمارتنيك، الخ، وحتى في ترينيداد وفي جويانا الفرنسية. وفي
الجزر الواقعة تحت النفوذ الفرنسي هناك تنوعات محلية للغة الفرنسية التي تعتبر

النموذج، والوضع شبيه بوضع هايتي: فحيثما يراد التحقق من التهجية يرجع المتكلمون إلى الفرنسية النموذج، التي تعد بذلك المثال اللغوي رغم أن الكريولية تستخدم في أغراض فنية، وتطعم به الأعمال الأدبية المكتوبة بالفرنسية النموذج. وفي الجزر الداخلة في النفوذ الإنجليزي تتمتع الكريولية بوضع اللهجة patois المحلية، حينما يكون متحدثوها أميين عادةً. ويرفعهم التعليم إلى مستوى الانجليزية النموذج. وتوجد كذلك عدة لغات كريولية على أساس الانجليزية في منطقة الكاريبي: في جزر البهاما، وفي جامايكا، وفي جزر الأنتيل الصغرى، مثل الجزر العذراء، وباربادوس، وترينيداد، مثلما في جويانا وفي سورينام (جويانا الهولندية).

٤ التواصل الفعال والنضج التعبيري.

فيما يتعلق بتطور البرتغالية النموذج في البرازيل طرحت الفرضية القائلة بأن البرتغالية ظهرت في لحظة محددة، في حالة كريولية تامة بالنسبة للغالبية العظمى من الأفراد المتكلمين بها، مع اختلافات إقليمية. وامتداداتها هي التوزيعات المسماة باللهجات في أيامنا هذه، مع اقتراب تدريجي نحو اللغة النموذج. ويمكن إعمال هذه الفرضية بالنسبة لإسبانية أمريكا اللاتينية، بقدر ما بدأت، مثل البرتغالية، في أن تصبح لغة سائدة بين السكان الهسبانو-أمريكيين. فبالنسبة للبرتغالية مثلما بالنسبة للإسبانية ثمة دلائل تبين وجود تبسيطات جوهرية صوتية، ومورفولوجية، وصرفية، وحتى تبسيطات في الكلمات. وعلى أي حال، فإن الظواهر النموذجية يمكن تفسيرها على أنها لاتينية، تصطبغ بميول اللهجات الأيبيرية. والمسألة المتصلة بذلك هي تلك المتعلقة بأصول اللهجات: اللهجة الأندلسية لأمريكا الإسبانية، واللهجة الجنوبية لأمريكا البرتغالية. إن طابع الاستعمار والدراسات الحديثة للهجات الأمريكية اللاتينية تميل إلى إلغاء مثل هذه الفرضيات الشمولية، إذ إن هناك سمات لغوية تجعلنا نفترض ظواهر تقارب وتوحيد أكثر من مجرد كونها امتدادات متطورة لحزمة واحدة من الحقائق اللهجية. ومن الهام أن نأخذ في الاعتبار وجود جهد شامل من الجماعات المثقفة

الامريكية اللاتينية من أجل امتلاك أداة تواصل لفظية موحدة. ففي أمريكا اللاتينية - الإسبانية والبرتغالية - تظهر بكثرة منذ مطلع القرن التاسع عشر، أسس نحوية (أجروميات) مرجعية. يعتبر فيها النموذج الأيبيري، الفصيح، هو الأفضل الذي يجب السعي لتحقيقه، وفيها مورست طوال ذلك القرن مراقبة مستمرة للكتابات، وتضاعفت المجادلات حول تصحيح اللغة وتم تعديل النطق وفق النماذج «النقية» الأيبيرية.

وكما رأينا من قبل، وكرد فعل لهذا التيار الموحد، جاءت مع النضج الأدبي لأوائل القرن العشرين الحركة القومية للغات المسماة «أرجنتينية» و«تشيلية»، و«برازيلية»، إلى آخره.

لكن اتساع آفاق التواصل الإنساني المتبادل، على أساس لفظي، أنتج أخيراً، عند أواسط القرن العشرين، الالتقاء الضروري للخصوصية في إطار العمومية. وأصبحت الأشكال المكتوبة، أو المتكلمة في الإسبانية أو البرتغالية، في أمريكا اللاتينية، توجد حسب غاية التعبير، سواء كانت وفق النموذج الأشمل والأعم، أو وفق نماذج تخصيصية. والإقليمية أو «الخطأ» ذاته يمكن أن يرفعا في الأعمال الأدبية، إلى مرتبة المادة الفنية. إن العمل الأدبي يستوعب، وفق ماهيته، كل تنوع. وهذه الظاهرة اللغوية نجدتها في كل لغات الثقافة.

في أعقاب التعددية اللغوية الأصلية والتعددية اللغوية المستمرة والرسوبية التي لا تنفع في التواصل، بين عدد كبير من السكان، تأتي اليوم عملية توحيد لغوي ملحوظة. فيها تسود فقط الإسبانية والبرتغالية، وبشكل جانبي، الفرنسية، في نطاق جغرافي وديموغرافي محدود.

إن أدب أمريكا اللاتينية المعاصر يكتسب مكانة داخل الأدب العالمي. وتبدو هذه الحقيقة إعلاناً عن الحيوية البشرية لهذا الجزء من العالم كما تشد من قوى واحدة من أضخم التجمعات السكانية في المستقبل القريب. ولا يبدو أن الأدوات الرئيسيتين للتواصل - الإسبانية والبرتغالية - تعانيان من خطر الانقراض، بل على العكس، فإنها تتأكدان وتتسعان بإطراد.

الجدول رقم « ١ » (*)

بلغات أخرى	البرامج والحملات		لغات أخرى	اللغات		
	بلغات يتكلمها ١٠ ٪ من السكان أو أكثر من مليون شخص	باللغة الرسمية		لغات يتكلمها ١٠ ٪ من السكان أو أكثر من مليون شخص	اللغة الرسمية	
المكسيك وأمريكا الوسطى						
Gop. ILV	-	حملة قومية ١٩٦٥	٢٠ لغة هندية	-	الإسبانية	المكسيك
Gob. ILV	Gob. ILV	مبادرة خاصة	١٦ لغة هندية	الكيتشي	الإسبانية	جواتيمالا
	-	حملة قومية ١٩٦٢	٤ لغات هندية	-	الإسبانية	السلفادور
	-	الكنيسة الكاثوليكية				
	-	برنامج الحكومة ١٩٥٩	١١ لغة هندية	-	الإسبانية	هندوراس
	-	عمل ثقافي شعبي				
	-	مشروع الربوكوكو	٣ لغات هندية	-	الإسبانية	نيكاراجوا
	-	حملة قومية ١٩٦٣	الانجليزية	-	،،	كوستاريكا
	-	برنامج حكومي ١٩٥٩	الانجليزية	-	،،	بنما
			٣ لغات هندية			
أمريكا الجنوبية :						
الحكومة	-	العمل الثقافي الشعبي ١٩٤٧	٩ لغات هندية	-	الإسبانية	كولومبيا
	-	برنامج حكومي ١٩٦٠				
الحكومة	-	برنامج حكومي ١٩٥٨	٨ لغات هندية	-	،،	فنزويلا
ILV	البرنامج الانديزي ١٩٥٦	حملة قومية ١٩٦٣	٦ لغات هندية	كتشوا	،،	اكوادور
الحكومة	الحكومة	١٩٦٣ «عام محو الأمية»	٣٠ لغة	كتشوا	،،	البيرو
ILV	ILV		هندية أخرى			
ILV	العمل الانديزي ١٩٦٣		٦٠ لغة هندية	كتشوا	،،	بوليفيا
	-	برنامج حكومي	٥ لغات هندية	-	،،	تشيلي
-		برامج إجبارية	١٢ لغة هندية ولغات مهاجرين أخرى	،،		الارجنتين

(*) قدم هذا الجدول لا يلغي أهميته وشأنه ويمكن تحديثه بشكل تقريبي عام بإضافة مقدار الثلث أو أكثر قليلا الى الأرقام الواردة فيه على الأقل . فإن الزيادة ما بين الستينات وأواسط الثمانينات تصل في الإحصاءات الى ٤٠ ٪ .

تابع جدول رقم « ١ »

لغات أخرى	البرامج والحملات		لغات أخرى	اللغات	
	بلغات يتكلمها ١٠ ٪ من السكان أو أكثر من مليون شخص	باللغة الرسمية		لغات يتكلمها ١٠ ٪ من السكان أو أكثر من مليون شخص	اللغة الرسمية
أمريكا الجنوبية :					
	- -	برنامج حكومي ١٩٥١ برنامج قومي	عدة لغات هندية برتغالية لغات هندية عديدة ألمانية	جواراني - -	الإسبانية ،، البرتغالية
الكاريبي الهسباني					
- - -	- - برنامج حكومي ١٩٥٣	حملة قومية ١٩٦١ حملة قومية ١٩٥٧-٥٢ برنامج حكومي ١٩٦٢ -	-	- - الانجليزية	الإسبانية الإسبانية الإسبانية الاسبانية
الكاريبي غير الهسباني					
-	الحكومة وهيئات أخرى	الحكومة وهيئات أخرى	-	كريولية فرنسية	الفرنسية
المناطق الانجليزية					
- -	- -	لجنة رفاية جامايكا ١٩٥٠	انجليزية جامايكية لغات مهاجرين كريوليه فرنسية لغات مهاجرين - عدة لغات هندية ولغات مهاجرين	الانجليزية ،، ،، ،، ،،	جامايكا ترينيداد بهاما برمودا جويانا

تابع جدول رقم « ١ »

اللغات	البرامج والحمائل		لغات اخرى	اللغات	
	بلغات يتكلمها ١٠ ٪ من السكان أو اكثر من مليون شخص	باللغة الرسمية		بلغات يتكلمها ١٠ ٪ من السكان أو اكثر من مليون شخص	اللغة الرسمية
المناطق الانجليزية					
هندوراس البريطانية الجزر العذراء باربادوس توركا وكايكو جزر سوتافنتو جزر بارلوفنتو	الإنجليزية ،، ،، ،، ،، ،، ،،	اسبانية مايا - - - - كريولية فرنسية	كاريبي - - - - -	لاوباتش	- - - - -
المناطق الفرنسية					
جوادالوب المارتنيك - جويانا الفرنسية	الفرنسية ،، ،، ،،	كريولية فرنسية ،، ،،	- - عدة لغات هندية	بعض البرامج ١٩٤٥	- - - -
المناطق الهولندية					
سورينام	الهولندية	سرانان - تونجو هندوستاني جاوي	كاريبي اوكان، سارامالان	برامج حكومية	برامج حكومية

تابع جدول رقم « ١ »

بلغات اخرى	الرامع والحملات		لغات اخرى	اللغات		
	بلغات يتكلمها ١٠ ٪ من السكان أو أكثر من مليون شخص	باللغة الرسمية		لغات يتكلمها ١٠ ٪ من السكان أو أكثر من مليون شخص	اللغة الرسمية	
جزر الأنثيل الهولندية						
-			-	بايامنتو	الهولندية	كوراساو
-			-			أروبا
						بونايير
						سابا
			-			سان
				الاسجليزية	الهولندية	إيوستامبوس
						سان مآرتن

(*) هذه الشرطة (-) تعني عدم وجود لغات من هذا النوع ومن ثم لا حملات ولا برامج في هذا البلد.

اما المساحة البيضاء فتعني أننا لا نملك معلومات عن أي برامج أو حملات .

الجدول رقم « ٢ »

أقل من ١٠٠٠٠		١٠٠٠٠ من إلى ٥٠٠٠٠	٥٠٠٠٠ من إلى ١٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠ من إلى ٢٥٠٠٠٠	٢٥٠٠٠٠ من إلى ٥٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠ من إلى مليون	مليون أو أكثر	المجموع القدر عام ١٩٦٠	النسبة المئوية للسكان الحضر	
		١٢ مجموعة	١٧٨٠٠٠٠ مام ١٦٧٠٠٠٠ كاكشيكل ١٥٣٠٠٠٠ ككشي	١٠٠٠٠٠ من إلى ٢٥٠٠٠٠	٢٥٠٠٠٠ من إلى ٥٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠ من إلى مليون		١٤٩٧٢٦١	٧٠	جواتيمالا
	لغوية	٦٠ حوالي مجموعة تتسمي إلى ١٥ أسرة ٣٠ مجموعة حوالي	١٧٨٠٠٠٠ مام ١٦٧٠٠٠٠ كاكشيكل ١٥٣٠٠٠٠ ككشي	١٠٠٠٠٠ من إلى ٢٥٠٠٠٠	٢٥٠٠٠٠ من إلى ٥٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠ من إلى مليون	كشرا ١٥٠٠٠٠٠	٢٤٥٠٠٠٠	٧٠	بوليفيا
		خياردو يومبر				أيمارا ٨٥٠٠٠٠٠	كشرا ٣١٢١٠٧١	عام ١٩٥٤ : ٤٥٣٠٠٠٠	٤٠	البيرو
						أيمارا ٣٠٠٠٠٠٠٠	كشرا ٣٢٠٠٠٠٠٠	أكثر من مليون حرون تثقيف	٤٠	إكوادور
بوكاتيك ككشي كاريبي تشول تشاتينرو تاراهومارا امونجو نوكي		ميكسي تشول ماثاهوا تشيانتيكا تلاباتيكا تارسكو	تسبالا - تسوتسبل ماثاتيكو	ميكسيكو زايوتيكو أوتومي توتوناكو مايا	ناهراتل			٢٤٤٧٦٠٩	٢٠	المكسيك
	ناهوا ككشي كاكشيكل		تسبل					١٠٠٠٠٠٠	٢٠	السلفادور
حوالي عشر مجموعات تشوكو		٢٥٠٠٠٠ جواتيمي ٢٥٠٠٠٠ كونا	ميكسيكو					١٠٧٨٠٠٠	٦	هندوراس
								٦٠٠٠٠٠	٦	بنما

تابع جدول رقم «٢»

أقل من ١٠٠٠٠		١٠٠٠٠٠ من إلى ٥٠٠٠٠٠		٥٠٠٠٠٠ من إلى ١٠٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠ من إلى ٢٥٠٠٠٠٠	٢٥٠٠٠٠٠ من إلى ٥٠٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠٠ من إلى مليون	مليون أو أكثر	المجموع المقدر عام ١٩٦٠	النسبة المئوية للسكان الميزود عام ١٩٥٠	
كاريبي أرواوك	كتشوا إيمارا أورو		ميسكينو	ميسكينو					٢٥٠٠٠	٦٪	جويانا الفرنسية
كاريبي أوزاك وبغيرها											
سليمو لاما مجموعات تشمي إلى ٧ أسر لغوية حوالي ٢٥ مجموعة											
أرواك وبغيرها											
كاريبي كاريبي كتشوا وبغيرها											
ماتكورا تشوروني تشيريجوانا			جواخورو وتجميعا						٢٤٠٠٠٠٠	١٪	الارجنتين

تابع جدول رقم «٢»

أقل من ١٠٠٠٠		من ١٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠	من ٥٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠	من ١٠٠٠٠٠ إلى ٢٥٠٠٠٠٠	من ٢٥٠٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠٠٠٠	من ٥٠٠٠٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠٠٠٠	مليون أو أكثر	المجموع المقدر ١٩٦٠ علم	النسبة المئوية للسكان المزدحم	كوستاريكا البرازيل
فيللا / تورروبي / كشوا / كولا أوركاتوا / ينهوريتشي بوليتشي / موكوبي توبا								٧٢٠٠ ١٢٠٠٠٠٠	أقل من ١ / أقل من ١ %	
بريسيري بوروكا / جواتوبو							بحر ١٠٠ قبيلة في منطقة الأمازون و ١٠٠٠ أخرى في مناطق أخرى ، ولم يمكن الوصول إلى أبعد المناطق حيث أكثر السكان أصالة.			

الفصل الثالث

التعدد الثقافي

جورج روبرت كولتارد(*)

george Robert Coulthard

١ - إسهامات ثقافية للسكان الأصليين :

من الضروري أن نقرر منذ البداية أن إسهامات السكان الأصليين ما كان لها أن تتم دون توسط اللغة القشتالية،** وكذلك بالنسبة للإسهامات الأفريقية، فلم يكن من الممكن أن تتم وحتى حد معين، دون توسط اللغة الفرنسية أو الانجليزية، وذلك بالمعنى اللغوي الخالص، إذ لم تكن واحدة من الثقافات الأصلية العظيمة تملك أبجدية . والمخطوطات المصورة لهنود الأزيك، والزابوتيك، والمايا، إلخ، مع جمالها الفائق، كانت عاجزة عن قص حكايات أو «روايات»، أو تدبج قصائد، ودرامات، وأغنيات، كانت في حصيلتها تقوم بعمل منشط للذاكرة، وتمثل أحداثاً تاريخية، وأعمال الآلهة، وتواريخ . وإذا كان ما أكدناه من قبل صحيحاً بالنسبة «للأدب» الأصلي، فالأمر كذلك أيضاً فيما يتعلق بالإسهام الإفريقي، كما سنرى فيما يلي :

ولحسن الحظ، ففي حالة ثقافة السكان الأصليين، وفي المقام الأول الثقافة

(*) ناقد انكليزي (ولد في براد فورد ١٩٢١) . استقر في جامايكا . من أعماله الاساسية : ناثر ميست (ترجمة لقصائد من جورج كاريرا اندراده) (لندن ١٩٥٠)، عرق ولون في الأدب الأنثيلي (اشبيلية ١٩٥٨) . وقد توسع فيه في الطبعة الانكليزية (اكسفورد ١٩٦٢) .
انطولوجيا الأدب الكاريبي (لندن ١٩٦٦) يدرس الأدب الأمريكي في جامعة الانتيل (في جامايكا) . [المراجع] .

(**) هي الإسبانية لأنها نشأت في اقليم قشتالة . وهذه التسمية أدق من تسمية اللغة الإسبانية حيث إن هناك لغات أخرى يجري الحديث بها في إسبانيا، مثل القطلونية، والباسكية والغاليسية . [المترجم] .

الأزتيكية، وثقافة المايا - كيتشيه، كُتِبَ التاريخ، والميثولوجيا، والأناشيد، والقصائد والمعتقدات الدينية، بلغة الناهواتل nahuatl، ولغة الكيتشيه quiché إلى آخره، ويرجع الفضل في ذلك بدرجة كبيرة إلى جهود القساوسة الذين برز من بينهم الأب برناردينو دي ساهاجون وكانت الطريقة تتلخص في تعليم الأبجدية اللاتينية للمثقفين من السكان الأصليين، وتركهم يكتبون بلغتهم هم ما يعرفونه عن تاريخهم وثقافتهم . وقد قام علماء متجرون بترجمة جزء كبير من هذه الكتابات إلى اللغة القشتالية وإلى غيرها من اللغات، وهكذا نجد لدينا رصيذاً ضخماً من كل أنواع المادة في مجموعات؛ مثل المخطوط الفلورنسي، ومخطوط مدريد، ومخطوط الأكاديمية الملكية للتاريخ، وأناشيد باللغة المكسيكية إلخ . ويوجد كثير من أصول هذه المخطوطات في دور الكتب الأوروبية والأمريكية الشمالية . أما النصوص في إقليم الإنديز فهي أندر بكثير، لكن كثيرين من الكتاب الخلاسين، الذين كان أبائهم يعرفون ويتذكرون الحال قبل الغزو، كرسوا أنفسهم لمهمة رواية التاريخ ووصف معتقدات وعادات التاوانتينسويو Tawantinsuyo، أو إمبراطورية الإنكا . بعد ذلك قام اثنولوجيون هم في نفس الوقت أدباء جيدون، مثل خوسيه ماريا أرجيداش في البيرو وخيسوس لارا في بوليفيا، بتسجيل حكايات وأغنيات، صاغوها في أعمال ذات قيمة أدبية راقية .

أما أول مفسر خلاسي عظيم للواقع قبل كولومبوس في البيرو فهو، بالطبع، الإنكا جارتيلاسودي لافيغا (١٥٣٩ - ١٦١٦) . فبعد ان تربى مع أمه الهندية في البيرو، قضى كل حياته البالغة في إسبانيا، حيث أصبح انسانياً بارزاً، وصنع اسماً باقياً في الآداب الهسبانية، بترجمته لكتاب محاورات الحب Dialoghi d'amore للليون هبريو . ولا شك في أنه في سنوات حياته الأخيرة، وقد أصبح مالكا لثقافة واسعة ولأسلوب رفيع بهيج، أحس بدافع لكتابة الشروح الملكية، الذي ظهر جزؤه الأول عام ١٦٠٩ . ربما أحس بالحنج من أثقال الهمجية، والجهل، والتوحش التي كان كثير من الإسبان يهملونها على قومه، وأراد التقليل من الاحتقار الذي كان غالبية الإسبان يظهرونه تجاه الهنود، وربما أضفى الطابع

المثالي على ثقافة الإنكا عندما وصفها وذلك في جهاده لإنقاذها من وصمة الهمجية والدونية. ويكتب الكاتب الإسباني العظيم، مارثينو مينيندث أي بيلايو، عن هذا العمل: «الشروح الملكية ليست نصوصاً تاريخية، بل إنها رواية طوباوية مثل رواية توماس مور، ومثل مدينة الشمس لكامبانيلا، ومثل أوقيانوسية Océana هارينجتون؛ إنها حلم إمبراطورية أبوية محكومة بأعنة من الحرير. ولتحقيق مثل هذا الأثر الدائم، يلزم توفر قوة خيال أرفع بكثير من قوة الخيال المبتدلة، والمؤكد أنها كانت بالغة القوة لدى جارئيلاسو، بقدر ما كان تميزه النقدي ناقصاً»^(١). لكن هذه الادانة للعمل التاريخي تقرأ أيضاً بالطابع الأدبي أساساً له، ذلك الطابع الذي حفظ الإهتمام به منذ الترجمات الفرنسية الأولى حتى لوى بودان.

إن الشروح هي، بالفعل، إعادة خلق خيالي لدولة الإنكا، يضع في اعتباره حقائق اقتصادية، وسياسية، واعتبارات لغوية، وجغرافية، ومناخية، كل ذلك مُستحضر بنظام في تأريخ إنساني النزعة، وهو المنهج الذي كان يسمح باستخدام الخيال وفن القص بهدف ألا يبتعد الناتج كثيراً عن الواقع وعن المصادقية. لكنه دون شك يعكس في جانبه الآخر اهتمامات أدب ما بعد النهضة في عصر ذهبي، فليس تاريخاً دقيقاً وحقيقياً (رغم أن هذا كان يمكن أن يكون صحيحاً)، لكن نسيج الخيال بالحقائق والرؤية والواقع أنتج عملاً رائعاً.

في سبع مقالات حول تفسير واقع البيرو (١٩٢٨) كتب خوسيه كارلوس مارياتيغي Mariategui حقيقة ظاهرة عندما قال: «إن أدبا للسكان الأصليين، إذا وجب أن يأتي، فسوف يأتي في حينه. حين يبلغ الهنود أنفسهم درجة أن ينتجوه». ورغم ذلك ليس بوسع المرء إلا أن يتساءل ألم يتحقق هذا الشرط بعد، إذا لم يكن في شخص جارئيلاسو دي فيجا. فعلى الأقل في فيليبي جوامان بوما

(1) Marcelino Menéndez y Pelayo: Historia de la poesía hispano - americana, t II, 1913 pp. 148 - 9.

دي أياالا بكتابة Primer nueva corónica y buen gobierno المدونة الأولى الجديدة والحكم الصالح (المكتوب بين عامي ١٦١٣ و ١٦١٤). كلاهما كان خلاصياً، بالتأكيد، لكنها عندما يتحدثان عن ثقافتهما وعن ماضييهما، وفي حالة جوامان بوما، عن الحاضر، يتحدثان كهنديين. وينتقد راؤول بوراس بارينتشيا، جوامان بوما بسبب «ثقافته المبتذلة»، لكن يبدو أنه يعترف به كهندي: «ثمة لديه نغمة أصيلة للألم والاحتجاج؛ مستمدة من وضع الهندي البائس من الورش، وفي المناجم وفي القرى الهندية نفسها الخاضعة لكل أشكال الطغيان» (٢). هكذا يعترف الهندي أيضاً حتى في أسلوبه: «أنه منهج حرفة البناء لدى الإنكا منقولاً إلى التقويم». إلا أن من الخطأ التشديد على الثقافة المبتذلة لجوامان بوما. ففي هذا «الخليط الوحشي»، كما يسميه بوراس بارينتشيا، نجد كل شيء: التكرار، والافتقار إلى الوضوح أحياناً، وتسلسلاً زمنياً لا يصدق، لكننا نجد في الوقت نفسه إثارة لاجواء ما قبل الإنكا غنية في الوانها وفي رقتها، ونقداً لاذعاً للسلوك المناق للاسبان، بل حتى صورة أولى لما كان اليخو كاربنتييه يسميه «الواقع الرائع»، الذي اكتشفه في هايتي ليجد فيما بعد أن كل تاريخ أمريكا مشبع بهذا العنصر. والدة أول ملوك الإنكا، مانكو كاباك، مثلاً التي كانت تحدث الشياطين، وتجعل الصخور، والأشجار، والجبال، والبحيرات تتكلم، وتجيّب على أسئلتها؛ والسحرة الذين عرفوا كيف يتنبأون بموت ملوك قشتالة، وغير ذلك من الأحداث في العالم كله. ووصفه للكوري - كانتشا Cori - Cancha خلال تقديم التضحيات، والشمس تلمع فوق ذهب المعبد، وأقواس قزح تتشكل من نفس جموع الهنود في برد شروق مدينة كوشكو، كل ذلك عمل رائع لخيال جوامان بوما، الذي لم يكن قد شهد هذا الاحتفال، رغم أن من المحتمل جداً أن يكون بعض الهنود العجائز الذين يتذكرونه قد وصفوه له. ولا تنقصه الدعابة كذلك، حين يحكي كيف أن إسبانياً ظامئاً للذهب قد تخفى في زي إنكا، وجعلهم ينقلونه

(2) Raul Porras Barrenchea : El Cronista indio Guamán Poma, de Ayala, Lima 1948, p. 67.

على محفةٍ خلال قرية، وهو يطلب ذهباً وفضة، لكن الهنود عند رؤيتهم إنكا
ملتجئاً فرّوا فزعين!

كذلك سجل جوامان بوما عدة أغنيات بلغتي الكتشوا والأيمارا، ترجمها عدة
مؤلفين، وتشكل جزءاً من الأدب الشفهي للفترة قبل - الهسبانية . وتوجد لهذه
الأغنيات نسخ متعددة لكننا اخترنا ترجمتين، قام بهما خيسوس لارا، هما بالاحرى
اعادة خلق لتلك الأغنيات :

يا سيد الوجود، يا فيراكوتشا
أيها الإله الحاضر دوماً،
القاضي الكامن في كل شيء .
الرب الذي يقضي ويحكم .
والذي يخلق بمجرد النطق :
« كن رجلاً ، كوني امرأة » .
فليحيا حراً وفي سلام
من وضعته
وربيته .

أين أنت ؟ في الخارج
أو في الداخل ، في السحابة
أم في الظل ؟ إلخ . (3)

هذه القصيدة على وجه الخصوص تكتسب دلالة مأساوية، إذا سلّمنا حسب
قول جوامان بوما، بأن الهنود، الذين ينحدرون من صلب نوح Noé، قد نسوا
كل ما يتصل بالرب، رغم أنهم «بالظل الضئيل» من المعرفة التي لديهم يعرفون
أنه موجود، لكن، هذا الشعب الحزين، ظل يجول بإحساس من الوحشة
والعذاب يريد أن يعرف من هو الرب وأين هو؟ وفي أحد رسومه يرسم هندياً

(3) Jesús Lara, Poesía quechua, México, 1947, p. 158.

راكعاً يسأل : «Pachacamac, Maypicanqui» (يا خالق العالم ، أين أنت؟)
وطبقاً لما يقوله : كان هنود الإنكا هم الذين جلبوا عبادة وتقديس الشيطان ، وفي
إحدى أغنيات الحب ، وهي خاراي آراوي Jaray arawi ، أي أغنية غياب ،
ثمة ألم عميق ، كثير الشبه في النغمة والصور بالأغنيات المعاصرة للكثشوا .
البعض يغنونها بالاسبانية ، لكن الأسلوب والشعور متمثلان :
الشقاء ، يامليكتي .

هل يفصلنا؟

الضراء ، يا أميرتي ،

هل تباعدنا؟

لو كنت زهرة «تشنشركوما»

يا جميلتي ،

لحملتك

في صدري وفي زهرية قلبي .

لكنك وهم ، مثل

مرآة الماء .

مثل مرآة الماء ، تختفين

أمام ناظري

أتمضين ، يا محبوبتي ، دون أن يدوم حبنا

يوماً واحداً؟ ، إلخ (٤) .

وفضلاً عن الإسهامات التاريخية - الأدبية مثل إسهامات جاثيلاسودي لا
فيجا ، أو جوامان بوما دي أياالا ، توجد قطع درامية حول موضوعات تخص
السكان الأصليين مكتوبة بلغة الكثشوا . ولسوء الحظ ضاعت أسماء المؤلفين ،
وتوجد نسخ مختلفة من بعضها . ورغم ذلك ، ورغم أن إمبراطورية الإنكا لم
تعرف المسرح من الطراز الإغريقي أو من طراز العصر الذهبي الإسباني يبدو
مؤكداً وجود عروض مسرحية ، مقاطع من حياة الآلهة ، والملوك ، وما إلى ذلك ،

(4) Jesús Lara , op.cit. p. 163.

بمصاحبة الموسيقى أو الرقص، أو بدونها علاوة على ذلك، فإن مفهوم المسرح شديد الإتساع مثل مفهوم الرواية. وسأكتفي بذكر عمليين من الواضح أنهما قد ألفا وكتباً بعد الغزو، لكن الموضوعات، والحساسية، واللغة (حتى في الترخية الاسبانية) تشهد على واقع مختلف، غير أوروبي.

في ابو أولانتاي Apu Ollantay نجد أن الموضوع هندي تماماً. ويعالج موضوع إغواء جنرال في الجيش، هو أولنتاي، لإحدى بنات الإنكا. يود الجنرال الزواج من الأميرة التي حملت، لكن الإنكا يرفض طلبه باحتقار، فعائلة الإنكا، كما هو معروف، كانت طائفة مغلقة. وأولانتاي، رغم أنه جندي عظيم، لا يحمل دماً ملكياً. ولما ملأه الحقد، تمرد وخلال أعوام شن الحرب على الإنكا، جاعلاً من نفسه على هذا النحو مجرماً مزدوجاً طبقاً لقوانين الإنكا. وحين يهزم، في النهاية، يمثل أمام الإنكا الجديد توباخ يوبانكي، منتظراً الحكم بالموت. لكن المفاجأة أن هذا الأخير لا يكتفي بالعفو عنه، بل يعينه حاكماً لأنتيسويو ويسلمه كوسى كويلور لتكون زوجته. يبدو الختام غير متوقع إذا أخذنا في الاعتبار قسوة قوانين الإنكا، فهو يستحق الموت لأنه لوث الدم الملكي ولأنه تمرد على الإنكا. لكن خيسوس لارا يؤكد أن الختام متوقع كوسيلة درامية، فكما يقول جارتيلاسو، كلف رب الشمس أبناءه أن يعاملوا الشعب «ببر، ورحمة وسماحة»، وهذا الختام يظهر للجمهور أن بإمكان الإنكا أن يتصرف كأبٍ رحيم. (في النسخة الأرجنتينية التي وضعها ريكاردو روخاس، يأمر الإنكا بقتل أولانتاي، ويدفن ابنته، لكن روخاس كانت لديه مقولة يريد توضيحها باستخدام أسطورة الإنكا).

القطعة الأخرى التي سنذكرها هي مأساة موت أنا والبا التي ينضح منها شعور بالكارثة التي لا يمكن تجنبها. وتحكي هذه القطعة بشكل درامي أحلام ومخاوف أتاوالبا، ووصول الإسبان، وموت أتاوالبا وتدمير إمبراطوريته. والملمح الغريب هو أن الإسبان لا يتكلمون، بل يحركون شفاههم فقط. ويقوم فيليبو، وهو خلاسي، بترجمة ما يقولونه، بعبارات فاحشة، محتقرة، ومهينة، ويظل

القارئ مندهشاً لتسليم أتوالبا المطلق لقدره . إذ يبدو أنه يسلم نفسه له بعجز مطلق ؛ إلا أن المعروف أن أتوالبا كان محارباً عظيماً ، ورجل فعل . هل يثقل عليه شعور بالذنب لأنه أمر باغتيال الإنكا الحقيقي ، هواسكار ، وبمذبحة كل عائلة أبيه ، هواينا كاباك؟ (حتى جارتيلاسو ، وهو الذي يضيف الطابع المثالي عموماً على الإنكا ، يصف فعله بأن قسوة أتوالبا كانت أعظم وأشد تعطشاً لدمه ذاته من العثمانيين). لو كان الأمر كذلك ، فليس ثمة . أدنى إشارة إلى مثل هذا الشعور بالذنب . وربما كان الأرجح أن المؤلف ، كما في الكتب التنبؤية لتشالام بالام ، والمكتوبة بعد كارثة الغزو ، يبرز حتمية ما حدث فعلاً . وقد استخدم خيسوس لارا نسخة تشاياتنا التي تبدو له أشد النسخ أصالة والتي تتضمن ، إضافة إلى ذلك ، مقاطع شعرية ذات طابع إنديزي بارز ، مثل :

يا أيائل القفار ،

يا نسور الكندور الشاهقة التحليق

أيتها الانهار والصخور .

تعالوا وابكوا معنا .

فأبانا وسيدنا الإنكا

قد تركنا وحدنا .

غارقين في أسى عميق .

عن أي ظل سنبحث

ولمن سنلجأ؟

أي استشهاد سنحيا

وفي أي دموع سنفرق أنفسنا؟

أتوالبا ، يا مليكي الإنكا ،

ربما وجب أن نحتمي

في أحشاء الأرض . (٥)

(5) La tragedia de la muerte de Atawallpa, traducción de Jesús Lava, Cohabamba, 1957, p. 181.

لم نُضْمَنَ هنا ما يطلق عليها اسم روايات السكان الأصليين - Novelas In-digenistas ، مثل جنس من البرونز (١٩١٩) للبوليفي الشيبس أرجيداس Arguedas ، وهو اسيبونجو (١٩٣٤) Huasipungo أو هوايرانا موشكاس (١٩٤٧) للاكوادوري خورخي ايكاثا Icaza ، والعالم ضيق وغريب (١٩٤٠) للبيروي ثيرو أليجريا، وذلك لأنها، رغم معالجتها لمشكلة الهندي ووصفها للعادات والغيبيات، هي في أعماقها روايات احتجاج اجتماعي، ولا تعكس سوى القليل من ثقافة السكان الأصليين بالمعنى الأدبي، ورغم ذلك يجب إجراء استثناء بالنسبة للبيروي خوسيه ماريا أرجيداس. فرغم أنه ليس هندياً نقياً، فقد تربى في جبال البيرو بين الهنود وهو ثنائي اللغة في الإسبانية ولغة الكتشوا. لم يشعر بالارتياح تجاه التعبير الأدبي بالإسبانية عند تفسير مشاعر الهنود، التي يجري التعبير عنها بالكتشوا، وهكذا شرع في المهمة البالغة الصعوبة لايجاد طريقة لترجمة واقع الخصوصية الهندية إلى اللغة القشتالية. وقد حل المشكلة بثلاث طرائق: استخدم العديد من كلمات الاغاني الكتشوا، التي ترجمها؛ وجعل شخصياته الهندية تتكلم بالإسبانية، لكن بانعطافات واستعارات مأخوذة مباشرة من الكتشوا، واعطى الشخصيات الهندية قانوناً اخلاقياً يرجع إلى فترة ما قبل الاسبان. ويخطيء القارئ خطأً بالغاً إن أغفل الاغنيات، فهي جميلة جداً، ومعبرة جداً، ويعرف أرجيداس كيف يضعها في موضعها ببراعة تعكس استاذيته الأدبية. مثلاً، حين يودع ارنستو، الشخصية الرئيسة في (الأنهار العميقة (١٩٥٨)، أصدقاءه الهنود، ليمضي إلى العالم الغريب في كلية أباناكاي، يغنون له:

لا تنس ؛ يا صغيري

لا تنس.

أيها التل الأبيض

اجعله يعود.

يا ماء الجبل، يا ينبوع السهل،

أيها الصقر، احمله فوق جناحيك

واجعله يعود .
أيها الجليد الكثيف ، يا أبا الجليد ،
لا تؤذه في الطريق .
أيتها الريح السيئة ، لا تلمسيه .
يا أمطار العاصفة .
لا تقريه
لا ، أيتها الهاوية ، أيتها الهاوية الفظيعة ،
لا تباغتيه .
يا بني ،
عليك أن تعود
عليك أن تعود .

وفي رواية (كل الدماء) (١٩٦٤) تعبر شخصية روندون ويلكا الجذابة عن أخلاقياتها بانعطافات خاصة بالكتشوا . «أنت سيد سكير! وأنا معافى . أنا أكسب النقود بعملٍ ليس أكثر، النقود الأخرى لعنة من الرب، تجعل دودة قبيحة تنمو في النخاع، وكذلك في الدم». ويرد على هندي آخر، يتحدث بتهكم وقح قائلاً «لا أحد نظيف»، بقوله: «لا أحد؟ يا كارهوامايو. إذا ألقوا القذارة فوق رأسك فلست مذنباً. أما إذا غذيت الجسد، طموح روحك، فإنك أنت ذاتك إذن، فإنك أنت ذاتك قدر». ألا يذكرنا هذا بنصائح الانكا روكا عند جارتيلاسو: «الحسد دودة تنهش وتفني أحشاء الحسود»، و«من يحسد الاخير يستخلص منهم سوءا لنفسه، كما يفعل العنكبوت باستخلاص السم». إن الأمر هنا، كما يكتب ألبرتواسكوبار بصواب حقاً، هو أمر «الدعوة إلى الاعتراف في طرائق تعبير الكتشوا، بنمط وجود، بملامح فهم للواقع وتسمية له» (٦) .

في المكسيك، كما في البيرو، ولد الاهتمام بما يخص السكان الأصليين في

(٦) Alberto Escobar, Patio de Letras, Loma 1966, p. 29.

العقود الأولى للقرن العشرين كجزء من حركة قومية وسياسية في آن واحد . ورغم أن مانويل جاميو مفكر أقل أهمية من البيرواني خوسيه كارلوس مارياتيغي ، فإنه قد أوضح ، في بعض المقالات المجموعة تحت عنوان صياغة الوطن (١٩١٦) ، بعض الأفكار الأساسية . وهو يؤكد ، بين ما يؤكد ، أن جمهور الشعب المكسيكي لا يحس بالفرن الأوروبي الذي فرضته البورجوازية ذات النزوع الأجنبي ، وأنه «يجب أن نصوغ لأنفسنا ، ولو مؤقتاً ، روحاً هندية» ، وأنه بالإضافة إلى إعادة تقييم الفنون التشكيلية الهندية من الضروري «نشر النتائج الأدبية القليلة من أصل ما قبل الأسباني وهي اليوم شبه ضائعة في المتاحف ودور الكتب المترية ، لأنها تكتسب أهمية أساسية لمستقبلنا الأدبي» .

لجهد النشر هذا ، الذي أوصى به جاميو ، كرس عالمان مكسيكيان كبيران وهما : الأب آنخل ماريّا جاريباي ك. Garibay K. في كتابه تاريخ الأدب الناهواتل Historia de literatura náhuatl، Leon - Portilla (المكسيك ، ١٩٥٣) ، وميجيل ليون - بورتيا في فلسفة الناهواتل ، ودراسة في مصادرها La filosofía náhuatl estudiada en sus fuentes (المكسيك ، ١٩٥٦) . ولم يقصر هذان الكاتبان نفسيهما على عمليهما الأساسيين ؛ فقد كتبا ، علاوة على ذلك ، عدة كتب من الترجمات والتفسيرات تضم الأدب ، والفكر الأزتيكي إلى التيار العام للثقافة المكسيكية . وكلاهما يؤكد القيمة الأدبية للأدب والفكر الأزتيكيين ، ويقارنهما بأفضل ما في آداب الثقافات الأخرى . فجاريباي ، على سبيل المثال ، في كتابه الشعر الغنائي الأزتيكي (المكسيك ١٩٣٧) ، يعلن أنه قد اقترب من أدب المكسيكيين القدماء بنفس «التعطش إلى الجمال» الذي دفعه إلى دراساته للأدب الإغريقي والعبري ، وفي رؤية المهزومين (المكسيك ١٩٥٩) ، وهو لوحة شديدة الكمال للغزو من وجهة نظر السكان الأصليين تقوم على نصوص أزتيكية : « ليس من المبالغة التأكيد أن هذه الروايات الهندية مقاطع ذات درامية يمكن مقارنتها بالملاحم الكلاسيكية العظيمة . فإذا كان هو ميروس في الإلياذة قد ترك لنا تذكارات مشاهد من أشد الواقعية التراجيدية حياة ، فإن المؤلفين

من السكان الأقدمين قد عرفوا هم كذلك كيف يستحضرون لحظات درامية للغزو» الأوروبي .

وفي فلسفة الناهواتل ، يؤكد ليون - بورتيا أنه كان ثمة فلسفة حقيقية بين «التلاتينيمه» «tlalatinime» ، وهم المفكرون المكسيكيون ، إذا كان من المقبول أن تكون فلسفة ما ميتافيزيقية ، وغير - نسقية ، وأدبية . وتتكون هذه الفلسفة من الاقرار بزوال الكون ، لكن بطريقة التعرف على ما هو حقيقي من خلال الشعر وعبادة الجمال (inxotitl, incuicatl) ، إنها فلسفة الأناسيد والزهور وهي «مفهوم ربما كان حقيقياً ، في جوهره ، لعالم بالغ التمزق مثل عالمنا» . وجوهر هذه الفلسفة ، الذي هو نوع من اللذة المعذبة ، ينبض في هذه القصيدة :

أحقاً نحيا على الأرض؟
لن نبقى على الأرض للأبد : إنها مجرد هنيهة ها هنا .
حتى الشب يتحطم ،
حتى الذهب ينكسر ،
وريش الكتزال* يُتنزع ،
لن نبقى على الأرض للأبد : إنها مجرد هنيهة ها هنا (٧) .
وفي القصيدة الجميلة ، التي ضمنها الأب جاريباي في الشعر الغنائي الازتيكي :

ماذا سيفعل قلبي ؟
ربما جئت إلى الأرض عبثاً ؟
هل سأمضي بطريقة أخرى
غير الأزهار التي تفنى ؟

(٧) Léon - Portilla, La filosofía náhuatl p. 137.

* الكتزال Quetzal : طائر زاهي الالوان ، متسلق أكبر قليلاً من الشحورور ، كان مقدساً لدى الأزتيك القدماء . يدخل في الشعار القومي لجواتيمالا - المترجم .

ألن يتبقى من شهرتي شيء

يبقى على نحو ما؟

ألن أخلف في الأرض شيئاً

حين أمضي؟

ازهار على الأقل ، أناشيد على الأقل .

ماذا سيفعل قلبي؟

ربما جئت إلى الأرض عبثاً؟

والنصوص يمكن ترجمتها على أنحاء عديدة ، لكن ، وكما يؤكد الأب جاريباي ، «هل انتهت النسخ المختلفة لهوراس ، أولترجمات المزامير، ولسنا نعطي هنا سوى مثالين؟» إن أهمية هذين المؤلفين تقوم ، بالطبع ، على أعمالهما الأساسية ، ذات التبحر العميق ، لكنهما في نفس الوقت استطاعا القيام بتعميمهما بنشرهما ترجمتهما في كتب متاحة للقارئ المتوسط وتوجد الآن طبعات عديدة من رؤية المهزومين ومن أدب الأزتيك (مختارات مطبوعة عام ١٩٦٤) في عمل في تناول أي قارئ .

وبالإضافة إلى رؤية المهزومين وفلسفة الناهواتل نشرليون - بورتيا عملاً رائعاً ، هو ثلاثة عشر شاعراً من عالم الأزتيك (١٩٦٧) ، يشتمل على قصائد طويلة لعدد من الشعراء المكسيك قبل - الإسبان ، من نتزاهوالكويوتل (Netzahualcóyotl) وغيرهم ، أسماؤهم مجهولة .

ولا تستنفد ترجمات الناهواتل حتى جزءاً من نبع الأدب الأصلي الشديد الثراء لمنطقة ميسو - أمريكا حيث خرجت روائع حقيقية من إقليم المايا - كيتشييه (يوكاتان ، وتشياباس ، وجواتيمالا) .

أما البوبول فوه Popol vuh ، المعروف والمترجم منذ أوائل القرن الثامن عشر (كانت أول ترجمة هي التي قام بها القس الإسباني ب . فرنسيسكو خيمينس) ، فقد بلغ مبلغ أن يكون إحدى كلاسيكيات أمريكا . ورغم كونه كتاباً دينياً ، يحكي أصل الإنسان وأعمال الآلهة وأشباه الآلهة ، فإن من الممكن قراءته

كرواية . وبمعنى واسع جداً فإنه واحدة من الروايات العظيمة لأمريكا، وربما للعالم . إذ أنه يقص بخيال متحرر من كل قيد منطقي (ويلعب السحر دوراً أولياً في الكتاب) آثام وحيل هونافو Hunaphu وكشبالنكي Xbalenque لتدمير فوكوب - كاكيكش Vucub - Caquix الببغاء الغريب الخيلاء، أو للسخرية من أصحاب كشبالبا Xibalba وهو الجحيم . وإذا قلنا إن به شيئاً من ألف ليلة وليلة، أو من أليس في بلاد العجائب ، أو من الرواية الصينية مونو لووشن جن، فسوف تكون لدى القارئ فكرة عن نوع هذا الكتاب . والنسخة المقروءة أكثر من غيرها في أيامنا هي نسخة أدريان رثينوس، لعام ١٩٤٧، وقد ظهرت منها طبعات تالية كثيرة .

وأما كتاب الكتب لتشيلام بالام **El Libro de los libros de Chilam Balam** فذو طابع أقل أدبية، لكن به، رغم ذلك، مقاطع حية، وقوية وحتى شاعرية، مثل المقطع التالي من تشيلام بالام تشومايل . **Chilam Balam de Chumayel** :

«كانوا حكماء . لم يكن ثمة خطيئة حينئذ . كانوا مكرسين تكريساً مقدساً . عاشوا مُمتدِّحين . لم يكن ثمة مرض حينئذ؛ لم يكن ثمة ألم في العظام، ولا حمى بهم، ولا جُدري، ولا احتراق في الصدر، ولا ألم في البطن، ولا سُـل . كان جسدُهم حينئذ منتصباً تماماً » لم يكن هكذا ما فعل الدزول dzules حين وصلوا إلى هنا . هم علّموا الخوف، وأتوا ليذبلوا الأزهار . حتى تحيا زهرتهم، آذوا وامتصوا زهرة الآخرين .

«لم يكن ثمة علم سامٍ، لم يكن ثمة لغة مقدسة، ولا معرفة سماوية لدى بدائل الآلهة الذين وصلوا إلى هنا . إخصاء الشمس! هذا ما جاء يفعله هنا الأجانب . وها قد بقي هنا أبناء أبنائهم وسط الشعب، وهؤلاء يتلقون مرارته» (٨) .

(8) Antonio Mediz Bolio, traducción de *Chilam Balam de Chumayel*, San José, Costa Rica, 1930, p. 36.

وفي ترجمته لـ كتاب أناشيد تزينبالشيه **Libro de los Cantares de Dzitbalche** (المكسيك ، ١٩٦٥) ، يقدم ألفريدو باريرا باسكت قصائد رائعة الجمال ، لا تشبه أي شعر أوروبي . هكذا نجد الكاي - نيكتة **Kay - Nicté** ، أو نشيد الأزهار (يجب أن نضع في الاعتبار أنه ، بين المايا مثلها بين المكسيكيين ، كانت الزهرة وثيقة الصلة بالجنس وبالخصوبة) :

لقد وصلنا إلى داخل

قلب الغابة حيث

لا يرى أحد

ما جئنا نفعله .

لقد أحضرنا زهرة تاج الريش

زهرة التشوكوم ، زهرة

الياسمين البري ، زهرة . . .

جلبنا الراتنج وقصبة الشراع الصغير ،

وكنا درع السلحفاة البرية .

وكذلك المسحوق الجديد للكلس

الصلد وخيط

القطن الجديد للحياكة ؛ واليقطينة

الجديدة

وحَجَر الزناد الكبير الناعم ،

والثقال الجديد ؛

وشغل الحياكة الجديد ،

وهدية الديك الرومي ؛

حذاء جديداً .

كله جديد في جديد ،

حتى الشرائط

التي تربط شعورنا
حتى نلمس النيلوفر،
كذلك صدفة
النفخ (وأستاذتنا) العجوز. نعم، نعم
ها نحن في قلب الغابة،
على حافة البركة المحفورة في الصخر.
في انتظار
أن تبزع النجمة
الجميلة التي تُصعّد الدخان
فوق الغابة . انزعن
أثوابكن، احللن
شعوركن؛
إبقين مثلها
أتيتن
إلى هذا العالم،
أيتها العذراوات، والنسوة الشابات . . .

وعلينا أن نضيف أن كثيرين من الكتاب قد أفادوا من عمل مؤلفين من أمثال
جاريباي Garibay، وليون Leon، و Portilla، وألفوتسو كاسو Caso، في
ابداعاتهم الخاصة، ولنذكر الإقليم الأكثر شفافية، لكارلوس
فوينتس، وكواوتيموك، حياة ثقافة وموتها، لإكتور بيريث مارتينث،
والجوائز، للأرجنتيني خوليو كورتاثار، الذي استلهم عدة ابداعات لآلهة المايا في
واحد من أكثر المقاطع تأثيراً في روايته. كذلك لا يجب نسيان عمليين لميجل آنخل
استورياس، هما (أساطير جواتيمالا)، عن جواكامايو والشمس، وهو خلق
لأسطورة ذات مدى عالمي، و(رجال من ذرة) حيث يتبدى الواقعي العجيب أو
الواقعية السحرية، كما يسميها سيمور منتون، كحضور ملموس، مقلق وبهيج.

٢ - إسهامات ثقافية أفريقية

إذا كان مارياتيغي Mariategui قد قال إن أدباً للسكان الأصليين لن يأتي إلا حين يكون الهنود أنفسهم في شروط تسمح بإنتاجه، فقد كان بإمكانه أن يبدي الملاحظة بقدر أكبر من الصحة بالنسبة للإسهام الإفريقي في أدب أمريكا. وتظهر موضوعة الزنجي في العقد الأول من القرن التاسع عشر وذلك في الروايات المناهضة للعبودية في كوبا. والأولى، وهي (فرنثيسكو)، لأنسمو سوارث روميرو، التي نشرتها جمعية مناهضة العبودية في لندن (بالانجليزية) عام ١٨٤٠، وبالإسبانية في نيويورك عام ١٨٨٠، كتبت لتثير شعوراً من النفور من فظائع العبودية. ويستحق مؤلفها، كما يكتب خوسيه أنطونيو بورتونونزو، «الفضل الذي لا ينكر لكونه هو الذي نبه، بأكثر الصور حدة في زمنه، إلى الشروة الشعرية المخبوءة من الأغنيات الشعبية للزواج والفلاحين، ذلك الكثر الكامن في الفولكلور الكوبي من الرقصات والتقاليد، وأغاني الأرض، ومن الإيقاعات المنقولة من أفريقيا» (٩). ويكتب سوارث روميرو أشياء من قبيل: «الطبل، بالنسبة للجنس الزنجي، وكذلك بالنسبة للكريول* الذين يتربون معهم، هو شيء يسكرهم، ويعصر أرواحهم، فحين يسمعونه يبدو وكأنهم في السماء. لكن هناك إيقاعات لا تتغير، لأنها ألفت هناك في أفريقيا وجاءت مع جنس الزوج. الشيء الغريب هو أنهم لا ينسون أبداً: يأتون صغاراً، وتمر أعوام وأعوام، وبعدها، حين لا يعودون يصلحون سوى حفراء، يوقعونها وحدهم في كوخ يملؤه الرماد وهم يتدفأون بالنار التي تشتعل أمامهم، يتذكرون وطنهم وقد قاربوا القبر». هل نحن هنا أمام شيء آخر خلاف الطابع المحلي الذي ربما كان الاحساس به عميقاً، لكنه في نهاية المطاف طابع محلي؟ ورواية ثيريلو بيابردي

(9) J. A. Partuondo, Bosquejo de las letras cubanas, la Habana, 1960 p. 24.

* الكريول Criollo : هو الشخص الهجين من امتزاج الأوروبيين، بالسكان الأصليين. يقال للغة والعادات والثقافة - وقد سبق ذكر ذلك. [المترجم].

العظيمة، ثييليا بالدس، التي ظهر منها جزء عام ١٨٣٩، لكنها لم تنشر كاملة حتى عام ١٨٨٢ في نيويورك، تناول كذلك الموضوع الزنجية بعمق، حيث تعمق في نفسية الزنجي، والخلاسي، وصاحب العبيد، وتحتوي على بذرة، غير مصاغة، لفكرة سيزير: « colonisation est chosification الاستعمار هو تشيؤ» لكن هل يمكن الحديث بالنسبة لهذه الروايات عن «إسهام افريقي؟» إنها روايات كتبها بيض مهمومون بوضع الزنجي في كوبا. والأمر على هذا النحو حتى في رواية فرنسيسكو لأنطونيو ثامبرانا (سابيتاجو دي تشيلي، ١٨٧٣)، التي يبدو فيها أن المؤلف يفهم عقلية الزنجي ببراعة أكبر من سوارث روميرو، حيث لم يعد الأمر مجرد جعل شخصياته، الزوج ذوي النفسيات البيض، ضحايا لنظام ظالم. فالزنجي بالنسبة لثامبرانا هو كائن بدائي، ولا يجب أن ننسى أنه بعدها بعدة سنوات كان على أنصار «الزوجة» الاعتراف بالبدائية باعتبارها سمة إيجابية. يكتب ثامبرانا: «الإنسان المتحضر يفهم بالكاد نظاماً معيناً للأفكار، وللمشاعر التي هي في أغلبها مصطنعة، وتأخذ في الوهن فيما يعتمد تماماً على الطبيعة. قارن، فيما يتعلق بالعبد، فكرة الحضارة بالوجود القح في الغابة، واحكم إذن أن الزنجي قد خرج رابحاً في المقارنة. لكن الزنجي يحب ما تحتقرونه أنتم: غابته وموسيقاه الخشنة، وعاداته البدائية. تأكدوا أنه سعيد، كونوا بليغين وعاقلين: فقلبه يحدثه شيء آخر مختلف تماماً». هذه الأفكار، كما أشرنا، هي بالضبط الأفكار التي ستدعو إليها «الزوجة» بطريقة شبه عقائدية حين يصوغها الأنثيليون المتحدثون بالفرنسية، باعتبارها مفهوماً، بعد ذلك بنحو ستين عاماً.

هل بالامكان قبول محتوى هذا الأدب وأسلوبه باعتبارهما إسهامات ثقافية إفريقية، أم أن من الأصوب رفضها تماماً؟ الأمر هنا، كما ذكرنا، يتعلق بالموضوع الزنجية، لكنها ليست مكتوبة من جانب زنوج أو خلاسين، ورغم وجود أوصاف للرقص، والاحتفالات، والمواقف الزنجية، فهي جميعها مرئية من الخارج. ورغم ذلك، فإن تضمينها في هذا الفصل ربما يكون مبرراً، حيث أن انشغالاً بهذا الإصرار يمكن أن يكون قد أفاد في تمهيد الأرض لأدب مشبع

بجوهر إفريقي أصيل . لقد وجدت الإفريقية ، إذا استخدمنا مصطلحاً لفرناندو أورتيث ، في مناطق معينة من أمريكا ، وبالاخص في جزر الأنتيل المتحدثة بالاسبانية ، والفرنسية ، والانجليزية ، لكنها وجدت على مستوى شعبي تماماً . وهذا العالم المركب - من الطقوس الدينية ، والفودو ، والعادات ، والمعتقدات والأغاني والرقصات - لم يصادف تعبيراً أدبياً ، بل وصف فقط . وبفضل أعمال فرناندو أورتيث ، (وهي الزنوج السحرة ، عام ١٩٠٦ ، و الزنوج العبيد عام ١٩١٦ ، ومعجم التعبيرات الأفرو - كوبية عام ١٩٢٤) ، فإن وجود هذا العالم المغمور ، الذي رأى بعض الناس لمحة منه ، لكنه غير معروف للكثيرين بدأ لدرجة كبيرة في إثارة اهتمام عديد من الأنثيليين ، الذين هم في غالبيتهم كوبيون . وقد أخذوا في فحص إمكانات استخدام هذا الفن الشعبي ، وفي عام ١٩٢٨ ، «بدأت الطبول تدوي في الشعر الغنائي الكوبي» ، كما كتب أورتيث نفسه (Re- vista Bimestre Cubana, vol xxxv11, 1936. p. 26 والإشارة هنا إلى أعمال مثل راقصة الرومبا لخوسية ث . تاليت Tallet وابتهالات النيانيا لأليخو كاربتتييه . لكن في كتب نيكولاس جيين الثلاثة - (دوافع الصوت) (١٩٣٠) ، و (سونجورا كوسونجو) (١٩٣١) ، و (قبل كل شيء الوست إنديز ليميتد) (١٩٣٤) - نجد الصوت الأفرو - كوبي الأصيل . نجد في شعر جيين لهذه الفترة إيقاعات من موسيقا . زنوج كوبا ، وكلمات من أناشيد اليوروبا yoruba ، كما نجد دعابة ووجدانية ، كل ذلك مكتوب ومحسوس من داخله . و (موال الجدين) ، و (موال عفريت النهر) ، و (قصيدة سنسيمايو) الشهيرة ، هي قصائد أفريقية كوبية أصيلة فيما يتصل بالتعبير وبالمحتوى ، وكذلك قصائد مثل العاج الملكي ، أو آكانا ، وأبيات مثل :

« Arará cuévano avará sabalú »

أو : « Ay, acaná con acaná con acana »

أو : كنت سائراً في طريق

حين صادفت الموت .

- يا صديقي - صاح بي الموت

لكنني لم أجبه،

لكنني لم أجبه،

نظرت إلى الموت فقط،

لكنني لم أجبه. (١٠)

والتكنيك هنا إفريقي تماماً، فالأغنية في أجزاء عديدة من غرب إفريقيا هي أغنية تكرارية بتنويعات بسيطة داخل التكرارات. وهكذا أيضاً أغنية اليوروبا في كوبا باللغة الإفريقية أو الأسبانية. ونفس الظاهرة تلاحظ في كل جزر الأنثيل.

وليس هناك أدنى شك في أن موضحة البدائية في أوروبا وفي الولايات المتحدة خلال عقدين من ١٩٢٠ إلى ١٩٤٠ قد أثرت في استغلال الثقافة الأفرو-أنثيلية. لكن هذا هو الجانب الأقل أهمية، إذ إضافة إلى ذلك، كان كل الأدب الكوبي في القرن التاسع عشر قد جاء ليمهد الأرض. يقول رامون جيراو وهو مصيب تماماً: إن الطراز الزنجي، إذن، لا يولد في كوبا مثلما في أوروبا، دون تقاليد وبعيداً عن الوثيقة الإنسانية» (١١). ويلمح مارينيو إلى أن الزنجي أصبح جزئياً يقوم بدور السكان الأصليين في كوبا.

وربما كانت أكثر الروايات التي كتبت في كوبا أصالة في إفريقيتها هي رواية سيرة عبد طريد لميجيل بارنت، هافانا ١٩٦٨. وهي تتناول حياة رجل عمره ١٠٤ سنوات يحكي كيف كان يعيش العبيد، ويصف الرقصات والحيل ذات الأصل الإفريقي.

أما الشعر الأفرو-أنثيلي للشاعر البورتوريكي لويس باليس ماتوس Palés Matos فيبدو بوضوح انعكاساً للنزعة المناهضة للثقافة في فترته، وهو مركب من

(10) Nicolas Guillén, El son entero, Buenos Aires, Losada, 1947.

(11) Rawón Guirao, Órbita de la poesía afro - cubana, 1928- 37, La Habana, Ucar, García Y Cía , 1939.

عناصر أفرو - أنتيلية خالصة، ومن نظريات اشبنجلرية* جديدة حول تدهور الغرب. «إن الإحساس الجمالي للجنس الأبيض قد دخل في حالة من التحليل العقلي الخطر، ملغياً بذلك جذوره الكونية»، هكذا يكتب في مقال منشور في مجلة Poliedro سان خوان، ١٩٢٧. ويطالب بفن خاضع «لدفقة الدم والغريزة»، لكن من الممكن التساؤل إلى أي مدى كان باليس ماتوس يؤمن حقاً بالفن الأفرو- أنتيلي. فحتى أولى قصائد ديوان تون تون القنويات والسباكة (سان خوان، ١٩٣٧)، وهي قصيدة افتتاحية من مقام بويرتوريكو، تختتم بأبيات ذات نبرة مشبطة:

هذا الكتاب الذي يقع بين يديك
بعناصر أنتيلية
ألفته يوماً . . .

. . . . وباختصار، فإنه وقت ضائع
انتهى بي إلى الملل .
إنه شيء غير واضح ومدّع،
لم أعشه بما يكفي
وكثير من الأكاذيب والاختلافات .

ويجري التعبير عن الوسط الأنيلي بصورة تثير الإعجاب وبمعجم غني، وتلاعب مدهش بالصور. وطبقاً لما يذكره خايمي بنيتث في مقدمته للطبعة الثانية عام ١٩٥٠، يناظر هذا الموقف «الانحطاط الروحي الكبير لطبقاتنا المثقفة». وربما كان هذا صحيحاً، لكن ليس مما يقلل صحته أن الشعر الأفرو - أنتيلي لباليس ماتوس هو شيء غير معاش، بل قد يمكن اعتباره شكلاً من أشكال الحداثة لا يمتك إلا مع الإسهام الإفريقي .

(*) اشبنجلر مفكر الماني (١٨٨٠ - ١٩٣٦) له نظريته في فلسفة التاريخ وقد شرحها في كتابه تدهور الغرب الصادر سنة ١٩٢٠. [المراجع].

في هذه الأثناء أخذ يتشكل في هايتي وجزر الأنتيل موقف زنجي منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر. كان أنتينور فيرمين في كتابه تساوي العروق البشرية L'égalité des race humaines (باريس، ١٨٨٥) وهانيبال برايس في كتابه: حول إعادة تأهيل العرق الأسود في شعب هايتي: De la réhabilitation de la race noire par le peuple d'Haiti قد دحضها فكرة همجية الزنجي في أفريقيا وهايتي، ودونيته العرقية، والتمييز العنصري. لكن كتاب جين برايس مارس، بعنوان Ainsi parla l'oncle، هكذا تكلم العم بويرتو برينشيني، ١٩٢٨ كان هو الذي بدأ حركة فنية وروحية مازالت قائمة. إذ أنه لم يكتف برفض فكرة الدونية ونقص الثقافة في إفريقيا، بل درس العادات والمعتقدات التي تكاد تكون قاصرة على الأصل الإفريقي ذاته للشعب الهايتي، واصفاً أياها بأنها «مواد إنسانية رائعة يتشكل منها القلب، والوعي اللانهائي، والروح الجماعية للشعب الهايتي. أما جيل الثلاثينات وحتى الأربعينات فقد أسلم نفسه إلى نشوة حقيقية بالبدائية والأفريقية يبرز فيها رفض للقيم الثقافية الأوروبية، وحنين لإفريقيا باعتبارها الفردوس المفقود. والأمثلة التقليدية هي: لكارل برووارد: «أيها الطبل، حين ترن، تعول روحي في اتجاه إفريقيا»، ولكلود فابري: «أحس أن روحي روح الإفريقي الأشعث»، ولفابريس كاسيوس: «آه، أعطنا إيقاعك الإفريقي العظيم، أيها الطبل العرقي المخروطي!» كما يعبرليون لالو عن أسفه لاضطراره للتعبير عن قلبه، القادم من السنغال، باللغة الفرنسية.

وأما الروائيون، فيكرسون أنفسهم لموضوعة الفودو Vudú، ديانة الجماهير في هايتي. ويمتلئ الشعر بنباتات وحيوانات أفريقية، غريبة تماماً عن هايتي: أشجار باباب، ومطاط، وتمانسيح، وقردة، ودغل، الخ. هؤلاء الكتاب، الذين يريدون أن ينزعوا ثوبهم الأوروبي ويرقصوا عرايا، والذين يمتدحون الفودو، يمارسون في الأعماق رقصاً قد تطور، رغم موسيقاه ذات الإيقاعات الإفريقية، على إيقاع عصا أوركسترا أوروبية كما يستخدمون اللغة الكريولية créole، غير المفهومة خارج هايتي وجزر الأنتيل الفرنسية، معتقدين، والحق معهم، بأنها أكثر

ارتباطاً بإفريقيا منها بفرنسا، وقد ترجم هـ. موريسو ليسروا أوديب ملكاً إلى الكريولية، لكنه لم يكتف بمجرد الترجمة النحوية، بل أبدل الآلهة الإغريقية «بالمتمدنين»، وهم أرواح المجمع الفودو لهايتي.

ويعالج شاعر جزر الأنثيل الانجليزية البارز، وربما الوحيد، كلود مكاي موضوعات مشابهة لموضوعات الهايتيين: الحنين إلى إفريقيا، والحنق تجاه أوربا لاستعبادها الزنجي واحتقارها لثقافته. كما ينتشي بحماسة من الحياة السهلة، الخالية من الهموم التي يحياها الزنجي ومن البدائية في كتابه (Home to Harlem, 1928)

ولاشك في أن المارتينيكي إيميه سيزير هو الذي استقطب كل زنجية جزر الأنثيل، وزنجية إفريقيا بدرجة كبيرة. إلا أنه لم يضع مفهوم «للزوجة» على أساس عناصر أفرو-أمريكية خالصة. لقد كانت «زوجة» سيزير إكتساباً للوعي من جانب الإنسان الزنجي في العالم أجمع. كان الهايتيون قد كرسوا أنفسهم لدحر تفوق الثقافة الأوروبية، لكن دون طعم ولا معنى.

أما سيزير، فقد رفض، في المقابل، قيم الحضارة الغربية، وأدان المنطق والعقل، وأعلن في الوقت نفسه رؤية للكون زنجية تماماً:

مرحى لمن لم يخترعوا شيئاً
لمن لم يكتشفوا شيئاً أبداً
لمن لم يكبحوا شيئاً أبداً،
لكنهم ينجرفون منتشين،
إلى جوهر كل الأشياء،
جاهلين بالسطح،
تملكهم حركة كل الأشياء
لاتشغلهم السيطرة،
لكنهم يلعبون لعبة العالم

شرراً للهب المقدس للعالم
لحماً للحم العالم .

ينبضون ينبض العالم نفسه .

وفي الكتاب نفسه Cahier d'un retour au pays natal كراسة عودة إلى بلد
الموطن ، (باريس ، عام ١٩٣٩) يعرب عن كرهه للمنطق :

لأننا نكرهكم ،

أنتم بعقلكم ،

ونطالب بالجنون النشط ،

بالجنون المتفجر لأكل لحم البشر العنيد .

ويعلن اخفاق الحضارة «البيضاء» :

انصتوا إلى العالم الأبيض

المرهق بصورة مرعبة من جهده الهائل ،

ومبتكراته المتمردة تطلق تحت النجوم الصلبة ،

وصلاية الفولاذ الأزرق فيه تحترق اللحم الصوفي .

يدين جزء كبير من عمل سيزير وأتباعه بتقنيته الشعرية إلى السورالية ، رغم
أن بعض المطبلين «للزوجة» مثل الألماني «يانهاينزيان» حاولوا نفي ذلك ، مؤكدين
أن للفن الزنجي دائماً مدلولاً واضحاً . وفي حوار مع مجلة Casa de las
Américas دار الأمريكتين ، عدد يوليو - أغسطس ١٩٥٨ ، يعترف سيزير نفسه
بدينه للسورالية . حين يرد على رينه ديبيترقائلاً : «لقد جذبت السورالية
إهتمامي بقدر ما كانت عامل تحرير» . لكنه يضيف قائلاً : «لقد كانت بالنسبة لي
نداء إفريقيا» ، ويصفها باعتبارها نداءً للقوى العميقة ، وللقوى غير الواعية ،
وتريقاً من تسمم الديكارتية ، ومن البلاغة الفرنسية ، ويردف بصورة ذات مغزى :
«كانت الغوص في الأعماق . كانت الغوص في إفريقيا بالنسبة لي» .

ورغم عدم اختفاء جزر الأنثيل تماماً يبدو سيزير وكأنه يزداد انشغالاً بإفريقيا ،
بتاريخها ، وبحياة الزنجي في كل الأنحاء ، وترك أعماله الانطباع أكثر فأكثر بأن

الإسهام الإفريقي ليس أرضية متأثرة لجزر الأنتيل بقدر ما هو إسهام لإفريقيا ذاتها. وهذه ظاهرة بالغة الغرابة.

يوجد التأثير الإفريقي في جزر الأنتيل الفرنسية والبريطانية فيما يتعلق بالعرق ولون السكان، الزواج في غالبيتهم. لكن الاستفادة من الرواسب الإفريقية في الثقافة الفولكلورية كانت ضئيلة، ولم تنتج شيئاً ذا قيمة في الأدب، اللهم سوى بضع حكايات للحيوانات مثل أنانسي الرجل العنكبوت Anansi the spider man عام ١٩٦٤ لفيليبس م. شرلوك من جامايكا. وبالمقابل فإن الحنين إلى إفريقيا، الذي تحول إلى حركة سياسية هي العودة إلى إفريقيا للجامايكي ماركوس جارفى، مازالت مستمرة بين آلاف الأتباع في جامايكا، وكذلك الإلهام المأخوذ مباشرة من موسيقا مختلف أقاليم إفريقيا وإيقاعاتها وأغانيها يبدو أن لها جذوراً عميقة وفي حالة نمو. كما يتمتع الانشغال بوضع الإنسان الزنجي في العالم المعاصر بقوة ضخمة.

إن «الزوجة»، وهي امتلاك الزنجي للوعي، ربما تكون قد ولدت في جزر الأنتيل، وربما انبعثت من الظروف الاجتماعية والاقتصادية لجزر الأنتيل، لكنها ليست حركة أنتيلية ضيقة. ففي كتابه الأخير، أقنعة Masks، لندن ١٩٦٨ يكتب شاعر باربادوس إدوارد بريثويت، Braith waite الذي أمضى ثماني سنوات في غانا، عن ثقافة وعادات زواج الأكان Akan المتحدثين بلغة التوى Twi. ولا يتعلق الأمر بلون محلي بل باختبار أسلوب حياته وردود أفعاله الشخصية بوصفه أنتيلياً عائداً. ويستخدم إيقاعات أغان إفريقية، ويكتب قصائد تكاد تكون بكاملها في لغة التوى: ومن زوارق جديدة يصف وصوله:

في تاكورادي Takoradi كان الجو حاراً.

وكان الأخضر يصارع الأحمر

حين رسونا.

كانت دروب الطين تبهر

صوب التراب، صوب الصمت.

كانت زنجيات ملتفات بأثواب ،
يزدهرن ويضحكن ، بأسنان بيضاء ،
وأصوات ناعمة مثل الحصى
يحركها بحر لغتهن .
يبتسمن «أكوابا Akwaba » ،
يقصدن مرحباً ،
ينادين «أكوابا ،
آيى كوو Aye kooo » .
لقد سرت كثيراً .
ورحلت طويلاً ، فمرحباً .
أنت يامن عدت ، غريباً ،
بعد ثلاثمائة عام . مرحباً .
هاك كرسيك .
اجلس ، أتذكر؟
هاك ماءً
اغسل يديك .
إنك الآن مستعد للأكل
هاك زيت نخيل الزيت
أحمر يصبغ الأصابع
إنه طيب في الحر
طيب للعرق ،
أتذكر؟

أما قصيدة تانو فمكتوبة برمتها بلغة التوى ، لكنها بالانجليزية (أو
الاسبانية) ، ومازالت تحمل إيقاع الطام - طام : *

* الطام - طام : طبل إفريقي . [المترجم] .

Dam دام

Dam دام

Damarifa due داماريفا دوى

Damarifa due داماريفا دوى

due دوى

due دوى

due دوى

لمن ينظر الموت

لمن

لمن ينظر الموت؟

أنا يتيم

وحين أتذكر موت

أبي،

تسح مياه عيني

فوقي .

دام

دام

داماريفا

داماريفا دوى، إلخ .

وثمة أمر هام آخر هو أنه في جزر الأنثيل المتحدثة بالاسبانية، وفي أقاليم أمريكا الأخرى حيث توجد نواة كبيرة من الزواج (الإكوادور، كولومبيا، فنزويلا، البرازيل)، استمد الكتاب والفنانون موادهم من جعبة الفولكلور الأفرو-أمريكي . حيث يكتب كاتب مثل أدالبرتو أورتيث قصائد مثل (إسهام) في، (الحيوان الجريح)، (كيتو، ١٩٥٩) على طريقة نيكولاس جين . وفي هذه القصيدة تظهر أبيات مثل :

دم إفريقيا الدافئ يغزو،
دم الجنس الملون،
لأن الروح، روح أفريقيا،
التي جاءت مقيدة بالأغلال،
أعطت هنا في أرض أمريكا
قرفة وقنديلاً.

إلا أن أورتيت يهتم بما هو إفريقي في الإكوادور، ولا يريد العودة إلى إفريقيا،
ولا استيراد نماذج أدبية من الكتاب الأفريقيين. والأمر نفسه يجري في البرازيل،
حيث يشعر الزنجي والخلاسي بأنها برازيليان أقحاح، برغم أن البرازيل قد
تكون البلد الذي نجد فيه أقوى ميراث إفريقي من الفولكلور والدين. وربما كان
هذا بالضبط هو السبب.

٣ - إسهامات أوروبية غير أيبيرية.

(أ) الهجرة.

ربما كان من الحتمي أن تظهر كتابات حول المهاجرين في بلدان معينة مثل
الأرجنتين، وأورجواي، والبرازيل في المقام الأول.

وعموماً يظهر المهاجر في شكلين. الأول في تعارض بل حتى في صدام عنيف
مع أسلوب الوجود، والعادات والتحاملات التي يحيا بها الكريول، يحدث هذا في
أعمال مثل الجرينجا (١٩٠٤) للأورجواي فلورنسيو سانتشت والجاشو
اليهود (١٩١٠) للأرجنتيني ألبرتو جرتشونوف، لكن الأجنبي عموماً ينتهي بأن
يصبح مقبولاً ومتكاملاً. ومثل هذه الأعمال تحمل خاتمة متفائلة وسعيدة. أما
الشكل الثاني الذي يظهر فيه المهاجر فيمكن أن يضم عناصر من الأول -
احتكاكات، واصطدامات، وصراع مع الطبيعة ذاتها - لكنه في الوقت نفسه
يطرح مشكلة الكريول، الذي هو أدنى من وصل حديثاً في بعض الأحيان. وثمة
لمحات من هذا الاتجاه منذ «مقدمة» فاكوندو لد. ف. سارميتو (١٨٤٥) وحتى

تاريخ عاطفة أرجنتينية (١٩٣٥) لإدواردو مايا. إلا أن رائعة هذا النوع من الكتب هي بلاشك كتاب كناعا Canaa (١٩٠٢) للبرازيلي غراسا أرانيا Graga Aranha والأمريكية هانا لايتعلق برواية ذات تطور بسيط وخاتمة سعيدة فإنها في المقام الأول تبرز تفوق المستوطنين الألمان فيما يتعلق بالمقدرة على العمل ورغبة الإنشاء، بالمقابلة مع عدم حماسة الكريول. ورغم ذلك، يعترف ميلكاو، وهو شخصية مركبة ومعقدة، بأن عظمة البرازيل تتكون من هزيمتها لطبيعة عاتية لا يمكن السيطرة عليها. هذا العمل الغني بالأفكار وبالمناظر الواقعية التي لا تنسى، لا يمكن للأسف تلخيصه في بضع فقرات. لقد أفادت موضوعه المهاجر، إذن، في فحص نتائج الهجرة على الحياة القومية كما أفادت كحافز لتقييم القيم القومية.

(ب) تأثيرات أدبية

اعتباراً من فترة الاستقلال بدأت التأثيرات الأوروبية غير الهسبانية تترك أثراً واضحاً في الآداب الهسبانو-أمريكية. في البداية ساد التأثير الفرنسي بطريقة شبه مطلقة، وكانت التأثيرات البريطانية أو الألمانية تصل عادة من خلال الفرنسية. وفي الشعر كما في الرواية والقصة تظهر بعض عناصر من الرومانتيكية. والرومانتيكية، بالطبع، هي اتجاه متعدد الجوانب: وهي رد الفعل المناهض للكلاسيكية الجديدة، والتمركز حول الذات، والتاريخية هي بعض خصائصها. لكن الكتاب الأمريكيين اللاتين اختاروا من بين الملامح المتعددة للرومانتيكية أكثر ما يناسبهم.

النقطة الأولى، القومية بأوسع معاني الكلمة: كوصف الطبيعة وفق نماذج شاتوبريان، وأوسيان، وروسو، وفنيمور كوبر، والتاريخية بتأثير كبير من والتر سكوت، وربما من خلال الترجمات العديدة لأعماله في إسبانيا. وكان العصر الوسيط ينفرهم، ولعل ذلك لأنه يجعلهم يتذكرون أكثر مما يجب الاستعمار الإسباني، ومن ثم فضلوا مقاطع من فترة الغزو-يقوم فيها الهندي بدور المتوحش الطيب وهو يناضل من أجل حريته ضد الإسبانين الجشعين المخادعين. ومقاطع من حرب الاستقلال. وثمة كذلك ميل إلى استخدام نزعات إقليمية لغوية، مثلما

في السلخانة، لاستفان اتشفيريا، ومارتين فييرو، لخوسيه إرناندث، مازالت تتمتع بكثير من السمات الرومانتيكية (ففي شخصية مارتين فييرو كثير من سمات المتمرد المناهض للمجتمع، ومن البطل اللعين عند بايرون، ودي موسيه، واسبرونثيدا، الخ).

النقطة الثانية، ولعلها متصلة بالنقطة الأولى، هي أدب العادات، الذي يمكن أن يكون قد نشأ في إسبانيا. فسارميينتو، على سبيل المثال، الذي تعد روايته فاكوندو من أدب العادات في جزء كبير منها، لم يكن يتأثر من بين معاصريه إلا بلارًا Larra، لكن لارًا، كما هو واضح، كان بالغ التأثير بالأدب الفرنسي.

النقطة الثالثة، هي أن جاذبية بلزاك كانت ضخمة واستمرت حتى القرن العشرين. وكان بلزاك في روايته: الكوميديا الإنسانية La Comedie humaine بالغ النفع كنموذج لرسم ألوان المجتمعات الجديدة في طور التكون والتطور. إلا أن القرن التاسع عشر والحق يقال لم ينتج في أمريكا اللاتينية تقريباً روايات جيدة. واثنتان من أفضلها هما: ثيليا بالديس، للكوبي ثيريلو بيابردي - البلزافي جداً رغم ذكره أن نماذجه تكمن في سكوت ومانزوني - وماريا لخورخي إيساكس، حيث يظهر واضحاً للعيان تأثير شاتوبريان.

والتأثير الثاني، الفرنسي جداً هو الآخر، جاء مع حركة الحداثة، ويتعلق بالشعر في المقام الأول. إذ ان كون الحداثة مزيجاً من البارناسية والرمزية جعلها تدير ظهرها لأمريكا (باستثناءات مثل خوسيه مارتى وسانتوس تشوكانو). واتبع المحدثون الكونت دي ليل وخوسيه ماريا إيريديا، باحثين عن موضوعاتهم في اليابان، والصين، وفي شرق ألف ليلة وليلة، والأسوأ من ذلك أنهم قلدوا مذهب الانحطاط، والتسامي بالحواس، «السحر الإيحائي» للكلمة، مقلدين رمزية أكثر الرمزيين بساطة، مثل فيرلين ومالارمي في أوائله. صيغوا أدباً لصفوة صغيرة مثقفة، إن لم تكن فظة. وكانت مواقفهم التي تماثل مواقف دعاة الانحطاط، في غير موضعها وعبثاً كانت كذلك، في مجتمع كان كل شيء فيه ينتظر الإنجاز والعمل.

في هذه الأثناء، كان التيار الرئيس للرواية يجري في مجارٍ أخرى. فقد اتبع مؤلفون من أمثال ماريانو أثويلا موباسان، وزولا، ودوديه، أو بالأحرى الواقعية - الطبيعية. كذلك بقى تأثير بلزاك، كما يلاحظ عند أثويلا ومحاولته أن يصف في رواياته «البرجوازية الجديدة»، رغم أن أسلوبه يقترب أكثر من موباسان في إيجازه. وفي بعض الكتاب، نجد مزيجاً غريباً من الواقعية، والرومانتيكية، والحداثة، مثلما في (الدوامة) لإيوستاسيو ريبيرا، أو في (جنس من البرونز)، للبوليفي أليدس أرجيداس.

ويتعرف خوسيه بيلاسلما في رومولو جايغوس على تأثيرات من تولستوي، وداروين، ودانونزيو، ونيثشه، لكنها ليست تأثيرات أدبية على وجه الدقة، فمن المشكوك فيه أن تكون شخصيات مثل سانتوس لوثاردو في دونيا باربارا (١٩٢٩)، وماركوس بارجاس في كانايما (١٩٣٥) مستلهمة من الإنسان الأرقى للفيلسوف الألماني. كان الرجل الذكوري، ذو الفعل المندفع، موجوداً فعلاً في الأدب الأمريكي اللاتيني.

وبإمكاننا أن نمضي في إيراد التأثيرات أو التأثيرات المحتملة، لكن ذلك لا جدوى له. فالحقيقة هي أن الكاتب الأمريكي اللاتيني، سواء كان روائياً أو شاعراً، باستثناء بعض المحدثين، أراد أن يخلق أدباً ذا طابع قومي أو أمريكي لاتيني خالص.

وقد حدث الشيء نفسه مع الروائيين المعاصرين، مثل كارلوس فوينتس، وخوليو كورتاثر، وجابريل جارتيا ماركيث، وإرنستو ساباتو، الخ. فلدى فوينتس ثمة تأثيرات محتملة لجيمس جويس (من يوليسيز في موت آرتيميو كروث ومن صحوة فينيغان في تغير الجلد)، ويبدو «تيار الوعي» لدى كثيرين منهم، من السيد الرئيس، لميجيل أنخل أستورياس، وحتى إرنستو ساباتو. ومن المحتمل وجود تأثير لفوكنر في مائة عام من العزلة، لجابريل جارتيا ماركيث، لكن الواقع والحساسية الأمريكية اللاتينية تتخلل وتنفذ في رواياته لدرجة تصبح معها قضية التأثيرات أمراً يكاد يكون أكاديمياً تماماً. وكما قال بابلونيرودا عن حق فإن: «عالم

الفنون هو محترف كبير يعمل فيه الجميع ويساعد بعضهم بعضاً، رغم أنهم قد لا يعلمون وقد لا يصدقون. ونحن، في المقام الأول، نلقى العون من عمل من سبقونا. ومن المعروف أنه لا وجود لروبين داريو بدون جونغورا، ولا لأبوللينير بدون رامبو، ولا لبودلير بدون لامارتين، ولا لبابلو نيرودا بدونهم جميعاً» (١٢)، وبالنسبة للرواية، يكتب فارجاس يوسا: «إنني أوضح أن الأوروبيين، حينما كان لديهم بروسست وجويس، لم يكونوا يكادون يهتمون أو لم يهتموا مطلقاً بسانتوس تشوكانو أو بإيوستاسيو ريبيرا. لكن الآن، حين لم يعد لديهم سوى روب - جرييه، وناتالي ساروت، وجورجيو بازاني، فكيف لا يدرون رؤوسهم خارج حدودهم بحثاً عن كتاب أكثر إثارة للاهتمام، أقل سباتاً وأكثر حيوية؟ ابحثوا في الأدب الأوروبي للسنوات الأخيرة عن كاتب يمكن مقارنته بخوليو كورتاثر، أو عن رواية من نوعية (قرن الأنوار)، أو عن شاعر شاب ذي صوت بعمق صوت الشاعر البيروي كارلوس جرمان بي German Belli وانقلابيته، لن تجدوا في أي مكان. إن الأدب الأوروبي يجتاز أزمة تفاهة مخيفة وهذا ما حذ انتشار الكتاب الأمريكيين اللاتين في أوروبا» (١٣)

بإبدائهما هذه التعليقات، من الواضح أن نيرودا وفارجاس يوسا Llosa لا يحاولان نفي التأثيرات الأجنبية، بل يحاولان التأكيد على أن تلك التأثيرات، مهما بلغت أهميتها، لا تشكل جوهر الأدب الأمريكي اللاتيني عموماً، وأن هذا الأدب يهضمها ويتمثلها، ويخلق باستخدامها شيئاً خاصاً به، وعالمياً في الوقت نفسه.

إلا أن التجربة الحية الأمريكية اللاتينية هي ما تفيد كمنصة انطلاق إلى ماهو روحي وماهو نفسي، كما تفيد في تقديم الواقع الأمريكي. ودون الوقوع في هاجس «أصالة الأدب الأمريكي اللاتيني، يمكن التأكيد على أن أدباً ذا ميسم لا

(12) Pablo Neruda y Nicanor Parra, Santiago de Chile, 1962, p. 54

(13) Saludo al margen, en Margen, París, núm. 1. octubre- noviembre de 1966.

تخطئه العين قد خرج من هذه البوتقة من التأثيرات - تأثيرات السكان الأصليين،
والتأثيرات الأفريقية، والأوروبية، والإسبانية بالطبع. والدليل، كما يعلن
بارجاس يوسا، ولعله يعلنه بكبرياء مفرطة، هو أن هذا الأدب يترجم إلى كل
لغات الثقافة تقريباً، والأهم من ذلك أن أعمال مؤلفين أرجنتينيين ومكسيكيين،
وكوبيين وتشيليين، تقرأ الآن بنهم في كل أمريكا اللاتينية وفي إسبانيا ذاتها.



الفصل الرابع

الوحدة والتنوع

خوسيه لويس مارتينث*
José Louis Martinez

نحن جنس بشري صغير، نملك عالماً قائماً بذاته، محاطاً ببحار مترامية، جديداً في كل الفنون والعلوم تقريباً رغم أنه، على نحو ما، قديم في استخدامات المجتمع المدني.

سيمون بوليفار

١ - مُرَكَّبُ أمريكا اللاتينية

الخصوصية الأولى لأمريكا اللاتينية هي وجودها بوصفها كذلك، أي بوصفها مجموعاً من واحد وعشرين (١) بلداً تضمها روابط تاريخية، واجتماعية، وثقافية

(*) ناقد مكسيكي (ولد في جاليسكو ١٩١٨) من اعماله الأساسية: موقف الأدب المكسيكي المعاصر (مكسيكو ١٩٤٨)، الأدب المكسيكي في القرن العشرين (مكسيكو ١٩٤٩). التعبير القومي (مكسيكو ١٩٥٥). الوحدة والتنوع في الأدب الأمريكي اللاتيني (مكسيكو ١٩٧٢). أستاذ في الجامعة الوطنية المستقلة في المكسيك.

(١) الواقع الراهن لأمريكا اللاتينية أعقد من المنظومة البسيطة التي ظلت قائمة حتى أواسط القرن. المجموع الأصلي لا يزال مكوناً من واحد وعشرين بلداً (الأرجنتين، بوليفيا، البرازيل، كولومبيا، كوستاريكا، كوبا، تشيلي، جمهورية الدومينيكان، إكوادور، جواتيمالا، هايتي، هندوراس، المكسيك، نيكاراغوا، بنما، باراجواي، بيرو، بويرتوريكو، السلفادور، أوروغواي، فنزويلا). أما بويرتوريكو فهي ولاية حرة منضمة إلى الولايات المتحدة ويحمل مواطنوها جنسية الولايات المتحدة. وبعد عام ١٩٦٠ ظهرت أربعة بلاد جديدة هي جامايكا، وباربادوس، وترينيداد مع توباغو، وجويانا، ناطقة بالانجليزية أساساً، وتكون جزءاً من «الكومنولث البريطاني».

بالغة العمق تجعل منها وحدة بمعان كثيرة . هناك مجموعات أخرى من البلاد ترتبط بتاريخها وبجنسها، بلغتها وبيديانتها، أو بأحلاف سياسية أو اقتصادية، لكن ليس من المؤلف أن تجتمع كل هذه الروابط، وأقل من ذلك أن تكون السمات المشتركة، كما هو حال أمريكا اللاتينية، أقوى من إرادة التمييز الفردي بينها وكذلك أقوى من الخلافات .

هذه الشعوب، التي تفتersh أكثر من نصف القارة الأمريكية، غزاها واستعمرها الإسبان والبرتغاليون في أوائل القرن السادس عشر (٢) . ومنذ ذلك الحين احتفظ تسعة عشر بلدا منها باللغة الإسبانية، واحتفظ بلد واحد، متسع كأنه قارة، باللغة البرتغالية، (٣) وشهدت تاريخاً، وتكويناً ثقافياً، وتطوراً أدبياً متوازية . ومن ناحية أخرى، كانت توجد في أمريكا مجموعات سكانية، وثقافات أصلية، وظروف جغرافية خاصة في كل واحدة من مناطقها . وقد فرضت على الناس،

== ويحدد اسم أمريكا اللاتينية، اصطلاحياً وبصورة غير دقيقة، مجموع البلدان الاحدى والعشرين الأولى، التي يتكلم منها الإسبانية تسع عشرة دولة، وتتكلم البرازيل البرتغالية، وهايتي الفرنسية . وحين يجري التحدث بصورة شاملة عن البلاد الناطقة بالإسبانية، يقال هسبانو-أمريكا أو أمريكا - الهسبانية، وحين تدرج البرازيل، يقال إيبرو- أمريكا .

والشائع أن تدرج البلاد الأربعة حديثة الاستقلال في إقليم فرعي يسمى بلاد الكاريبي أو جزر الأنثيل، وتعد ضمنه كذلك في بعض الأحيان بلدان المنطقة الأخرى الواقعة في القارة .

(٢) كان الإسبان والبرتغاليون هم المستعمرين الأوائل والذين احتلوا مناطق أكثر اتساعاً . وبعدهم قدم كذلك فرنسيون، وهولنديون، وإنجليز، احتلوا مناطق متفرقة . انظر .

Silvio Zavala, El mundo americano eu la época colonial, México Porrúa, 1967, 2, vols.

(٣) من الـ ٢٥٤, ٤ مليوناً من السكان الذين يشكلون تعداد أمريكا اللاتينية (١٩٦٨)، يتكلم ١٦٤, ٢ مليوناً، أو ٦٤, ٥٪ الإسبانية، ويتكلم ٥٨, ٦ مليوناً البرتغالية في البرازيل، أي ٣٣, ٤٪ ويتكلم الباقيون الفرنسية والانجليزية . وتحتل الإسبانية المركز الخامس بين أكثر اللغات انتشاراً في العالم . والأربعة السابقة عليها هي الماندارين (الصينية)، والانجليزية، والروسية، والهندية .

والثقافات، والطبيعة، نماذج أيبيرية عامة تحبذ التهجين أو العملية الموحدة، أي خلق جماعة من الشعوب نسميها أمريكا اللاتينية، تتمتع بلغات، وتكوين ثقافي، ودين، وتركيب عرقية وبنيات اقتصادية واجتماعية بالغة التشابه.

كل هذا المركب من الظروف الخاصة، وإدراك المثقفين في أمريكا اللاتينية أنهم امتداد أمريكي لثقافات أوروبية، وتعرفهم على جذور هندية فيهم ذات سمك وعمق متفاوتين، والإحساس بأنهم جزء من جماعة تتكون من بلدان متماثلة في جوانب عديدة، كل هذا يمكن أن يفسر التساؤلات الملحة التي اعتاد هؤلاء المثقفون الأمريكيون اللاتين طرحها حول هويتهم، وحول أصالتهم، وحول طبيعة ثقافتهم. وعلى طول القرن التاسع عشر ظل المفكرون الأمريكيون يتأملون بشكل متصل في وجود أمريكا، ووضعها، ومصيرها، وفي القرن الحالي تبدأ دورة من التساؤلات الذاتية أكثر منهجية مع ظهور ستة مقالات بحثاً عن تعبيرنا (١٩٢٨) لبدر و إنريكو أورينيا. وسرعان ما سيتم الانتقال إلى الاستقصاء عن جوهر كل واحدة من القوميات الثقافية. كان انهيار أوروبا، عند نهاية الحرب العالمية الثانية، والوجودية التي كانت عندئذ في أوجها، قد حفزا تلك الاستقصاءات حول وجود ومصير أمريكا، وحول السمات المستقلة للثقافات القومية. وقد انقضت الموجة، والآن، بدلاً من التنظير، ينشر الأمريكيون اللاتين أدبهم في العالم ويتحدثون ويكتبون عن جوانب امتياز شعرائهم وروائيهم، دون أن يشغلهم ما إذا كانوا يعبرون عن أمريكا أو عن بلدانهم المختلفة أم لا يعبرون.

٢ - القرن التاسع عشر والتدريب على الحرية.

إن الأدب الأمريكي اللاتيني للقرن التاسع عشر هو أدب فترة تدريب وتأهيل. وكان لابد للتدريب الأول أن يكون التدريب على الحرية وعلى وعي الهوية. كانت البلدان الجديدة قد أصبحت مستقلة رسمياً، ومن ثم، طرحت ضرورة مد ذلك الاستقلال إلى مجال النفوس، وضرورة تحقيق ما كان يسمى حينئذ باسم «الانعتاق الذهني». وبالتالي خلق ثقافة أصيلة. وخلال الثلث الأول من القرن سيكتسب الأدب شحنة إيديولوجية مكثفة ستجعله يشارك، بطريقة

ممتازة، في العملية المركبة للتطوير الثقافي. لن تبلغ أي مهمة لاحقة مبلغ القوة، التي كانت تتمتع بها، في أمريكا اللاتينية، تلك المهمة التي تستهدف تحقيق اعتناقنا الأدبي، إذ كان نضالها من أجل توطيد الوجود الأدبي نفسه والخاص بأمريكا. (٤)

وبالفعل، فإن الأجيال الأمريكية اللاتينية التي ظهرت نحو سنوات الثلاثينات من القرن التاسع عشر، حين بدأت تهدأ أو تحل النزاعات الداخلية بين الجمهوريات الجديدة باستثناء البرازيل التي ظلت مملكة مستقلة حتى عام ١٨٨٩ حين انتقلت إلى النظام الجمهوري -، قد تبنت عن جدارة برنامج خلق أدب يعبر عن طبيعتنا وعن عاداتنا. وكرس شعراء، وروائيون، ومسرحيون، وكتاب مقالات أنفسهم بحماسة، وفي كل بلدان الإقليم، لمهمة التغني بروعة الطبيعة الأمريكية ونسخ واستكشاف خصوصيات طابعنا وعاداتنا، خصوصاً تلك العادات الشعبية التي تتمتع بأكبر قدر من النكهة والألوان الزاهية.

وفي إطار البانوراما الأدبية المعقدة للقرن التاسع عشر في أمريكا اللاتينية، بقوائمها التي تضم آلاف الكتاب وتعددية الاتجاهات والتيارات الأدبية فيها، تتميز ثلاثة جوانب بارزة ونموذجية: قصص العادات، والشعر الجاوشي مع شعر الحياة الشعبية، ونثر المفكرين.

(أ) حكاية العادات.

تمشت «لوحة العادات» تماماً مع الوصف الأدبي لمجتمعات أمريكا اللاتينية الأكثر تطوراً، عند أواسط القرن التاسع عشر، والتي كانت قد ثبتت فيها عادات يومية وأنماط شعبية. كان كتاب العادات يصفون مجتمعاً في حالة تحول: كانت لاتزال هناك قوالب واستخدامات من العصر الاستعماري في الطبقات العليا، لكن الاستقلال الحديث قد بعث العديد من المشكلات وأظهر بوضوح النزاعات

(4) Cf. José Luis Martínez, La emancipación literaria de México, México, Antigua Librería Robredo, 1955.

والتفاوتات الاجتماعية، التي كانت لوحات أو مقالات العادات تسخر منها، بروح لاتزال مرحة.

إن الرواج الذي بلغته نزعة العادات، وخصوصاً في البيرو، والمكسيك، وكوبا، وكولومبيا، وتشيلي، وفنزويلا، لم يكن يرجع إلى مجرد الرغبة في محاكاة النماذج الإسبانية - كما لدى ميسونيرو ورومانوس Mesonero Romanos، ولارّا Larra، وإستيبانث كالديرون Estébanez Calderón -، بل كان يستجيب كذلك لإلحاح تحديد الهوية الذي كان يشعر به كاتبنا، ولذلك البحث عن التعبير القومي والأصيل.

وأكثر فروع مذهب العادات ازدهاراً هو الرواية. لم يكن مجرد تجميع لوحات العادات كافياً لخلق رواية جيدة، وربما بسبب فهم الأمر على هذا النحو، لم يقبل التحدي ولم يتصد للوصف الأعمق والأشمل للمجتمعات الجديدة سوى أكثر نفوس ذلك العهد موهبة. وبقبول هذا التحدي، أخذ بعض من أفضل الروائيين في الانتقال، بصورة واعية أحياناً، وتحت ثقل الشخصيات والمشاهد التي تحمل طابع نزعة العادات، من الرومانتيكية إلى الواقعية، معلنين بذلك نضج الرواية في أمريكا اللاتينية.

وقد أسهم السلام الذي تمتعت به البرازيل خلال القرن التاسع عشر - على نقيض المنازعات المستمرة في أمريكا الهسبانية - في ازدهار الرواية في هذا البلد خلال النصف الثاني من القرن، وهذا الفن الروائي، في مجموعه، يعد أهم فن روائي في أمريكا اللاتينية في تلك الفترة.

ويعد جواكيم ماريّا ماتشادو دي إسيس Joaquim Maria Machado de Assis (١٨٣٩ - ١٩٠٨) الشخصية البارزة للآداب البرازيلية. كانت حياته نضالاً مؤثراً وصامتاً. هذا المولد، الفقير، المتلعثم الذي تنتابه نوبات الصرع، هزم بصورة جذرية مثالبه التي لاتلمس في أعماله ظلاً واحداً من ظلال طفولته، حتى يبقى مع الإنسان، مع الرجال والنساء العاديين للطبقة المتوسطة البرازيلية،

مع المشكلات والعواطف السوقية لأجسادهم وأرواحهم. كذلك أدار ظهره للغابة، وللإنسان الأرضي الذي تعذبه عواطف محمومة، ولبدخ الأسلوب، لي طرح على بلده ذلك الوجه الآخر، البرازيلي بدوره، للاسترخاء والجدية، للدعابة الراقية التي تبهج قراءه بحدة ورهافة صورها. وقد كتب ماثيادو دي أسيس، بصدد أليнкаر، كلمات تفسر كذلك أسلوبه هو: «هناك طريقة للنظر وللإحساس تعطي النغمة الحميمة للقومية، بصرف النظر عن الوجه الخارجي للأشياء» (ه) وفي رواياته العظيمة، مذكرات براث كوبياس بعد موته (١٨٨٠)، و كينكاس بوربا (١٨٩١)، ودون كازمورو (١٩٠٠)، ومن قصصه الرائعة، نجد ما تشادو دي أسيس، البرازيلي الحميم، واحداً من كبار القصاصين العالمين.

كذلك ظهر في كولومبيا روائيو عادات جيدون خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من بينهم يمثل توماس كاراسكيا Tomás Carrasquilla (١٨٥٨ - ١٩٤٠) إحدى لحظات الذروة لمذهب العادات الأمريكي اللاتيني. وحالة هذا الكاتب الكولومبي الذي يكاد يكون مجهولاً حالة فريدة. فإنه بتواريخ نشر أعماله (١٨٩٦ - ١٩٣٥) يتطابق مع ذروة الحداثة ومع بداية الرواية الحديثة. ورغم أنه عرف جيداً كتاب عصره، فقد حبس نفسه في إقليمه أنتيوكيا حتى يجد ذاته، ويحاول أن يفهم أناس زمانه. وهكذا حقق أعمالاً تقع شكلياً في إطار مذهب واقعية العادات، الذي كان مهجوراً في تلك السنوات، لكنها ذات نوعية جمالية نادرة، ورؤية إنسانية نفاذة، وإعادة خلق للغة الشعبية وجده في داخله، وجعل منه جزءاً من أسلوبه الأدبي. وقد كتب قصصاً عديدة وأربع روايات طويلة، فاكهة موطني (١٨٩٦)، حول قريته في إقليمه، والعظيمة (١٩١٠)، حول مجتمع مدينة مدين، ومركيزة يولومبو (١٩٢٦)، حول ماضي إحدى مدن أنتيوكيا في القرن الثامن عشر، ومن زمن بعيد (١٩٣٥ - ١٩٣٦)، وهي

(5) J. M. Machado de Assis, «A estatua de José de Alencar,» Páginas recolhidas, en Obras completas, Río de Janeiro, Jackson Inc. 1944, pp. 279- 280.

استرجاع شامل لتجاربه الخاصة وللأوساط التي عرفها. إن كاراسكيا روائي عظيم لكل العصور، وربما بدأ يحيا بفضل شهرة أحد مواطنيه في السحر الروائي.

أما رواية العادات المكسيكية فلديها روائيان بارزان، هما باينو Payno وإنكلان Inclan. وأهم روايات مانويل باينو (١٨١٠ - ١٨٩٤)، قطاع طرق الريبو فريبو (١٨٨٩ - ١٨٩١)، وهي كوميديا إنسانية بالغة الظرف للحياة المكسيكية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. ولأنها مكتوبة على شكل رواية مسلسل، تقرأ على «حلقات»، لاتندر فيها التفاصيل المفزعة، لكنها، بالإضافة إلى هذه الحيل، تتضمن أوصاف عادات لكل الطبقات الاجتماعية لتلك الفترة تقريباً، منظورا إليها بتعاطف وبراعة روائية بالغين. أما شخصية لويس إنكلان (١٨١٦ - ١٨٧٥)، فهي شخصية فريدة. إنه «مزارع» بالقدر الذي يكفي كي يترك لنا شهادة حب للأرض وللأساليب التقليدية charrerías وعمله الأساسي، أستوثيا (١٨٦٥ - ١٨٦٦)، وهي الحكاية الفضفاضة لمغامرات عصابة من الفرسان الريفيين مهربي التبغ، هي بانوراما زاهية وودية للحياة الريفية المكسيكية في أواسط القرن التاسع عشر.

ونجد تنوع وتناقضات طبقات المجتمع الكوبي في العصر الإستعماري موصوفة بواقعية في رواية ثيشليا بالديس (١٨٣٩ - ١٨٧٩) لثيريلو فيافردي (١٨١٢ - ١٨٩٤) Cirilo Villaverde، رائد الرواية في بلده. أما قصاص الحياة التشيلية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فكان ألبرتو بلست جانا (١٨٣٠ - ١٩٢٠) Alberto Blest Gana الذي وصف، بتأثير بلزاك، الأجواء التشيلية وعدم إمكان التواصل بين الطبقات.

(ب) الشعر الجاوشى.

في أواسط القرن التاسع عشر، كانت رقعة الأرجنتين الشاسعة قليلة السكان جداً. وقد كتب سارمينتو في فاكوندو (١٨٤٥) أن «العيب الذي تعاني منه جمهورية الأرجنتين هو الاتساع، فالصحراء تحيط بها من كل جانب». في تلك

الفيافي، وسهول البامبا الشاسعة، وأثناء تعقب وتصفية الهنود، أخذ يتشكل منذ أواخر القرن الثامن عشر طراز من راعي البقر الجوال، الكريول أو الخلاسي، وأصبح يطلق عليه اسم الجاوشو^(٦). كان سكان سهول البامبا الفريدين هؤلاء يحبون بفضل وفرة الخيول والأبقار البرية، ويرتدون زياً مميزاً ويتجولون دون توقف من موضع إلى موضع. وحولهم وحول أنواعهم - مقتفو الأثر، والدليل، والجاوشو الشرير، والمغني أو المنشد - الذين وصفهم سارميتتو في صفحات رائعة، أخذت تنشأ أسطورة زاهية الألوان.

إن حياة التجوال التي يحياها الجاوشو، واللهجة الفريدة التي يعبرون بها عن أنفسهم، ومغامراتهم، وحكمتهم ووضاعتهم قد وجدت في الأرجنتين وفي أوروغواي سلسلة من الشعراء الذين حولوا تلك الميثولوجيا إلى إبداع أدبي فريد، هو الشعر الجاوشوي. ومن الناحية الشكلية، فإن هذه القصائد تعد، مثل المواويل corridos المكسيكية، امتداداً للموال Romance الإسباني القديم، وعلى غرارها، تكتب في أبيات ذات ثمان مقاطع، باستثناءات قليلة. وقد حققت القصائد الجاوشوية انتشاراً شعبياً استثنائياً. وطبعت في مئات الطبعات، وكانت تقرأ حول النار بينما يدور على الحضور شاي الماتي * Mate، وكان الكثيرون يحفظون مقاطع كبيرة منها عن ظهر قلب. وفي عام ١٨٩٤، إحتفى أونامونو بالجدور الإسبانية لقصيدة مارتين فييرو، وبعدها بعام، أكد ميندث إي بيلايو أن القصائد الجاوشوية هي «أكثر الأعمال أصالة في الأدب الأمريكي الجنوبي» وأن مارتين فييرو هي «رائعة نوعها».

وأول من كتب الشعر باللهجة الجاوشوية، وهو الأروغواي بارتولوميه هيدالجو

(٦) يبدو أن كلمة جاوشو Gaucho مشتقة من الكلمة الكتشوا huacho التي تعني، يتيم، مهجور، جوال أو من الكلمة الأروكانية gatchu التي تعني رفيق.

* Mate الماتي: أو عشب الباراجواي. عشب يعد منه شراب الماتي أو شاي الماتي بوضعه في ماء ساخن وسكر مثل الشاي تماماً. يقدم في جوزه ويمص بأنبوبة من الفضة أو يقدم في اكواب عادية. يعد شراباً منشطاً ومغذياً ومفيداً للمعدة - [المترجم].

(١٧٨٨ - ١٨٢٢) Bartolomé Hidalgo، كان يكتب «الأغنيات الشعبية Cielitos» والمحاورات الوطنية منذ عام ١٨١١ وقد استبق نغمة القصائد الجاوشية العظيمة وموضوعاتها ومشاهدها المميزة. وعلى غرار معاصره، المكسيكي فرناندث دي ليثاردي Fernández de lizardi، كان إيدالجويبيغ في شوارع بوينوس أيرس «الأغنيات الشعبية» التي يكتبها. أما هيديلاريو أسكسوبي (١٨٠٧ - ١٨٧٥) Hilario Ascasubi، الكريول الأرجنتيني، فقد عاش تجارب عديدة. فقد كان بحاراً وجندياً في الحروب الأهلية، وارتحل في أوروبا وأمريكا ومارس مهناً مختلفة. ولعب الورق مع الزعيم فاكوندو كيروجو Facundo Quiroga واستمع إليه وهويتلو فصولاً كاملة من الإنجيل. ومن بين أعماله الجاوشية الوفيرة تتميز سانتوس فيجا (١٨٥٠ - ١٨٧٢) Santos Vega، وهي قصيدة ضخمة مكونة من حكايات قصيرة وأوصاف للعادات السائدة في سهول البامبا.

ويشكل الأرجنتينيان إستانيسلان دل كامبو (١٨٣٤ - ١٨٨٠) Estanislao del Campo ونخوسيه هرناندث (١٨٣٤ - ١٨٨٦) José Hernández الدفعة الثانية من الشعراء الجاوشيين. ومثل أسكاسوبي، الذي كان أحد أصدقائه ومعجبيه، اشترك دل كامبو كذلك في الحروب الأهلية في بلده. وكتب أشعاراً باللهجة الشائعة لكنه مدين بشهرته لقصيدة فاوست Fausto (١٨٦٦)، وهي قصيدة تقص حوار شخصين جاوشيين، حضر أحدهما عرض أوبرا فاوست لجونوه، وبظرف ودعابه، يرويها، ويعلق عليها، ويحللها كما لو كانت وقائع حقيقية. أم نخوسيه إرناندث فقد عرف وتعلم الحياة الجاوشية بفضل الأعمال التي كان أبوه يديرها في الريف. وعمل موظفاً عمومياً، ونائباً وصحفيّاً مناضلاً. وأعظم أعماله، الجاوشو مارتين فيرو (١٨٧٢) El Gaucho Martín Fierro، هو قيمة وخلاصة هذا النوع الأدبي. وهذه القصيدة الأولى هي حكاية تمرد مارتين فيرو، المنشد، ضد الحضارة، التي يعتبرها ظلماً واضطهاداً. فقد انتزعوه من حياته الهانئة، وفرضوا عليه فظاعة الخدمة العسكرية وبؤسها على

الحدود حتى فر وتحول إلى «جاووشو شرير»، مشاكس، وسكير، وقاتل. والجزء الثاني، عودة مارتين فييرو (١٨٧٩) La vuelta de Martín Fierro، تحكي حياة البطل مع الهنود، الذين لاذ بهم، وعودته إلى أرض البيض. وقد أصبح مارتين فييرو عجوزاً يتذكر ويتأمل.

وإحدى مميزات مارتين فييرو هي الصدق الانساني لبطلها. فقد جرت له المصائب إلى الشر لكن يظل في داخله نقاء لا يفسد، واحترام عميق لقانون غير مكتوب للشجاعة والتهذيب. كذلك ثمة تقابل شديد التوفيق بين الدينامية الفتية للجزء الأول وبين نغمة الاسترجاع والموعظة التي تسود الجزء الثاني. وعلى طول القصيدة نجد امتلاكاً فائقاً للغة ولحليها. إن اللهجة الجاوشية تكتسب، في يراع خوسيه إرناندث، كل طاقاتها.

(ج) نثر المتمدنين

ظهرت في أمريكا اللاتينية في القرن التاسع عشر ظاهرة فريدة. إذ لانصادف أفضل النثر في الأدب الخالص، بل في التأملات الإجتماعية حول مساوئ مجتمعاتنا، وفي المرافعات في سبيل الشؤون المدنية، وفي التأملات التاريخية، وفي الكتابات الجدالية والصدامية، وأحياناً في النقد الأدبي. وربما كان هذا اللاحاح العميق، وهذه العاطفة المتقدة، وهذا الغضب الذي تتولد منه كتابات المفكرين الأمريكيين اللاتين، هي التي تسبغ على تلك الكتابات صدقها المؤثر وصلاحياتها كإبداع أدبي.

على طول القرن كان في كل البلاد تقريباً رجال ناضلوا بسخاء، متجاوزين كل الطموحات والتقلبات في سبيل الحرية والثقافة. وكان بعضهم، فوق ذلك، كتاباً من الطراز الأول، مثل الفنزويلي أندريس بيو (١٧٨١ - ١٨٦٥)، والأرجنتيني دومينجو فاوستينو سارمينتو (١٨١١ - ١٨٨٨)، والإكوادوري خوان مونتالفو Juan Montalvo (١٨٣٢ - ١٨٨٩)، والبويرتوريكي إيوخينيو ماريادي هوسطوس Eugenio María de Hostos (١٨٣٩ - ١٩٠٣)، والبيروي مانويل

جونثالث برادا (١٨٤٨ - ١٩١٨) Manuel González Prada، والمكسيكي خوستو سييرا (١٨٤٨ - ١٩١٢) Justo Sierra والبرازيلي روي باربوزا Ruy Barbosa (١٨٤٩ - ١٩٢٣) والكوبيان إنريكي خوسيه فارونا (١٨٤٩ - ١٩٣٣) Enrique José Varona وخوسيه مارتى José Martí (١٨٥٣ - ١٨٩٥). كذلك ظهرت بين الجنود العظام حالة واحد منهم كان كاتباً ممتازاً. وهو الفنزويلي سيمون بوليفار Simón Bolívar (١٧٨٣ - ١٨٣٠)، مؤلف أكثر من ثلاث آلاف رسالة ومائتي خطبة ودعوة، والذي كان يكتب برونق ورشاقة فريدين، وكان ثورياً في الأسلوب بقدر ما كان ثورياً بالسلاح.

في حالة بوليفار كانت الريشة مجرد تكملة للسيف. وفي المقابل كانت الكلمة هي الوسيلة الأساسية للمفكرين الأمريكيين اللاتين. كانت غالبيتهم مجادلين عظاماً، أو شنوا حملات إيديولوجية ضخمة مثل: حملة مونتالفو ضد الديكتاتورية الشيوقراطية لجنارثيا مورينو، وحملة جونثالث برادا ضد الظلم الاجتماعي وظلامية المجتمع البيرواني. إلا أن مونتالفو بجانب أعماله القتالية التي تبدو لنا اليوم ذات نزعة ليبرالية صبيانية، كتب الفصول التي نسيها ثربانتس (١٨٩٨)، والهندسة الأخلاقية (١٩١٧) اللذين نشرهما بعد وفاته، والتميزين برشاقة وبلاغة نثرهما. أما جونثالث برادا، فعلاوة على فتحه طريق إيقاظ الوعي الاجتماعي لبلده، فكان شاعراً يواصل أحياناً في شعره العنف التهكمي أو الكاريكاتيرات السياسية لنشره القتالي، لكنه لا يترفع عن إعادة خلق أشكال قديمة، أو عن استحضار الماضي الهندي للبيرو.

وحين تقابل بيوسارميسنتو في تشيلي دخلا في مناظرة أستاذية حول النقاء اللغوي أو حرية التعبير الرومانسية. كان مزاج بيو يتوافق أكثر مع مهام الحكيم والأستاذ، مع أن روحه روح مصلح. كان واحداً من رواد الانعتاق الأدبي في قصيدتيه الرائعتين المسماتين صفارات أمريكية، واللتين تتغنيان بطبيعة أمريكا وماضيها وحوالي منتصف القرن، حين بدا أن المجموعة الأمريكية اللاتينية تتمتع بوجود أكبر، دعى مواطن كراكاس بيو إلى ستياجو دي تشيلي ليصبح هو

من يعيد تنظيم التعليم والجامعة، وأحد واضعي القانون المدني (١٨٥٣ - ١٨٥٦). وإلى تلك السنوات أيضاً ترجع فلسفة الفهم (١٨٤٣)، ودراساته الضليعة ومباحثه النحوية التي تشكل مع دراسات الكولومبي روفينو خوسيه كويرفو Ruvino José Cuervo أهم إسهام أمريكي في هذا المجال.

وبالمقابل كان سارميينتو روحاً عاصفة تملك حماس القتال بقدر ماتملك مهمة التمدين. كانت حياته من أكثر الحيات كثافة وإثماراً: فقد ناضل بالسلح وبالريشة ضد النظم الاستبدادية، وترك بحثاً أستاذياً عنوانه: فاكوندو (١٨٤٥)، وهو تشخيص جلي لواقع الأرجنتين، ومرافعة حول مأزق الحضارة والهمجية، وقد حقق أعمالاً مادية واسعة بوصفه رئيساً لبلده (١٨٦٨ - ١٨٧٤). وأفضل أعماله، بالإضافة إلى فاكوندو، هي رحلات (١٨٤٩)، وذكريات الريف (١٨٥٠)، والعديد من الخطب والكتابات الصحفية، وهي مكتوبة على عجل بالتأكيد وبأسلوب جارف، شأن من لديه الكثير ليقوله والكثير من المهام لينجزها، لكنه، في الوقت نفسه، يؤكد أفكاره بمفاهيم عضوية وبقدرة حادة على الملاحظة. كان سارميينتو، مع مارتى، أحد أفضل الكتاب وأكثر الأساتذة أصالة كذلك قام مفكرون أمريكيون آخرون بدور حاسم في التشكيلين الأخلاقي والثقافي لشعوبهم. فروى باربوزا، المشرع البرازيلي الشهير، كان مفوض الجمهورية التي أعلنت عام ١٨٨٩، وكان مناضلاً متحمساً في سبيل إلغاء العبودية، وكاتباً ذا اهتمامات متعددة في (رسائل من إنجلترا) (١٨٩٦). وإيوخينيو ماريادي أوسطوس رغم أنه كان، بالدرجة الأولى، ناقد أدبياً ممتازاً (تقييم نقدي لهاملت، ١٨٧٢)، وأخلاقياً (الأخلاق الاجتماعية، ١٨٨٨)، ومنشطاً للتعليم في سانتو دومينجو، كان أقصى طموحه أن يبلغ وطنه (بويرتو ريكو) الاستقلال، ويكون جزءاً من كونفيدرالية أنتيلية. أما خوستوس سيرا، المرشد السخي للثقافة القومية ومنظم التعليم في المكسيك، ومؤسس الجامعة القومية - التي ألقى في افتتاحها (١٩١٠) خطاباً أشار فيه إلى ضرورة الفكر والعلم اللذين «يدافعان عن الوطن»، فكان كذلك شاعراً، وناقداً أدبياً، ومؤرخاً في

عمله الضخم التطور السياسي للشعب المكسيكي (١٩٠٠ - ١٩٠١). كذلك إنريكي خوسيه فارونا، المثقف الربي الذي لم يوفق دائماً في تظاهراته السياسية لكنه خدم الثقافة الكوبية، وكان مثقفاً مبدعاً وكاتباً ذا أسلوب سلس في مقالاته الموجزة في النقد الأدبي (من شرفتي، ١٩٠٧ Desde mi Belvedere، والبنفسج والشوك Violetas y ortigas ١٩١٧).

أما خوسيه مارتى فكان واحداً من تلك الشخصيات الاستثنائية التي يبلغ لديها الحماس لقضية سياسية في العمل المكتوب درجة تعبير ذي نوعية أدبية راقية. وقد بدأ، وهو لم يزل مراهناً، في النضال بالقلم من أجل استقلال كوبا، وحكم عليه بالاشغال الشاقة وخرج منفياً إلى إسبانيا (١٨٧١). وقضى الجزء الأكبر مما تبقى من حياته في المنفى، باستثناء إقامة قصيرة في كوبا بين عامي ١٨٧٨ و ١٨٧٩. إلا أنه كرس لكوبا ولمشكلاتها السياسية النصيب الأكبر من عمله، رغم أنه كتب الكثير كذلك عن الفن، والآداب، والسياسة، والشخصيات والأحداث في البلدان الأمريكية اللاتينية والأوروبية التي زارها، كما كتب سلسلة طويلة من المقالات عن الولايات المتحدة، التي قضى بها الأعوام الأربع عشرة الأخيرة من حياته. وحين نجح أخيراً في توحيد الجهود وإعداد حرب الاستقلال، عاد إلى كوبا ليموت. ورغم إحساسه بدنو أجله، يظل الوطني والكاتب داخله متوحدتين، وخلال آخر أيامه، كتب في يومياته (من رأس هايتي إلى دوس ريوس) (De Cabo Haitano a Dos Rios) ملاحظات مليئة بالقصد الشعري، وبالملاحظات حول الطبيعة، إلى جوار سجل وقائع حرب العصابات، حتى عشية استشهاده.

وباستثناء محاولاته الدرامية والروائية، التي تغلب عليه فيها البلاغة السائدة، فإن بقية أعمال مارتى، الشعر والمقالات، ذات نوعية وأصالة مؤثرة. قال «ماذا كنت سأكتب لو لم أنزف دماً؟». وفي الحقيقة، فإن الروح تنزف دماً في صفحاته، لكنها تفعل بقدر كبير من الصدق ومن البراعة الأدبية، وبإحساس بالدقة اللفظية، وبالعثور على التعبير الصائب والمعبر. وفي شعره مثلما في نثره، لا يلجأ

مارتي أبدأ إلى «الكليشيئات» الجاهزة، أو إلى الصور والمشاعر المجردة بل إلى التجارب المعاشة المحددة المألوفة، الزاهية الألوان أحياناً، والمليئة بالمشاعر الشخصية، ويعرف كيف ينقلها لنا باقتدار حتى أنها سرعان ما تتبلور، في تيار نثره، إلى جمل نابضة ومكتملة. إن هذا الكاتب المتعجل، الذي لم يكن يكتب إلا ليقدم وطنه أو ليكسب قوته، هذا الرجل الذي وهب نفسه بكلية لقضية حرية شعبه ولقضية أمريكا كان في نفس الوقت مجدداً أدبياً، وواحداً من أعظم كتاب أمريكا اللاتينية.

(د) الحداثة

على طول التاريخ الأدبي لأمريكا اللاتينية، سواء منه التاريخ الاستعماري أو تاريخ ما بعد الاستقلال، لا توجد أي حركة أدبية أخرى تعادل الحركة المسماة بالحداثة، في كونها دليلاً بالغ الوضوح على وحدة الآداب في هذا الجزء من العالم وأصالتها فعلى مدى أربعين عاماً شاركت في الحداثة كل بلدان الإقليم، وقد أعطى نصفها نحو عشرين كاتباً هاماً - سيظهر بينهم أعظم شعراء أمريكا الهسبانية - كتبوا على الأقل ثلاثين كتاباً هاماً، تفوق تلك الكتب التي انتجت في مجالها حتى ذلك الحين، وقد فرضت تلك الكتب نفوذها على اتساع بيئتها الخاصة، وعلى إسبانيا لأول مرة.

مع الحداثة، تحيا أمريكا الهسبانية وكأنها وحدة أصبحت دورتها الدموية مناسبة على حين غرة تظهر أولى تبديات الحركة في المكسيك، نحو ١٨٧٥، حيث يتصادف وجود خوسيه مارتى في الثانية والعشرين من العمر مع وجود مانويل جوتيريث ناخيرا Manuel Gutierrez Najera في السادسة عشرة، وقد بدأ الاثنان في إظهار تجديدات أسلوبية جديدة، وفي إظهار حساسية جديدة قبل كل شيء. هاقد رسمت ملامح الحداثة من الناحية الجوهرية. أما النفير الذي سيضفي عليها صلاحية كاملة، وينشرها في أرجاء القارة فيأتي الآن من طرفها الآخر، في فالبارايو، حيث ينشر شاب نيكاراغوي هورويين داريو (١٨٦٧ - ١٩١٦)، عام ١٨٨٨ مجموعة قصائد وقصص تحمل عنواناً موحياً: هو أزرق

Azul وفيها تظهر، في النثر بالدرجة الأولى، أولى دلائل وجود شاعر غنائي ومجدد استثنائي وفي تلك السنوات نفسها تضيع في هافانا وفي بوجوتا قصائد خوليان ديل كاسال Julían del Casal (١٨٦٣ - ١٨٩٣)، وقصائد خوسيه أسونثيون سيلفا José Asunción Silva (١٨٦٥ - ١٨٩٦)، تلك القصائد الحساسة الراقية التراجيدية.

لكن مبدعي الحداثة مازالوا تحت علامة الرومانتيكية يموتون شباناً. وفي عام ١٨٩٦ لم يتبق سوى داريو ليصبح أعظم الشعراء، إن لم يكن الزعيم، لكوكبة تتضاعف أسماؤها: في المكسيك سالفادور دياث ميرون Salvador Díaz Mirón (١٨٥٣ - ١٩٢٨)، ولويس أوربينا Luis G. Urbina (١٨٦٨ - ١٩٣٤)، وأمادو نرفو Amado Nervo (١٨٧٠ - ١٩١٩)، وخوسيه خوان تابلادا José Juan Tabláda (١٨٧١ - ١٩٤٥)، وإنريكي جونثالث مارتينث Enrique González Martínez (١٨٧١ - ١٩٥٢)، وفي كولومبيا جيرمو فالنثيا Guillermo Valencia (١٨٧٣ - ١٩٤٣)، وفي فنزويلا مانويل دياث رودريجت Manuel Díaz Rodríguez (١٨٦٨ - ١٩٢٧)، وروفينو بلانكو فومبونا Rufino Blanco Fombona (١٨٧٤ - ١٩٤٤)، وفي البيرو خوسيه سانتوس تشوكانو José Santos Chocano (١٨٧٥ - ١٩٣٤)، وفي بوليفيا ريكاردو خايميس فريري Ricardo Jaimes Freyre (١٨٦٨ - ١٩٣٣)، وفي الأرجنتين ليوبولدو لوجونس Leopoldo Lugones (١٨٧٤ - ١٩٣٨) وإنريكي لاريتا Enrique Larreta (١٨٧٥ - ١٩٦١)، وفي أوروغواي خوسيه إنريكي رودو José Enrique Rodó (١٨٧١ - ١٩١٧)، وأوراثيو كيروجو Horacio Quiroga (١٨٧٩ - ١٩٠٨)، وفي تشيلي كارلوس بيثوا فيليث Car- los pezoa Véliz (١٨٧٩ - ١٩٠٨) وإبتداء من عام ١٨٩٦، الذي يحدد ذروة الحداثة مع ظهور ثريات دنيوية والغرباء لداريو، تنشر دون إنقطاع، وحتى عام ١٩١٥ تقريباً، الكتب الأساسية للحركة التي يبدو أنها تتبادل الظهور في المكسيك مرة، وفي بوينوس آيرس مرة، أخرى، في بوجوتا مرة وفي ليما أخرى، في

كاراكاس مرة وفي مونتفيديو أخرى.

كانت مجموعة الدراسات التي سماها داريو باسم الغرباء باللغة الأهمية لأنها عمت معرفة الشخصيات الأدبية الأساسية لتلك اللحظة، البارناسيين والرمزيين الفرنسيين، بالإضافة إلى كتاب من جنسيات أخرى مثل بو وإبسن. ويختتم هذا الدليل الثاقب والملائم بتكريم للكوبي خوسيه مارتى، وبمؤتمر حول الشاعر البرتغالي إيوجينيودي كاسترو Eugenio de castro، رائد الشعر الحرفي ديوانه ساعات (١٨٩١)، الذي تمتع بنفوذ كبير في تلك الأعوام.

ويظهر النشاط الأدبي المكثف كذلك في المجلات التي تنشر، علاوة على الانتاج المحلي، إنتاج المحدثين من البلدان الأخرى من قبيل الترجمات الفرنسية، والإيطالية، والانجليزية. وفي أكثر هذه المطبوعات نموذجية، وهي المجلة الزرقاء Revista Azul (المكسيك، ١٨٩٤ - ١٨٩٦)، التي ظل يدفعها جوتييريث ناخرا حتى وفاته، نجد هذا الانفتاح الأمريكي والعالمي انفتاحاً استثنائياً. فخلال السنوات الثلاث التي صدرت فيها تضمنت مساهمات من ٩٦ مؤلفاً أمريكياً لاتينياً، من أتباع الحداثة، من ١٦ بلداً، دون أن نحسب المكسيكيين. ويأتي داريو في المقدمة وله ٥٤ مساهمة، ويتبعه ديل كاسال وتشوكانو، ولكل منهما ١٩ مساهمة، ومارتي وله ١٣ مساهمة. ويبلغ عدد الكتاب الفرنسيين المترجمين ٦٩ كاتباً، من بينهم بودلير، وباربي دورفيلي Barbey D'Aurevilly وكوبيه Coppée، وجوتييه Gautier، وهيريديا Heredia، وهوجو، وليكونت دي ليل، وریشبان Richepin، وسولي برودوم Sully Prudhome، وفرلين، وهم يتجاوزون في العدد الكتاب الإسبان الذين لا يتعدون ٣٢. ومن الجنسيات الأخرى يترجم كذلك هاينه Heine، ووايلد Wilde، وإبسن Ibsen، ودانونزيو D'Annunzio، بالإضافة إلى الروائيين الروس العظام وبو الذي كان قد ترجم في المكسيك منذ عام ١٨٦٩. وفي سنوات اتصالات غير مستقرة كتلك السنوات يبدو من الإنجاز الضخم ذلك الانتشار الذي نجح المحدثون في إقامته من أجل التعرف بعضهم على بعض وقراءة بعضهم لبعض، ومن أجل

ترويج أعمالهم في المجلات الأدبية (٧).

كانت الحداثة، إذن، بالنسبة لكتاب نهاية القرن في أمريكا اللاتينية بمثابة امتلاك للعالم، لكنها كانت كذلك امتلاكاً للوعي بالعصر. إذ أن مبدعي الحركة بتطلعهم إلى ما هو أبعد من الرومانسية الإسبانية المستهلكة، أدركوا، وربما بصورة غائمة، أن العالم قد اجتاحته موجة ثورية هائلة من التجديد الشكلي ومن الحساسية، وقرروا أن يشكلوا بتعبيرهم جزءاً منها. ولما كانوا غير متوافقين مع سوقية اللغة، فإنهم يجدون مخرجاً لهم من حماسة البارناسية الفرنسية، ويجدون إمكانيات تهذيب جديدة، وموسيقية وخيالاً في الرمزية. وسوف يسهم أيضاً كل من بو، وهانیه، وويتمان، ودانونزيو في ذلك. لكن المحصلة الأخيرة لهذه التركيبة ستكون أصيلة من جديد: ستكون النتيجة شخصيات عظيمة غنائية في أغلبها تشارك بسبب تشابهها في حركة تجديد مشتركة.

خلال فترة البداية وفترة الذروة، التي يمكن تحديدها بعام ١٩٠٥، ومع ظهور أناشيد الحياة والأمل Cantos de vida y esperanza لداريو، خلقت الحداثة ميثولوجية فريدة من موضوعات الهروب الطريفة. وإلى إغريق «بارناسية» تحمل طابع بلاد الراين، يعود جوتيريث ناخرا في أغنيات قصيرة Odas breves، ودبل كاسال في الأوقيانوسيات Las oceánidas وفي متحفى المثالي Mi Museo ideal وداريو من حوار مخلوقات السنطور Coloquio de los centauros وفي استجابة لفيرلين Responso a Verlaine، وردوده في آريل Ariel (١٩٠٠) التي نرصد فيها تركيبة للحضارة الهلينية. إلا أن شرقاً متخيلاً أكثر مما هو معروف، ومقتصر على الصين واليابان يظهر في بعض قصص داريو وفي قصائد لدبل كاسال، ويصبح بعدها الهاماً ليس موضوعياً فقط بل شكلياً كذلك في عدة

(٧) ابتداء من عام ١٩١٤ يؤسس الفنزويلي روفينو بلانكو فومبونا Rufino Blanco Fombona في مدريد دار نشر أمريكا التي تنشر، بين أشياء أخرى، مكتبة أندريس بيو من أجل نشر أعمال الكثير من الكتاب الأمريكيين اللاتين.

كتب لتابلادا Tablada الذي يدخل إلى الإسبانية الهايكاي Kaikai الياباني . وفي المقابل تظهر في كاستاليا الهمجية Castalia bárbara (١٨٩٧) لخايمي فريري Jaime Freyre ومثاوى الخلود الفاهالا (Walhalla) والكأس المقدسة Graal ، والعفاريت والجنيات elfos y hadas لوك وأودين Loke y Odín وكلها فاجنرية ونوردية(*) وتعداد صياغة تقاليد وشخصيات العهد القديم من الإنجيل والعصر الوسيط من قصص وقصائد لداريو (شجرة الملك داود، ملكات المجوس الثلاث، دوافع الذئب)، وفي قصائد لفالنشيا Valencia (بالمون الأسلوب Palemón el estilista). وتظهر في قصائد داريو، وتشوكانو، وتابلادا فرنسا ترجع إلى القرن الثامن عشر ذات أعياد فروسية على طريقة فرلين وواتو Watteau، وفي النعمة العامة لجوتيريث ناخيرا وداريو تفوح رائحة ذلك التفرنس الذي يسميه خوان فاليرا Juan Valera «الزعة الغالية العقلية».

يبدو أن الحداثة قد نسيت الموضوعات الأمريكية والهسبانية. ورغم ذلك فقد ارتادها مارتى وجوتيريث ناخيرا، ودفعت داريو إقامته في تشيلي إلى استحضار القوة الهرقلية لكابوليكان Caupolicán . . في سوناتا صريحة من أزرق Azul. وبعد عدة سنوات اختفت فيها تقريباً الموضوعات الهندية، وعادت هذه النزعة إلى الازدهار في آخر مراحل الحداثة لدى شعراء من أمثال بالنشيا، وتشوكانو، ولوجونس الذين جمع بينهم تقرّظ ما هو هسباني والموضوعات الشعبية. لقد عرف داريو إسبانيا وتاريخها جيداً جداً وأراد، بالإضافة إلى ذلك، أن يكون «شاعر أمريكا». وسيلغ ذلك بفضل بهاء غنائية وكذلك لأنه جعل من نفسه مدافعاً عما هو هسباني مثل: (تحية المتفائل Salutación del Optimista وإلى روزفلت A Roosevelt)، وعن الشخصيات الإسبانية العظيمة مثل: السيد ودون كيخوته، وكذلك بفضل قصائد عديدة (اللوحة الثلاثية لنيكاراجوا Triptica

(*) في الميثولوجيا الأسكندنافية: قاعة الخلود التي تستقر فيها أرواح صرعى المعارك، ولوك هو إله الدمار ومبدأ الشر، وأودين هو كبير الآلهة ورب الحكمة، والثقافة، والحرب، والموق (والنسبة هنا إلى واغنر الموسيقي المعروف وأما النوردية فهي العرق الجرمانى الشمالى).

de Nicaragua ، وفاصل إستوائي Intermezzo tropical ، مناجاة إلى الأرجنتين (Oda a la Argentine) يلمع فيها حضور وطنه وحضور المشهد الأمريكي أو الحنين إليهما.

كذلك يشكل رمزان دائمان جزءاً من ميثولوجيا الحداثة، هما: «أزرق» أول كتاب هام لداريو، و المجلة الزرقاء لجوتيريث ناخيرا، ولعل ذلك، كما قال هوجو، لأن «الفن هو اللازوردي» والبجعة رمز الجمال المجاني الذي كثيراً ما استخدمه البارناسيون والرمزيون، والذي سيعود للظهور لدى المحدثين الأوائل بصورة مسيطرة لدى داريو الذي سيربط نفسه بأسطورة ليدا Leda* ويحولها إلى شعار للشعر الجديد. وحين يكتب جونثالث مارتينث عام ١٩١٠ السوناتا التي مطلعها «إلو عنق البجعة ذات الريش الخادع»، ويطرح «البومة العاقلة» باعتبارها رمزاً تأملياً جديداً، يكون زمن البجعة والحداثة قد انتهى.

إلا أن هذه الموضوعات والرموز الجديدة والقديمة للحداثة لاتفيد إلا في تحديد طابعها. والثورة أو التجديد الأعمق للحركة يتحقق في اللغة وفي الحساسية، إذ يبدأ برد الفعل ضد أشكال التعبير المهمل ويقوى بتجديد الصور وتبسيط التركيب. وسيظل ثمة قاموس حدائي خاص يقتصر على الترف والجمال. فاللغة الشعرية يجب أن تكون إبداعاً فريداً ومدهشاً، وتتابعاً متصلاً للاكتشافات، وسوف ينجح داريو في بلوغهما عند نضجه في رسالة إلى السيدة لوجونس -Epís- tola a la señora de lugenns (١٩٠٧) - وهي القصيدة التي تدخل بصورة رائعة اللغة الدارجة في شعر اللغة الإسبانية - كما سيفعل لوجونس في تقويم وجداني Lunario sentimental (١٩٠٩).

وحقق الشعراء المحدثون كذلك تجديداً أكثر تعقيداً، هو تجديد النظم. ويعمل هذا التجديد في ثلاثة اتجاهات: فمن ناحية سوف يفتشون في الماضي عن

(*) ليدا : كانت زوجة تينداريوس، ملك اسبرطة، وأم كليتمسترا، وهيلين، وكايستور، وبولوكس. وتقول الأسطورة إن هيلين، وكاستور، وبولوكس جاءوا من علاقة مع زيوس الذي زار ليدا في صورة بجعة - [المترجم].

أشكال قديمة غير مستخدمة مثل: البحر السداسي التفاعيل التقليدي، أو البحور العتيقة والتوافقات القشتالية المنسية، مثل القافية الواحدة أو البحر ذي الأحد عشر مقطعاً بنبرات مختلفة. ومن ناحية أخرى سوف يضيفون حيوية وتآلفاً أكبر على النظم عموماً. وعلى ترويج كل البحور المعروفة. وحين ارتجف القراء من الأمريكيين اللاتين لدى ظهور ليلية Nocturno لخوسيه أسونثيون سيلفا والتي مطلعها «ذات ليلة، ذات ليلة تزدحم بالهمهمات une noche, une noche, toda llena de murnullos افترض البعض أنه استخدم فيها صيغة وزنية جديدة، لكن الشاعر أوضح ذات مرة^(٨) أن ذلك الجمال المريض يأتي، من الناحية الشكلية، من اغنية خرافية شديدة السوقية لإيرياري Iriarte تقول:

A una mona	إلى قردة
muy taimada	جد كسول
dijo un dia	قال ذات يوم
cierta urraca	أحد الغربان

ولم يفعل سيلفا سوى أن قسم الشطرات أو الأبيات الرباعية المقاطع إلى مجموعات غير منتظمة. وأخيراً، فسوف يخلق المحدثون بحوراً جديدة، سيجربون، مثلما فعل داريو (في رسل Heraldos في نثرات أرضية. Prosas profanas، ١٨٩٦)، وخايمي فرييري (في كاستاليا الهمجية Castalia bárbara، ١٨٩٧)، حرية الأوزان، والشعر الحر، كما سينظرون للموضوع كما فعل خايمي فرييري نفسه في كتابه قوانين النظم القشتالي -Leyes de versificación castellana، ١٩١٢).

كذلك بحث المحدثون دوماً عن مؤثرات انطباعية على أساس مشاعر معينة، مثل حيل التزامن، والتبديلات البصرية للألوان أو تدريبات التنويعات ذات

(8) Baldomero Sanín Cano " notas" Las Poesías de José Asunción Silva, París Louis Michaud S. F. pp. 221 - 222.

اللون الواحد . المفردات ، والموضوعات ، والرموز ، والنظم ، والمؤثرات الخاصة كل هذه التجديدات الشكلية كانت تحاول أن تجد التعبير المناسب لحساسية جديدة . وفي لحظة انتصار الحداثة ، فإن روبين داريو ، الذي قال كل شيء وتنبأ بكل شيء ، سيكتب في أولى قصائده ديوان أناشيد الحياة والأمل Cantos de vida y esperanza (١٩٠٥) هذا التلخيص للحساسية الجديدة :

شبيه جداً بطراز القرن الثامن عشر ، وقديم جداً

وحديث جداً ، جسور ، كوني ،

فيه هوجو قوي وفرلين غامض ،

وشبكة لا متناهية من الأوهام .

لكن هذه الشبكة من الأوهام وقرار احتضان القديم والحديث في الوقت نفسه سرعان ما أدت إلى الشك ، والقلق ، والاستياء ، إلى رغبة في الفرار ، وأخيراً إلى الاصطدام مع «اللانهاية السوداء حيث لا يبلغ صوتنا» . إن الشعراء العظام عند صعود الحداثة - داريو ، ولوجونس ، وإيريرا إي ريسيج ، وأوربينا ، ونرفو - سيظهرون ببراعة الوجه المنتصر ، والحسي ، والتشكيلي للحياة ، بقدر ما يظهرون الوجه الآخر ، الليلي والمضطرب الذي يجد نفسه ، بعد الاحتفال ، في مواجهة الواقع والموت .

كانت الحداثة ، في مجموعها ، حركة جماعية لأمريكا اللاتينية عنت بشكل أساسي تجديداً شكلياً وانتصاراً كاملاً للتعبير الأصيل وللحداثة . كانت محاولة قوية من أمريكا اللاتينية لأن تشكل جزءاً من العالم ومن العصر ، محاولة لأن تعود لتدوي في أمريكا كل الأصوات الراهنة ذات المغزى ، وللغناء معها . وكما قيل كثيراً ، فإن أمريكا اللاتينية تأخذ في الحداثة بزمام المبادرة وتتقدم على إسبانيا . الآن سيصبح الكتاب الاسبان من جيل ٩٨ هم الذين سيقفون أثر أمريكا ويقرون بسلطان الحركة ، وبسلطان روبين داريو قبل كل شيء .

وفي البرازيل جرت كذلك حركة تجديد موازية لحركة أمريكا الإسبانية ، رغم

عدم وجود صلات معها بل مجرد مصادفات تتعلق بالفترة وبالتأثيرات . ولم يكن للحركة البرازيلية ذلك النفس الاجتماعي والجياش ، فقد تلخصت تماماً في ظهور اتجاهات جديدة ، سادها في البداية الاتجاه البارناسي مع ألبرتودي أوليفيرا كوريا Alberto de Oliveira correa (١٨٥٧ - ١٩٣٧) ، وأولافو بيلاك Olavo Bilac (١٨٦٥ - ١٩١٨) ، الشاعر الممتاز في صائد الزمرات Otagador de esmeraldas (١٩٠٤) . بعد ذلك ظهرت حوالي ١٨٩٩ الجماعة الرمزية ، التي كان شاعرها البارز هو جوان دي كروز اي سوسا João de cruze Sousa (١٨٦٣ - ١٨٩٨) ، الذي كان من أتباع فرلين ومالارميه في ديوانه . Broqueisy Missais (١٨٩٣) . ومن ناحية أخرى ، فإن تعريف الحداثة في البرازيل لا ينطبق على أعمال كتاب نهاية القرن بل على الحركة الطليعية التي بدأها عام ١٩٢٢ كل من ماريو دي أندرادي ومانويل بانديرا .

٣ - الآداب المعاصرة

إذا أخذنا الأدب الأمريكي اللاتيني التالي عام ١٩٢٠ في مجموعه وجدنا أنه يمثل اتجاهين كبيرين شديدي الوضوح هما : الطليعية والاهتمام الاجتماعي ، وقد وصلا في لحظات معينة إلى حد اعتبارهما اتجاهين متناحرين . إن الرغبة في المشاركة في ثورة التعبير والدلالة الفنيين هذه الرغبة التي بدأت في نهايات القرن التاسع عشر ، وانتهت في العقد الثالث من القرن الحالي ، اعتبرت بمثابة ممارسة للأدب الخالص من جانب من كانوا يفضلون ألا تخدم الآداب أهداف ثورتها الخاصة بل أهداف الثورة الاجتماعية والسياسية التي تحفز العالم . وقد تغيرت تعريفات الاتجاهات لكن مازال الموقفان الأساسيان السائدان موجودين . وخلال السنوات الأخيرة بدأ ميل جديد في التشكل بطريقة مازالت غير دقيقة ، ويبدو أنه يوحد بين التجديد والتجريب وبين الحس الاجتماعي ، ويحاول تحقيق ثورة أكثر جذرية في البنيات الاجتماعية ، وبنيات الحساسية والسلوك ، كما في اللغة والأشكال الأدبية .

(أ) المسرح

إذا التزمنا بالأنواع الأدبية القديمة فإن المسرح ظل حتى الآن هو النشاط الفني الذي لم يبلغ تماماً، في هذا الاقليم، ذلك التسامي الذي يشهد على دلالة الأدبية. فقد ظهرت في العقد الأول من القرن الحالي حركة هامة لمسرح العادات في الأرجنتين وأوروغواي. وكان المحرك الأساسي لها عائلة من المستثمرين المسرحيين، من أصل إيطالي، هي عائلة بودستا Podestá، وكان أشهر مؤلفيها الأوروغواي فلورنثيو سانشيث Florencio Sánchez (١٨٧٥ - ١٩١٠) الذي أخرج أعماله في بونبوس آيرس. وقد كتب سانشيث، وكذلك أتباعه أعمالاً من النقد الاجتماعي، حول المنازعات بين المدينة والريف، واستيعاب المهاجرين والمشكلات الأخلاقية لمجتمع مازال ريفياً يأخذ في التدريب على العالمية. وفي بونبوس آيرس، ومونتفيديو وسانتياجو بلغ هذا التيار حد اكتساب حيوية أصيلة. كان بمقدور المتفرجين التعرف في تلك الحكايات على وجوههم هم، وعلى مشكلاتهم الخاصة، بل وعلى لغتهم الخاصة.

والتيارات الأدبية التي ظهرت فيما بين الحربين العالميتين، ومع انتشار المذاهب النفسية الجديدة، حفزت فيما بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٤٠ على ظهور مسرح يتباعد عن نزعة العادات ويطمح إلى تجاوز الطرق المتصلبة للتقديم الواقعي - الرومانسي، من أجل استكشاف الذاتية، وتجريب أشكال شعرية ومفاهيم عن الزمان والمكان أكثر حرية.

ويرجع الفضل في الخطوات الأولى نحو تحديث المسرح الأمريكي اللاتيني إلى بعض المؤلفين الدراميين في تلك الفترة، ومنهم على سبيل المثال الأرجنتينيان كونرادو ناليه روكسلو Conrado Nalé Roxlo (١٨٩٨)، وصامويل آيشلباوم Samuel Eichelbaum (١٨٩٤)، والأوروغواي فيشتي مارتينث كويتينيو Vicente Martínez Cuitino (١٨٨٧)، والتشيلي أرماندو موك Armando Moock (١٨٩٤ - ١٩٤٢) والمكسيكيون شافييه فياروتيا Xavier

Celestino Villaurrutia (١٩٠٣ - ١٩٥٠)، وثلستينو جوروستيثا Gorostiza (١٩٠٤ - ١٩٦٧)، وسالفادور نوفو Salvador Novo (١٩٠٤)، الذين نظموا الفرق والمواسم المسرحية المسماة مسرح يوليسيز Teatro Ulises (١٩٢٨) وتوجه Orientación (١٩٣٢).

وتلت جهود التجديد والطليلة اتجاهات هامة أخرى مثل مسرح نقد المشكلات القومية وتفسيرها، والذي يمثله مؤلفون من أمثال البرازيلي كلاوديو دي سوزا Claudio de Souza (١٨٧٦ - ١٩٥٤)، والمكسيكي رودولفو أوسيجلي Rodolfo Usgli (١٩٠٥)، والبيروي برناردو روكا ري Bernardo Roca Rey (١٩١٨)، والكوبي خوسيه أنطونيو راموس Jose Antonio Ramos (١٨٨٥ - ١٩٤٦)، والنيكاراجوي بابلو أنطونيو كوادرا Pablo Antonio Cuadra (١٩١٢)، وأعضاء جماعة آريتو Areyto، التي أسسها إميليو بيلافال Emilio Belaval في بويرتوريكو عام ١٩٣٥. ويواجه المسرح التالي على ١٩٤٠ إشكالية الإنسان المعاصر، ووحدته، وإفتقاده للأمان وإضطرابه، والنزاعات التي تشكل مسؤوليته تجاه العنف والظلم.

(ب) الشعر

لا يعني انتهاء الحداثة في العقد الثاني من القرن الحالي على الإطلاق إضعاف الشعر في أمريكا اللاتينية. فمنذ ١٩٢٠ وحتى أيامنا تظهر دفعات من الشعراء الجدد الذين يشكلون تياراً واسعاً يعرف، أولاً، بأنه شعر طليعي ثم، بعدها، بأنه شعر معاصر. ومنذ العشرينات ظهر اتجاهان: اتجاه أولئك الشعراء الذين يقومون برد فعل ضد جوانب معينة من الحداثة، من أجل تصحيح التجاوزات أو العيوب، ويسمى ما بعد الحداثة Posmodernismo، واتجاه آخرين، أكثر جرأة، أرادوا أن يطوروا، مهما كانت النتائج، اتجاهات الحداثة نحو الإبداع الفردي وحرية الفنان، نافين ومحطمين الماضي، ويسمى ما وراء الحداثة أو الحداثة المتطرفة Ultra modernismo. كانت أشكال رد فعل الأوائل - من البحث عن البساطة والحميمية الغنائية، وردود الفعل ضد التقاليد الكلاسيكية،

و ضد الرومانتيكية ، و ضد النزعة النثرية الوجدانية ، أو ضد الحساسية والأشكال
الحدائية ، وذلك عن طريق التهكم - تنبها إلى أنه من هذا الخط سيظهر من
يفضلون التنويعات المعتدلة للذوق وللموضوعات ، رغم أن ذلك لا يستبعد أن
يظهر من هذه المجموعة شعراء بالغو الأصالة وهامون مثل الكولومبيين بورفيريو
باربا خاكوب Porpirio Barba Jacob (١٨٨٣ - ١٩٤٢) ، ولويس كارلوس
لوپث Luis Carlos Lopez والأرجنتينيين بالدوميرا فرناندث مورينو Bal-
domero Moreno Femández (١٨٨٦ - ١٩٥٠) ، وإنريكي بانثس Enri-
que Banchs (١٨٨٨ - ١٩٦٨) ، وكارلوس مناستروناردي Carlos
Mastronardi (١٩٠٠) ، والبيروي خوسيه ماريا إيجورين José Maria
Eguren (١٨٨٢ - ١٩٤٢) ، والبورتوريكي لويس يورنس توريس Luis
Lloréns Torres (١٨٧٨ - ١٩٤٤) .

وبالمقابل ، كان «المتطرفون» هم غير المتوافقين والثوريين ، وأنصار «تقاليد
القطيعة» . وكان من نصيب شعراء أمريكيين لاتين ، مثل التشيلي فيثنتي هويدوبرو
Vicente Huidobro (١٨٩٣ - ١٩٤٨) ، والبيروي سيزار فاييخو Cesar
Vallejo (١٨٩٥ - ١٩٣٧) ، والأرجنتين خورخي لويس بورخس Jorge
Luis Borges (١٨٩٩ - ١٩٨٧) أن يتلاقوا مع اتجاهات الطليعة الأوروبية التي
ظهرت عند نهاية الحرب العالمية الأولى . وقد شارك هؤلاء بنشاط حوالي عام
١٩٢٠ مع الإسبان الذين يلتقون مع مواطن قلقهم - خيراردو ديجو Gerardo
Diego ، وفيدريكو جارتيا لوركا Federico García Lorca ، وخوان تشاباس
Juan Chabás ، وأنطونيو إسبينا Antonio Espina - ، في حركات من قبيل
الإبداعية creacionismo أو حركات أخرى أقل دلالة ، يطلق عليها في مجموعها
تسمية النزعة الحدية . كانت تلك حقبة فنية وعابدة لأقانيم «المذاهب» ، وللخيال
الحر الذي تبدى بالدرجة الأولى في مجلات مثل بريسا (المونشور) Prisma
(١٩٢١ - ١٩٢٢) ، وبروا Proa (١٩٢٢ - ١٩٢٣) ، ومارتين فيرو Martín
Fierro (١٩٢٤ - ١٩٢٧) وكلها أرجنتينية ، وأوريسونتي (الأفق) Horizonte

(١٩٢٦ - ١٩٢٧)، ويوليسس Ulises (١٩٢٧ - ١٩٢٨)، وكونتيمبورانيوس (معاصرون) Contemporaneos (١٩٢٨ - ١٩٣١) وكلها مكسيكية، والمجلة الكوبية ريستادي أفاني (مجلة التقدم) Revista de Avance (١٩٢٧ - ١٩٣٠)، والبيروية أماوتا Amauta (١٩٢٦ - ١٩٣٢)، ولوس نوفوس (الجدد) Los Nuevos (١٩٢٠) وألفار Alfar (١٩٢١ - ١٩٥٥) الأورجوايانيان.

وبالتوازي مع ذلك، جرت في البرازيل حركة تجديدية. بدأها الشاعران ماريو دي أندراي (١٨٩٣ - ١٩٤٥) Mario de Andrade ومانويل بانديرا -Manu- el Bandeira (١٨٨٦) أثناء الاحتفال بأسبوع الفن الحديث، في سان باولو عام ١٩٢٢، الذي أقيمت فيه معارض تصوير ونحت، وحفلات موسيقية ومؤتمرات، كانت هي البداية الصاخبة للطليعية التي سيطلق عليها البرازيليون اسم الحداثة. وفي ذلك العام نفسه ينشر ديوان لدى أندراي يحمل عنوان Paulicéia desvairada، يعرض فيه على الشعر البرازيلي كل حريات الفترة الجديدة: الشعر الحر، والنزعة الثرية واللغة الدارجة، والتعبير الشخصي والتهكمي والبحث عما هو هندي أصلي وعن الموضوعات الشعبية. ويقوم الكاتب الذي كان ناضجاً حينئذ، جارسا أرايا Garcia Aranha (١٨٦٨ - ١٩٣١)، بالتأييد الحاسم للحداثة البرازيلية وذلك عن طريق خطاب - بيان من الأكاديمية (١٩٢٤)، ويتحد معه ويتبعه حتى أيامنا هذه شعراء من أمثال خورخي دي ليما Jorge de Lima (١٨٩٣ - ١٩٥٣)، وروي ريبيروكوتو Rui Ribeiro Couto (١٨٩٨ - ١٩٦٣)، وسيسيليا ميريليس Cecilia Meireles (١٩٠١ - ١٩٦٤)، وكارلوس دروموند دي أندراي Carlos Drummond de Andrade (١٩٠٢)، وموريلو منديس Murilo Mendes (٢: ١٩) أوجستو فيديريكو شميث Augusto Frederico Schmidt (١٩٠٦ - ١٩٦٥)، وذلك كله من أجل تشكيل واحدة من ألمع فترات الشعر البرازيلي.

وسرعان ما سوف ينخبو أكثر الجوانب عدوانية وصخباً من تلك «المذاهب»،

لكن سيبقى بمثابة الإنجازات الدائمة من ذلك التيار الشعري الواسع، الشعر الحر، وإلغاء القافية، واستخدام تكوينات طباعية، وحرية الإبتكار المجازي، واللغة الدارجة، وإثراء التجربة الشعرية الذي تطرحه السورالية. وبالإضافة إلى هذه الخصائص، سوف تظهر في فترات معينة موضوعات ملحة من قبيل «النزعة الأهلية» Nativismo التي يشارك فيها شعراء من أمثال المكسيكي رامون لوبث فيلاردي Ramón López Velarde (١٨٨٨ - ١٩٢١)، والبرازيلي جورج دي ليما Jorge de Lima، والبيورتوريكي لويس باليس ماتوس Luis Pales Matos (١٨٩٩)، والكوبي نيكولاس جين (١٩٠٤)، كما يشارك فيها، في لحظات معينة من انتاجهم سيزار فاييخو César Vallejo، وخورخي لويس بورخس Jorge Luis Borges، والاكوادوري خورخي كاريرا أندراي Jorge Carrera Andrade (١٩٠٣) والتشيلي بابلونيرودا Pablo Neruda (١٩٠٤ - ١٩٧٥). وهؤلاء أضفوا قيمة شعرية على الإيقاعات الزنجية، وعلى ظرف الريف، وعلى ملحمة الحي السكاني، وعلى سر العوالم الهندية.

وكانت هذه الإشارات تؤدي بالضرورة إلى الموضوعات الاجتماعية التي كانت تشغل بال كل أنصار النزعة «الأهلية» تقريباً وخصوصاً نيرودا، الذي ربما كان أعظم شعراء أمريكا اللاتينية في هذه الفترة بسبب عملية الشعرين العظيمين، إقامة على الأرض (١٩٣١ - ١٩٣٥) Residencia en la tierra و النشيد الشامل Canto General (١٩٥٠)

وعلاوة على هذه الموضوعات والخصائص العامة للشعر المعاصر في أمريكا اللاتينية، يوجد كثير غيرها تنتمي كل واحدة منها إلى واحدة من الشخصيات الشعرية الكبيرة التي ظهرت منذ عام ١٩٢٠ حتى الأربعينات. وهكذا نجد الابتكار اللفظي والروح القلقة عند رامون لوبث بيلاردي، والصوت اللاذع والأصيل، المفعم بالضراعة والألم الإنسانيين، للتشيلية جابرييلا ميسترال Gab-riela Mistral (١٨٨٩ - ١٩٥٧)، واللهجات الكلاسيكية والشعبية في العالم الشعري الفسيح للمكسيكي ألفونسو ريس Alfonso Reyes (١٨٨٩ -

(١٩٥٩)، وهو أستاذ النثر والاهتمام الثقافي في تلك الفترة، والتجويد الغنائي للكوبي ماريانو بول Mariano Bull (١٨٩١)، وللأرجنتيني ريكاردو موليناري Ricardo E. Molinari (١٨٩٨)، والحسية الوصفية والخيال اللفظي عند الأرجنتيني أوليفريو خيروندو Oliverio Girondo (١٨٩١ - ١٩٦٧) والمكسيكي كارلوس بيثر Carlos Pellicer (١٨٩٩)، ومزيج الطليعية والكلاسيكية عند النيكاراغوي سالومون دي لا سيلفا Salomón de la Selva (١٨٩٣ - ١٩٥٩)، والحساسية المعقدة والخيال الغنائي عند الكولومبي ليون دي جريف León de Greiff (١٨٩٥)، والأنسانية الراديكالية والتراجيدية التي تحرك مشاعرنا في شعر سيزار فايخو، وخلق كون من الخيالات الثقافية والحساسية الشعرية الحادة لخورخي لويس بورخس، وهو واحد من أكثر الكتاب نفوذاً وأصالة في شعره وفي نثره، وشعر الخيال الحاد لدى المكسيكي خوسيه جوروستيثا José Gorostiza (١٩٠١)، والذي تعد قصيدته موت بلا نهاية (١٩٣٩) أهم قصائد أمريكا اللاتينية في تلك الفترة، والغنائية اللاهوتية للأرجنتيني ليوبولدو ماريشال Leopoldo Marechal (١٩٠٠ - ١٩٧٠)، والنقاء الشكلي، والاقتصاد الغنائي والإنسانية لدى المكسيكي خايمي توريس بوديت Jaime Torres Bodet (١٩٠٢)، وميتافيزيقية الحواس والخبرات لدى المكسيكي شافيه فياوروتيا Xavier Villaurutia (١٩٠٣ - ١٩٥٠)، والتشيلي روساميل دل فايه Rosamel del Valle (١٩٠٠ - ١٩٦٣)، والرقعة، والدعابة وشعر الأمور الدارجة عند المكسيكي سلفادور نوفو Salvador Novo (١٩٠٤)، وآثار السوربالية عند الجواتيمالي لويس كاردوثا إي آراجون Luis Cardoza y Aragon (١٩٠٤).

وإبتداءً من عام ١٩٤٠ اتضحت بقوة دفعة جديدة من الشعراء في أمريكا اللاتينية، لا يجمع بين أعضائها سوى القليل جداً من الملامح المشتركة باستثناء وضعهم كشهود على عالم ظالم وممزق، ترتفع في مواجهة اختلاطه أصوات باللغة التنوع بقدر تنوع أصوات الأرجنتينيين إنريكي مولينا Enrique Molina

(١٩١٠) وسيزار فرناندث مورينو César Fernandez Moreno (١٩١٩)، والبرازيليين فينيسيوس دي مورايش Vinicius de Moraes (١٩١٣)، وجوان كابريال دي ميلو نيتو Joao Cabral de Melo Neto (١٩٢٠)، والمكسيكي أوكتافيو باث Octavio Paz (١٩١٤)، والتشيلي نيكانور بارا Nicanor Parra (١٩١٤)، والكولومبي ألفارو موتيس Álvaro Mutis (١٩٢٣)، والبيروي سباستيان سالازار بوندي Sebastian Salazar Bondy (١٩٢٤ - ١٩٦٥)، والنيكاراجوي إرنستو كاردينال Ernesto Cardenal (١٩٢٥). وتبرز من بينهم الغنائية المكثفة والعميقة لبث، وهو الروح الفريد الوضوح والذي تتقاطع فيه الصراعات والتجارب الثقافية للتاريخ ولعصرنا.

(ج) الرواية

بقدر ما يقدم الشعر الحديث في أمريكا اللاتينية تطوراً عضوياً، دون انقطاعات في الاستمرارية، فإن للرواية تطوراً مليئاً بالأحداث، إن لم يكن تطوراً درامياً. في أمريكا اللاتينية يتدفق الشعر بصورة طبيعية ومن حين إلى حين يظهر شعراء عظام: داريو، وفاببيخو، ونيرودا، وبث. وبالمقابل فإن خلق رواية قوية وأصيلة ظل واحداً من أكبر الطموحات الأدبية لأجيال عديدة، لكن التحفظ ظل على الدوام قائماً أمام قبول أن المعركة قد كسبت في النهاية. وهناك لحظة ازدهار: جرت الأولى بين ١٩٢٤ و ١٩٣٠، والآن ضعفت بعض الشيء، والثانية رواج الرواية الأمريكية اللاتينية، الذي يعود إلى سنوات الستينات ومازلنا نشهد تألقه.

فور تجاوز الحداثة بلغت الرواية، فعلياً، أهمية فريدة مع الروايات العظيمة للثورة المكسيكية: (أناس الحضيض Los de abajo) لماريانو أثويلا (١٨٧٣ - ١٩٥٢) - التي رغم نشرها أصلاً منذ عام ١٩١٥ لم تكتشف أدبياً إلا بدءاً من طبعتها السادسة عام ١٩٢٥ - والنسر والأفعى El águila y la serpiente (١٩٢٨)، وظل الزعيم La sombra del caudillo (١٩٢٩) لمارتين لويس جوزمان Martín Luis Guzman (١٨٨٧)، مع رواية شجب اجتماعي

جياشة، جنس من البرونز Raza de bronce (١٩١٩) للبوليفي ألتديس أرجيداس (١٨٧٩ - ١٩٤٦)، ومع روايتين ممتازتين، الموضوع السائد فيها هو نضال الإنسان مع الطبيعة: هما الدوامة La vorágine (١٩٢٤)، للكولومبي خوسيه يوستاسيو ريفيرا José Eustasio Rivera (١٨٨٨ - ١٩٢٨) و دونيا باربارا Doña Barbara (١٩٢٩)، للفنزويلي رومولو جاييخوس Romulo Gallegos (١٨٨٦ - ١٩٦٩). ويقدم الروائيون الأرجنتينيون مقابلاً راقياً لهذه الدرامية المتوترة: بنيتو لينش Benito Lynch (١٨٨٥ - ١٩٥٢)، الذي يركز على النزاعات الإنسانية لشعب سهول البامبا في سلسلة الروايات التي تمضي من صقور فلوريدا Los caranchos de la Florida (١٩١٦) إلى إنجليزية الحمقى El Romance de un gaucho (١٩٢٤)، وغرام جاووشو El Romance de un gaucho (١٩٣٠)، وريكاردو جويرالديس Ricardo Güiraldes (١٨٨٦ - ١٩٢٧) الذي يحول اللقاء مع الطبيعة إلى خيال شعري في دون سييجوندو سومبرا (١٩٢٦) ..

واليوم، تقوم أعمال هذا الجيل من مؤسسي الرواية الحديثة بحماسة أقل من الحماسة التي قوبل بها ظهور هذه الأعمال. وبالفعل فإن الرؤية التي كانت لدى هؤلاء الروائيين عن الفلاح الذي يتصارع مع أرضه، وعن الثوري الذي يناضل من أجل العدالة، وعن اصطدام الإنسان بالطبيعة وبالهمجية، كانت لاتزال رؤية رومانسية، «هندية» أحياناً، والحيل الأسلوبية وحيل التكوين التي كانوا يمتلكونها كانت أولية وظلت مرتبطة بالواقعية والطبيعية. كانوا لا يزالون في المرحلة الطبيعية والأسطورية وكانت «المرحلة التاريخية» تبدو نائية. لكن أولئك الروائيين قد أسروا عدة أجيال من القراء، وقدموا للعالم صورة أولية لأمریکا، وذلك بفضل خاصية قليلة الشيوع: وهي أصالة وقوة موهبتهم الروائية ومازال الناس يعدون من الروائع صفحة تبدو عارية عن الحيل البلاغية، لأثويلا أو لجوثمان، لجاييجوس أو للينش.

ولم تكن السنوات التي أعقبت هذا الازدهار الأول بالغة الخصوبة، حتى حين

بدأت في الظهور في عقد الثلاثينات أولى الروايات ذات الدلالة : مثل رواية
الفنزويلي أرتورو أوسلار بيترى Arturo Usler Pietri ، (١٩٠٥) ، الأسنة
الملونة La lanzas coloradas (١٩٣٠) ، ورواية الإكوادوري خورخي إيكاثا
Jorge Icaza (١٩٠٦) ، هواسيبونجو Huasipungo (١٩٣٤) ، ورواية
البيروي ثيرو أليجريا Ciro Alegría ، (١٩٠٩ - ١٩٦٨) ، الأفمى الذهبية La
serpiente de oro (١٩٣٥) ، ورواية البرازيلي جراسيليا نوراموس (١٨٩٢ -
١٩٥٣) ، قلق Angustia (١٩٣٦) . إنه على العموم عقد قليل اللمعان يتميز
بالرواية الاجتماعية ، التي ستكون لها أهمية في البرازيل مع جماعة الروائيين الذين
يتزعمهم جورج امادو Jorge Amado (١٩٠٣) . وإلى تلك السنوات يعود
التعريف ، المناسب يومئذ ، والذي أطلقه الناقد البيروي لويس ألبرتو سانشيث
Luis Alberto Sánchez : أمريكا : رواية بلاروائين (١٩٣٣) .

وكما يحدث عادة ، سرعان ما تناقض الأحداث القول المتشائم . فسوف
يشهد عقد الأربعينات ظهور اثنين من أكثر قصاصي أمريكا اللاتينية أصالة ، هما
الأرجنتيني خورخي لويس بورخس والكوبي أليخو كارنتيه Alejo Carpentier
(١٩٠٤) ، وكذلك ظهور روايات وقصص بارزة بفضل أحكامها الشكلية
وكثافتها الروائية . وقد تم تجاوز الرواية الطبيعية . ويسود الآن موقف نقدي في
ملاحظة الواقع ، كما في عيد ياوار Yawar fiesta (١٩٤١) للبيروي خوسيه
ماريا أرجيداس José Maria Arguedas (١٩١٣) ، و الحداد الإنساني El
luto humano (١٩٤٣) للمكسيكي خوسيه ريفويلتاس José Revueltas
(١٩١٤) ، و السيد الرئيس El señor presidente (١٩٦٤) للجواتيمالي
ميجيل أنخل أستورياس Miguel Angel Asturias (١٨٩٩) ، و على حافة
الماء Al filo del agua (١٩٤٧) للمكسيكي أجوستين يانيث Agustín
Yañez (١٩٠٤) و آدم بوينوسايرس Adám Buenosayres (١٩٤٨)
لليوبولدومارشال Leopoldo Marechal هذا إن لم يكن ثمة خيال يستعصى
على الذكاء ، مثلما في اختراع موريل La invencion de Morel (١٩٤٠)

للأرجنتيني أدولفو بوي كاساريس Adolfo Boioy Casares (١٩١٤)، وفي قصص Ficciones (١٩٤٤) لبورخس أو مملكة هذا العالم El reino de este mundo (١٩٤٩) لكاربنتيه. إن الهام في أعمال روائي هذه الفترة - كما لاحظ أمير رودريجيث مونيغال - هو علاقتها مع حركات الطليعة؛ «لأنهم، قبل كل شيء، يجددون لرؤية ولفهوم للغة» (٩).

وتسود في الخمسينات أعمال مؤلفين من أمثال بورخس وكاربنتيه، ويشرع في النضج روائيون مثل الأورجواي خوان كارلوس أونيتي Juan Carlos Onetti (١٩٠٩) - الحياة القصيرة، La vida breve ١٩٥٠، والتشيلي مانويل روخاس Manuel Rojas (١٨٩٦) - ابن اللص Hijo de ladrón، ١٩٥١ - والفنزويلي ميجيل أوتيرو سيلفا Miguel Otero Silva (١٩٠٨) - دور ميتة Casas muertas، ١٩٥٥، - ويبدأ في الشهرة ثلاثة قصاصين مكسيكيين: هم خوان رولفو Juan Rulfo (١٩١٨) بأقاصيص السهل المشتعل (١٩٥٣) El llano en llamas وبرواية بدرو بارامو Pedro Páramo (١٩٥٥)، وخوان خوسيه أريولا Juan José Arreola (١٩١٨) بقطعه الثرية الفريدة التي يختلط فيها القصص بالمقال في مؤامرات Confabulario، وكارلوس فوينتس Carlos Fuentes (١٩٢٩)، الذي يفتح برواية أكثر الأقاليم شفافية región más transparente (١٩٥٨)، فترة جديدة للرواية الأمريكية اللاتينية مع القصص الأرجنتيني الاستثنائي، خوليو كورتازار Julio Cortazar (١٩١٤) الذي نشر في نهاية ذلك العقد أول كتبه الهامة، مجموعة أقاصيص الأسلحة الخفية Las armas secretas (١٩٥٩).

هكذا، وبعد هذا التراكم للخبرات، بعد هذا التحقيق البطيء لحرية الخيال، بعد هذا التدريب المستمر على التكنيكات والأساليب، بعد هذا النضال مع اللغة التي يأخذ في التركيز حولها الجزء الأكبر من الهم التعبيري، وبالتوافق مع

(9) Emir Rodríguez Monegal, Los nuevos novelistas, en Mundo Nueve, Paris, noviembre de 1967, Núm. 16, p. 21.

تشكل ظاهرة أشمل من نزع الأوهام، ومن رفض البنيات الاجتماعية والثقافية، ومن الثورة الجنسية، ومن المعايير والاستخدامات الحيوية الجديدة، ومن ذوبان الأنواع الأدبية والأشكال الفنية، التي تضم خلق حساسية جديدة وأسلوب خاص بالسنوات الحالية، ينتج الازدهار الحالي للرواية الأمريكية اللاتينية.

كان الروائيون الذين خلقوا لحظة الذروة الأولى، فيما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٠، لا يتعدون ستة من الطراز الأول، متفرقين في أنحاء أمريكا اللاتينية. وهم الآن يقاربون الضعف، وسواء كانوا يكتبون في بلدانهم، أو في بلدان أخرى من أمريكا أو أوروبا، فإنهم قد أقاموا فيما بينهم تواصلًا وتحالفًا نشيطين. إن نجاحهم، والتفسيرات المستفيضة والملائمة التي نالتها أعمالهم، إذا كانوا قد حققوا انتشاراً استثنائياً في لغتهم الأصلية وفي ترجمات عديدة، فكل ذلك ليس غريباً عن ظهور دفعة بارزة من النقاد بشكل مواز وهم: الأورجوايوني ماريو بنيديتي Mario Benedetti (١٩٢٠)، أميررودريجيث مونيغال Emir Rodri- guez Monegul (١٩٢١)، وأنخل راما Angel Rama (١٩٢٦)، والمكسيكيان إمانويل كارباليو Emmanuel Carballo (١٩٢٩) وكارلوس مونسيفايس Carlos Monsivais (١٩٣٨)، والتشيليان فرناندو ألجريا Fer- nando Alegria (١٩١٨) ولويس هارسس Luis Harss (١٩٣٦)، والكوبي سيفيرو ساردوي Severo Sarduy (١٩٣٧) والبيروي خوليو أورتيجا Julio Ortega (١٩٤٢).

وندرج هنا أسماء الروائيين الذين يكونون هذه الدفعة وأهم أعمالهم: الباراجوايي أوجستو روا باسطوس (١٩١٧) بروايته ابن الإنسان (١٩٦٠) Hijo de Hombre، وكارلوس فوينتس Carlos Fuentes برواية موت أرتميو كروث La muerte de Artemio Cruz (١٩٦٢) وتغيير الجلد Cam- bio de piel (١٩٦٧)، والبرازيلي جوان جيمارايش روزا João Guimaraes Rosa (١٩٠٨ - ١٩٦٧) بروايته السرتون الكبير: دروب. : Gran sertón veredas (١٩٦٣)، والأرجنتينيان خوليو كورتازار Julio Cortazar برواية

الحجلة Rayuela (١٩٦٣) والدوران حول اليوم في ثمانين عالماً La vuelta al
Ernesto Sabato dia en ochenta mundos (١٩٦٧) وإرنستو ساباتو
(١٩١٢) بروايته عن الأبطال والقبور Sobre heroes y tumbas (١٩٦٢)،
والأورجوايان كارلوس مارتينث مورينو Carlos Martinez Moreno (١٩١٧)
برواية منصة الإعدام El paredón (١٩٦٣)، وخوان كارلوس أونيتي برواية
حوض السفن El astillero (١٩٦١)، تجميع الجثث Junta cadáveres
(١٩٦٥)، والقصص الكاملة (١٩٦٧)، والبيرواني ماريو فارجاس يوسا Mario
Vargas Llosa (١٩٣٦) برواية المدينة والكلاب La ciudad y
Los perros (١٩٦٣)، والدار الخضراء La casa verde (١٩٦٦)، والكوبيان
خوسيه ليثاما لينا José lezama lina (١٩١٢)، برواية الفردوس
Paradiso (١٩٦٦) وجيرمو كابريرا إنفانتي Guillermo Cabrera Infante
(١٩٢٩) برواية ثلاثة نمر حزينة Tres Tristes tigres (١٩٦٧)، والكولومبي
جابريل جارثيا ماركث Gabriel Garcia Marquez (١٩٢٨) بروايته مائة عام
من العزلة cien años de soledad (١٩٦٧). وليس السجل مغلقاً ولا محددًا
بدقة. إذ باستثناء الراحل جيمارايش روزا، نجد الآخرين في أوج إبداعهم،
وإلى جوارهم تواصل أجيال سابقة عملها الروائي أو يبدأ فيه كتاب جدد
واعدون. كذلك لا يمكن اعتبار ذلك التصنيف للأعمال البارزة نهائياً وسط كل
تلك الأعمال التي تشكل هذا المخزن الأمريكي اللاتيني الذي يثير انتباه العالم.
وسيحافظ بعض هذه الأعمال على نوع معين من المكانة في عالم النقد لكن السلف
لن يحافظ عليها.

وفيها جميعاً نجد حرية اللغة والابتكار، وعدوانية واثقة ومشاركة حاسمة في
النزاعات وفي التيارات الفكرية ليومنا هذا مما يجعلها دالة وحية بالنسبة للقارئ
الحديث بلغتنا أو بأي لغة أخرى لقد تم تجاوز النزعة الإقليمية التي تراجعت إلى
الوراء لكن من بين أعمالها بلغ عمل واحد شهرة ليست أدبية فقط بل شعبية
أيضاً، في لغات عديدة، ولعل ذلك لأنه رائعة هذه الفترة. هذا العمل هو مائة

عام من العزلة لجابرييل جارتيا ماركث . إنه كتاب حب وخيال فيه كل شيء :
التاريخ والأسطورة، الاحتجاج والاعتراف، المجاز والواقع، وكل هذا مروي
بفن قديم يهزم حقاً، حين يظهر، الصيغ الأدبية، إنه موهبة بقدر ما هو عمل
العقل والروح، وهو سر القصص القديم الذي يأسرنا مرة أخرى.



الفصل الخامس

أمريكا اللاتينية في الآداب الأخرى

إستواردو نونييث*

Estuardo Núñez

١ - الطابع المثالي الأول.

أثار وصول الإنسان الأوروبي إلى أمريكا - كولومبس إلى جزر الأنтил، وكورتيس إلى المكسيك، وبيثارو إلى البيرو(**)، خلال أربعين عاماً - عملية طويلة من استيعاب الأنباء المتفرقة بشأن البؤر المختلفة والمنعزلة حول الحقائق الأمريكية، دون استنباط كثير، للمعلومات الجغرافية، والفيزيائية، والاجتماعية، والأنباء التاريخية الجزئية والسطحية.

ولم تستطع الأنباء الأولى عن أمريكا، ومن بينها تلك التي تضمنتها رسائل كريستوفر كولومبس أن تميز بين ما هو أمريكي وما هو آسيوي. وحتى أوائل القرن السادس عشر كان الاعتقاد العام في أوروبا أنهم قد وصلوا إلى الجزر التي تجاور كاتاي(***) أو الهند.

(*) ناقد بيروي (ولد في ليما ١٩٠٨) من اعماله الأساسية: النثر الأدبي في البيرو (لوس انجلوس ١٩٤٢)، مؤلفون أنكليز في البيرو (ليما ١٩٥٦)، الأدب البيروي في القرن العشرين (مكسيكو ١٩٦٦)، اسكندر همبولدت في البيرو (ليما ١٩٦٧)، آداب ايطالياني البيرو (ليما ١٩٦٨) صورة العالم في الأدب البيروي (مكسيكو ١٩٧٢). وهو استاذ شرف في جامعة سان ماركوس، ومدير مجلة فينيكس، لسان المكتبة الوطنية في البيرو وهو لا يزال يديرها حالياً.

(**) ويجب أن نضيف أيضاً كابرال فهو مكتشف البرازيل [المراجع].

(***) Cathay أو Catay: هو الاسم الذي كان مؤلفو العصور الوسطى يطلقونه على الصين

[المترجم].

لكن بعد سنوات ، ومع تقدم القرن المذكور ، بدأت تقارير أخرى عن تجارب المستكشفين والغزاة تحدد ملامح واقع مستقل ، أو بالأحرى بدأت في اعتبار ما هو أمريكي على أنه قادم من قارة جديدة . ومن ثم رُسمت أولى الخرائط أو كتب الارشادات الملاحية التي تحدد جسماً جديداً من الواقع الأرضي سيأخذ في الاكتمال ببطء بكل اتساعه عن طريق الاكتشافات والغزوات اللاحقة . هكذا تنزع أمام الأوروبيين تضاريس السواحل البرازيلية ، وفلوريدا ، وكندا ، ووجود إمبراطوريات هامة مثل إمبراطوريات الأزتيك والإنكا . ويتمكن أمريكو فسبوتشيو Amerigo Vesputio ، الذي ارتحل من عام ١٤٩٨ إلى عام ١٥٠٨ ، من «عزل» القارة الجديدة كوزموجرافياً .

تبدأ الأرض الجديدة في اكتساب خصائص الأرض الموعودة ، اللجنة الأرضية ، وترسم فوقها ، خيالياً ، لوحة عصر ذهبي ينتج أسطورة الدورادو El Dororado ، وأسطورة خاوخا Jauja ، وغيرها من النتائج الخاصة بفانتازيا وأخيلة عصر النهضة .

على هذا النحو يبدأ العنصر الأمريكي يكف عن كونه مفهوماً ضبابياً وغير دقيق كما يظهر في قصيدة سفينة الحمقى Das Narrenschiff (١٤٩٤) لسباستيان برانت Sebastian Brant ، التي تقوم على أساس حكايات كولومبس ، ويبلغ بعد ذلك بنصف قرن درجة واقع أكثر تحديداً رغم أنه لا يزال دون تضاريس محددة . فالروايات اللاحقة مثل تقارير الأب بارتولومي دي لاس كاساس Bartolomé de las Casas أو الايطالي جيرونيمو بنزوني Gerónimo Benzoni تقدم الإنسان الأمريكي على أنه مجموع «أناس آدميين» ، أناس طبيعين للدين ، بدأوا يعانون من الاستغلال والنهب على أيدي الغزاة الإسبان الأوائل .

وقد أوضح النقد المتزن في بدايات القرن الحالي ، عن حق ، التطور الفريد للمفاهيم حول العالم الجديد لدى مونتاني Montaigne في مرحلتي كتابة مقالاته . فحتى طبعة ١٥٨٠ كانت مفاهيمه المطروحة في مقال أكلة لحوم البشر (المقالات ، الكتاب الأول ، فصل ٣١) تقوم على أساس التأملات التي أثارها

لديه قراءة نتائج بعثة فيلجانيون Villegagnon إلى شواطئ البرازيل من خلال تقارير أندريه تيفيه André Thevét (١٥٥٨)، وجان دي ليري Jean de lery (١٥٧٨). وتتفق هذه الشهادة مع خبرته الشخصية المباشرة بفضل اللقاء الذي جرى في روان، في بلاط شارل التاسع الذي جلب إليه ثلاثة من هنود البرازيل. هذا اللقاء وتلك القراءات أثارت اهتمام أوروبي واسع بالقلق الجديد لمعرفة العالم الحديث الاكتشاف. قال تيفيه:

اكتسب هذا البلد اسم الهند بسبب تشابهه مع ذلك البلد الآسيوي وللاتفاق في العادات، والوحشية والهمجية لدى هذه الشعوب الغربية مع بعض العادات المشرقية.

وبذلك بين كل الجهد السائد حول خصوصية ونمطية أمريكا. إلا أن مونتاني التقط هذا المفهوم بحب استطلاع الفائق.

ويجب أن نضيف أنه بمناسبة الكتابة حول أكلة لحوم البشر لا بد من أن مونتاني قد عرف أيضاً عمل جيرونيمو بنزوني تاريخ العالم الجديد في طبعته الأولى (فينيسيا ١٥٦٥) أو في طبعته الفرنسية لعام ١٥٧٩.

وفي مرحلة ثانية، حين وسع مونتاني مقالاته لطبعة عام ١٥٨٨، كانت معرفته قد أثريت من مصادر أخرى حول خصائص العالم الجديد. ذلك «العالم الطفل» الذي أضيفت إليه في خياله جوانب جديدة أكثر تماسكاً واكتمالاً. إنه الآن، في مقاله حول العربات (المقالات، الكتاب الثاني، الفصل ٦)، يميز بوضوح ليس واقع البرازيل فقط بل كذلك واقع البيرو والمكسيك. في هذه المرحلة الثانية، منذ عام ١٥٨٨، لم يعد يحفزه مجرد الفضول أو الميل إلى الألوان الزاهية، بل إنه «يأخذ جانب السكان القدماء للأراضي الجديدة، ضد غزاتهم الهمجيين، باسم الحق والإنسانية» (١). وفي دفاعه عن هؤلاء السكان يتوحد حبه للطبيعة الإنسانية مع

(1) cf. Gilbert chinard, L'exotisme américain dans la littérature française au xvi^e siècle, paris, Hachette, 1911.

اهتمام واضح لعصر النهضة بالإنسان في «حالة البراءة» .

يقول مونتاني : «ليس هناك شيء همجي أو وحشي في هذه الأمم ، وما يحدث هو أن كل واحد يسم بالهمجية ما هو غريب عن عاداته» (الكتاب الأول ، فصل (٣٠) .

لكن ، بصرف النظر عن كتاب بنزوني ، كانت هناك كتب أخرى توضح الاهتمام بأمريكا لدى مونتاني ، وكانت هذه الكتب دون شك هي تلك التي كتبها فرنسيسكو لوبث دي جومارا Francisco López de Gómara ، أعني التاريخ العام لجزر الهند الغربية Historia general de las Indias ، الذي ظهر في سرقسطة عام ١٥٥٢ ، والذي ظهرت ترجمته الفرنسية في باريس عام ١٥٨٤ . وأكمل هذا العمل كتاب تاريخ الدون هرنان كورتيس Historia de don Hernán Cortes للمؤلف ذاته ، جومارا ، والذي ظهرت طبعته الإيطالية عام ١٥٦٦ . كذلك يفترض أن مؤلف المقالات قد عرف عمل بارتولومي دي لاس كاساس Bartolome de las Casas سرد موجز لدمار جزر الهند الغربية Bre- vísima relación de la destrucción de las Indias الذي صدر عام ١٥٥٢ في طبعاته الفرنسية العديدة أو المقتطفات الفرنسية منه . هكذا يستطيع مونتاني أن يتحدث بكل الثقة عن أقاليم أخرى من أمريكا ، مثل البيرو والمكسيك ، ويشغل نفسه بالقسوة التي عومل بها الهنود البيرويون والمكسيكيون من جانب الغزاة الإسبان . ويدرك أمريكا باعتبارها «عالمًا طفلاً» ، ليس لديه بعد قرن من الحياة ويجري تعليمه أبسط مبادئ الثقافة ، ويؤكد أن «هذا العالم الآخر لن يفعل سوى أن يدخل إلى الضوء حين يتركه عالمنا ، ويتابع فيعرب عن خوفه من أن تكون عدوى الأوروبيين قد سببت له الخراب أو التدهور .

ومن المثير للاهتمام أن نشير إلى أنه ، عند الحديث عن عظمة كوثكو ومكسيكو ، اعتاد كاتب المقالات الفرنسي أن يميز بوضوح بين بعض الخصائص المميزة للمكسيك عن البيرو ، ويأخذ في اعتباره الوحدة الكونية لإنسان العالم الجديد ، لمعتقداته ، وأساليب وجوده ، وردود أفعاله ، وأعماله المادية ، وعلى الأخص

تلك الأعمال، (مثل «طريق الإنكا» في البيرو) التي يعتبرها معجزة للعمل المنسق بين الجهد والعبقرية.

وتتبدى ظاهرة إدخال ما هو أمريكي كذلك في الأدب الإيطالي لعصر النهضة، وكان محرك هذا الإدخال هو أمريكو فسبوتشيو بعمله الموضح، وبالدرجة الأولى راموزيو Ramusio. بعمله مجموعة رحلات، وبنزوني بكتابه تاريخ العالم الجديد.

من هذه المجلدات ستخرج العناصر الطريفة للشعر الرعوي، وفي المقام الأول، أركاديا Arcadia لسانازارو Sannazaro ولشعر تاسو Tasso الذي يمكن أن نتبين بين مقاطعه بعض الجو المكسيكي الذي يخففه الظرف الإيطالي بعض التخفيف.

وليست هذه هي الحالة عند الحديث عن إسبانيا والبرتغال، فهما أكثر ارتباطاً بالعنصر الأمريكي بسبب القرب الجغرافي والارتباط المباشر، وبسبب وجود جمهرة من المؤرخين الإسبان الذين كتبوا انطباعاتهم الأمريكية، وبسبب وجود خلاسين من أمثال الإنكا جارتيلاسودي لافيغا Inca Garcilaso de la Vega الذي أثر عمله بالضرورة على المبدعين الإسبان. بالإضافة إلى ذلك هناك حالة استثنائية لوجود قصيدة ملحمة عظيمة مثل الأروكانية La Araucana، كتبها إسباني في أمريكا، وتعد نموذجاً لنوعها الأدبي، وعرضاً ذا مغزى للموضوعة الأمريكية الحية متضمنة في الأدب. ويمكن أن نضيف إلى اسم ألونسودي إرثيا اي ثونييجا Alonso de Ercilla y Zúñiga أسماء لوبي دي فيغا Lope de Vega في الكثير من كوميدياته مثل العالم الجديد الذي اكتشفه كولومبس El nuevo mundo descubierto por Colón والاروكاني المروض El Arauca no domado وبدرو كالديرون دي لباركا Pedro Calderón de la Barca بعمله فجر كوباكابانا La aurora en Copacabana، وميجيل دي ثرفانتس Miguel de Cervantes نفسه الذي يلتقط أصداء أمريكية في لاجالاتيا La Galatea ضمن أعمال برسيلس وسجيسموند Los trabajos de Persiles y Sigismunda

Segismunda واسم جابريل لاسو دي لافيغا Gabriel Lasso de la Vega في كورتيس الشجاع Cortes valeroso (مدريد، ١٥٨٨)، واسم أنطونيو دي سافدرا Antonio de Saavedra في الحاج الهندي El peregrino indiano واسم مارتين باركودي ثنتينيرا Martin Barco de Centenera في قصيدته الطويلة La Argentina الأرجنتين. (١٦٠٣).

أما التأثير الأمريكي في إنجلترا فيحمل دلالة خاصة، حيث كان الخيال يتغذى على عناصر غامضة من العالم الجديد كامة في اليوتوبيا Utopia (١٥١٦) لتوماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) تخلق فانتازياها الجغرافية مملكة، أو مدينة، أو جزيرة مثالية تحمل السمات المنسوبة إلى المجتمعات الأمريكية وتنتشر في كل المجال الأوروبي. ويتغذى إلهامها على حكايات كولومبس وفسبوتشيرو على الأنباء حول اكتشافات الأراضي الأمريكية الجديدة، التي تدفعها إلى إدراك فكرة جزيرة يحيا فيها الإنسان في سعادة، في ظل تنظيم اجتماعي قائم على نسق عقلي. ربما كانت اليوتوبيا رواية جنينية تتضمن نقداً خفياً للمجتمع الانجليزي وتقدم هياكل اجتماعية مستلهمة من أنباء تلك المجتمعات المكتشفة بين هنود الانكا والأزتيك. وفي ظلال مور، تزهو يوتوبيات أخرى في أطلانطيد الجديدة The new Atlantic (١٦١٦) لفرنسيس بيكون Francis Bacon (كان إسم أطلانطيد الجديدة إحدى طرق الإشارة إلى أمريكا)، وفي مدينة الشمس La ciudad del sol لتوماس كامبانيللا Tomás Campanella المنشورة عام ١٦٠٢، والتي تجرى خيالاً في سيلان، لكنها تتكون في تنظيمها من عناصر مثالية أمريكية.

وفيا عدا ذلك أسهم الرحالة الانجليز، من أمثال دريك Drake، وفروبشر Frobisher، وكافنديش Cavendish، ورالي Raleigh، في معرفة القارة الجديدة بكتاباتهم. ووصلت هذه العناصر؛ دون شك، إلى شيكسبير، ويمكن أن ندرك صدى لها في العاصفة (١٦١٢)، وهي عمل يدور جزئياً في جزيرة مثالية مثل جزيرة مورومثل جمهورية أفلاطون. واسم الشخصية ميراندا، وموضوع

العمل يأتيان من حكاية أمريكية جنوبية خلال غزو الريدو دي لابلاتا التقطها الفرنسي شارلفوا Charlevoix والبرتغالي ماجلان Magallanes.

في هذه المرحلة الأولى من انتشار العنصر الخاص بأمريكا في العالم الأوروبي، يمكن تبين عملية أولية لإضفاء الطابع المثالي على ما هو أمريكي على أساس أنباء مؤكدة أو زائفة غير مترابطة أو معزولة. وفي هذه المثالية يتكشف شوق أوروبي لتجاوز الواقع الأوروبي ولصياغة عالم مثالي في الواقع البعيد، ربما كان نوعاً من الملاذ ضد صور البؤس والقيود الأوروبية. وهي مرحلة صياغة مخزون بطيء من الشهادات حول ما هو أمريكي، يثرى الفضول والجهد التوسعي للإنسان الأوروبي، لكن المحتمل فيه لا يفسح المجال للواقعي.

٢ - الاهتمام بما هو طريف.

(أ) رحالة حقيقيون وخياليون.

خلال القرن السابع عشر وجد المبدعون الفرنسيون للدوافع والموضوعات الأمريكية الطريفة ممثلاً نموذجياً لهم في كاتب روائي يوقع ببساطة باسم هويه Huet، ترك مخطوطة رواية بعنوان الإنكا المزيف Falso Inca (عام ١٦٦٧)، كذلك تعتبر من القصص الروائية تلك القصص التي خلفتها مدام دي كالبرانيد Madame de Calpranède، الأميرة الالسيديّة La princesa Alcidiana (باريس، عام ١٦٦١)، ومارتين لوروا جومبريل Martin Le Roy Gomberbille الألسيديّة الشابّة La joven Alcidiana (١٦٥١). وتضاف إليها حكايات المغامرين القراصنة والخارجين على القانون لجزر الأنتيل، مثل أوكسملان Oexmelin، ورافنو دي لوسان Ravenau du lussan، وغيرهما، وحكايات المبشرين، والجزويت (الفرنسيين والألمان، في المحل الأول، مثل مانيان Magnin)، وحكايات تجار وبحارة سان مالو، وهم مغامرون خرافيون بين شعوب من «البدائيين الأبرياء». مثل هذه الحكايات تقوم بدور الحافز والمثال لإثارة التمرد ضد الأشكال العتيقة للحضارة والحكم الشائعين في أوروبا. والأمر

أمر «روسوية» قبل ظهور روسو وقبل أن يصوغ مذهبه في الإصلاح الاجتماعي .

وقد أسهم الرحالة مثلما أسهم «أصحاب الخيال» في استكمال وحفز الاهتمام بمفهوم أمريكا، لدرجة أنه خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ازداد الاهتمام الأوروبي بالبعثات . وفيما كانت فرنسا تتلقى بحرارة أنباء وحكايات البحارة الذين يجوبون جزر الأنтил أو يقومون بالدوران حول العالم، تابعت إنجلترا باهتمام بالغ رحلات رالي وأنسون Anson، وكذلك التطورات الخيالية لقصص مثل روبنسون كروزو Robinson Crusoe لدانييل ديفو Daniel Defoe (١٧١٩)، التي لقيت انتشاراً واسعاً في أوروبا وفي العالم . وفوق هذه الثروة من الرحالة الحقيقيين صعد بنجاح رحلة آخرون خياليون مثل فرنسيسكو كوريال Francisco Correal، في رحلة إلى جزر الهند الغربية Voyage aux Indes accidentales (باريس، ١٧٢٢) . وفي داخل المجال الانجليزي استمر قلق بالغ من أجل التقاط الموضوع الأمريكي اللاتيني . أما في فرنسا، التي احتفظت حتى ذلك الحي بالأسبقية الأوروبية في الموضوعات الأمريكية، فلم يأخذ هذا الاهتمام خطأ صاعداً . وجاءت الدفعة من البلاط الانجليزي لشارل الثاني، الذي كان كثير من رجاله منفين في اسبانيا، إذ اشتعل في قلوبهم حب اللغة القشتالية وأدبها . وأصبحت الأعمال ذات الموضوع الإسباني، أو التي تدور حول مستعمرات إسبانيا وترجمات الأعمال الأدبية والتاريخية أعمالاً شائعة .

وقد كتب روبرت هوارد Robert Howard (١٦٢٦ - ١٦٩٨) بالاشتراك مع نسيبه جون درايدن John Dryden مسرحية الملكة الهندية Indian Queen (١٦٦٤)، وهي تراجيديا عن الملكة زمبوالا Zempoalla، أحدثت ضجة كبيرة عند افتتاحها بسبب كمية العناصر المشهدية، بما في ذلك ثياب الريش، والمعارك والتضحيات على المسرح . والموضوع مكسيكي لكنه يجري في البيرو حيث نجد مونتزوما جنرالاً للإنكا البيرويين .

وتحت تأثير نجاح عمل هوارد افتتح درايدن (١٦٣١ - ١٧٠٠) تراجيديا الإمبراطور الهندي، أو غزو الاسبان للمكسيك (١٦٦٥) . وبعد ذلك وقبله

كتب خمس قطع ذات موضوعات مأخوذة من مصادر إسبانية وبصرف النظر عن
حكايات غزو المكسيك والبيرو المشهورة لجومارا ولاس كاساس أضاف درايدن
إلى ثقافته الأمريكية مصادر أخرى مثل: شروح الإنكا جارتيلاسو التي ظهرت
طبعتها الانجليزية المختصرة في لندن عام ١٦٢٥ .

في كل هذه الأعمال - كما في الأعمال التي ستنتج في القرن التالي - نجد مفاهيم
زائفة أو مشوهة حول الحقائق التاريخية والجغرافية، والعادات، والاستخدامات،
وحول سيكولوجية شخصيات العالم الجديد. والتعسف واضح في كل المجالات.
مازالت أمريكا بعيدة جدا عن الطبقة الأوروبية من المثقفين ولا يبدو أنها لقيت
مايكفي من الدراسة. والمؤرخون، والبحارة، والقراصنة والكتاب، الذين كتبوا
القصص عما رأوه أو ما لم يروه ولم يعيشوه، لم يكونوا كلهم يقدمون صورة كاملة بل
صورة سطحية، ومجزأة، وخيالية، ومشوهة، ولا تتناسب في أبعادها مع الأحوال
الأمريكية. وبوجه عام كانوا لا يتوقفون إلا في المناطق الساحلية، وأمام الجوانب
السطحية، دون النفاذ إلى جوهر العالم الأمريكي الرحيب.

وفي القرن الثامن عشر كان لابد من أن يتغير الموقف بعض التغير. فإن أحد
أولئك الرحالين على مكاتبهم، أحد أولئك المخترعين للرحلة التي لم تتحقق،
استطاع أن يبلغ منذ لحظة ظهوره الأول، مرتبة أكثر الكتاب مبيعا، ولم يقتصر
انتشاره على بلده إنجلترا، بل عمم الأوساط الأوروبية كلها. هذا الكاتب هو
دانييل ديفو (١٦٦٠ - ١٧٣١)، وقد ظهر كتابه الفريد الشهرة، الذي كان عنوانه
الأصلي هو حياة ومغامرات روبنسون كروزو The life and adventures of
Robinson Crusoe، في لندن عام ١٧١٩ .

يتضمن روبنسون من العناصر الأمريكية أكثر مما يعتقد الناس. ولا شك أنه
نشرها بكفاءة في كل أوروبا. في الصفحات الأولى للرواية تكشف الشخصية
الرئيسة عن عملها في الساحل البرازيلي مكرسة نفسها لمهام وظيفة مكتبية ورتيبة.
لكن حبه للأسفار يؤدي به إلى رحلة بحرية صغيرة تنتهي بالغرق وبالملاذ المنعزل
في «جزيرته» التي تقع أمام ساحل فنزويلا الشرقي، بين مصب نهر الأورينوكو

وجزيرة ترينيداد. في هذه الجزيرة التقليدية ستجتمع عناصر، ومناظر، واستخدامات، وأصدقاء من أرجاء أخرى من مناطق مختلفة من أمريكا بما في ذلك تلك المناطق الواقعة على الجانب الآخر من القارة الأمريكية الجنوبية، أي على الشاطئ الغربي لها، وتقابل مملكة البيرو، أي خلجان الساحل البيروي والجزر المجاورة لها مثل: جزيرة لوبوس، وجزيرة خوان فرناندث، إلى الجنوب منها، أمام تشيلي. ويضم هذا كله مزيجاً من الخيال والوقائع المتنوعة التي تلتقي في الرواية مثلما تلتقي في ذهن الإنسان الأوروبي عند بداية القرن الثامن عشر، وتحديد مفهومه عما كان، أو عما كان يفهم على أنه أمريكا المستعمرات من قبل الإسبان والبرتغاليين. كان ديفو قد قرأ بالفضول والاهتمام الطبيعي لرجل في عصره حكاية القرصان الانجليزي وودز روجرز Woodes Rogers رحلة تجوال حول العالم A cruising voyage round the world (لندن، ١٧١٢)، الذي نعرف عنه تاريخياً أنه ألقى مراسيه ودخل ينهب في جواياكيل (بالاكوادور) وغيرها من موانئ المحيط الهادي. هناك نجد حادثة العثور على بحار اسكتلندي (هو الكسندر سلكيرك Alexander Selkirk) الذي وجد في جزيرة مهجورة من مجموعة جزر خوان فرناندث بعد عدة أعوام من الانعزال وإنقاذه. ويمكن أن تكون الحادثة قد رويت في ميناء بريستول الذي كان فيه ديفو عام ١٧١٣، أو في لندن ذاتها، وهما المدينتان اللتان يمكن أن يكون سلكيرك قد وصل إليهما بعد إنقاذه. إلا أن هناك قراءات أخرى، حسب رأي شينار، يحتمل أن تكون هي مصادر ديفو، وهذه المصادر هي رحلات الرحالة الفرنسيين إلى البحر الكاريبي وسواحل أمريكا الجنوبية، مثل رحلات إسكملان دي أوكسملان Esqueme-lin de Oexmelin، ورافنو دي لوسان Ravenau de lussan، وجاك ماسيه Jacques Massé باعتبار أن أولهما وثالثهما يقصان في كتبهما تجارب مماثلة لتجربة سلكيرك. إذن لقد تملك مجموعة عديدة من الكتب حول هذه المواد عن المغامرات والرحلات والتي كانت تمثل القراءة المفضلة لجمهور واسع. ويجب أن نأخذ في الاعتبار ليس فقط الكتب الفرنسية المذكورة آنفاً، بل كذل كتب الرحلات بالإنجليزية، التي كان ديفو مضطراً لمعرفة، لأسباب مهنية ولاهتمامه

الشخصي . ومن هذه الكتب اكتشاف إمبراطورية جويانا The discovery of the Empyre of Guiana للسير والتر رالي (لندن ، ١٥٩٦) الذي صعد في نهر الأورينوكو بحثاً عن الدورادو، وهناك كتاب آخر أحدث لويليام دامبير هو رحلة جديدة حول العالم - وصف تشيلي والبيرو عام ١٦٧٩ A new voyage round the world - Description of Chile and peru in 1679 (لندن ، ١٦٩٠ - ١٦٩٩) ٤ أجزاء . ولابد من أنه استمد العناصر البيئية للطبيعة الاستوائية التي نقلها إلى «جزيرته» من هذه الكتب . وقد فضل ديفو أن يرسم جواً استوائياً، قريباً من دلتا الأورينوكو، أو بالأحرى، في موضع الجنة الأرضية كما حلم بها كولومبس . وعلى مقربة من الدورادو حسب أوهام الكثير من الغزاة الطموحين من أمثال أوريانا Orellana والرحالة من أمثال رالي . هكذا تكون الشخصية والحكاية مأخوذتين مما حدث في الجزيرة التشيلية، في غربي أمريكا الجنوبية، لكن المنظر يقابل خط الاستواء عند الشاطئ الشرقي لأمريكا الجنوبية في الجزيرة الفنزويلية .

ربما كان إسهام روبنسون ديفو أكثر أهمية وفعالية من كتب الرحالة نفسها التي كانت تشكل مصادره، وبذلك ساهم في إثراء المفهوم الأوروبي عن أمريكا الجنوبية، بسبب انتشاره غير العادي في كل الأوساط الأوروبية، ورغم قلبه للحقائق - مثل حيوانات اللاما تلك التي تعيش في جبال الانديز البيروية، حيوانات المرتفعات تلك التي تعج بها جزيرة روبنسون الاستوائية - فقد كان خلاصة وافية لقلق الأوروبيين العقلانيين والمستنيرين الذين ظهروا، بعد وفاة ديفو، في النصف الثاني من القرن .

وهناك معاصر آخر لديفو ودرايدن، هو جوناثان سويفت Jonathan Swift (١٦٦٧ - ١٧٤٥)، يضيف إلى تهكمه اللاذع العنصر الطريف كموصل مناسب لتجنب الرقابة . وكتابه رحلات ليمويل جليفر إلى عدد من أمم العالم النائية أو رحلات جليفر (١٧٢٦) Travels into several remote nations of the world by Lemuel Gulliver o Gullivers travels يغطي النقد الاجتماعي

للاستقراطية الانجليزية المنحلة بسلسلة ضبابية من الشخصيات القزمية التي تتجول في ممالك بها أوجه شبه ببعض مجتمعات أمريكا التي أذاع تنظيمها الرحالة المؤرخون ومبدعو اليوتوبيات. ويخلق سوفيت الحكمة الخفية داخل إطار بريء لبلدان مثالية ونائية، وهي حيلة أدبية لقيت ترحيباً فورياً في كل أوروبا بفضل الطبعة الفرنسية لعام ١٧٢٧، قبل وبعد الرسائل الفارسية لمونتسكيو الذي يسخر بدوره من المجتمع الفرنسي لكنه يجعل السخرية في جو شرقي متخيل.

(ب) أمريكا باعتبارها ذريعة أدبية.

النزعة العالمية في الموضوعات، والتي كان يبدو أنها قاصرة على الأدب الإبداعي الانجليزي منذ زمن شيكسبير، بدأت تكتسب ثقلًا مماثلاً في الأدب الفرنسي خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر. وقد تبدى هذا التيار العالمي في ادخال موضوعات شرقية عليه (تركية، ومصرية، وصينية، وهندية ومتأثرة برازيلية، وأزتيكية، وإنكاوية) قد ساد ذلك في النوع الأدبي المسرحي بالدرجة الأولى. وبعض العناوين المعبرة لبعض الأعمال الناجحة مسرحياً تعد ذات دلالة في هذا السبيل.

كتب فرييه Ferrier تراجيديا مونتزوما Montézume (١٧٠٢)، وافتتح ماريفو Marivaux كوميديا جزيرة العبيد Le des esdaues (١٧٢٣)، وكتب ليساج ودورنفال Lesage & D Orneval المتوحشة La sauvagesse (١٧٣٢)، وكتب فوسليه M. Fuseleer «باليه بطولية» عنوانها جزر الهند الأنيقة Les indes galantes (١٧٣٥)، ونال الشهرة بسببها رامو Rameau واضع موسيقاها. وعلى غرار الأسلوب الأدبي - الموسيقي افتتح الإيطاليان ريكوبوني Riccoboni وروماجنيزي Romagnesi مسرحية المتوحشين Les Sauvages عام ١٧٣٦ في باريس، وكانا يقلدان بها مسرحية أليزيرا Alzire لفولتير التي افتتحت في العام نفسه، وتطابقت في البناء وفي التاريخ، مع مسرحية جزر الهند الراقصة Les indes dansantes لبون Bonn.

وترجع تراجيديا فرنان كورتيز أو مونتزوما Fernand Cortez ou Montézume ليرون Piron إلى عام ١٧٤٤، كما ترجع البيروية La Péruvienne، كوميديا بواسي Boissi، إلى عام ١٧٤٦، وتعود كولومبيادا La Colombiade لمدام دو بوكاج Mme. du Bocage إلى عام ١٧٥٨، وإلى عام ١٧٦٣ ترجع تراجيديا مانكو - كاباك Manco - Capac للبرانك دي جيلليه Lebranc de Guillet، وإلى عام ١٧٦٤ مسرحية الهندية الشابة La jeune indienne، كوميديا شامفور Chamfort، وأخيراً ترجع إلى عام ١٧٧٧ - عام نشر رواية هنود الإنكا Les incas - تراجيديا زوما Zuma (اختصار اسم مونتزوما) للوفيفر Lefevre.

ويحمل تعداد العناوين هذا دلالة لأنه يبين وصول الموضوع الأمريكي اللاتيني لأوجه في المسرح وحده خلال فترة نصف قرن بموضوعات أزيكية وإنكاوية دائماً. واستكمالاً للصورة نجد لدينا في النوع الأدبي القصصي رواية تليماك Télémaco لفنيلون Fenelón (١٦٩٩)، التي تغذت بعناصر طوباوية مستمدة من مصادر معروفة عن الأشياء الخاصة بأمريكا (بنزوني، والجزويت في الرسائل التأسيسية Cartas edificantes، وربما من جومارا والإنكا جارتيلاسودي لافيجا)، وكذلك مانون لسكو Manon Lescaut للقس بريفوست Prevost (١٧٣٣)، وهي رواية تجري في جو الأماكن النائية في أمريكا الشمالية، أو بالأحرى، في لويزيانا، ونيو أورليانز، والمسيبي. وتكتشف هذه الرواية جانباً جديداً لم يستغل بعد، هو موضوع الحب المرتبط بالطرافة، والذي سيتعده كثيرون حتى يتوج بظهور بول وفرجينى (١٧٨٧) لبرناردان دوسان - بير Ber-nardin de Saint - pierre.

هذا التواتر للموضوعات الأمريكية في الأدب الفرنسي في فترة التنوير يتمتع بأهمية كبيرة وخصوصاً في أعمال واحد من ألمع كتاب هذه الفترة، هو فولتير Voltaire، سواء في المسرح، بمسرحية الزيرا أو الأمريكيين (١٧٣٦)، أو في الرواية الخيالية المعروفة برواية كانديد Cándido (١٧٥٨). وهذا العمل المسرحي

لفولتير له سابقة في تراجيديا أخرى للمؤلف نفسه عنوانها زائير Zaire (١٧٣٢) يتطور فيها الحدث في جو الحروب الصليبية وفي القدس المحتلة في العصور الوسطى من قبل الأتراك(*)، وقد حققت نجاحاً غير عادي منذ لحظة افتتاحها. ووفق ما أثبت سيزار ميرو César Miro في مقالته الموحية، ليست أليزا سوى نقل لموضوع زايد أو زوليم Zulime نفسه إلى جو مختلط، أو بالأحرى هي تبين للموضوع الأمريكي بدلاً من الموضوع التركي أو العربي، بحيث تجري أحداثه هذه المرة داخل إطار بيروي وبالتحديد في المدينة الملكية. لم يكن الشيء الجوهري هو الأمانة التاريخية، بل إطراد ذوق الجمهور الفرنسي والأوروبي من خلال استخدام ديكور طريف: كذلك لم يكن الموضوع نفسه مهماً، فلم يكن يهم تكرار الموضوع نفسه طالما تغير الجو، داخل نطاق الطرافة. وبالنسبة للجمهور كان ماهو آسيوي يعني ما يعنيه ماهو أمريكي نفسه. لم يكن ثمة معيار شديد الصرامة ولا ذوق شديد الميل إلى أمريكا، إذ أن التأثيرات نفسها والاشباع نفسه كان يمكن تحقيقها بالموضوعات الشرقية. هكذا لم يكن فولتير، بوصفه درامياً يحترم ذوق الجمهور، ينشغل أدنى انشغال بالأحداث الواقعية المناظرة للعالم الأمريكي لأن إهتمامه كان منصباً على خلق المشاهد، على المستوى الدرامي و على مستوى تطور المادة التراجيدية التي كانت، في الأساس، هي المواجهة بين جنسين، والتناقض بين مفهومين للحياة وللعالم. وكان من الأمور قليلة الأهمية أن يكون الطابع المحلي هو الشرق الآسيوي أو أمريكا الشمالية أو الجنوبية.

والعملية نفسها التي أوضحناها بالنسبة لمسرح فولتير، فيما يتعلق بالموضوع الأمريكي الطريف، يمكن توضيحها كذلك في نطاق النوع الأدبي الروائي الذي

(*) ثمة في هذه الجملة سوء فهم للتاريخ أو مغالطة. فالقدس كانت للعرب المسلمين. وقد دخل الأتراك الغز في الاسلام منذ مطلع القرن الحادي عشر وغزوا المشرق الاسلامي واضعين أنفسهم في جانب الخلافة العباسية ضد الفاطميين في مصر والشام وضد الروم البيزنطيين. وقد غزوا الشام بعد سنة ١٠٦٥ ومنها القدس وأتبعوها للعباسيين كما كانت من قبل. ثم جاء الصليبيون فاحتلوها سنة ١٠٩٩ في مذبحه معروفة [المراجع].

مارسه بالأستاذية نفسها التي مارس بها المسرح . وهذه المرة تسبق رواية كانديد قصة أخرى بعنوان صادق Zadig ، هي حكاية شرقية تدور في إطار عربي .

تجد شخصية كانديد بيئتها في مشهد فانتازي مأخوذ من أسطورة الدورادو El Dorado ، ويبدو أن فولتير قد اطلع من أجلها على موضوعات متنوعة حول أحداث البيرو الهندي ، كم هي الحال بالنسبة لطائفة «الأورينغون» Oregones وهي طائفة النبلاء الإنكا ، وكذلك حال حداث الذهب والفضة وغيرها من المشاهد الخيالية التي تحمل على الاعتقاد بأن فولتير قد استلهم أسطورة خاوخا Jauja . *

العمل الآخر الهام في الفترة نفسها ، والذي يبدو أنه تلخيص للمفهوم الطرائفي لما هو أمريكي ، هو ، دون شك ، رواية هنود الإنكا (١٧٧٧) لجان فرنسوا مارمونتيل Jean Francois Marmontel ، ويظهر أن المؤلف قد جمع من أجله معلومات وافية حول ثقافتَي الإنكا والأزتيك . والسمة المميزة لهذه الرواية هي المزيج الغريب لعناصر أزتيكية وإنكاوية في حبكة واحدة لا تستغني فقط عن مفهوم الزمان بل كذلك عن مفهوم المكان . ولا يهم أن يجري ما هو مكسيكي في البيرو ، أو أن يجري ما هو بيرواني في المكسيك ، كذلك لا تعني شيئاً المسافة الضخمة التي تفصل جغرافياً بين شعب وآخر ولا الاختلافات الجوهرية لظروفهما الإنسانية والتاريخية . وليس مارمونتيل فريداً في هذا الموقف من الجهل بالفروق الدقيقة ومن نقل الحقائق المكانية والزمانية من مكان لآخر . إذ يشارك فيه فولتير نفسه ، الذي يمزج بين عناصر من أصول أمريكية مختلفة ، ويشارك فيه مؤلفون آخرون سبقوه ، كما رأينا في المقتطفات السالفة لسيور دو روشيه Sieur du Rocher في الهندية العاشقة L'indienne aweureuse ، ولجومبرفيل في بولكساندر Pollexandre (١٦٢٧) ، وكذلك الفنانون مصمموا الكتب ورساموها والذين يضيفون إلى واقع افتراضي - مثلما نجد في الرسوم المصاحبة

* خاوخا: هي الأرض الموعودة أو الجنة . كذلك يشير الاسم إلى مقاطعة في البيرو مشهورة بترائها واعتدال مناخها . [المترجم] .

لنص مارمونتيل وغيره من كتب الفترة - عناصر وتوفيقات متقلبة وعذبة السذاجة .

وفي إطار المستوى الروائي سبق كتاب مارمونتيل كتاب عنوانه رسائل بيروية (١٧٤٧) لمدام دي جرافيني Mme de Graffigny، وزع توزيعاً كبيراً في ست طبعات متتالية ظهرت حتى عام ١٧٦٤، وأضاف عناصر كثيرة من الخيال الطريف في هذا الخط نفسه من الغموض، ومن عدم الدقة، ومن الاختلاط بشأن أمور العالم الجديد .

إن أعمال مارمونتيل، وجرافيني - وكانت أكثر الكتب مبيعاً في فترتها - وفولتير، التي تحاول رسم موضوعها ضمن نطاق جو أمريكي، تستخلص عناصر متفاوتة من كثير من التقاويم الهندية، لجومارا وجارثيلاسو، وربما لخيريث Jerez وثاراتي Zarate، وكانت قد أصبحت مشهورة في طبقات أوروبية، وفي ترجمات فرنسية. لكن برغم استهدافها تقديم حكاية عن الإنكا فإنه يتضح فيها إدخال شخصيات من التاريخ المكسيكي القديم لعلها كانت مستمدة من حكايات كورتيس نفسه ومن كالفيوخرو بالتأكيد، وقد كانت اكتسبت الكثير من الانتشار خلال عصر مارمونتيل .

كانت أمريكا مجرد ذريعة طريفة exotico لوضع حبكة تتفق مع قلق إنسان التنوير الأوروبي في موضوع تم تحويره حسب حساسية القراء الأوروبيين لتلك اللحظة وبفرضية تتكون من إثبات الأريحية البكر للإنسان الأمريكي، ومفهوم مجتمع سعيد لم تدخله متطلبات الحضارة الأوروبية. وكان مارمونتيل خصوصاً نتاج نزعة إنسانية أوروبية ذات طابع ثقافي واضح وذات ميل ملحوظ إلى العالمية. كانت أوروبا حينئذ تخرج من عزلتها وتميل إلى تدعيم انتمائها العالمي بعناصر طريفة تحاول ضمها إلى حضارتها.

بدأ العالم القديم يضم إلى أدبه موضوعات وجواً تقليدياً وبعض العناصر غير المعروفة جيداً لكنها رغم ذلك تستخدم مع جرعة جيدة من الخيال تعوض نقص

المعلومات الجغرافية والتاريخية الدقيقة . هكذا أثمر الاحتكاك ثماراً فجأة كانت العقول الأوروبية تجتهد في ابتلاعها روحياً . وتضيف إلى هذا كله المعلومات الجديدة التي كان ينشرها في تلك الفترة المبشرون ، وفي المقام الأول ، الجزويت في الرسائل التأسيسية .

وقد ذاعت أعمال كثيرة للجزويت الألمان تتعلق بأمريكا الجنوبية في أوروبا الوسطى بواسطة كريستوف جوتليب فون مور Christoph Gottlieb von Murr في مجلته الثقافية الشهيرة والخالدة : Journal zur Kunstgeschichte und zur allgemindinen Literatur التي ظهرت في نورمبرج دورية تالايخ الفن والأدب بين عامي ١٧٧٥ و ١٧٨٩ ، وعادت للظهور في عامي ١٧٩٨ - ١٧٩٩ . في هذه المجلة المستنيرة ظهر نحو اللغة الأيمارا بقلم لودوفيكو برتونيو Ludovico Bertonio ، وصلاة باللغة نفسها بقلم فولفجانج باير Wolfgang Boyer ، و الرحلة نحو البيرو Reise nach Peru للأب باير نفسه وحكاية الأب فرنسيسكو خافييه فايغل Francisco Javier Veigl عن بلد المايناس El país de mainas في مملكة البيرو ، وهي عمل بارز نشر عامي ١٧٨٨ - ١٧٨٩ . كما ترد معلومات من رحلات أخرى مثل رحلة الأب صمويل فريتز Samuel Fritz ، الجغرافي البارز ، وواضع أول خريطة للأمازون ، وجاسبار رويس Gaspar Ruess ، وبابلو ماروني Pablo Maroni ، وفرنسيسكو خافييه إيدر Francisco Javier Eder ، وغيرهم .

كان فون مور شخصية نموذجية لعصر التنوير في أوروبا الوسطى ، وبفضل روحه العالمية ، واهتمامه الأسباني والهسباني - أمريكي ، واتساع اهتماماته الثقافية جعل من الممكن كشف حقائق عن أمريكا الجنوبية معالجة بطريقة علمية . كان يقيم في نورمبرج ، ويعرف عدة لغات أوروبية ويحتفظ بروابط عميقة مع إسبانيا والبرتغال . وقد أسهمت المجلدات السبعة عشر من مجلته إسهاماً ضخماً في تقديم معرفة حقيقية ، وتشكيل صورة قريبة جداً من الحقائق الأمريكية . كذلك حرر فون مور كتباً أساسية عن القارة مهدداً الأرض بذلك لأعمال تالية وحافزاً لرحالين

من نوع جديد كانوا سينطلقون بأعداد كبيرة من ألمانيا ومن كل أوروبا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

وقد حققت نتائج مماثلة في فرنسا حكايات المبشرين الجزويت الفرنسيين المتضمنة في المجموعة البارزة رسائل تأسيسية، التي ظهرت في باريس فيما بين عامي ١٧٠٢ - ١٧٧٦ في ٣٤ مجلداً، تتضمن إسهامات ذات قيمة ضخمة في العلوم الطبيعية، والجغرافيا، وعادات السكان الأمريكيين، ساعدت في التوصل إلى صورة أكثر دقة وصحة عن الطبيعة والإنسان في أقاليم مختلفة من العالم الجديد.

وفي الأوساط الإيطالية إفتتح كارلو جولدوني Carlo Goldoni في فينيسيا كوميديا البيروية (١٧٥٥)، والمتوحشة الحسناء La bella salvaggia (١٧٦٠). وتكشف هاتان المسرحيتان عن تأثير مدام دي جرافيني وفولتير.

ويشارك في هذا الموقف مؤلف ايطالي آخر، هو جوان رينالدو كارلي Juan Rinaldo Carli، بمؤلفه رسائل أمريكية Lettere americane (١٧٨٠)، وهو مدافع عن الهندي الأمريكي ضد نظريات دي باو De pauw. وقد أكد أن «الامبراطورية الإنكاوية كانت أكمل أشكال الحكم التي ابتكرها البشر والوحيدة التي كان يمكن للمرء فيها أن يكون سعيداً» وأن «الإنسان الأخلاقي للبيرو كان دون شك أكثر كمالاً بكثير من الإنسان الأوروبي». (٢)
(ج) رد الفعل ضد ماهو خيالي (فانتازي).

في ملاحظة ضمن (حديث في عدم المساواة) Discours sur l'inégalité يضيف جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau إلى الاحتمالات الأخرى للرحلة عبر آسيا وأفريقيا مايلي:

إن الرحلة في «المكسيك، والبيرو، والأراضي الماجلانية، دون استبعاد

(٢) Cf. Raúl Porras Barrenechea, Los Viajeros en el Perú, Lima Ecass, 1957.

أراضي الباتاجون الحقيقية أو الزائفة، توكومان، وباراجواي، وإن أمكن، في البرازيل، وجزر الكاريبي في نهاية المطاف، وفلوريدا وكل الأماكن البدائية، هي رحلة أهم من كل الرحلات، رحلة يمكن عملها دون أدنى حذر. ».

يتبين في هذه الفقرة رد الفعل ضد الفانتازيا والابداع الأدبي الذي ساد خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر، والذي كانت الرحلة فيه وسيلة ومجرد ذريعة. ولأول مرة تبدأ الرحلة في احتلال مركز كونها هدفاً، وموضوعاً للدراسة والتأمل قادراً على الاسهام في التكوين الثقافي للإنسان في أن يصبح مادة تعليمية، كما طرح روسو نفسه في إميليو Emilio.

كان خيال الطوباويين والشعراء ومبدعي الفانتازيات قد أصبح يشكل قوة تؤثر على إيديولوجيي التنوير وتلهمهم مفاهيمهم وأنساقهم العقلانية.

لكن، من جهة أخرى، كانت قد بدأت تطرح منذ بدايات القرن الثامن عشر وبصورة خلافية افتراضات متنوعة حول الإنسان والطبيعة الأمريكيين. ولابد من أن نضيف، إلى الخصائص المميزة التي تشكلت حتى ذلك الحين وترجمت في رؤى وملاحظات متناثرة عن قارة شاسعة، تلك التعميمات الفجة بعض الشيء في تلك الفترة من عصر التنوير، والتي تؤدي إلى الزيف والخطأ لدى الإيديولوجيين الأوروبيين. فقد صاغ بوفون Buffon، في بدايات ذلك القرن، نظريات في الحكم ونظريات «أدبية» على أساس معطيات منعزلة ومحلية أوردتها رحالة وزوار لم يستوعبوا كلية الواقع الأمريكي، أو كانوا يفتقرون إلى التأهيل العلمي الكافي والصلب. ووفق هذه المعطيات كان الإنسان الأمريكي يعاني من النقص وغير قادر على ترويض القوى الطبيعية، وكانت الطبيعة الأمريكية تقدم على أنها غير ناضجة ومتدهورة.

على هذا النحو نشأت نظريات أخرى متعجلة تؤكد أو تنفي ذلك. وكان رد الفعل ضئيلاً ضد ممتدحي «الأعاجيب» الأمريكية والمدافعين عن كمال و«أريحية» و«براءة» الإنسان الأمريكي.

وقد استنتج الأوروبيون الذين عرفوا أمريكا من خلال الكتب فقط نتائج على مزاجهم من المصادر المعروفة حتى ذلك الحين. وكذلك من حكايات بعض الرحالة في بدايات القرن الثامن عشر، مثل لوي فوييه Louis Feuillée (الذي بقى بضعة أشهر في أمريكا الجنوبية خلال ١٧٠٩ - ١٧١٠)، وأميديه فريزييه Amedee Frezier (وقد عاش هناك وقتاً أقل)، واللذين عكسا صورة مجتمع استعماري معقد بعض التعقيد رغم أنها بدءا ينشغلان بالمشكلات المطروحة في مجال الآثار، والجغرافيا المضبوطة، والملاحظة المباشرة للإنسان، وللنباتات والحيوانات. لكن هذا التقييمات مازالت قاصرة على شواطئ القارة الجديدة ولا تتعدها. وكما أشار إدجار دو ريبيرا مارتينث Edgardo Rivera Martinez، الذي درس حكايات الرحالة إلى البيرو وأمريكا الجنوبية حتى أواسط القرن الثامن عشر، : قائلاً إنه ليس لديهم الاحساس بالمنظر الطبيعي :

«لا يجدون في الطبيعة ما يتجاوب التجاوب الانفعالي مع حالاتهم الروحية ولم يألفوا كذلك أن يكون لهم إزاءها موقف تأملي الطبيعة ليست أكثر من مجرد المشهد العدائي غالباً لمغامرة أو لحدث :»

٣ أمريكا ، مشهد أصيل .

لكن الموقف تغير لدى الرحالة العلميين خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر. وخصوصاً مع كل من لاكوندامين La Condamine والكسندر فون همبولت Alexander von Humboldt ، اللذين يظهران تعاطفاً حياً مع السكان الهنود للعالم الجديد، بسبب استقامة حياتهم، وعاداتهم الصحية وقدرتهم على العمل، بالمقارنة مع عيوب المستعمرين الإسبان وقلة إمكان اتخاذهم مثلاً للناس .

ولاكوندامين La Condamine (١٧٣٨) هو أول رحالة أوروبي يتغلغل في الأرض الأمريكية، فوق سلاسل الجبال وعبر الغابات الموحشة للامازون، وقد بقى نحو عشر سنوات في مملكة البيرو، وهي مهمة شاركه فيها الإسبان

خورخي خوان Jorge Juan وانطونيو دي أو أويوا Antonio de Ulloa .
وحكايته تحاول استبعاد عنصر المفارقة والالوان الزاهية . ويتفق موقفه مع
المبشرين الذين ذكرناهم ومع همبولت .

(أ) رجل علم :

في فجر القرن التاسع عشر فتح الكسندر فون همبولت بوابة عصر جديد في
ملاحظة الواقع الأمريكي . إنه ليس آخر عبقرية علمية وإنسانية في القرن الثامن
عشر بل أول عبقرية في القرن التاسع عشر . وقد اذاعت أمريكا شهرته كعالم
طبيعي ! وكمكتشف ثانٍ لأمريكا اللاتينية ، وككاشف لمشهداتها الحقيقي . إذ إنه
دون أن يفقد طاقته المثالية ، ودون أن يفقد حدسه الشعري وحسه الكوني بالحياة ،
وباستيعابه لكل الاسهامات السابقة ، بدأ همبولت يستخدم مناهج أكثر إيجابية ،
وملاحظة أشد تنوعاً ومنهجية للظواهر العينية . كانت تلهمه الوقائع الحقيقية :
الوضع الحقيقي للإنسان ، الواقع قبل الأسطورة ، الملاحظة العلمية الموضوعية
قبل الفانتازيا أو الواقع المتخيل . وبعيداً عن الساحل ، انصب اهتمامه على
الأراضي الداخلية . إن همبولت هو أكمل الرحالة الذين قدموا حتى تلك
اللحظة . وملاحظته منهجية ومضبوطة بفضل استخدامه لمناهج وأدوات لم تطبق
من قبل قط . واعداده العلمي يضمن أن تكون نتائجه خالية من التجريبية
(الامبيريقية) أو الارتجال . لكن الحقائق الفيزيقية يجب مواجهتها أيضاً بالحقائق
الروحية . وقد انشغل همبولت بإنسان هذه الاقاليم وبالمجتمعات التي شكلها ،
لكن انشغاله لم يكن داخل الكتب فقط بل كان منصباً على الواقع . وتأتي ملاحظته
للظاهرة الطبيعية متمشية مع دراسة الظاهرة الاجتماعية . وايدولوجيته
الليبرالية ، التي تدعمت بحرارة المثل التي اطلقتها الثورة الفرنسية والسياسة
الأوروبية في عصره ، جعلته يقف بنفور ضد استغلال الإنسان للإنسان ، هذا
الاستغلال الملاحظ في اجزاء مختلفة من أمريكا ، وأصدر حكمه المضاد للاستعباد
أو لاستغلال الإنسان في أي شكل من أشكاله . وقد دفعه هذا القلق الاجتماعي
إلى التنبؤ ، دون التقييد بالإيديولوجيين السياسيين ، بأنه على المدى القصير لا بد من

أن تنشأ حركة استقلال، بفعل الكريول والخلاسيين القلقين، في مختلف أقاليم العالم الجديد، من المكسيك وحتى الجنوب.

ومن ثم فإنه إذا كان عمل همبولت العلمي يعني كشفاً يكاد يكون كاملاً لعالم يكاد يكون مجهولاً يطبق عليه بحث منهجي للمرة الأولى، فإن عمله العظيم في المجال الاجتماعي هام لأنه يوقظ في مواجهة الأوروبيين وعي الأمريكيين ويكشف عن روحهم وعن طبيعتهم بثرواتها الطبيعية التي لم تمس بعد. وفي مفهومه لتألف الطبيعة ليست أمريكا أكثر ولا أقل نضجاً وتطوراً من أوروبا وكل جدل بهذا الصدد يعتبره صبيانياً.

وقد أثر على همبولت بطريقة غير مباشرة على المبدعين من الفنانين والكتاب في القرن التاسع عشر، وكان حافزاً في البلدان الهسبانية-أمريكية وخارج نطاقها إلى الاهتمام بإبداع يقوم على سحر الطبيعة في هذه القارة. بدأ المشهد والإنسان الأمريكي معاً يشكلان اهتمام كتاب الرومانتيكية الناشئة، وقام توافق بين همبولت، الذي هو نتاج جيل «العاصفة والاندفاع Sturm Und Drang» * و «التوير»، وبين مؤلفي الشعر والنثر الذين يحاولون منذ بدايات القرن التاسع عشر إيجاد تعبير أدبي عن المضمون الأمريكي. يشير همبولت إلى موضوع الطبيعة الرومانتيكية في أوصافه العظيمة للظواهر الطبيعية وفي تشخيصه للشخصية النمطية لهذه الأرجاء التي تكاد تكون مجهولة. إنه يكشف أمريكا أمام عيون الفنانين الأمريكيين والأوروبيين. ومن قبل كان شاتوبريان وبرناردان دي سان-بيير، اللذين قرأهما واستوعبهما همبولت كثيراً، قد أسهما في كشف أمريكا من أجل الفن، لكن همبولت يحدد ويتأمل بصورة أكثر تجسداً، وبتخيل لفانتازيا أوشوة أقل، وبمقدرة أكثر، المشهد الأمريكي للأمريكيين وللأوروبيين على السواء. ومنذ ذلك الحين لن تعود أمريكا هي «يوتوبيا» الكتاب الأوروبيين للقرون السابقة، بل الإلهام المباشر والمتجسد للرومانتيكيين. إن همبولت يجعل أمريكا

(*) هذا الشعار كان شعار الحركة الرومانتيكية في ألمانيا [المراجع].

تكف عن كونها مجرد خيال وهمي للشعراء وتتحول إلى موضوع محدد للرحالة الرومانتيكيين الذين يوسعون هنا من مجال روحهم الشغوف. وقراءاته لكامب Campe، وفورستر Forster، وكوك Cook، ولغيرهم من رحالة القرن السابق، جعلته يتجاوز بروحه النفحة الخيالية لفولتير، وروسو، ومارمونتيل، وسان بيير.

من أجل تدمير قارة اليوتوبيا خلق همبولت قارة الأمل. فمن خلال عمله وأفكاره أكتسب الأوروبيون عيوناً جديدة لملاحظة الحياة الأمريكية باعتبارها ملاذاً من تعب الحياة ومن ألم العالم الذي كان يجمعهم في عصرهم. وفي أمريكا فاجأت الأوروبيين طبيعة وعالم بكل طزاجتهما وبكل بهاء قواهما المحلية، على هامش الأشكال الذابلة للعالم القديم. كان ثمة أماكن هناك تجدد فيها الأرواح المتجهة صوب المستقبل وملاذها.

وخلال السنوات نفسها التي عاد فيها همبولت من رحلته الخالدة عبر أمريكا، وحين كان يجهد في تحقيق أعماله حول القارة الجديدة وفي اضمحاء الشكل عليها وفي الوقت نفسه الذي كان فيه يلقي المحاضرات البارزة في المراكز العلمية في باريس، وفيينا، وبرلين، ولندن، كان صديقه وزميل جيله: يوهان فولفجانج فون جوته Johann Wolfgang von Goethe يصوغ، متجاوزاً ذاتيته الشعرية، نظرية في الأدب تتجاوز القوميات، ويطلق أطروحته الجديدة عن «الأدب - العالمي Welt-literatur». وكان الكثير من الأدب السابق مباشرة على القرن التاسع عشر (فولتير، وديديرو Diderot، ولوك Locke، وروسو Rousseau، وريتشاردسون Richardson، إلخ) قد أبدع - دون أن توجد النظرية بعد - تحت علامة الأدب العالمي تلك، بأضيق معانيه.

في نطاق هذا النظام من الأفكار، وفي أوروبا التي كانت تشهد تحولاً جذرياً بدأت أمريكا وما هو أمريكي لاتيني يتكاملان، ليس باعتبارهما عنصراً طريفاً أو باذخاً، بل بفضل عملية تكامل عالمية. كانت معرفة العالم الجديد قد اكتسبت المزيد من الموضوعية ومن ثراء المعطيات بفضل تقدم المعرفة العلمية، والتطور

الاقتصادي وتطور وسائل الاتصال التي قاربت بين الشعوب وضيق المسافات أما الحقائق الأمريكية التي كانت تقوم من قبل «كما يجب أن تكون» أو «كما هو متخيل» فقد أصبحت تقدم «كما هي فعلاً»، بكل حقيقتها.

(ب) الرومانتيكيون :

يمثل هينريخ فون كلايست Heinrich von Kleist (١٧٧٧ - ١٨١١) حالة بالغة النموذجية للمزاج الرومانتيكي الجديد، وهو كاتب مسرحي وقصاص ألماني، تستجيب أعماله لجماليات لم يفهمها معاصروه، مثلما كان الحال مع نوفاليس Novalis وهولدرلين Hölderlin.

ومن أجل كتاباته القصصية، وهي عموماً روايات قصيرة وبعض الأقاصيص، بحث كلايست دوماً عن أجواء أو مشاهد تناسب أمور العنف والقسوة العاطفية، تناسب الدعابة السوداء والدرامية المنفلتة. وكان الجزء الأكبر من حكاياته يجري في إيطاليا أو في أمريكا اللاتينية. وفي اثنتين منها وهما: زلزال تشيلي Das Erdbeben in Chile، وخطوبة سانتودومينجو Die Verlobung in Santo Domingo، يجري الحدث في مدينتي سانتياجو وبويرتو برينشي على الترتيب، وقد كتب ونشر الأولى في سن الثلاثين، مطوراً حكايته باستخدام بعض العناصر التاريخية لكارثة الزلزال التي وقعت عام ١٦٤٧، والتي وجدها في بعض الكتب حول ظواهر الطبيعة الخارقة التي أثرت نتائجها الإنسانية والتراجيدية على خياله وحفزت ابداعه. وظهرت الثانية عام ١٨١١.

أما بالنسبة لتفضيله المشاهد الطريفة، فيمكن القول إن كلايست يفتح بفيه الفريد معياراً جديداً للطرافة يعني بين ما يعني تصفيته. . كان فولتير ومارمونتيل- وهما أرقى نقاط هذا الاتجاه - قد تخيلاً مشهداً غير عادي وضعاه في أمريكا، حتى ولو كانت المشكلات من طراز أوروبي. أما كلايست فيبحث في أمريكا الحقيقية عن مشهد أصيل ليضع في إطاره ابداعاً فنياً كان يمكن أن يكون مفتعلاً في أوروبا. فقد كانت الرومانتيكية تتطلب درامية عنيفة يرفضها المجتمع الأوروبي.

وكان من الأنسب اقامتها في مكان بعيد، في الجوا الأمريكي اللاتيني، حيث كان المجتمع الكريولي يقدم إمكانات جديدة للفن الرومانتيكي. هكذا لم يجر تشويه لمكونات الإلهام الجديد، وبذلك أمكن ازدهار الموضوعات والدوافع، وأمکن ازدهار أسلوب جديد للسرد تجري فيه بصورة طبيعية درامية حادة ومفاجئة. ومن أحداث تمرد عبيد هايتي السود نفسها استمد فيكتور هوغو موضوع روايته المبكرة بوج جارجال Bug - Jargal وبذلك نقل جواً أنثيلياً إلى الآداب الفرنسية الرومانسية، دون قسر أو تزيف.

والمثال على الاهتمام الذي أثاره في عالم وسط أوروبا رجل هسبانو-أمريكي بارز، وهو مواطن ليما الدون بابلودي اولافيدي Pablo de Olavide، ممثل الروح الليبرالية المطاردة من قبل ظلامية محاكم التفتيش، نجده في رواية مجهولة للكاتب الألماني هنريخ زشوكه Heinrich Zschokke (١٧٦٧ - ١٨٤٨)، صديق كلايست وأوجوست فون بلاتن August von Platen، والرومانتيكي مثلها، والتأمل اللاهوتي، مثل اولافيدي والروائي مثله أيضاً. والذي كتب رواية حول حياة البيروي بعنوان Olavides, der neue Belizar (أولافيدس بيلنرار الجديد)، حوالي عام ١٨١٠. وقد كان زشوكه في باريس - مثل جورج فورستر Georg Forster، صديق همبولت- في فترة الثورة وهناك لعله سمع عن أولافيدي أو عرفه شخصياً. وباعتباره مؤلفاً لعدد من القصص التاريخي وقصص العادات التي تحفزها عقيدة الليبرالية واصلاح العادات، يتميز زشوكه بوصفه ممثلاً كافياً لحركة التنوير. وقبل ذلك كان الشاعر الألماني أوجوست هينينجز August Hennings قد تغنى بأولافيدي (كوبنهاجن، ١٧٧٩). وبعدها كتب روائي آخر هو أ. بتسل O. Pezzl شخصية شبيهة بأولافيدي في روايته فاوستين Faustin التي نشرت في زيوريخ عام ١٧٨٣. وقد اجتمع في تلك الأعمال الاهتمام الرومانتيكي بالطريف والإيمان بالأفكار الليبرالية التي كانت تجسدها شخصية أولافيدي المبشر بالأفكار الجديدة مثل: أمريكيين لاتينيين آخرين منهم الفنزويلي فرانثيسكو دي ميراندا Francisco de Miranda

والجزويتى البيروى خوان بابلوفيثكاردواي جوثمان Juan Pablo Vizcardo y Guzmán اللذين كانت لهما صلات بالدوائر العليا للسياسة والثقافة الأوروبيةتين .

ويمكن أن تقدم لنا بعض المؤشرات الأخرى الأشد قرباً حول الدوافع والشؤون الأمريكية اللاتينية في الأدب الأوروبي رؤية جماعية تكشف عن مرحلة الرومانتيكية الوليدة .

ففي انجلترا شارك الشاعر جون كيتس John Keats (١٧٩٥ - ١٨٢١) في المزاج الذي تبناه الرومانتيكيون الأوروبيون ، ويتلخص في أن يستبدل بإلهام العناصر الدنيوية والذابلة للميثولوجيا الاغريقية - اللاتينية (الخاصة بالكلاسيكية الجديدة السابقة) عناصر جديدة تمليها تجربة أمريكا الجديدة . ويمكن تبين ذلك في سوناتا شهيرة نتجت من قراءة تفسير تشابمان Chapman لهوميروس . وفي نصّها تتدفق حماسة القراءات التاريخية ، وملحمة غزو الدارين Darién ، واكتشاف بحر الجنوب وذلك باسم غير صحيح (كورتيس ومكان بالبوا) :

ما أكثر ما ارتحلتُ في عوالم الذهب ،
ورأيت العديد من الدول والممالك الخيرة ؛
طوّفت حول عديد من الجزر الغربية
يحجبها الشعراء وفاءً لأبوللو .
وقد أُخبرت على الدوام أن امتداداً شاسعاً
حكمه هوميروس العميق النظرة ، هو مملكته ؛
لكنني لم استنشق أبداً سكونه النقي
حتى سمعت تشابمان ينطق مدوّياً وجسوراً :
حيثُ شعرت كمن يراقب السموات
حين يسبح كوكب جديد إلى مداه ،
أو كأنني كورنيس القوى حين حدّق بعيني نسر
في المحيط الهادي - وتطلع كل رجاله

إلى بعضهم في حدس وحشي-
صامتاً ، فوق قمة في داريين . . .

هذا التوق الشعري لعالم ناء وغريب يجد موضعه في الأرض الأمريكية ، يمكن
تبينه كذلك في الشعراء التاليين . فكيثس Keats وغيره من الشعراء الرومانتيكيين
البريطانيين أمثال روبرت ساوثي Robert Southey استطاعوا أن يقرأوا نصاً
رسم لأول مرة في ذلك البلد الملامح التاريخية لأمريكا اللاتينية ، وهو تاريخ
أمريكا History of America من تأليف ويليام روبرتسون William
Robertson (١٧٧٠) .

والمعاصر الإنجليزي الآخر ، صمويل تيلور كولريدج Samuel Taylor
Coleridge (١٧٧٢ - ١٨٣٤) ، هو مؤلف موال البحار القديم Teh rime of
the ancieut mariner ، وهو موال استلهمه ايجاء من قراءة رحلة حول العالم A
voyage around the world للإنجليزي شلفوك Shelvocke (١٧٢٦) حول
تخليق طيور البطريق عند الدوران حول رأس هورن . هنا نجد أن العجيب أو
الغامض يجد موضعه أو يستوحى على أنه في هذا الإقليم من العالم . ويبدو ان ما
هو اسطوري ملازم لما هو أمريكي جنوبي .

وعلى مستوى الانتاج المسرحي الأوروبي ، وخصوصاً خلال السنوات الأولى
من القرن التاسع عشر ، يظل الاهتمام بالشؤون الأمريكية اللاتينية قائماً
بالخصائص نفسها تقريباً ، لكن مع إضافة عنصر جديد : هو التمجيد
الرومانتيكي .

بحث أوجوست كوتسبو August Kotzebue - صديق همبولت - في سعيه
وراء الطريف عن بعض الموضوعات البيروية التي طرحها في المسرح المؤلفون
الفرنسيون الكلاسيكيون الجدد . وبذلك الأمور طور عمليين دراميين ظلا دليلاً
على هذا الاهتمام البيروي : هما عذراء الشمس Die Sonnenjungfrau ، أو
كورا (١٧٩١) ، والإسبان في البيرو أو موت رولاس Die Spanier in Perú

١٧٩٦ . وهنا نجد كورا، عذراء وكاهنة الشمس، التي أغواها أحد الغزاة في كوثكو، حتى صارت أمّاً (دون ان تكف عن المشي في دروب الطبيعة والبراءة). واطروحته في «البراءة الطبيعية» تسير يداً بيد مع فكرة روسو عن الهمجي النبيل والطيب ومع نظرية مونتاني وإن يكن من بعيد. ومنذ فترة غزو البيرو ظهر لدى الأوروبيين موضوع عذراوات الشمس، الفتيات المختارات من قبل الانكا، والمكرسات للعقيدة وللأشغال العملية تحت تعليم ديني. ولم يكن الاهتمام بهذه المؤسسة الطريفة، التي تناولها المؤرخون والرحالة خلال ثلاثة قرون، قد خبا بعد عند بدايات القرن التاسع عشر. وفي القطعة الثانية المذكورة اعلاه، يجد كوتسبو مقاومة الهندي في وجه الغازي. وقد عرضت هذه المسرحيات باستمرار في المسارح الأوروبية، ويتأكد استقبالها الحماسي بحقيقة أنها كانت موضوعاً لاقتباسات قام بها مؤلفون ذوو مكانة وقيمة كبيرتين في فرنسا وفي بريطانيا العظمى، من امثال جيرار دي نيرفال (كورا Cora)، وريتشارد برينسلي شريدان Richard Brinsley Sheridan، الذي اعلن انه أخذ حبكة كوتسبو ليستخدمها في تراجيدته بيزارو Pizarro التي ظهرت في لندن عام ١٧٩٩.

(ح) قارة المستقبل :

في عام ١٨٣٧ نشرت (دروس في فلسفة التاريخ) لفريدريخ هيجل -Frid-rich Hegel بعد وفاته (١٧٧٠ - ١٨٣١). وفيها تعتبر أمريكا للمرة الأولى قارة المستقبل ولهذا السبب يستبعلها من تأملاته التفسيرية للتاريخ، لأنه، حسب رأيه، ليس على الفيلسوف أن يتنبأ. أمريكا قارة المستقبل وفيه ستظهر أهميتها وربما لزم أن تنفصل القارة الأمريكية عن عملية التطور العالمية وتجد طريقها ومسارها الخاص. كانت فكرة ندرة الأصالة الأمريكية ما تزال مؤثرة حينئذ. فما حدث حتى تلك اللحظة في أمريكا لم يكن سوى صدى للعالم القديم، وسوى انعكاسٍ لحياة غربية عنها وهيجل - في قلب القرن التاسع عشر- ينقل صدى الأفكار السائدة في المجادلات التي مازالت سارية حول الطبيعة الأمريكية

والإنسان الأمريكي الذي مازال يعد أقل نضجاً وأدنى مرتبة . (٣) .

أما في ذهن جوته عام ١٨٢٧ ، والذي كان يناقش إكرمان Eckermann ، فقد تركت قراءة أعمال هوبل ومقولاته الأمريكية تأثيراً كبيراً واهتم جوته بقناة بنما ، وبدور الشعوب الأمريكية اللاتينية التي بدأت حياة الاستقلال . وفي ذلك الحين بزغت فكرة أو مفهوم الأدب العالمي Weltliteratur أو الثقافة العالمية Weltbildung ، في الوقت نفسه الذي شغلته فيه التحولات الصناعية الضخمة ، وتقدم التكنيك ، وتجاوز الحرفيين بواسطة المكننة ، والهجرة إلى أمريكا . وهو يستخدم كذلك مفاهيم تكميلية أخرى مثل التبادل العالمي Weltverkehr ، أو الدورة العالمية Weltumlauf ويقول : «حانت ساعة الأدب العالمي» (أحاديث مع إكرمان ، في ٣١ يناير ١٨٢٧) . بهذا الشكل يصوغ الحكيم - الشاعر طموحاً جديداً لقرنه : هو التبادل المتكامل للثروات الانسانية والروحية بين كل قطاعات الأرض ، التكامل التاريخي والمادي لكل المجال الأرضي . ويتحدث عن «التقارب العام بين الأمم والعوالم» .

حتى القرن الثامن عشر كانت بؤرة أوروبا تدرك أمريكا فقط كما رآها ووجدتها المكتشفون والغزاة الذين وصلوا إليها في القرن السادس عشر . كانت أمريكا بالنسبة للفهم «الغربي» تشكل حاضراً لكنه دون ماضٍ من الحضارة والثقافة . كانت واقعاً بكرةً وكان الأوروبي لا يزال مرتبكاً إزاءه ، وبدأ على أساسه يتخيله قبلياً a priori بقدر كبير من التوهم (الفانتازيا) وبيعض التحامل . فلم يسبق وصول الأوروبي سوى البدائي ولم تكن هناك سوى حكاية الإنسان وهو في الحالة الوحشية . واستمرت هذه الحال طوال ثلاثة قرون .

ويأتي رد الفعل العلمي والوضعي في القرن التاسع عشر ، المستعد للاستنباط والتحليل المنهجي . والاسهام العظيم لذلك القرن وللقرن الحالي هو اكتشاف

(3) Cf. Antonello Gerbi: Viejas polémicas sobre el nuevo mundo,

Lima, Banco de Credito del Perú, 1946.

واقع ثقافي أمريكي سابق على وصول الأوروبيين والثقافات الأزتيكية، والمايا، والإنكا، وغيرها من الكيانات الثقافية - أي كل العوالم السابقة على كولومبس - أخذت تنفتح أمام المعرفة المنهجية بمنظور لم يكن متوقعاً، وبطابع فريد من الأصالة والاستقلال. ما يسبق كولومبس يبدأ في اكتساب فعالية بالنسبة للعلم الأوروبي ويدخل كعنصر جوهري من أجل تحديد أفضل لمعيار ما يتضمنه ويعنيه «العنصر الأمريكي اللاتيني».

إذن ، فالصورة الواقعية والأصيلة، الجغرافية والتاريخية حقاً للعنصر الأمريكي اللاتيني، لم تنشأ إلا في القرن التاسع عشر.

يقول إدموندو أوجورمان Edmundo O'Gorman (٤):

«في هذه الفترة - القرن التاسع عشر - ومع هيجل، يتغير الوضع جذرياً وسنرى كيف تختفي أمريكا لتكتشف من جديد وتدخل من جديد في الثقافة؛ لكن ليس داخل العالم الطبيعي، بل داخل عالم الحقائق الإنسانية، أو بالأحرى التاريخ».

من ناحية أخرى، شكل تحرر البلدان الأمريكية اللاتينية، عند بدايات القرن التاسع عشر، واحداً من أكثر الأحداث حسماً في التاريخ الحديث.

وفي إبيجرام عن الولايات المتحدة كان جوته قد قال:

أمريكا إنك محظوظة أكثر من قارتنا العجوز، فلا تملكين قلاعاً من الاطلال، ولا البازلت. روحك لا ترهقك، لكي تحمي، بذكريات بلا جدوى ولا بنزاعات بلا معنى. استمتعي بالحاضر هائلة! وحين ينظم أبناؤك الشعر، فليجنبهم الحظ السعيد حكايات الفرسان، واللصوص، والأشباح...

والإشارة إلى الحاضر في مقطع جوته هذا، وهو المتفائل أكثر من أي شخص بالنسبة لأمريكا حتى تلك اللحظة، سيجد تأكيداً بعد قليل عند هيجل. فعند

(4) Cf. Edmundo O'Gorman, Fundamentos de la lima de América, México Imprenta Univevsitaria 1942, p. XV.

بدايات القرن التاسع عشر كان الماضي قد بدأ يثقل بشكل مفرط روح الأوروبيين الأخيار. ووجد عندئذ مثال مشرق للحياة وللعالم، ويجب توجيه الفكر لتنوير الحاضر إن لم يكن المستقبل.

ولذا كان مؤكداً أنه، منذ عام ١٨٢٥، كانت لدى هيجل بدوره فكرة واضحة عن الفرق الكبير القائم بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية، فلا بد من أن نأخذ في الاعتبار أنه كانت لاتزال تثقل روحه قراءات رحالة القرن الثامن عشر، الذين فهموا الإنسان الأمريكي باعتباره ضعيفاً وغير ناضج، وأدنى في القوة والقدرات من الأوروبي. يقول هيجل إن الأمريكيين «يعيشون كالأطفال» والروح غائبة عنهم.

ورغم كل شيء، ففي خلال العقد الثاني من القرن التاسع عشر اكتسب مفهوم أمريكا وما هو «أمريكي» في مفاهيم جوته وهيجل بعداً جديداً على أسس أشد رسوخاً و يقيناً. وقد تقدم الثاني في مفهومه بأن أمريكا هي «بلد المستقبل».

(د) بحثاً عن مشاعر ومغامرات

نتيجة للدافع الرومانتيكي ظهر طراز جديد من الرحالة الباحثين عن آفاق جديدة، وعن مشاعر ومغامرات. وكان كثير منهم رحالة محترفين، فمارسوا نوعاً أدبياً جديداً ذا رواج كبير: هو أدب الرحلات. وهؤلاء الرحالة الجدد يتغلغلون «في قلب الأرض»، دون الاقتصار على الجولات الساحلية أو السطحية. وتحمل كتبهم عناوين جولات، أو تذكارات، أو ذكريات. ويستجيب لدافع المعرفة الواقعية لبلدان العالم الجديد هذه رحالون شهيرون من أمثال دوريني Dórbihny، وكاستلنو Castelnau وكارلوس فينر Carlos Wiener، وتشودي Tachudi، وسفيكس ومارتنز Sphinx y Martins، وميدندورف Middendorf، وداروين Darwin وسبروس Spruce. وقد ساهموا في إزالة الأساطير، والأسرار، والتخيلات.

وفي مجال البحث الجغرافي يجدر بالذكر أن نقول إن البير كليمنتس ماركهام

Clements Markham قد أسس عام ١٨٤٦ جمعية هاكلويت Hakluyt Society، وأنه قبل ذلك بقليل، عام ١٨٣٠، كانت قد تأسست الجمعية الجغرافية الملكية Royal Geographical Society التي ارتحل تحت رعايتها مستكشفون من أمثال ش. داروين وفيتزروي Fitzroy، وتشاندلس Chandless مستكشف الأمازون الأعلى، وماندسلاي Mandslay مستكشف جبال الانديز، وباتاجونيا، وجواتيمالا، وتوماس أ. جويس Thomas A. Joyce مستكشف المكسيك وأمريكا الوسطى، وجيمس برايس James Bryce مستكشف غيرها من الأرجاء الأمريكية، ور. كونينجهام جراهام R. Cunningham Graham وو. هنري هدسون Henry Hudson مستكشف الأرجنتين.

وقد شكل هذا الشلال من العلم الوضعي على الفور مادة استفاد منها نوع معين من التخيلات ذات النزعة العلمية اعتاد كتابتها ذوو جذور شعبية عميقة مثل الفرنسي جول فيرن Verne. لذا يبدو لنا أن من المفيد ان نستعرض المصادر البيلوجرافية التي استخدمها فيرن في ابداعاته التي تجري في أماكن مختلفة من الكرة الأرضية لم يزرها هو، لكنه رغم ذلك، كان عليه أن يعرفها فقط بصورة غير مباشرة، وذهنية من خلال حكايات معينة لرحالة حقيقيين كانت لهم خبرة معاشة وافية بتلك الأقاليم. ويمكن أن نبدأ المهمة بأمريكا التي التقت حولها أكثر جوانب قلق فيرن حيوية طوال إنتاجه وطوال حياته. ويكفي أن نعدد تلك الأعمال حتى نتبه لهذا: الأورينوكو الرائع أو منابع الأورينوكو عام ١٨٩٨، وتقوم على أساس قراءة الحكاية الشهيرة للأب جوميا Gumilla، والأورينوكو الشهير التي تقدم المناظر والواقع الاجتماعي الجغرافي لفنزويلا، وفنار نهاية العالم التي تتطور في الأرجاء الباردة للارجنتين من تييرادل فويجو (أرض اللهب)، وفي أنباء الكابتن جرائت يتضمن جزء كبير من الحدث بلاد تشيلي وسهول البامبا الأرجنتينية. ومن دراما في المكسيك نستشف انطباعاً عن بلد الازتيك في قلب القرن التاسع عشر. وفيما يتصل بالبيرو، هناك عملاق لفيرن يحاول فيها إعادة بناء مناظر

وسوسولوجيا القرن التاسع عشر، هما مارتين باث Martin Paz (١٨٥٢) حيث تظهر ليما وأسطورتها كمدينة مثيرة للمشاعر، والطوف (١٨٩٠) التي تتلخص فيها على قدم المساواة، دوافع خاصة وتجارب لآخرين في إقليم الأمازون، الذي يضم البيرو كما يضم البرازيل.

ومع مارتين باث ودراما في المكسيك يبدأ، عام ١٨٥٢، العمل الروائي لفيرن، دون المنزل التي اكسبته إياها فيما بعد حكاياته الخيالية عن الكواكب. وبالنسبة للرواية الأولى (مارتين باث) تبين أوجه عدم الدقة عن الطوبوغرافية والجغرافية، وعن المناخ والتاريخ، والسيكولوجيا، والعادات الإجتماعية، انه كان يملك في هذه الحالة معلومات غير كافية من مصدر بصري تماماً، هو بالأحرى لوحات الأكوارييل عن العادات التي رسمها إجناتيو ميرينو Ignacio Merino، وهو رسام بيروي، ونشرت في متحف العائلات Musée des familles، في ذلك العام نفسه (يوليو - أغسطس، ١٨٥٢). لكن لا يجب إغفال أن فيرن قد عرف حكاية لمحة جدا حول أمريكا اللاتينية كتبها ماكس راديجيه Max Radiguet، هي ذكريات من أمريكا الإسبانية (باريس، ١٨٥٦) Souve-nirs de l'Amérique Espagnole، نشرت قبل ذلك بقليل في حلقات منفصلة في مجلة العالمين La Reuve de Deux Mondes، وفي إحدى مجلات عقد الأربعينات الأخرى.

أما في الطوف (١٨٩٠) فتبدو المعلومات أكثر وفرة وثراء. ويمكن أن تكون معطياتها مستمدة من أعمال حديثة لرحالة فرنسيين مثل الكونت فرنسيس دي كاستلنو Francis de Castelnau (١٨١٢ - ١٨٨٠) الذي وضع وصفاً تفصيلياً لمسار الأمازون، وربما استفاد منه فيرن في رسم جو موضوع الرواية. إن كاستلنو، رجل العلم والتقديرات الدقيقة الذي جاب قلب القارة الأمريكية الجنوبية من المحيط الهادي حتى الأطلنطي، قد خلف عملاً علمياً في جحيم مثير للدهشة (٥).

(5) F. Castelnau, Expédition dans les parties centrales de l'Amérique du Sud, 1843 - 1847, 15 vols Paris P. Bertrand, 1850 - 1859.

الوصف المباشر الآخر الذي يبدو أن فيرن قد استخدمه هو عمل بول ماركوي Paul Marcoy المكتوب حوالي عام ١٨٤٦ ، وكان ماركوي ضمن بعثة كاستلنو في البداية ، إلا أنه سرعان ما انفصل عنها ليقوم بمساره المختلف في إقليم الغابات الأمازونية نفسه . وحكاية ماركوي ، رحلة عبر أمريكا الجنوبية - Voyage á travers l'Amenque du Sud (باريس ، ١٨٦٩) ، شديدة الخيال والرومانسية ، وكانت أحيانا تضحى بالدقة من أجل شطحات التخيل (لفانتازيا) .

وخلال القرن التاسع عشر بدأ يحدث توسيع لـ «صورة» أمريكا صوب مجالات أخرى ، بينها أمريكا الشمالية ذاتها ، المتميزة بصورة قاطعة عن أمريكا الجنوبية . وبدأ «العنصر الأمريكي اللاتيني» يصبح سارياً في قطاع متميز بدرجة كبيرة من الأدب الأمريكي الشمالي . فمبدعو الشمال يتطلبون منطقة توسع - في الموضوعات على الأقل - ويجدونها في السير نحو الجنوب ، نحو المكسيك ، وأمريكا الوسطى ، وبعض أجواء أمريكا الجنوبية ، وكذلك بحر الجنوب . هنالك يبدأ إبداع هرمان ميلفيل (١٨١٩ - ١٨٩١) الذي يجد شخصيات موحية وحية بين أناس الجنوب وأجواء ذات مضمون رائع فيما بين خوان فرناندث وجزر الجالاباجو ، وفي شواطئ تشيلي ، والبيرو ، واكوادور .

إن رواية المغامرات والرحلات تتوافق مع فترة بداية اهتمام الإنسان بالاقاليم النائية أو المجهولة . هذا الاهتمام الذي يمكن تبيينه منذ فترة التنوير والذي يترافق مع الاهتمام الرومانتيكي بالنائي في المكان والضائع في عمق الزمان . ويجزو الألماني تشارلز سيلزفيلد Charles Sealsfield (وهو الاسم المستعار لكارل بوستل Karl Postl ، ١٧٩٠ - ١٨٤٦) حذو الأمريكي الشمالي فينيمور كوبر Fenimore Cooper (١٧٨٩ - ١٨٥١) ويواصل الخط الذي بدأه هذا الأخير في «حكايات الجوارب الجلدية leatherstockings tales» . ويقف الموقف المماثل ألماني آخر ، هو فريدريش جرشتاينر Friedrich Gerstaecker (١٧٩٨ - ١٨٧٠) ، الذي أقام أولاً في إقليم الغرب الأوسط الأمريكي الشمالي (أركنساس) ، وراح يحبب أمريكا اللاتينية في مناسبات مختلفة ويكتب كتب

رحلات ومغامرات متتبعاً تأثير هرمان ميلفيل ، ويترجم روايته أومو Omoo ، إلى الألمانية . كذلك يكتب جرشتاينكر روايات واقعية عن الحياة المعاصرة لبلدان أمريكا اللاتينية الجديدة : تشيلي ، والبيرو ، واكوادور ، وفنزويلا .

لكن أبرع ممثل لهذا الاتجاه كان ملاح بحار الجنوب الشهير الغامض ، هرمان ميلفيل ، الذي كان قد أنجز قبل أن يستقر على التجربة الأدبية عدة جولات في المحيط - في تاهيتي ، وجزر الماركيز ، وهاواي - وجاب شواطئ تشيلي ، والبيرو ، واكوادور . وقد راكم ميلفيل تجارب عاشها في ليما ، وكاياو ، وبايتا ، وجزر الجالاباجو في كتبه ، موبى ديك ، Moby - Dick ، وأومو Omoo وفي عديد من الحكايات القصيرة في كتاب بعنوان المبتهجات .

وبعد هرمان ميلفيل ورواياته عن بحار الجنوب وعن سواحل وجزر أمريكا الجنوبية ، يبدو أن قصاصين أمريكيين شماليين آخرين ظلوا حتى هيمنجواي ووايلدر يتدعم لديهم قرار صنع أجواء أعمالهم في إطار المشهد الأمريكي اللاتيني . كان لدى مارك توين Mark Twain ، بلا شك ، شغف بمعرفة أمريكا اللاتينية وإلى هذا السبب ، كما أقر النقد المعاصر ، يرجع تحديد مهنته الأدبية حين فشلت هذه المحاولة . فعند استحالة الرحيل نحو الأمازون - كما كانت محاولته بعد قراءته للرحالين لويس هيرندون Lewis Herndon ولاردنر جيبيون Lardner Gibbon الملازمين في البحرية الأمريكية الشمالية اللذين عبرا أمريكا الجنوبية من الغرب إلى الشرق وأبحرا على التوالي في نهري الأمازون وماديرا - أطلق العنان لخياله واتخذ ملاذه في الفانتازيا والدعابة في رواياته الأولى التي تجري أحداثها في المسيسيبي . لكن ثمة حالة استثنائية أخرى في بدايات القرن العشرين . هي الفن القصصي الفكاهي أيضاً والعبقري لقصاص أصبح مشهوراً ، واختفى في قمة نضجة عام ١٩١٠ ، هو ويليام سيدني بوتر William Sidney Porter ، الذي كان يُوقع بالاسم المستعار أو . هنري O. Henry (١٨٦٢ - ١٩١٠) ، والذي يعترف به باعتباره أعلى قمة في تطور القصة الحديثة في الولايات المتحدة .

هاجر أو . هنري وصديقه الصحفي آل جينينجز Al Jennings إلى أمريكا

الوسطى . وقام الأخير، آل جينينجز، بالدورة كاملة حتى بوينوس آيرس . وعبر سهول البامبا الأرجنتينية على الأقدام ، وتوقف وقتاً قصيراً في تشيلي . «لم تكن البيرو جذابة» ، هكذا يقول في الكتاب الذي يضم تلك المغامرات . وربما وطىء سواحل الاكوادور أو كولومبيا أو فنزويلا . فالكتاب لا يذكر ذلك . لكنه تمهل طويلاً في هندوراس وفي المكسيك حيث استقر آل جينينجز وقدّر له أن يمر بأعظم تجارب حياته : وهي التعرف على أو . هنري ، ذلك الرجل ذي الموهبة الأدبية الفذة الذي سيرشد خطواته المقبلة . لهذا ، كان على آل جينينجز أن يعنون كتابه الغريب والمتوقد من الذكريات الروائية والمغامرات على النحو التالي : عبر الظلمات مع أو . هنري (لندن ، ١٩٢٣) . ويخرج آل جينينجز وأو . هنري في بوهيميتها وروحهما المرحية منطلقين من هندوراس ويزوران المكسيك .

هكذا يمكن تأكيد أن أو . هنري قد ارتحل عبر أمريكا الجنوبية في شخص جينينجز . وهذا الأخير يمثل شخصية هامة لأو . هنري في كتابه عن هندوراس بعنوان كرنب وملك Cabbages and Kings والمنشور عام ١٩٠٤ . لكن الجزء الأكبر من أقاصيصه هو نتاج لانطباعاته المعاشة خلال عدة شهور من الرحلات من هندوراس والسلفادور وحتى غيرهما من أماكن تلك المنطقة . ويضم هذا الكتاب أقاصيص مستقلة فيما يبدو ، لكن تربط بينها بقوة الشخصيات نفسها والجو ذاته . وقد تركت إقامته في هذه الأرجاء من أمريكا الوسطى أثراً بارزاً في كل أعماله . أما تجربته في تكساس فقد أعدته لأن يلتقط بحدة ودعابة أسلوب الحياة ، والجو ، والمناظر في المنطقة الاستوائية ويحجم المؤلف بعض الشيء عن استخدام الأسماء الخاصة بالبلدان والأقاليم ، لكن ليس من الصعب التعرف في أنشوريا على هندوراس وفي كوراليو على بويرتوتروخيو ، وأن ندرك أن شخصية الرئيس ميرافلوريس ليست من نتاج الخيال (وهذا العمل هو سلف رواية السيد الرئيس El Senor Presidente لميجيل أنخل استورياس) مثلها مثل الشخصيات الشريرة الأخرى التي تدير التغلغل الامبريالي للتجار السكسون أو تلك التي تحيك مؤامرات السياسيين المحترفين الكريول الذين تعرف عليهم في رحلاته

المستمرة في سفن الفاكهة .

لكننا نجد أيضاً إبرازاً للعنصر الأمريكي اللاتيني الكامن والسائد في قصتين عن ساحل المحيط الهادي تدوران في اجواء تقليدية في الاكوادور، وكولومبيا، والبيرو، وبالدرجة الأولى في القصة التي تجري أحداثها في أجواء فنزويلا : وهي «مسألة ارتفاع وضع A matter of mean elevatton» هنا لا يحجم المؤلف عن الإشارة إلى الأماكن والشخصيات الحقيقية : لا جواهيرا، وماكوتو، والرئيس جوثمان بلانكو، بصرف النظر عن المناطق الأخرى لفنزويلا . والمشهد الافتتاحي والختامي هو ماكوتو، المصيف الذي يأتي إليه ناس منطقة لاجواهيرا، وكاراكاس، وبالنشا، خصوصاً خلال أشهر الصيف . «هنالك كان ثمة حمامات، وأعياد ومصارعات ثيران وفضائح» .

والمؤلف أو. هنري ، على طريقة جماعة ألف وتسعمائة يحفز الولع بأن يظهر تأثير الوسط المحيط على الروح، وتأثير المناخ على الشخصية ، يستحق التساؤل هو السبب في بحثه عن الإطار الهسبانو- أمريكي والانديزي كنواة لقصته . ولعل السبب هو رغبته في إرضاء ذوق القراء بمناظر طريفة أو ربما كان ثمة سبب أكثر عمقاً . فقد أثرت على أو. هنري تعاليم الجغرافيين والرحالة حول القوة الأرضية لجبال الانديز، والتي تكشف في النصوص الجديدة للجغرافيا العلمية التي كان ضليعاً فيها، ويمكن أن نتبين ذلك من خلال تسمياته التعليمية لمختلف المناطق المناخية في فنزويلا والتي تضمها قصته . لم يكن هدفه هو بلوغ الباطن الحميم، للمشهد الأمريكي الجنوبي، وقد توقف عند نزعة زاهية الألوان استخدمها بطريقة صائبة . والشئ الفريد هو إحساسه بجاذبية أمريكا الهسبانية قبل أن يفكر غيره في الجوار الحسن بوقت طويل . وفي مختلف الجوانب التي تبين فيها هذا التطلع، نجد الجو الأمريكي الجنوبي جواً أدبياً، بينما نجد جو أمريكا الوسطى والجو الحدودي معاشين وأصيلين . لكن التطلع إلى الأجواء وإلى الإنسان الأمريكي اللاتيني يجبر الحافظ على كسر انغلاق النزعة المحلية السائدة في الأدب الأمريكية الشمالية وتحطيم تصلبها .

٤ - التكامل العالمي . (أ) التحويل الشعري لأمريكا .

ربما لم يكن من قبيل الصدفة ولا الأمر العارض أن يختار ثورنتون وايلدر Thornton Wilder بلاد البيرو وبعض البيرويين ، كمشهد وشخصيات لأشهر رواياته جسر سان لويس ربي .L. Rey (١٩٢٧) . فرجما اكتشف حدسه الابداعي النادر أنه في هذه الأرض الجنوبية ذات التناقضات العميقة ، إذا لم يكن ثمة جسر لسان لويس ربي يُسهّل العبور الصعب في الطريق بين ليما وكوثكو ، فإن هناك جسراً روحياً يوحد بين الأسطورة والتاريخ ، بين الواقعي والتخيلي الفانتازي ، بين الكوميديا اليومية والدراما اليومية ، بين اليقين والشك ، بين ألم نزاعاتنا الكبرى والابتسامة الأريحية الودود .

لقد دار نقاش وجدل كثير حول القيمة الجمالية أو التاريخية للعمل الذي تتطور حبكة في البيرو في القرن الثامن عشر ، وفي ليما على وجه الخصوص . وفي كل فصل تظهر الملامح المدهشة لـ «كاميلا بيرتيشولا Camila Perrichola» ، وهي ليست سوى تجسيد للدعامة الكوميديّة للقرن التاسع عشر ، التي كرّسها بروسبير ميلريميه في عربة القربان المقدس Le Carrosse du Saint - Sacrement عام ١٨٢٩ ، وهو العمل المستلهم من المعلومات حول أسطورة بيرتيشولا المستقاة من الرحالة المشهورين مثل الاسكتلندي بازيل هول Basil Hall ، والبريطاني ويليام ستيفنسون William R. Stevenson ، والفرنسي جابرييل لافوند دي لورسي Gabriel Lafond de Lurcy ، الذين زاروا البيرو خلال فترة الاستقلال .

عند وايلدر كانت البيرو ، وليما ، وقرنهما الثامن عشر ، وشخصياتها وأركانها خيالية تماماً ، لكنها من خلق فنان حقيقي . وبعدها بسنوات زار وايلدر البيرو ليتعرف على الجو وعلى الأماكن التي تخيلها مسبقاً ، وجرب لذة مقارنة ما هو حدسي مع ما هو واقعي ، وما هو مفترض مع ما هو مؤكد ، ليصل إلى نتائج ذات دعابة صحيّة لدى التحقق من جوانب التوفيق ، والخداع ، وعدم التطابق ذات

المذاق المدهش لخياله هو. إن جسر سان لويس ربي تنطلق من تبجيل وتقدير صائين لماضيها. وثورنتون وايلدر بعيد أشد البعد عن أولئك الكتاب الذين تناولوا الموضوعات الأمريكية اللاتينية بقليل من النزاهة، وخطوا من قدر واقعنا أوجالنا، ليقدموا تفسيرات غير متناسبة أو مشوهة. وعند زيارته للبلد لم ينهج النهج السيء لأولئك الكتاب الذين ينافسون السياح المتعجلين. وكان هدفه الفني، فيما عدا ذلك، مدعوماً باستقصاء جاد في الوثائق العتيقة، كما أوضح وايلدر نفسه، من أجل إعادة خلق العديد من المشاهد، ووجد خياله متكاً قوياً في الرسوم التخطيطية المدهشة للأركان والأنماط الشعبية البيروية التي رسمها رسام ليما: بانشوفيررو Pancho Fierro.

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، بدأ الكتاب الفرنسيون في الدرجة الأولى، وربما كل الكتاب الأوروبيين، يستخدمون تسميات جديدة للأشياء غير السكسونية في أمريكا: «الدول اللاتينية لأمريكا *états latins de l'Amérique*»، «والشعوب الأمريكية - اللاتينية *Peuples latins - américains*»، و«ديمقراطيات أمريكا اللاتينية *democrates latines de l'Amérique*».

وفي عام ١٩٠٢ تحدث بومبيو جينر Pompeyo Gener، وهو كاتب قطلاني ذائع الصيت في أوروبا، تحدث، حسب الموضة الفرنسية، عن «الأمريكيات اللاتينيات *Las Américas latinas*». وحلت هذه التعبيرات محل تعبيرات «*Amérique méridionale*»، و«*Amérique septentrionale*»، و«*Amérique su sud*»، و«*Amérique australe*»، إلخ. التي ظلت تستخدم لعدة قرون. وتعبّر هذه الأسماء عن الوعي الذي بدا أنه أصبح موجوداً بصدد مادة أو محتوى «ما هو أمريكي - لاتيني»، واعني المحتوى الأكثر تجديداً أو دقة فيما فيه من إنساني، واجتماعي، أو اقتصادي وليس فيما يعني من معنى جغرافي فقط.

إن العنصر الأمريكي اللاتيني يظهر بشكل أكثر وضوحاً وأقل خفاءً عند كتاب

أوروبيين مشهورين . وتحمل حالتا جوزيف كونراد Joseph Conrad وجون مانسفيلد John Mansefield دلالة ملحوظة .

فجوزيف كونراد (١٨٥٧ - ١٩٢٤) ، المواطن البولندي الذي اكتسب الجنسية الانجليزية ، قد أنتج سلسلة من الروايات المدهشة المستلهمة من تجربته البحرية في كل بحار العالم . ومن بينها رواية نوسترومو Nostromo (١٩٠٤) ، وهي حكاية أمريكية جنوبية ذات طاقة شعرية ضخمة ، وربما تحمل تأثيرات من كولريديج وميلفيل ، في باطنها الرمزي والاسطوري .

وفي الوقت نفسه ، عند بداية القرن العشرين ، التقط الشاعر الانجليزي جون مانسفيلد (١٨٧٨ - ١٩٥٨) عناصر أسطورية أمريكية لاتينية من مصادر متنوعة في قصيدته مياه اسبانية Spanish waters ، التي تشير إلى قصة بحارة في بحر الكاريبي .

أما قصاصو الحركة التعبيرية الألمانية فقد احتاجوا إلى مشاهد ضخمة لحكاياتهم المليئة برسالة السمو والعذاب . وهكذا بحثوا عن «التباعد» الزماني والمكاني لحكاياتهم . وبالنسبة لألفريد دوبلن Alfred Doblin (١٨٧٨ - ١٩٥٧) ، فقد وجد مجالاً صالحاً ، من البداية ، في الجو الصيني ، أو المنغولي ، الموجود في روايته قفزات وانج - لون الثلاث Die drei Sprunge des Wanng - lun (١٩١٥) ، وفيها استطاع طرح انشغاله المعذب كأوروبي حديث - وفيها بعد كتب بعض الروايات في جو الغابة والأنهار الأمريكية الجنوبية . وعناوينها البلد الذي ليس فيه موت Das Land ohne Tod (١٩٣٧) ، و النمر الأزرق Der blaue Tiger التي تتطور حبكةها في فترة الغزو الإسباني ، وتقع في الأدغال الأمازونية وسهول كولومبيا ، والبرازيل ، والباراجواي .

ورغم أن دوبلن لم يسافر أبداً لا إلى الصين ولا إلى أمريكا الجنوبية ، ورغم أن رواياته التي تجري في هذه المشاهد تم تخيلها وكتابتها قبل أن يقوم برحلته اليتيمة خارج أوروبا ، إلى نيويورك وكاليفورنيا ، حيث استقر من عام ١٩٤٠ إلى عام

١٩٤٥ ، فإن جو غابة البوتومايو Putumayo التي تجري فيها أحداث الفصول الأولى من البلد الذي ليس فيه موت موفق بشكل ممتاز. فالعظمة القديمة لهنود الانكا، وغزو البيرو، وجرانادا الجديدة، من قبل خيمينث دي كيسادا Jiménez de Quesada، ومواعظ وتعنيفات الأب لاس كاساس، واكتشاف نهر الأمازون، وبعثات غزو البرتغاليين في البرازيل، وتجارب الألمانين (فيديرمان Federmann وألفينجر Alfinger) في فنزويلا، كلها تمتزج في كل ملحمة. وهذه اللوحة الروائية المركبة هي نتيجة القراءات المتصلة التي قام بها دوبلن في المكتبة القومية في باريس فيما بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٧، بسبب هروبه من ألمانيا النازية. وقد حملت ثلاثية الروايات الأمريكية الجنوبية التي كتبها دوبلن في الطبعة الأولى عنوان البلد الذي ليس فيه موت. وعُدل العنوان في الطبعات التالية فاختار عنوان الأمازون، الذي يناسب أكثر من غيره رؤيته الأسطورية المتكاملة للقارة. وتتميز هذه الثلاثية الروائية بطابع مجاز تاريخي - فلسفي، وليس بطابع رواية تاريخية أو واقعية. وليس من المناسب أن نطالبها بالأمانة التاريخية وبالدقة الجغرافية. ويتضمن الجزء الأول رؤية للطبيعة الأمريكية الجنوبية كما يتصورها المبدع الذي استقى معلوماته عنها من الكتب ومن الخرائط. إنه صورة شعرية، ذات مدى ملحمة عظيم، للغابة العذراء التي تعج بالنباتات الفائقة، وبالحيوانات الغريبة، وبالبشر البدائيين الأنقياء، الذين لم يتلوثوا، والذين أدرك وجودهم خلال قراءاته لمؤلفي التنوير، دون إغفال كانديد لفولتير، ولا رحلات هبولت أو لاكوندامين. وفي داخل هذا الإطار، يطرح تشكيمياً بعض الأفكار عن مشكلات أوروبا، كان قد طرحها في مقالات كتبها خلال أعوام سابقة. لم تكن تهمه في الحقيقة الصورة الواقعية للقارة، بل كانت تهمه، بالمقابل، فرصة طرح بعض الأفكار حول المشكلات الروحية الكبرى للغرب، وتطويرها.

يلتقط الروائي الأسطورة الهندية (التي نقلها زعيم اقطاعي قادم من البيرو) عن وجود بلد فردوسي لا موت فيه، يقع في اتجاه الشمس الغاربة، وفيه أيضاً تنبت شجرة الحياة التي تغذي كل شيء، حيث لا يعمل أحد ولا يموت أحد، وحيث

الشركلة مستبعد. لكن هناك أيضا أسطورة أخرى يجدها دوبلن في نهر البارانا Parana: هي أسطورة النمر الأزرق الذي سيأتي ليدمر كل ما صنعه الإنسان على الأرض، وليسوى بالأرض كل ما أقامه ذلك الإنسان بجهد جهيد. بهاتين الصورتين لاسطورة الأمل (الرمز: أمريكا) ولأسطورة الدينونة (الرمز: أوروبا) اللتين يلهمه إياهما العالم الأمريكي الجنوبي، يحاول دوبلن الإجابة على الأسئلة الكبرى أو المشاكل الكبرى للثقافة الغربية.

كتب دوبلن هذا العمل فيما بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٧، وهولايزال تحت تأثير الدافع المدمر الذي كانت تعنيه الحرب العالمية الأولى، وحين كان يدرك أكثر فأكثر ملامح شبح اندلاع جديد ثانٍ للحرب. وكان العالم الأمريكي الجنوبي هو الإطار المختار لتحديد أمل دفين لأوروبي معذب. كانت أمريكا هي ملاذ الحاضر وأمل المستقبل، مثلما كانت قبلها بقرن بالنسبة لمواطنيه هيجل وجوته.

وقد استجاب مؤلفون ألمان آخرون من الفترة نفسها بشكل مماثل لدوبلن. فجرهارت هاوبتمان Gerhart Hauptmann في دراما الأرض المقدسة البيضاء Der weisse Heiland (١٩٢٠) يشجب - بوسائل أدبية جديدة - عنف الفيالق الإسبانية في غزو المكسيك، تلك الفيالق التي دمرت إمبراطورية مزدهرة. أما ادوارد شتوكن Eduard Stucken، وهو تعبيرى مدقق، فيكتب حول الموضوع نفسه روايته الالهة البيضاء Die weissen Gotter (١٩١٨). وينشر أرنولد هولريجىل Arnold Holriegel عام ١٩٢٩ رواية حول بعثة أوريبانا إلى الأمازون، بعنوان سفينة الغابة، كتاب عن تيار الأمازون - Das Urwald-schiff, ein Buch von Amazonerstrom. إن الطبيعة، والتاريخ، والأساطير الأمريكية اللاتينية تقدم المشاهد البعيدة التي يمكن أن تصاغ عليها، دون قيود زمانية أو مكانية، إشكالية الإنسان الأوروبي المعاصر، الذي يعذبه الواقع الإنساني والذي مازال يتوق إلى أن يتمكن من تجسيد أمل للإنسانية.

لكن لا تطرح، هذه المرة، الصور الواقعية بل التحويلات الشعرية. وربما كان باستطاعتنا تسمية هذا النوع من الأدب الذي يشير إلى أمريكا باسم اليوتوبيا

الجديدة، أي النسخة الشعرية والمتجاوزة للواقع لقارتنا.

وبالنسبة للفرنسي فاليري لاربود Valery Larbaud لا تشكل أمريكا الجنوبية موضوعاً قصصياً. إنها بالكاد وهم شعري، مفهوم غنائي تغذية تفسيرات أدبية لمؤلفين آخرين ومعلومات أصدقاء مفضلين.

كذلك لم يتحرر من هذا الطابع الأمريكي اللاتيني البيتيكس Beatniks السوراليون مثل جاك كيرواك Jack Kerouac أو ألين جينزبرج Allen Ginsberg. فقصائدهما - قصائد مكسيكوسيني بلوز Nexico City blues. للأول، وقصائد أخرى متفرقة للثاني - تجدد في هذه الأنحاء أرضاً مناسبة للهروب تناسب بشكل أفضل الآلية التعبيرية.

أما أندريه موروا André Maurois في ورود سبتمبر (١٩٥٠) فقد وجد في الجو الأمريكي اللاتيني - جوليا الربيعية ذات الأحلام الموحية - الإطار المناسب لرواية عن إلهاماته الخريفية.

والعنصر الأمريكي اللاتيني مغروس في شخصية بيروية ذات دلالة نابضة في صفحات الدفتر الأسود للروائي الانجليزي لورنس دوريل Lawrence Durrell. إن لوبو Lobo، المسوس دوما بشبقية متوهجة، «بإيقاعه البيروي الثقيل»، وذكرياته الحية دائماً عن «ليما الرمادية»، والذي يرقص عارياً «رقصة الانكا»، هو رمز قوي حيوية معينة بالغة الطرافة في العالم القديم يبرزها الروائي في إطار تكتيكة في إقامة المفارقات.

وقد وجد بعض المؤلفين المسرحيين الأوروبيين - مثل الفرنسي بول كلوديل Paul Claudel في كريستوفر كولومبس وفي الحذاء الحريري Le Soulier de Satin (باريس، ١٩٣٠)، والانجليزي بيتر شافر Peter Shaffer في الصيد الملكي للشمس The royal hunt of the Sun (لندن، ١٩٦٧)، أو الروائي الألماني ياكوب فاسرمان Jacob Wassermann في ذهب كاشامالكا Das Gold von Caxamalca (ليبزيغ، ١٩٢٨) وفي سيرته الروائية لكولومبس -

وجدوا في الموضوعات الأميركية اللاتينية متكاً لمناقشة المشكلات الكبرى للوجود ولمصير الإنسان، وهو الموقف الذي طرحته قصص مؤلف مسرحي ألماني آخر قبلها بمئة وخمسين عاماً: هو هاينريش فون كلايست Heinrich von Kleist.

ونفس التيار العالمي نفسه - باستبعاد ما هو زاهي الألوان أو ما هو طريف وهما الأمران الشائعان في عصور أخرى - يسود في روايات القصاصين البريطانيين المعاصرين العظام أمثال ديفيد هـ. لورنس David H. Lawrence (الأفعى المجنحة The Plumedserpent، رمز المكسيكيين القدماء، ١٩٢٦، وأصبح في المكسيك Mornings in Mexico، ١٩٢٧)، وألدوس هكسلي Aldous Huxley (فيما وراء خليج المكسيك Beyond the Mexique Bay، ١٩٣٤). وكل هذا الإنتاج يبدو أنه يستجيب إلى الدافع نفسه أي إلى «إضافة الأوكسجين» إلى الثقافة الأوروبية من خلال الهرب إلى بقية العالم وخصوصاً إلى العالم الأمريكي. لم يعد الأمر تشوقاً رومانتيكياً بل بحثاً عن ملاذ آمن ونفوراً من أوروبا الفائقة التحضر.

(ب) أكثر من مجرد أمل.

هذا الموقف الداخلي للأوروبي يتفاعل مع الفعل الخارجي لمن ينشرون صورة تزداد وضوحاً وإلفة للروح الأميركية اللاتينية، وليس فقط لكيانها التاريخي أو لوجودها الجغرافي.

وقد أسهم في تحديد القسمات البالغة الحيوية للعنصر الأمريكي اللاتيني بين الأوروبيين، وبفيض هائل من الأعمال، المترجمون الفرنسيون، والانجليز، والايطاليون، والألمان، ومترجمو بعض اللغات السلافية. وتشهد على ذلك المجلدات العشرون الممتازة من الـ Index translationum التي تنشرها اليونسكو منذ عام ١٩٤٧، فمن أبرز الخصائص الثقافية للقرن العشرين ذلك الانتشار الهائل للترجمات بكل اللغات، وفي كل المجالات لأعمال في كل الموضوعات.

وأمریکا اللاتینیة ، بسكانها المائة والثمانین مليوناً* - كما یقول لیوبولدو ثیا متبعاً
فی ذلك توینبی - قد تقدمت بوعي علی غیرها من شعوب العالم غیر الغربیة فی
دافعها للتكامل العالمی :

لقد وجدت أمريكا اللاتینیة نفسها وأدرکت المعنی الأكثر أصالة لثقافة ،
أخذت تتكون عبر تاریخها الحتمي سواء أرادت أم لم ترد . . وأصبح من
الممكن اعطاء إجابة علی الأسئلة الملحة والمستمرة التي طرحها
الأمریکی اللاتینی عن وجوده وعن مستقبل ثقافته : فالأمریکی اللاتینی
لیس سوى إنسان بین البشر ، وثقافته تعبر محسوس عما هو إنسانی لا
أكثر من ذلك ولا أقل (٦) .

هكذا یبدو أن العالم الأوروبی يفهم الأمر ، فمؤلفوه ، ونقادوه ومبدعوه من كل
الأنواع قد بدأوا یديرون انظارهم واهتمامهم نحو أمريكا اللاتینیة . وفی هذا
الموقف الجدید تجاوز الأوربیون الممثلون للأجیال الجديدة عقد التفوق والاكتفاء ،
وتحیزات الفترات الأخری ، وأخذوا یقرّون بالمساواة مع غیرهم من البشر غیر
الأوربیین مثل الأمریکیین اللاتین . وقد ساهم تطور علم الأنثروبولوجیا فی هذا
الدافع إلى اعتبار نظریة الأجناس الأرقی والأدنی نظریة عتیقة ، وإلى التساؤل
حول مقولة الجنس نفسها . وفی عالم یصغر كل یوم بفعل تقدم التكنیک ، فإن
الخصائص الجوهریة نفسها هی الیوم خصائص عامة لكل البشر ؛ ولهذا السبب ،
یمكن أن نجد ثقافياً الظروف نفسها بین الأوربیین و بین الأمریکیین اللاتین . وقد
كفّ ما هو طریف أو ما هو غریب عن كونه افتراضیة حاسمة .

حتى القرن التاسع عشر ، كانت أمريكا هی المستقبل بالنسبة لأوروبا ،
مجرد إمکانیة قادمة . أما أفریقیا فلم تُختص حتی بمستقبل یخصها : كانت مجرد قارة
همجیة تورّد العبید والمواد الأولیة . وكانت آسیا تمثل عالماً كانت صلاحیته قد

(*) كان هذا فی الستینات وقد أضحی الرقم یزید الیوم علی ٣٥٠ ملیون [المراجع] .

(6) Leopoldo Zea, Latinoamérica y el mundo. Caracas, UCV, 1960 pp. 24 - 25.

انقضت . هكذا كانت أوروبا تؤكد سيطرتها الاستعمارية والاستغلالية . لكن في القرن العشرين ، وبعد حربين عالميتين ، اعترفت أوروبا «بحقوق الإنسان» لكل الشعوب وبصلاحية معاصرة للبشر في كل البقاع . وهذا الواقع يخلق حالة روحية جديدة لدى المبدعين الأمريكيين اللاتين أنفسهم . فالنماذج الأخيرة والحديثة للأدب الأمريكي اللاتيني - من رواية أو شعر ، قصة أو مقالة - تدل على هدف متحقق في التكامل مع الأدب الأوروبي . وفي ذلك يتميز الأدب الأمريكي اللاتيني بالنسبة لطزاجة موضوعاته ومضات الإنسانية الأصيلة والنقية فيه : حقاً إن التقنيات قد تناظرت ، لكن برغم تناظر البنى الشكلية لأقاليمها . ولم نعد نكاد نصادف «ميولا للتقليد» فيها هو أمريكي لاتيني ، مثلما كان شائعاً في القرن التاسع عشر ، وحتى في بدايات القرن العشرين ، فقد تم اكتشاف منابع خاصة للابداع في القارة الجديدة ذاتها . وأصبحت التبعية للدوافع الثقافية الأوروبية أقل حسماً وصلاحية بالتدريج . لقد وجدت أمريكا اللاتينية قدرها الابداعي وبرغم عدم امتلاكها للسلطة ولا للوسائل الأكثر ملاءمة لتطورها فإنها تجد نفسها تتجاوز المفترق وتتجه إلى تحقيق شخصيتها المحددة .

لقد ازدادت البشرية وتوحدت ، وصارت الثقافة تعددية وفقدت أحاديثها الاقليمية ، واندجت العناصر الفارقة ، وتقدمت أوروبا وأمريكا معاً في طرق مختلفة لتبلغا نقطة التقاء في أهداف التطور . ليس لأنها تتماثلان الواحدة مع الأخرى ، بل لأنها تتقدمان - ونحن نتبع إحدى أفكار أورتيجا Ortega - صوب أشكال مشتركة للحياة ، وصوب تقارب تكاملي . وهو ما يبدو أنه المصير القريب والمستقبلي لمجمل البشرية .

إن أمريكا - وأمريكا اللاتينية ، بوجه خاص جداً الآن - لم تفقد طابعها الموحى والحافز الذي تمتعت به دوماً . مع فارق واحد : فقبل القرن الحالي ، كان الكشف عن خصائصها وسماتها يجري دائماً من قبل أوروبيين من بعد أو عن قرب . من بعد وجد فلاسفة التنوير في المجتمعات الأمريكية الأفكار أو العناصر لمفاهيمهم السياسية الجديدة المتميزة عن المفاهيم التقليدية الأوروبية . وعن قرب ، وجد

همبولت وداروين في أمريكا منبع نظرياتها الجديدة . واليوم فإن أمريكا نفسها هي التي تكشف عن نفسها بعمل ممثليها الخاصين بها ، في داخلها أو في خارجها . وقد تلقت إسبانيا من أمريكا - الهسبانية دوافع من أجل تجديد لغتها ، وشعرها ، وفنها القصصي . ورواية جنوب وشمال القارة الجديدة هي نبع من الإلهامات للمبدعين الأوروبيين .

بعد نصف قرن من بدء اكتشاف وغزو العالم الجديد ، صاغ مفكر عصر النهضة مونتاني Montaigne النبوءة التالية : «فور دخول هذا العالم الجديد إلى دائرة الضوء ، فإن العالم الآخر (القديم) سيخرج منها» . ولحسن الحظ ، فإن نصف هذه العبارة فقط قد تحقّق ، فأمريكا - أمريكا المستقبل والأمل تلك التي تحدث عنها هيجل في بدايات القرن التاسع عشر - قد دخلت أو بدأت تدخل دائرة الضوء ، بينما لا تبدي أوروبا دلائل على خروجها منه . وبتكاملها في العالم الغربي ، فإن أمريكا تمثل الآن شيئاً أكثر من مجرد أمل .



الفصل السادس

بلوغ سن الرشد

إرناندو فالنشيا جويلكل *

Hernando Valencia Goelkel

لو أنها كانت على الأقل النهاية، لو أنها على الأقل البداية!

إدواردو كوتي لاموس

يبدو أن عنوان هذا الفصل، ومضمونه كذلك، يقومان على مغالطة منطقية *Petitio Principii* مزدوجة. وأوضح صياغات هذا الافتراض هي الصياغة الأولى، وهي: لقد بلغ الأدب الأمريكي اللاتيني سن الرشد. ويجدر بنا أن ندع جانباً، ولأنفس، لبرهنة، التأكيد الضمني هنا، فهذا الموضوع، هذا النوع من اليقين الجازم وإن يكن غير واضح دائماً، هو، في نهاية المطاف، ما يجب أن يكون الدافع الرئيس لكتابة هذه الملاحظات. كذلك ثمة في هذا العنوان شيء يشير إلى فلسفة، أو بتواضع أكثر، إلى إيديولوجية، وإلى مفهوم للتاريخ. وليس الأمر مجرد منظور تاريخي، بل بتحديد أكثر منظور ذي نزعة تاريخية، وأود، مرة وإلى الأبد، أن أوضح أن هذا المصطلح لا يحمل بالنسبة لي مدلولات مكروهة، فإني لا استخدمه بالتأكيد بوصفه شتيمة. وإذا كانت الحجج القاطعة للاستاذ كارل بوبر *Karl R. popper* قد بدت لي لا تقاوم ذات حين، وإذا كانت العيوب في جيولوجيا الأنساق الفكرية مازالت اليوم تسبب الدوار، ويظل من المشروع

(*) ناقد كولومبي (ولد في بوكارامانكا ١٩٢٨) أسس مع جورج غايتان دوران وأدار مجلة ميتو *Mito* (أسطورة) بين ١٩٥٥ - ١٩٦٢. كلف تحرير مجلة ايكو (صدى) ١٩٦٤ - ١٩٦٦. أستاذ جامعي.

والحتمي طرح مشكلة «فقر المذهب التاريخي»، فألى جوارها تبرز، وبصورة أشد وضوحاً، ضروب بؤس (وأسوأ من ذلك، سبات) المناهج والمعالجات التي أرست صلاحيتها، العابرة أو العنيدة، في كل المجالات، على النغمة المشتركة، والسلبية ببساطة في كثير من الحالات، للعداء المنهجي للمذهب التاريخي.

وعلاوة على هذا «المذهب» ثمة إجماع بوجود «مذهب - فرعي» أو «مذهب» مواز. فعند الحديث عن سن الرشد تطرح فرضية تاريخية النزعة، تنتمي بالإضافة إلى ذلك إلى ضرب معين من المذهب التاريخي: هو ذلك الذي يسمى، أو كان يسمى، بالمذهب العضوي، تلك الرؤية للصيرورة الإنسانية التي تبدأ بالسذاجات العبقريّة لفيكو Vico وهيردر Herder، وتصل حتى تصنيفات اشبنجلر Spengler، والتي ربما كانت عبقريّة بدورها، لكنها لم تعد ساذجة على الإطلاق (منذ زمن طويل سجلت رسمياً وفاة انحطاط الغرب، لكن قبره مأهول بالضياء بوجه خاص).

ولا يزال الانبهار بتلك المعالجة قائماً، ولو على مستوى المجاز، فالصورة البيولوجية لا تقاوم، ولا يجب نسيان أن المجاز يتضمن مفهوماً للعالم يبلغ في تجسده وفعاليته مبلغ التأمل الفلسفي (وعلى هذه الحقيقة يقوم الأدب). ومن ثم، فعند الحديث عن سن الرشد يجري الإقرار بظروف أخرى ملازمة له: إننا منذ وقت قصير كنا أطفالاً، وبعدها سيكون علينا أن نشيخ، وبعدها... لكن لا يهم: فالآن تطفو في الجو خيلاء ابتهاج ضحكة هازئة وهادئة. ربما نكون قد صرنا، بدرجة معينة ولبرهة، لامبالين ببعض الشيء لكن هذا التنحي (العابر) قد أسبغ على الآداب الأمريكية اللاتينية خلال السنوات الراهنة شيئاً أثمن بكثير في إطار سياقنا التاريخي والثقافي: ذلك الشيء هو الصراحة التي هي أحد أرقى أشكال الحرية.

١ - الإيمان بالتناسخ العفوي التلقائي:

«قصيدة في شكر ملك البلاد الإسبانية، على نشر التطعيم في ممتلكاته، مهداة

إلى السنيور دون مانويل دي جيبارا باسكو نثيلوس ، الرئيس ، والحاكم ، والقائد العام لمقاطعات فنزويلا . بقلم دون أندريس بيو Andres Bello ، المسؤول الثاني لسكرتارية الحكومة والقيادة العامة بكاراكاس . يجب التأكيد على حقيقتين بالنسبة للعنوان السابق : أولاً ، أن الأمر هنا يتعلق «بخطأ» مبكر للفيلولوجي الشهير، خطأ بالنسبة للموضوع ، في المحل الأول : فالقطب الأدبي المستقبلي، كما يقولون ، لم يكن ليجب أن يوجه هذا المديح للاستبداد الإسباني . وثانياً ، أن هذا العنوان الشديد الإطناب يبدو اليوم ، في النظرة الإسترجاعية ، وكأنه يتمتع بصلاحيه مشروع قائم بذاته ، إن مثل هذا العنوان ، بصرف النظر عن الأبيات ذات الأحد عشر مقطعاً التي تكمله والتي كلفته جهداً ، سيكون له الآن قيمة نص Texto ، قيمة شيء معبر بذاته تعبيراً شاملاً . ربما لا يكون نشازاً لو كان فقرة أو حتى فصلاً بالغ الإيجاز في أحد كتب كورتاثار ، أو أريولا ، أو كابريرا إنفانتي . والحدائث الساخرة لأسطر منتزعة من سياقها الإيديولوجي والتاريخي على هذا النحو، تشكل جزءاً من معاصرتنا ، فالبلاغة المعكوسة ، أو الجماليات المعكوسة - بما تتضمنه هذه من تسهيلات البوب Pop - هي من السمات المميزة للمناخ الراهن للآداب الأمريكية اللاتينية ، ولبعض خصائصها الأساسية . لكننا لن نتناول الآن تلك الأخيرة ، بل سنلخص بخطوط عريضة عملية بالغة التعقيد لم تلق دراسة جيدة . (وليس التلخيص توضيحاً للتعقيدات ولا ملئاً لفراغات البحث والنقد) .

في المسار الأدبي الأمريكي اللاتيني ثمة علامة طاغية ذات طابع متناقض تمكن صياغتها على النحو التالي : أن اللعنة الكبرى لأدبنا كانت الافتقار إلى الأصالة : والوسط الأكبر لأدبنا كان هو البحث عن الأصالة . وهذه المحاولة الأخيرة كانت موجودة منذ مطلع الاستقلال السياسي ، ولدى الدون أندريس بيونفسه ، وإذا واصلنا طرح المثال ذاته نصادف ذلك الخليط من الإيمان والإرادة المتمثلة في متنوعات في زراعة المناطق الحارة Silva a la agricultura de la zona torrida لقد حاول الحكيم استنبات فرجيل في أمريكا . إن الانجازات الشعرية

لبيوتعد، منذ زمن طويل، دافعاً لتهكمات سهلة (تستحقها)، لكن ما أود إبرازه هو أن هذا الحبر العلامة، مثله مثل كارو Caro في كولومبيا، كان مقلداً عن قصد، وكان كذلك لأنه، على طريقة الانسانيين القدامى، كان يؤمن بنماذج وقوالب نمطية أبدية، وبالتالي لا تكون باطلة بل جديدة على الدوام. وحين حرر بيو المتنوعات، كانت أكثر لحظات الرومانتيكية توهجاً قد انقضت، لكن بيو واصل، كما سيفعل كارو بعدها بسنوات متمسكاً بالـ «محاكاة Mimesis»، ومتجاهلاً «الابداع Poiesis» الذي كانت حركة «التنوير Aufklärung» قد غرسته مفاهيمياً وعملياً في قلب مفهوم الواجب الفني ذاته. حسناً، ليس هذا موضوعنا، بل هو توضيح كيف أن بيو نفسه، بكل «إنسانيته»، وبكل «كلاسيكيته»، الخ، كان يشارك خفيةً في تلك الرؤية السحرية لأمريكا التي تمتد حتى اليوم في بلاغيات فزعة بعض الشيء، وفي آمال حارة صامته. كل أشياءنا يتصدرها سحر ذو نزعة اسمية: اسم التدليل ذاك: العالم الجديد الذي أخذت تضميناته المحظوظة والمجانية تنسى على حساب إحباطات أجيال تلو أجيال. وإيهامها، ونفورها وألمها. وحين تحدث هيجل عن القدم السحيق لبعض أشكال الطبيعة الأمريكية - عن قدمها السحيق جيولوجياً، وحيوانياً، ونباتياً - لم يعره أحد إلتفاتاً، كان لابد للعالم الجديد أن يكون فتياً بصورة لا تغتفر، ولم يفعل الرومانتيكيون، بعقيدتهم في الشباب وإيمانهم بالجمهورية، وبالبرلمانات، وبالسيادة السياسية، سوى أن صدقوا بوضوح على ذلك الوهم الذي أخذه الناس خلال القرون الاستعمارية. بكل نقائه الأكاديمي. لم يكن بيو يستطيع أن يؤمن بجدوى مواصلة نقل نماذج لاتينية إلى العروض الإسباني المتمرد، وإذا كان يتوق إلى تبرير لأعماله (كان يؤمن به، علاوة على ذلك)، فإن هذا التبرير يقوم على ذلك الطابع اللاشخصي الذي تمده به أمريكا بصورة سحرية. ولم تكن محاكاته لفرجيل أو هوراس مجرد محاكاة، كانت محاكاة أمريكية، وكان في كاراكاس أو في لندن، أو في سانتياجو يحمل مع البهاء، واللفظ غير المحددين، لكن الوثائق من أن شيئاً أكبر منه، وأوسع من مجموع معاصريه، وأشمل من الطبيعة

وأقوى من تقلبات التاريخ الظاهر، لابد من أن يضيفي على محاولاته - مهما كانت متواضعة وحذرة عن وعي - منزلة «فريدة»، وطابعاً شخصياً، وهالة من الأمريكية. وعند لحظة معينة تحولت مشكلة الأصالة وعدم الأصالة إلى مشكلة زائفة، إلى اهتمام للمدرسين المتدهورين، أصبح من الممكن أن يكون تقليد كل شيء، أو تعديله، أو انتحاله: تفاصيل زائفة، ومن ثم أصبح كل شيء بدوره خاضعاً للتحويل السحري الذي يسبغه عليه هواء، أو سماء، أو أرض أو بالأحرى، اسم - أمريكا.

ظلت المحاكاة والإبداع، إذن، في مرتبة ثانوية أمام الاعتقاد الصوفي بوجود تلك القدرة على التناسخ العفوي. وما زالت تبدو في الفن القصصي لهذا القرن امتدادات لذلك الاتجاه، فهناك عدد لانهائي من المؤلفين الذين ينقلون بكل النوايا الطيبة في العالم، وبنوع في أحيان كثيرة، ظرفاً أدبياً أوروبياً أو أمريكياً شمالياً إلى مشهد كريولي. وحين يلاحظ ذلك أحد يردون بإحساس حقيقي بالإهانة:

«لقد رأيت هذا، وشاركت في ذاك، أعرف ذلك الوسط، وأولئك الناس، وذلك الجو.» وإحساسهم بالاهانة مشروع من الناحية الذاتية: فالقصصايات الرومانتيكية، والنزاع العمالي أو القفزات الوجودية التي نقلوها إلى قصصهم أو رواياتهم كانت، كما يقال، مأخوذة عن خبرة، وعن معرفة فورية. فورية جسدياً وحتى نفسياً، لكنها ليست مباشرة: فالوسيط الأدبي أقوى من الصلات الأخرى. ولديهم كذلك، مثل بيو، كلاسيكياتهم، فكم زوجاً من العشاق الشبان والرقيقين، لايشكل في الواقع، زواجاً بين ثلاثة ménage à trois، مع الحضور الإضافي للورنس دوريل أو هنري ميللر؟ ورغم ذلك يسود وهم المشهد أكثر مما نتصور: ففي تضاريس مونتيديو أو المكسيك أو ميديين، وبفضل أسماء الشوارع أو اللهجة المحلية لكلمات السباب، تتحول موضوعات الروائيين الصديقين (التراسلين) إلى شيء شديد الخصوصية. شيء أصيل، ومستقل، وأمريكي.

تلك كانت المرحلة الأولى من موضوع الأصالة الممل. فبعدها وصف بأنه

تجاوزات (لم تكن سوى أوجه عجز) رومانتيكية وكلاسيكية جديدة كان لابد أن تأتي وقاحة شخص مثل سيلفا Silva، والاعتراف الصريح بحقوق تجاه كل تشوش العالم الجديد (أعتقد أن الجنس الجديد لم يكن قد ظهر عندئذ). كانت الأرض الموعودة هراء، والأثنيات الجديدة، إقطاعيات الجنرالات الكبار والصغار، والزعماء الإقطاعيين، والقساوسة، والعسكريين، والخطباء، و - كيف لا! الشعراء. كان ما تحقق هو شيء آخر (شيء تحقق منه منذ أكثر من ٣٠ عاماً. ليفي - شتراوس في اكتشافه للأمريكا): «إن هذه الحضارة الغربية العظيمة - يقول سيلفا - خالقة الأعاجيب التي نتمتع بها، لم تستطع، بالتأكيد، إنتاجها دون مقابل. ومثلها مثل أشهر أعمالها، الركाम الذي تخلقت فيه تكوينات معمارية ذات تعقيد غير مسبوق، فإن نظام وتآلف الغرب يتطلب استئصال كتلة ضخمة من النواتج الجانبية الضارة التي تلوث الأرض الآن. إن أول ما تظهرينه لنا، أيتها الرحلات، هو مخلفاتنا التي نقذفها في وجه البشرية».

إن رد فعل سيلفا وحشي، فالشخص الذي اعتبره بعض مواطنيه مخنثاً كان شجاعاً في مشاعره وناصباً في احتقاره. وما زال يقال عن سيلفا حتى الآن - وللمخططات حياة أكثر عناداً من المشكلات - أنه كان المشوه الأعظم، كان يشبه جندياً محلياً فجاً، في خدمة قوة عظمى ضحى بكنوز الروح الأمريكية لصالح نزعة أوربة خانعة. أما أنا فيبدو لي، على العكس، أنه - هو وكل الشعراء المحدثين، بشكل عام، رغم أنه يجب معالجة كل حالة على حدة - كان في المجال الأدبي واحداً من أوائل، ومن أعظم نازعي الأوهام. لكن الشاعر، ومن يأتون بعده زمنياً، أصبح يثير، لأسباب تتعدى هذا السبب، المشكلة المتعلقة بالسرايات، والمظالم، أو التكرار المنتظم، أو غيرها من المشكلات التي تظهر في رؤية للأدب الهسبانو - أمريكي.

٢ - إسهامات وحدود الحداثة

مهما بلغ من تذبذب الأذواق والاتجاهات الجمالية، ومهما بلغ من ثبات

«قانون» ردود الفعل بين الأجيال، ومهما بلغ مما يبدو على نطاق واسع من بطلان إسهامها أو افتقارها إلى الأهمية، فإن مما لا يقبل الإنكار أن تلك الجماعة من الشعراء الذين تجمعهم تسمية الحداثة قد جلبت شيئاً ذا قيمة إلى الأدب وإلى الوعي الأدبي الأمريكيين اللاتينيين. ولكي نظل داخل حدود هذه الملاحظات فإن هذا يعني أن من الأمور المرهقة أن يحزم المرء أمره على أن يتناول أسماء مثل أسماء داريو، ولوجونس، وبالنشيا، إلخ، وكأنها أسماء مجرد مشاركين يكونون على هذا النحو متقلصين ومشوهين - في عملية افتراضية ستجد تحققها فيما بعد في أعمال ورثتهم ومشوهي سمعتهم. لقد تجاوزوا (أو تجنبوا)، على طريقتهم، مشكلة الهوية الأدبية، وقد انطلق ضدهم بداية من العشرينات تقريباً أشد الصياح قوة وصخباً دفاعاً عما هو متجذر وأصيل. وليس هذا بالطبع هو الدافع الوحيد، لكنه واحد من الأشكال الأساسية يمكن فهمه للحض على النزعة الأهلية القصصية أو على النزعة التعليمية لفن التصوير المكسيكي وعلى هذا النحو كأن يعلن ذلك بصراحة، على أنه رفض للممتلكات الخاصة لشعر الحداثة في الألفاظ والموضوعات.

ولتوضيح هذه النقطة، يجب أن نضع في الاعتبار أن الاتهامات بالطرافة، وبالإعجاب على الطريقة الأوروبية، وباحتقار الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، كانت توجه اعتبارها موقفاً أخلاقياً. كان ذلك هو الغطاء، وتحت ذلك القناع كان النقد وحتى الخطب اللاذعة تبدو مشروعة. لكن هذا الجانب الأخلاقي كان مجرد تنكر، أما في العمق فكان الأمر يتعلق بلغة وجدانية بشكل مرهق، وبالتالي، بمبدأ رجعي. لقد كان تأكيداً لعاطفية مرضية Pathos، كان رفضاً لشيء ينطوي على تماسك تعبيري معين، وذلك باسم الصوفية القديمة ذات النزعة الأمريكية، التي كانت تزداد وهمية وبطلاناً، بقدر ما كانت القارة المباركة تؤكد نفسها أكثر فأكثر في مجموعة الجمهوريات الأكثر ازدهاراً هنا، والأكثر بؤساً هناك، لكنها في كل الأحوال هامشية، ومستغلة، وثانوية، ومتواضعة. كانت الروح قد رفضت بصورة تعسفية وغير مخلصنة أن تتحدث عبر أمريكا، ومن ثم

كان لابد من استعادة الأحلام القديمة محسوسة «هذه المرة حتى درجة معينة داخل إطار قصد سياسي واجتماعي، وملموسة بشكل افضل في إرادة ثورية وفي تمسك سخي بنقاط تسام غامضة من الماركسية. كانت هذه هي الحركة الهندولية (الرقاصة) في سماتها العامة، لكن من المناسب أن نرى، بإيجاز، لماذا أسهمت الحداثة في إطلاقها، ولماذا كان هذا النفي المطلق لظاهرة هي، في نهاية الأمر، أول محاولة غير سيئة الحظ تماماً. لقصد إبداعي، له ممثلون بارزون في كل البلدان تقريباً، وله سمات تسمح بأن تنسب إليه إرادة مشتركة. ومن ثم، ليس بمثير للسخرية إطلاق تسمية الحركة أو المدرسة عليها.

وجماعياً، كان إسهام الحداثة في الوضع الأدبي لأمريكا اللاتينية يتكون من التأكيد الأولى على خصوصية المهمة الأدبية. وإني لأقر بأن تضائل بدل أن تزيد من حجم الشخصيات الفردية، التي نجد في بعضها أن الجهد والإنجاز والوضوح تتجاوز بكثير متوسط هذا الكل المختلق الذي نطلق عليه اسم الحداثة. لكن لاتزال هناك حقيقة أن إنجازات الجماعة تشكل جهداً محرراً للتعبير الأدبي، وتمثل، في محصلتها بياناً بإعلان الاستقلال. أما أن يكون ذلك، بشكل مجرد، شيئاً قابلاً للشك في نهاية الأمر، وأن تكون تبادياته في تلك الفترة قائمة على أسس وهمية، فلا يخفى ما هو إيجابي في دفاعها عن الشعر، وفي حماسها الأصيل من أجل مهنة تتضمن كذلك - وهذا أمر حاسم - دفاعاً عن اللغة. بالطبع، ليس بالمعنى الذي يقصده الأكاديميون والنحويون، فصد هؤلاء، بين آخرين، دافع المحدثون عن الكلمة وحاولوا أن يحددوا لها أرضاً واسعة حرة.

وكانت نتيجة هذه الحماسة، العدوانية والحذرة في وقت معاً، هو إقامة أرض مغلقة بدرجة أو بأخرى، إقامة محراب تسود فيه التلقائية وثمار طريقة شاملة في الكتابة: هذا هو الشعر الغنائي. إذ أن من الضروري أن نذكر حدود مغامرة الحداثة. وبالطبع كان أحدها هو إفساد نثر كان في بعض الحالات (سارميينتو، على سبيل المثال). رائعاً ولايكاد، في نغمته العامة، يكون غير متسام ولا باعثاً على النعاس، لكن الممل المزوق لنائري نهاية القرن يكاد يكون ودوداً بالمقارنة مع

تجاوزات امثال رودو Rodo أو فارجاس فيلا Vargas Vila لم تكن العملية مجرد عملية إفساد بل إنها تكاد تكون عملية تصفية: فالكوكبة الرائعة من الشعراء المحدثين تحدد لحظة ظلت فيها بقية الأشكال غارقة في فقر يكاد يكون شاملاً.

وثمة تفسير تقليدي لذلك وهو تفسير - هل يجب أن نقولها؟ زائف. هذا التفسير هو أن للأشكال أو للأنواع الأدبية لحظات استمرارها الغامضة وأن المجتمعات تأخذ في البحث بالتوالي عن أشكال جديدة تعبر عنها تبادلياً. ولا يستحق الأمر عناء الوقوف عند هذه التبسيطات، تبسيطات أن القرن التاسع عشر كان فترة الرواية أو أن الباروك (هذا المصطلح التعس الذي أسهم كثيراً في إعاقه تاريخ الأدب الأوروبي) هو لحظة المسرح. إن تذكرنا أن سرفانتس ولوبي Lope، وشيكسبير، ودون Donne، وراسين، وباسكال، وريلكة Rilke، وتوماس مان Thomas Mann كانوا متعاصرين يبدو امراً مستقراً. وكذلك فإن من المحتم الاعتراف بأن سيادة الغنائية في الحداثة كان يمثل تضخماً وكانت له خصائص مرضية. ومن الممكن استشعار الحدود الشديدة للحداثة بدءاً من سياقها، أي من بقية الانتاج الأدبي خلال سنوات ازدهارها، لكن من الممكن كذلك أن نتبين هذا بصورة كامنة في «فن شعر» الحركة. والحالة دقيقة ومثيرة للإهتمام، حيث إنها تتعلق بالذكاء أكثر مما تتعلق بالايديولوجية. فثمة تنافر واضح، حتى عند داريو نفسه، بين الغنائية وبين النثر، وهذا التنافر يثير الأسى عند مارتى، وهو خائق عند فالنشيا. وهذا النقص، مع الأسف، ليس عارضاً: وما أطلق عليه لويس سرنودا Luis Cernuda اسم «التفكير الشعري» هو ببساطة شيء غير موجود في الحداثة، والحجة بأن هذا لاعلاقة له بالشعر حجة خادعة، وعلى أي حال فحين ظهر المحدثون كان عصر البراءة قد انقضى منذ زمن. هذه هي نقطة الضعف بالنسبة للثروة وللوحشة التي أورثها لنا المحدثون، وإذا عبرنا عنها بصورة موجزة، ومن ثم تعسفية وظالمة، فإنها تتكون من حقيقة أن شعر الحداثة لم يكن شعراً ذكياً. أعرف أن من الغريب إنكار وجود ذهن بارز وموهوب في أناشيد الحياة والأمل، ولدى كل واحد من المحدثين من الطراز الأول كان

يوجد قدر رفيع من الذكاء بشكل عام ، ومن الذكاء الشعري بوجه خاص . لكن يبدو أن الأمر بالنسبة لهم كان يتعلق بصفة تثير الخجل ، فقد كانوا ينسبون إلى أنفسهم بطريقة شاذة أكثر المثيرات عاطفية ، وكانوا يركزون أنفسهم بعناد في موهبة غير عقلية بصورة منهجية . ومن هنا الاصرار على الشكلية اللفظية ، ومن هنا تأليه المشاعر . كانوا أذكاء رغماً عنهم وكانوا يحتقرون الذكاء ، كان بودهم أن يكونوا راقين شهوانيين رفيعين بئسين ، أن يكونوا أي شيء عدا أن يكونوا أذكاء . وهذه المراتبية الاجتهادية الغريبة تنعكس في أعمالهم بصورة حتمية : فالظرف ، والعاطفة ، والنهم فيها شيء من المتعة ، وبالتالي ، من الرخاوة . ان التعبير الفرنسي *bête comme un peintre* (بهم مثل رسام - م) يترجم في أمريكا اللاتينية بتعبير «بهم مثل شاعر» . هنالك التجسد الثري ، والامتلاء الوشيك (لكن غير المتحقق) ، وإلى جواره أيضاً - ماذا بيدنا أن نفعل ؟ التفاهة ، والغياب ، والثقوب !

٣ - ثلاث فترات .

وحتى لانستحضر شخصيات فردية أو منعزلة ، فإن الحداثة تمثل نصيحةً ، أو «تذكرة» في هذا المناخ العريذ تقريباً الذي يعيشه الأدب الأمريكي اللاتيني اليوم . والآن ، حسناً : يبدو لي واضحاً ، بين أسباب أخرى سأعدها فيما بعد ، أن عملية جرت أصبحت من خلالها الآداب الأمريكية اللاتينية في مرحلة تمثل نوعياً ، تقدماً بالنسبة لتلك العملية ولكل سابقاتها ، التي لا بد منها ، بسبب الافتقار إلى تقاليد ، من أن نسميها بالتقاليد . إن أدبنا (وأؤكد أن مارياتيجي يشير بذلك إلى الأدب البيروي فقط) لا يكف عن كونه إسبانياً منذ يوم تأسيس الجمهورية . .

وعلى أي حال ، فإن لم يكن إسبانياً ، فلا بد من أن نسميه ولسنوات طويلة أدباً استعماريّاً . وبعد ذلك بأسطر قليلة يقول : «إن النظرية الحديثة - الأدبية وليس الإجتماعية - بشأن الصيرورة العادية لأدب شعب ما تميز فيها بين ثلاث فترات : فترة استعمارية ، وفترة عالمية ، وفترة قومية ، وخلال الفترة الأولى ، لا يكون الشعب ، أدبياً ، أكثر من مستعمرة ، من ولاية تابعة للغير . وخلال الفترة الثانية

يتمثل الأدب في وقت واحد عناصر من مختلف الآداب الأجنبية . وفي الثالثة تبلغ شخصيته الخاصة ومشاعره الخاصة تعبيراً جيد التآلف». تشخيص الكاتب البيروي لا غبار عليه ، إلا أنه في حالته - التي هي حالة نموذجية للفترة التي تضم في خطوطها العريضة الفترة الفاصلة بين الحربين العالميتين ، كان التنظير أكثر إرضاءً من الممارسة . إن الصيغ ذات النزعة القومية ، أو النزعة الاجتماعية ، أو المناهضة للإمبريالية ببساطة ، قد أثارت في الأدب (وفي السياسة أيضاً ، لسوء الحظ) ، سلسلة من الاشارات الزائفة ، ورواية الثورة المكسيكية ، والرواية الهندية هما الآن - ومن الخير أنهما كذلك - موضوع للرسائل العلمية للطلبة الأمريكيين الشماليين ، أو ، كما يؤكد علماء الاجتماع الكسالي ، «وثائق اجتماعية ثمينة» هذا ممكن ، لكنني أفقر إلى الكفاءة التي تجعلني أفصل في الموضوع ، لكن الأمر المؤكد أنها ، كذلك وبطريقة أكثر أولية ، وثائق أدبية ، وأن الضوء الذي تلقيه على الرواية الأمريكية اللاتينية في أعوام العشرينات ، والثلاثينات ، والأربعينات يكشف عن نظرة عامة (بانوراما) شاحبة وتبعث على الاكتئاب . من الأعمال القليلة لريبيرا ولجويرالديس رواية واحدة . ومن الأعمال العديدة لرومولو جاييجوس رواية واحدة كذلك . وهناك شاعران عظيمان فايخو ونيرودا ، صوت الثاني راق ، وثري ، وممتد ، ودؤوب ، يتوافق ذكاؤه وغريزته بطريقة ذكية جداً مع ذكاء وغريزة الجمهور (الذي مازال عريضاً) والذي يتمتع به بحيث يصبح من الصعب مقارنته بالشعراء اللاحقين له دون إدعاء (جائر) بالإطنا ب . أما فايخو فقد طرح بعض قواعد التقشف ، وطرح نيرودا قواعد للسخاء والتدفق : وأثبتت هذه وتلك فعاليتها ، ومع ظهور تريلشي Trilce وإقامة على الأرض Residencia en la tierra كان الأدب الأمريكي اللاتيني مركزاً ، للمرة الأخيرة ، في الشعر الغنائي ، وخلال السنوات المنصرمة يبدو أن انتشار الشعراء ليس سوى شكل آخر من أشكال المشكلة السكانية .

بعدها ، وفجأة ، يظهر فن روائي أمريكي لاتيني «علمنا من الصحف» بوجوده بدرجة كبيرة ، كما كان يقال في عصر ما قبل ماكلوهان . وأبادر بالقول بأن الإنتاج

الروائي لهذه السنوات الأخيرة، بكل روعته التي لا تقبل الجدل، يعد ظاهرة ملازمة، واشتقاقاً، إذا جاز التعبير، من تبدل عميق ومؤثر نتج عن وعي الكاتب الأمريكي اللاتيني، لعلاقاته مع ذاته، ومع مهنته، ومع جمهوره. لقد تحطم شيء، وولد شيء في هذه الأزمان، إنها «وقفة وطنية»، كما يقول ميشيل فوكو (إن لا مسئوليتي لها حدود وإنني لأتوقف بشيء من الرهبة أمام صفة «الابستمولوجي» (المعرفي). ولا مناص من أن نكرس لحظة للشخص الذي كان في الوقت نفسه رمزاً ومنفذاً لذلك الانقطاع: ألا وهو بورخس. Borges.

٤ - هادم المواضع.

ربما كان رأيي متحيزاً، والمؤكد أن من المتعذر إثباته. كان مايا Mallea، وكاربنتيه Carpentier، وساباتو Sabato، وأستورياس Asturias، وحتى رولفو Rulfo، سابقين على الرواية الجديدة الجديدة nouveau nouveau roman الأمريكية - اللاتينية، لكن الجمهور، كما لاحظ بعضهم داخل اطار إغراء النشر الراهن، يميل إلى اكتشافهم في الوقت نفسه وإلى التوحيد بينهم وبين مؤلفين تفصلهم عنهم مسافة كبيرة ثقافياً وزمنياً.

وهذه هي حالة بورخس. إذ باستثناء قصائده السابقة على عام ١٩٣٠، فإنه لم يؤلف أي عمل ولو متوسط الحجم، وكتبه عبارة عن مختارات عشوائية بدرجة أو بأخرى، والأعمال الكاملة له تكرر بطريقة مزعجة. مقالات تظهر في مجلدات أخرى من هذه الأعمال نفسها، وكتاب الكائنات الخيالية El libro de los seres imaginarios هو نسخة - بها إضافات قليلة - من مرجع علم الحيوان الفانتازي Manual de zoologia fantastica، وبورخس هو أيضاً مؤلف كتاب يحمل عنواناً، ملائماً هو مختارات شخصية Antologia personal، يخضع، بدوره، لتنقيحات وتنويعات جديدة، أما كتب الملاحظات حول الأدب الانجليزي والأدب الأمريكي الشمالي فتبدو أنها دعابة خاصة Private joke، مثلما يبدو، في سياق آخر، كتاب إيفاريسكو كارييجو Evaristo Carriego. إنه

محل للشهرة والإعجاب، ومن المفترض أنه ليس بعيد المنال، اذ يدلي بأحاديث مستفيضة وصبورة للصحفيين والمعجبين من كل البلدان وكل اللغات، يرد على كل شيء بتعاطف وود، متمتعاً بالمتعة الوحيدة الحميمة - والملاحظة أحياناً - في المراوغة التامة وفي اللباقة التي تحتل كل الاستقصاءات عالماً أنه شخصين في واحد، و«لأدري أي الإثنين يكتب هذه الصفحة»، وأن مفتاح هويته يكمن في التواطؤ مع القدر الذي لا يبدو قبس من ملامحه النهائية إلا «قبل الموت». لكن الصحفيين يصنعون من المحاور المتقلب وإن يكن الكتوم. بورخس ثالثاً ورابعاً، الخ، مفصلاً على المقاس بدرجة أو بأخرى (إذ أن بورخس الأحاديث مع جورج شاربونيه ليس هو نفس بورخس حوار مجلة لايف life).

إن بورخس يفتح ثغرة، وأوضح جوانبها هو الجمهور بالطبع، فلم يبلغ أي كاتب أمريكي لاتيني معاصر (ولا سابق) تلك الكثافة في الأتباع التي تصل إلى حدود العقيدة، وكما حدث بين ظهرانينا منذ بضع سنوات يثير بورخس في فرنسا أو في الولايات المتحدة زوابع ذات طابع لا يمكن اصلاحه، هي مزيج من الإعجاب والتعاطف الباطني الذي يفترض التواطؤ ويكون نوعاً من الطائفة، ولا يذكر بورخس إلا بين المبتدئين، ولا تسمح أعماله لا بالشرح ولا بالدعاية بل بإعجاب مشترك في تكتم ولعله لهذا السبب دون قيود، وهناك بعض الكتب التي تعبر بصورة علنية عن هذا التحيز الذي لا يمكن السماح به إلا في الجلسات الخاصة، وهناك دراسة ممتازة عن شعره - هي دراسة جيرومو سوكري -Guiller mo Sucre تطرح، بالتحديد، صعوبة تقسيم ذلك التعبير المتحد والشامل الذي تمثله الأعمال المقلدة للكاتب الأرجنتيني.

هذا، بالطبع، أمر ثانوي، فبورخس هو بورخس، وهو كذلك بالنسبة لنا، وهكذا تم تجاهل نصوصه تماماً خارج أمريكا اللاتينية. إن هذا أمر ثانوي حقاً، لكنه ظاهرة أيضاً. لأن بورخس قد فتت، بهدوء، كل المواضع التي ظل أدبنا يلهث ويتصايح بشأنها. وفي البداية، وضع حداً لخداع أصالة الموضوع، وكون هو ميروس يتعايش مع مارتين فييرو في ميثولوجياته، وبابل تتعايش مع بوينوس

آيرس، ليس إحدى سمات اللوذية بل إعلاناً، بلا صرير ولا عدوانية، للقانون الخيالي («الخيال» بمعنى القدرة الخلاقة، الباعثة، الفعالة، كما يعرفها كولريديج). وهذا القانون لا يسمح بالحدود، لا يسمح بها في الأمر، ويتجاوز بالتالي مشكلة الواقعية، طعنة خوان مورانا Juan Murana «واقعية» تماماً مثل الطعنات التي يوجهها (في شيكسبير) قتلة قيصر، والنزعة الزاهية الألوان، والطابع المحلي، والفولكلور هي معطيات يدرجها المرء دون حاجة لأن يعلنها في برنامج. (لهذا، ورغم كل «التباعد» الظاهر، فإن بورخس، عن حق، لا يبالغ في تقدير رجل الناصية الوردية)، تعجبه ألحان التانجو ويعجب بخوسيه إرناندث لا بسبب كونها أرجنتينيين، بل لأنها يخلصانه بقدر ما تخصه مهووسهول البابا أو ثمر بليك الذي أثار لديه كثيراً من النمرور. هذه الحرية داخل وطن شاسع، داخلي لكنه محسوس أسبغت عليه ملكة الكبرياء، والاحتقار الصامت تجاه كل محاولات إقامة أنساق، وتجاه كل الموضوعات، وكل المظاهرات الحانقة التي يرتديها الإرهاب السياسي - الأدبي لعصرنا وليس هناك نقلة من عدم الخضوع للمضامين إلى عدم الخضوع تجاه الأشكال بل هناك تعايش عضوي، فالوجهة الفكرية واحدة فقط حتى عندما تكون النصوص قابلة للتصنيف بدرجة أو بأخرى - مقال، قصيدة، قصة، الخ - المزاج متماثل، قارن، مثلاً، الـ «مقال» حول ترجمات ألف ليلة وليلة مع «قصة» بير مينار، مؤلف الكيخوته Pierre Menard, autor del quijote. إن بورخس لا يطرح ما أصبح معروفاً للجميع لكنه يظل موضوعاً للدعاوي المتحمسة، لا يتحدث عن الذوبان أو التواصل المتبادل لأنواع والأشكال الأدبية، بل اكتفى بمجرد إقامة أعمال تضع موضع الممارسة ذل الاندماج، اكتفى بأن يجعل من أدبه كلاً شعرياً متصلاً.

لكن مازال هناك إسهام حاسم لبورخس في عقلية الكاتب الأمريكي اللاتيني المعاصر. هذا الإسهام هو المفارقة (وسنعود إلى ذلك) والدعابة، هو إلغاء المفهوم العاطفي للإبداع الأدبي. وليست الدعابة، ولا «حسن الدعابة» مفاتيح حاسمة بأي شكل لتقدير قيمة مؤلف ما، فبودلير كان يفتقر إليها (راجعوا التهكمات

المرهقة في ملاحظات حطام (Epaves)، وكذلك كان أونامونو (Inamuno)، ومثلها مثل مؤلفين آخرين أعظم أو أشد تواضعاً. وهذا الافتقار قد ينبعث في فلسفة، في سيكولوجية فردية، في موقف وجودي، أو فيما يجب أن نسميه، نظراً للافتقار إلى تسمية أخرى، بالمناخ الثقافي. والمناخ الثقافي، كما أرى، هو ما يتبدى في الأدب الأمريكي اللاتيني. فأن تكون الحياة فظاعة أو مهانة، وأن تظل الآلام، والسأم، والبلادة الكثيفة تحوطنا، هو أمر من ثوابت تاريخ الأدب، وفضلاً عن ذلك، هو أحد مبررات وجود الأدب. لكن نشأ بيننا، بتواتر عنيد، استغلال راق لهذا الموضوع، فبالنسبة للشعراء والروائيين، لم تكن الظروف الخارجية أو التعاسات المحيطة بالشخصية كافية، وبالنسبة لكتاب المقالات، لم تكن قزمية شؤونهم كافية، وكان ضرورياً أن تتفاقم التعاسة أو السأم، وكانت هناك أداة موجهة خصوصاً إلى هذه الغاية: هذه الأداة هي الأدب. وكان الكتاب الفكاهيون للقرن الماضي يثيرون القشعريرة، إذ تحس أنهم مستغرقون بتفان في صياغة نكات سامة، لأن الفكاهة كانت تشكل نوعاً أدبياً، وتحتل مكانة محترمة من فنون البلاغة. هذا العناد المتقد تجاه الضحك ينتج - بدرجة أكبر بكثير - تجاه المعاناة، وحينئذ يتخلف الانطباع بأن المجال المعادي ليس الوجود بل الكلمة، وأن ما يسود حقاً ليس مفهوماً كثيباً ويائساً من الحياة بل هو مفهوم كثيب ويائس للأدب. كانت هذه أداة تتضاءل حين نتعامل مع المتعة، ومع الشك، ومع الهدوء، إنها نقص في التوازن أثمر سلسلة من سوء الحظ الشخصي في الشعر، ونوعاً من السادية المتفخخة في الرواية.

مع بورخس ينتهي أيضاً هذا الموقف، إنه، بالطبع، لم يكن أول من حاد عنه، ونذكر في هذا الصدد العمل النموذجي لألفونسو ريس (Alfonso Reyes)، وكذلك جزءاً كبيراً - وربما أفضل أجزاء - من شعرليون دي جريف (León de Greiff). لكن بورخس هو الذي أطلق رصاصة الرحمة على الذاتية العاطفية المفرطة وعلى المبالغة «الموضوعية»؛ ونصوصه هي التي تبرز أن الكاتب ليست لديه إمكانية فقط بل عليه أيضاً واجب توصيل (والثمن الذي يمثله ذلك بالنسبة

له هو من شؤونه) إن لم يكن نوعاً من المتعة على الأقل ، فهو على أي حال تلك المتعة التي لا نظير لها والتي هي «ضحكة الذكاء». وهذه العناصر - صور رفض الدروس - في أعمال بورخس ، في تحولاتها وتقليدها ، أو مجرد انتشارها في مناخ الفترة ، سوف تكون حاسمة بالنسبة لما هو جديد ، وحيوي ، وناضج في الأدب الأمريكي اللاتيني خلال السنوات الأخيرة .

(٥) مغامرة سعيدة :

«ورغم ذلك ، ما من شيء يبدو لي أقل قابلية للادراك من تلك اللغة فور أن تستغني عن المفهوم الواقعي العنيد للرواية ، الذي يسود حتى في أشكالها الفانتازية أو الشعرية . وما من شيء أكثر طبيعية من لغة تنبئ عن جذور ، عن أصول ، وتكون دائماً في منتصف الطريق بين الوحي والتعويذة ، تكون ظلاً للأساطير ، غمغمة للأوعي الجماعي ؛ ولا شيء أكثر إنسانية ، بالمعنى النهائي ، من لغة شاعرية لهذه ، تحتقر المعلومات الثرية والبرجماتية ، من فورة rabdomancia لفظية تستشرف وتفجر أعماق المياه . لا أحد يستغرب لغة أبطال الالياذة أو الأساطير الاسكندنافية فور تقبله أنه يقرأ ملحمة . . . فلماذا لا يقبل القارئ أن يتحدث شخصيات الفردوس دائماً بدءاً من الصورة ، مع التسليم بأن ليثاما يرسمها بدءاً من نسق شعري شرحه في نصوص عديدة ، ويكمن مفتاحه في قدرة الصورة باعتبارها أرقى إفرازا للروح الإنسانية الباحثة عن واقع العالم غير المنظور ؟» في هذه السطور من تفريظ خوليو كورتاثار Julio Cortazar لرواية ليثاما ليما هناك تعبير متنافر: هو الإشارة إلى «المفهوم الواقعي العنيد للرواية» . هذا التفصيل غير ذي أهمية في إطار النص موضع البحث ، وليس محتقراً على الإطلاق في إطار مجموع ذلك الكتاب النابض ، والذكي الذي هو الدوران حول اليوم في ثمانين عاماً . هنا يطرح كورتاثار بعض معايير بصدد الرواية (مثلاً يطرح في صفحات سابقة معايير أخرى مناسبة جداً بصدد الدعابة الأرجنتينية في «حول جدية السهر على الموق» ، وقابلة للتطبيق بكاملها على الدعابة الأمريكية اللاتينية) ، ومنطوقاته صالحة تماماً ، كما أثبت فبلياً a priori في روايته الحجلة

Rayuela المثيرة للاعجاب . واعتراضي - إذا كان يمكن الحديث عن اعتراض- ينصبّ ضد العادة الذهنية، ضد ذلك التوجه الروتيني لشجب مفهوم للرواية لا يُبقى اليوم - وبشكل بئس، ومع التزام جانب الدفاع- الآ على أطراف النشاط الثقافي. بين بعض الستالينيين - الخجلين بعض الشيء، لأنهم، حقاً، ليسوا متأكدين من الخط، وبين شردمة غامضة من بقايا من يطلق عليهم وصف «الرجعيين» الذي لا يستحقونه بينما هم ليسوا سوى قوم كسالى سيء الاطلاع. بعبارة أخرى فإن إشارة كورتاثار تهاجم خصوصاً شبحيين، ورغم أن الأدب الأمريكي اللاتيني الراهن، كما هو واضح، لا يتمتع كله بمستوى امتياز الكاتب الأرجنتيني، فإن موقفه تجاه الرواية، وتجاه الكتابة عموماً، يمثل بالضبط الأرض المشتركة التي يقف عليها كتاب القارة الجدد.

إن إحدى مشكلات الطليعة الأمريكية اللاتينية تتلخص، على وجه الدقة، في جلب أعداء لنفسها. والمجال الوحيد الذي مازالت تلقى فيه المقاومة - رغم انها على المستوى البوليسي والكهنوتي فقط - هو مجال الإباحية، وهي الصناعة التي مازالت - حتى الآن - احتكراً للإمبريالية الأمريكية الشمالية. هذا الموقف المهين لا يحتمل، وإنني لوائق من أننا قريباً سيكون لنا كتاب من أمثال بوروز Burroughs، وأبدايك Updike، وفيدال Vidal. إلا أن هذه، مثلها مثل عقار الهلوسة LSD أو المضاجعة الاستعراضية، قضايا هامشية تماماً. والحقيقة هي أنه، وسط تشوش بالنسبة للأجيال، ووسط حماسة سياسية سخية وغير منظمة، وتضخم في النشر (مفيد في التحليل الأخير) وفي الدعاية، نجد أن تناول الأدب الذي تبناه بورخس والذي يمثله اليوم مؤلفون شديداً التمايز ظاهرياً مثل كورتاثار أو جارثيا ماركث، قد اكتسح معتقدات وقيماً وأسماء كانت حتى وقت قريب تبدو زائفة، ومدعية، ومتعسفة، وما شئت سمها، لكنها في الوقت نفسه راسخة بصورة مثبتة.

«إن قوماً ليسوا من الفرنسيين في شيء أبداً، أبداً، أبداً». (رسالة من بوليفار إلى بايث Paez). «لا شيء يقتل المرء مثل اضطراره لأن يمثل بلداً» * (رسالة

جاك فاشيه Jacques Vache إلى أندريه بريتون ، وأحد الاقتباسات التي تصدر
الحجلة). هذان تأكيدان يكمل أحدهما الآخر بصورة متآلفة . ولا يمكن الذهاب
إلى أبعد مما فعل بوليفار في تعريفه (السلبى) للأصالة ؛ وتعبير فاشيه يلخص
بصورة رائعة كل العذاب الذي راكمته الكلمة فوق رأس عدة أجيال من الكتاب
الأمريكيين اللاتين . إلا أننا إذا حاولنا أن نعدّد بسرعة بعض ملامح الأدب
الجديد، كان علينا أن نبدأ من «الدّب اللعين**» وأن نقرباً أن أول هذه الملامح هو
وكيف لا!- الأصالة السعيدة . وسوء الفهم بالغ البساطة : فما يطرحه المؤلف
الراهن، وما يملكه أحياناً، هو أصالة فردية، بمعنى الامتناع المريح (والمرح ربما)
عن اضمفاء بُعد لفظي القارّة، وعلى الأمة، وعلى العرف، وعلى الأرض . (اعتقد
أن فارجاس يوسا نفسه ليس «أرضياً»). ربما كانت هذه قراءة خاطئة، لكن حين
يخرج ستيفن ريدالوس «لسبك الوعي الغفل الجنسي» أعتقد أني أدرك في العبارة
تضامناً متعاطفاً، (كان وداعاً أكيداً ونهائياً) وقدراً كبيراً من السخرية، إن عمل
الكاتب المعاصر ومهنته قد أعفيا نفسيهما من روعة هذا الحمل ؛ وبإلقائها إلى
الشيطان ذلك الأدعاء بأصالة الأنواع الأدبية، أحرزت بالمقابل أكثر المجالات نقاءً
واتساعاً لعالم أدبي دون مذاهب جامدة ولا مراتب فتوية، أحرزت عالماً شعرياً
يمكن فيه اختيار الانتماءات، والجذور، والتلميححات، واشكال الاعجاب بدون
الهيكل الجمالي التقليدي (الذي كان واقعاً، وانحلاقاً)، وبدون التشكك العصبي
في أن البرء يتجنب المسؤوليات والالتزامات التي ألقاها على كاهله الآخرون-
السياسيون، والغوغائيون، والنقاد: أي سلسلة طويلة من الانتهازين أو
المتوحشين الهاذين- من خلال الاندماج العنيد لامثال صوفي زائف، هو الملاذ
المتسع لأشكال التسامي الرومانسية التي ولّدها فينا الآخرون بدورهم .

هذا الاستغناء وهذا الغزو للإستقلالية يتضمنان قدراً مناظراً من عدم

* بالفرنسية في الأصل : " Rien ne vous tue un homme comme d'être obligé de représenter un pays".

** أعتقد أن تعبیر «الدّب اللعين» يرجع إلى فارجاس يوسا [المترجم].

المسؤولية . وهنا استخدم المصطلح بقصد إيجابي : أنه عدم المسؤولية الذي كان ، في تلك اللحظة ، ضرورياً للتلقائية . إن الرواية الجديدة الأمريكية اللاتينية تتمخض عن مغامرة أكثر سعادة من الرواية الجديدة *nouveau roman* الفرنسية ، والأمر يستحق ، عن حق ، ومن بين أشياء أخرى ، تناوله بروح أكثر مرحاً ، وأقل تجهماً ، وأكثر لا مسؤولية . فلم يسبقها ، ولا يترافق معها ، تلك الجدية النقدية المخيفة ، ذلك التنظير الجمالي - الفلسفي الطموح الذي يوضح ضرورة شكل غير موجود ، أو لم يشتد عوده بصورة مقنعة أو الزامه . إذن ، فعدم المسؤولية والتلقائية ، يفلتان من أيدينا ، ومثل كل الملاحظات التي تشير إلى نضج أدبائنا ، فإنها تعبران عن حرية غير مسبقة ، عن شيء لا صلة له بالحرريات الشكلية للتفكير أو التعبير ، وفي أفضل تجسّداتها نجد فيها شيئاً طفولياً نقياً ، عنصراً من عدم التحيز اللاهوي والعاث (لاحظ ، مثلاً ، كل مؤامرات الطفولة الموجودة في مائة عام من العزلة .) .

هذا البعد الطفولي المستعاد يتضمن بعداً آخر للعناصر الناضجة التي يمكن إدراكها في الواقع الراهن . فيجب أن نضيف إلى استقلال الموضوع والحرية الداخلية ، وإلى التلقائية غير المسؤولة ، مفهومًا لِعِبْيًا للممارسة الأدبية . في الأنثروبولوجيا ، وفي علم النفس (ولانقول شيئاً عن الرياضيات) نجد أن نظرية اللعب شيء بالغ الجدية ؛ هنا يفتقر مصطلح اللعب إلى كل إيحاء علمي ؛ إذ لا يشير إلا إلى ممارسة مواضع محايدة ، مجانية ، مواضع هي في العادة العكس ، أو المفارقة بالنسبة لمواضع عالم الجاذبية ، لـ «روح الجدّة» . كانت هذه هي النعمة التي سادت في كتاب الحيوانات *Bestiario* لكورتاثار ، أو كتاب المؤامرات *Confabulario* لخوان خوسيه أريولا ، هو المزاج الذي يجعل من ثلاثة ثور حزينة *Tres Tristes Tigres* مزحة متصلة ، أو الذي يدفع مؤلفاً غير مرح على الإطلاق ، مثل فارجاس يوسا ، إلى التسلي باحجيات شريرة بالنسبة للهوية أو التابع الزمني . إنه في مبادراته الموفقة يستمد دائماً من مواقف كلية : فكارلوس فوينتس يقحم كل عناصر انعدام الضمير والفساد في كتبه الأخيرة دون

أن يبدو الاقحام مقنعاً، وحماسة يشوبه شيء من التوتر، من القلق الخفي . وهذه مناسبة نسجل فيها ما هو بديهي : فحين أشير إلى خصائص تميز، في رأيي ، أبرز ما في الفن القصصي المعاصر، فإنني أعلم تمام العلم أن تلك الخصائص ليست، ولا يمكن أن تكون إجماعية ؛ ومن نافلة القول كذلك، أنه لا يمكن الحديث في هذه الرواية الجديدة عن مدرسة، ولا عن جماعة، ولا حتى عن جيل ؛ وإن بعضاً من هم شخصيات الرواية الراهنة لا تتمتع بتلك الخصائص، التي يمكن رؤيتها بالمقابل بصورة واضحة ومتعمدة في أعمال أقل قيمة (رعود أغسطس Los relámpagos de agosto، لخورخي إيسار جوينجويتيا Jorge Ibarguengoitia).

تحتّم المعرفة الوطيدة أن تكون الملاحظات من قبيل الملاحظات المذكورة هنا - عن عدم المسؤولية، وعمّا هو عابث، وعن المحاولة الدائمة للفوضى - ملاحظات طفولية أكثر منها ناضجة (وهذا التقييم زائف بالطبع). وأود أن أذكر أخيراً ملاحظة أخيرة هي الدعامة والتبرير للملاحظات السابقة، وهي، بالقطع، التي تضمن بتأكيد أكثر افتراض النضج الذاتي (وإنّي لأسف لاضطراري للتشديد على الصفة): وأشير إلى السخرية. يقول توماس مان: «إننا نحب التحفظ في المجال الثقافي في شكل السخرية، هذه السخرية التي تشير صوب الجانبين، التي تستمتع باللعب دون أن تلزم نفسها بمفاهيم متناقضة، بحذق لكن دون تعاطف تجاهها، ولا تتعجل أبداً حيث تدرك بوضوح أنه فيما يتعلق بأمور الإنسان الكبرى، يمكن لكل قرار أن يتضح أنه سابق لأوانه، فالشعار الحقيقي ليس الاختيار بل التناغم، تحقيق تناسق هارمونية». كانت السخرية السقراطية أداة جدلية؛ أما تلك التي يطرحها الكاتب الألماني - والتي عرفها ثرفانتس باطنيا، والتي تتخلل أعمال ستندال، وبصورة أكثر سرية وكثافة، أعمال دوستوفسكي. فتمثل واحدة من أرقى لحظات الوعي الإنساني وواحدة من أقوى تبدييات الذكاء الأدبي نبضاً. والبسط desdolamiento المتعدد، ذلك الجدل البالغ الرقي للمؤلف مع نفسه، ومع عمله، ومع القارئ المتركز هو الآخر في مستوى مزدوج، هو مستوى الأدبية

ومستوى التواطوء، هو أمر يفترض إدراكاً مركباً لرغبات الكتابة وحدودها، للسمو، والنفاذ. اللاتنيين، اللذين لا يمكن سبر غورهما، ولم يتم سبر غورهما. للكتابة في الوقت ذاته وفي المسرد، غير الساخر، للكتب الأمريكية اللاتينية الحديثة التي ينبعث منها وميض الذكاء، نجد التناغم بين القصة والقاص (الناشئ عن الانفصال، وليس عن التوحد)، والايان بأن الكلمة شيء غبي وجلف لكنها أيضاً شيء عذب ولا يمكن الاستبدال به، في تلك الكتب التي تضم المنتخبات النموذجية للأدب الأمريكي اللاتيني خلال العقد الأخير، هناك دائماً المعرفة الساخرة والتعبير الساخر، والأعمال الأكثر طموحاً، والأفضل تنقيحاً، والأكثر عمقاً هي أعمال من الماضي، وربما ستكون، عن جدارة، هي الأطول بقاءً، لكنها لا تمثل العناصر التي تتيح في هذه اللحظة تحولاً ناضجاً للأدب الأمريكي اللاتيني.

(٦) ما هو مطروح للتساؤل :

تحول باتجاه ماذا؟ من العبث إنكار حقيقة أن هذه العمليات لا تجري في حيز مغلق hortus Conclusus بل تشارك في ظروف عامة. ويقال بقصد الشاء أو الهجاء إن كل قوة الرقابة في الاتحاد السوفيتي وتعقيدها يأتیان من حقيقة أن الاتحاد السوفيتي، وأن الروس، المواطنين السوفيت، هم الوحيدون الذين يأخذون الأدب اليوم على محمل الجد. أعلم أن ذلك معيار وضعي ومتحيز، لكنني لاحظت أن شباننا يقرأون بشغف وحماسة ما يصل إلى لغتهم من كل الأمم الأمريكية اللاتينية. حقيقي أن الشباب جادون، وأن المفهوم - المقبول مبرح- للرواج boom له مقابل مشؤوم. فلا يجب أن يكون المرء اقتصادياً أو مالياً حتى يعرف ما يأتي عادة بعد الرواج. إن المتاجرة الآلية بالحرية، وبالفوضى، هي حقيقة جرى ايضاحها حتى التشبع، لكنني أحياناً أشك في أن لدى الكاتب الأمريكي اللاتيني وهم الاعتقاد بأنه هو الذي يتلاعب بكل آليات الاستغلال التجاري تلك، إنها في خدمته. بهذا المعنى يكون عدم المسؤولية خطراً، والنشوة يمكن أن تتحول إلى سُكر. أما الآن، فإن «ثورة الغد يجب أن تتعلم من تحرر

الأمس»، كما يكتب خورخي جايتان دوران Jorge Gaitán Durán في كتابه عن ساد(*)، الذي هو أحد الآلهة الخاطئة التي تتسود الثقافة المعاصرة.

من ناحية أخرى، فإن المتفائلين فقط هم الذين يتحدثون اليوم عن أزمة الرواية، والذين يستمرون في التفكير في نضوب نوع أدبي معين. إن ما يطرح للتساؤل هو الأدب كلة، وليس مارشال ماكلوهان Marshall McLuhan هو الشاهد الوحيد على ذلك الانقطاع، فالتشخيصات كثيرة بهذا المعنى، من نقاد، ومن أساتذة جامعيين، وفلاسفة، وعلماء اجتماع. ولا يقلل من غرابة الأمر أن الظاهرة يبدو أنها تجري في تناسب عكسي مع مستوى «محو الأمية» في البلدان، وأنها ليست بعد فائقة الحدة في بلاد مثل بلادنا، التي مازال العديد منها يحاول القضاء على الأمية، يحاول أن يملك الشعب تلك الامتيازات التي كانت بعيدة المنال مثل الصحيفة، والمجلة، والكتاب. وعلى أي حال، ليس من شك في أن نوعاً من التنافر، أو شيئاً من قبيل القسر دون اقتناع، يسود الأدب الأوروبي والأمريكي الشمالي، وأن هذا الأدب لأسباب معروفة، هو الأدب بالنسبة لنا. إن هناء - أقصد زواج - إفرائين Efraín وماريا María قد تأجل حتى يبلغ هو سن الرشد. ومن قرأوا رواية إيساكس Isaacs يتذكرون الباقي: فبينما كان البطل - والزمن - يحققان ذلك الشرط، كانت ماريّا قد ماتت.



(*) يقصد المركيز دوساد الفرنسي الذي تنسب إليه السادية (١٧٤٠ - ١٨١٤) وهو كاتب ولد في باريس ورواياته تلح على تعذيب الأرواح الطاهرة وعلى الثورة ضد هذا القدر.

الباب الثاني:

انقطاع القتال

الفصل الأول

التقاليد والتجديد

إمير رودريغث مونيغال(*)
Emir Rodrigues Monegal

١ - تقاليد الانقطاع (أ) الانقطاع بوصفه عملية دائمة

ثلاث مرات في خلال هذا القرن، شهدت الآداب الأمريكية اللاتينية انقطاعاً عنيفاً، وحساسياً عن التقاليد المحورية التي تخرق هذا الأدب - مثل خيط من اللهب. إن ما حدث حوالي عام ١٩٦٠، وترافق مع أقصى انتشار للثورة الكوبية، كان قد حدث حوالي عام ١٩٤٠ مع الأزمة الثقافية التي أثارها الحرب الإسبانية والحرب العالمية الثانية، وكان أوضح سلف له هو الانقطاع الهام الآخر: انقطاع طلائع سنوات العشرينات. ورغم محاولتنا تجنب إغراء التماثل، فإن من السهل أن نلاحظ أن لحظات الانقطاع الثلاث هذه (التركزة بشكل تعسفي وقصدي حول رقم دائري: ٢٠، ٤٠، ٦٠) تناظر عمليات ذات وجهين في آن واحد: فمن ناحية، إذا كانت كل أزمة تقوم بالقطيعة مع أحد التقاليد وتطرح إقامة اجتهد جديد فإن كل أزمة، من الناحية الأخرى، تحفر في الماضي (القريب أو البعيد)، من أجل جعل تمردها مشروعاً، من أجل خلف شجرة عائلة لنفسها، من أجل تبرير نسبها يعكس الرجال المحوريون لهذه الأزمات الثلاث

(*) ناقد من الاورغواي (ولد في ميلو ١٩٢١)، من أعماله الاساسية: قصاصو أمريكا هذه (مونتيديو ١٩٦١)، المسافر الجامد (مع مقدمة لبابلو نيرودا) (بوينس ايرس - ١٩٦٦)، المجتث، (حياة وأعمال هوراسيو كيرودا) (بوينس ايرس ١٩٦٧)؛ أندريس بيو الآخر (كاراكاس ١٩٦٨)، فن القصص (حوارات كاراكاس ١٩٦٨) بورغيس بقلمه نفسه (باريس ١٩٧٠)، وهو أستاذ الأدب الأمريكي اللاتيني والأدب المقارن في جامعة بيل.

بوضوح نتيجة لاهتمامهم في آن واحد، بالمستقبل الذي يقيمونه وبالماضي الذي يودون انقاذه ، هذه الحركة الدائرية المزدوجة (إلى الأمام ، وإلى الوراء) التي هي من سمات لحظات الأزمة .

لكن التماثل لا يمكن أن يمضي إلى أبعد من ذلك . فلكل واحدةٍ من الأزمات الثلاث خصائص بالغة التحديد وتوجّه المادة الأدبية باتجاه أهدافٍ بالغة الدقة ، ليست هي الأهداف نفسها للأخرى حتى حين يمكن اكتشاف بعض التشابهات السطحية بينها . لهذا السبب عينه ، وقبل أن نختر في السياق الراهن هذا النزاع بين التقاليد والتجديد ، والذي يسم بطابعه بوضوح تام الآداب الأمريكية اللاتينية الراهنة ، ويبدو لي أن من المناسب أن نلقي نظرة سريعة على المواجهتين اللتين سبقتاها ، بينما نحاول أن نأخذ في الاعتبار ، بصورة موازية ، مساعي واكتشافات هاتين المواجهتين ، ونقابل بينها وبين تلك التي تميز المواجهة الراهنة .

(ب) ثلاث أزمات وموقف مشترك :

إذا كانت أزمة الطليعة في أمريكا الهسبانية في سنوات العشرينات تحديثاً للمذاهب الأوروبية وتصفية حماسيةً لمذهب الحداثة ، في آن واحد ، (كان داريو هو الضحية النهائية لشهرته ذاتها) فقد كانت كذلك ، ولا يجب نسيان ذلك ، استكشافاً مرتبكاً لبعض القيم الأساسية في الفن الأدبي : حيث يكون التجريب التكنيكي محمولاً إلى أقصى حدود التدمير الكامل للشعر ، وما يقارب التدمير الكامل للغة (حالة هويدوبرو) ، والتأكيد الأكثر حدة على الطابع الخيالي ، التعسفي اللعبي *Lúdico* للفن القصصي (كما يُظَر له ومارسه إلى وقت قريب جداً خورخي لويس بورخس) ؛ والتفكك الباروكي للقصيدة وللشاعر ، لتكوين الجملية وللمجاز الذي كان يمارسه بعضهم بصورة داكنة (نيرودا في إقامة ، وبعض السخریات الملتهبة لفبايخو) ، الطليعيون بوضعهم موضع التساؤل تراثاً للحداثة كان قد أفسده صغار الكتبة ، أعادوا إلى الشعر والفن القصصي الهسبانو - أمريكيين اصراراً على الشكل في الوقت نفسه الذي كانوا فيه يتساءلون عن هذا الشكل نفسه ! لكن استكشافهم اللغة ظل في منتصف الطريق ، وكذلك

استكشافهم للقصيدة أو لفن القصة الروائي . ورغم إنتاجهم لأعمال رائعة ، بدا أن جهدهم الجماعي قد ضاع على الفور تقريباً . كما بدا أن أفضلهم (هويدوبرو ، وبورخس ، وفبايخو ، ونيرودا) قد ارتدوا سريعاً عن جهدهم التجريبي وبحثوا عن دروب أخرى .

وفي البرازيل ، جرت العملية نفسها بشكل أساسي ، لكن تحت تسمية مختلفة تماماً ، مما يجعل من المناسب إجراء تفرقة دقيقة . حيث أنه لا توجد حداثة بالمعنى الهسبانو-أمريكي للكلمة في الآداب البرازيلية لنهاية القرن ، فإن الطليعة التي يرميها من ساو باولو منظمو أسبوع الفن الحديث (يوليو ، ١٩٢٢) اتخذت هناك اسم حركة الحداثة . وهذه الطليعة باستنادها على المستقبلية والمذاهب الفرنسية ، وتطرح ليس فقط قطع كل الروابط مع فن القول والبلاغة البرتغاليين ، وتحديث الأدب البرازيلي بتكثيف الاتصال مع الطليعة الأوروبية ، بل تطرح (كذلك وفي المقام الأول) الشروع في اكتشاف وتفسير البرازيل . واتخذ هذا الاكتشاف لتحقيقه طريق اللغة ، والاساطير ، والابداع الشعري . والحداثة البرازيلية ، رغم أنها سرعان ما تم تجاوزها من جانب حركة ذات جذور أكثر قومية (هي حركة الفن القصصي للشمال الشرقي) ، كان لها أن تترك ، في أعمال أوزوالدي أندرادي ، وفي المقام الأول ، في أعمال ماريودي أندرادي ، شهادة قيمة على حيويتها . ورواية ماكوناïما Macunaïma (١٩٢٨) ، لهذا الأخير ، هي السلف الاجباري لتجارب أكثر جذرية ونجاحاً مثل رواية جيمارايش روزا ، السرتون الكبير : دروب Gran Sertón: veredas (١٩٥٦) . لكن إذا كانت طليعة الحداثة في البرازيل قد تلاشت هي الأخرى بعد انقضاء حماسة سنوات العشرينات ، فإن إنتاجها القصير المدى والمكثف يترك علامة هامة على جلد الأدب البرازيلي .

أما الانقطاع الذي يتركز في سنوات الأربعينات فقد اعتاد أن يتقن بطموح متسام . إنها سنوات الأدب الملتزم ، والفن المكافح ، والتنافس الامبريالي لعملاقين ثقافيين . السنوات التي يرتد فيها نيرودا ويتهرب من شعءه المعذب في

إقامة على الأرض ويكتب إسبانيا في القلب (١٩٣٧)، والقصائد الحربية للإقامة الثالثة (١٩٤٦)، ويخطط وينجز النشيد الشامل (١٩٥٠) مصرأ في شعره وفي تصريحاته العامة على ان الشعر سلاح قتالي، وأن الشاعر مدين للشعب، وأن المبدع الأمريكي اللاتيني عليه أن يركز جهده في النضال المناهض للإمبريالية. في هذه الأعوام ذاتها، لا يكتفي جورج أمادو، وهو واحد من أكثر روائي البرازيل شعبية، بكتابة سيرة الزعيم الشيوعي لويس كارلوس بريستس، بل يلقي مرساه في دورة روائية طويلة تتناول إنتاج الكاكاو وتضم روايات مثل، جوبيابا Jubiabá (١٩٣٥)، هي منشورات حقيقية للنضال الاجتماعي، والحقيقة ان نيرودا وأمادو قد وجدا نفسيهما مضطرين بعدها لتغيير جمالياتهما من أجل انقاذ أدبهما، وهذا يوضح بما فيه الكفاية أعراض الارتباك الذي ساد بعض جوانب الآداب الأمريكية اللاتينية خلال تلك العقود.

لكن تلك السنوات هي، أيضا، سنوات انتشار شعبية الوجودية (أو المذاهب الوجودية المتعددة). وهذا كافٍ ليوضح أن الالتزام الأساسي للكاتب لم يعد من الممكن أن يكون مجرد التزام سياسي، أو استراتيجي. ليس من قبيل الصدفة، إذن، أنه في حين يتجه جزء كبير من الأدب الأمريكي - اللاتيني صوب الجدل العقيم حول الالتزام engagement، المفهوم دائما تقريبا في حدوده الضيقة كحافز للفعل المباشر، نجد أن كتاباً آخرين أكثر أهمية في تلك الفترة (نيكانور بارّا وأوكتافيوباث، خوان كارلوس أونيتي وخوسيه ليثاماليا، خوليو كورتاثار وجوان جيمارايش روزا) لا تربطهم صلة بأشكال الطرح تلك للسياسة الأدبية.

ورغم الاختلافات الجمالية العميقة، يظهر في أعمال هؤلاء الكتاب انشغال متسامٍ يمكن أن تكون له جذور بالغة الاختلاف - الديانة الكاثوليكية عند جيمارايش روزا وليثاماليا، والانسانية الماركسية عند بارّا، والحدس العميق بالالهي، لكن دون كنائس، عند باث، والعبث والاغتراب عند أونيتي، والسخرية الميتافيزيقية عند كورتاثار - لكن هذا الانشغال يرسم بالتأكيد مجال بحث واحد: مصير الكائن، وطبيعته الخفية، وقذفه إلى العالم. وهذه هي الصلة

بينه وبين الهموم الأكثر عمقاً للسنوات الراهنة، والتي تأتي من فرنسا مع سارتر، أو تمتد إلى أبعد من ذلك بقليل: إلى السورالية وبريتون Breton مع جرعة طيبة من هيدجر Heidegger، عند اوكتافيو باث، Paz وإلى الأدب «الزنجي» لسيلين Celine وفوكنر، عند أونيتي Onetti وإلى جاري Jarry، ولوتريامون Lautreqmont وارتو Artu! عند كورتازار Cortazar، وإلى توماس مان، عند جيمارايش روزا، وإلى أودن Auden والغنائيين الانجليز لسنوات الثلاثينات، عند بارا، وإلى الباروك الإسباني والدون لويس دي جونجورا gongora، عند ليثاما ليما Lezama Lima. لكن مهما كان المنبع (المباشر أو البعيد) لهذا البحث، فإن ما يميز كل واحد من هؤلاء الكتاب هو تجاوزه للشرط المباشر للالتزام engagement وبحثه عن إجابة تربط عمله بالتقاليد العظيمة للثقافة العالمية.

في أعمال هؤلاء الكتاب يكون الالتزام الوحيد الصالح هو الالتزام بالابداع الأدبي. والغنيمة التي يبحثون عنها في قصائدهم أو في رواياتهم هي غنيمة شعرية بصورة قاطعة. وليس من قبيل المصادفة أن يكون ما هو موضع التساؤل في الكتب الأساسية التي ينتجونها (في بياض مثلما في الفردوس، في الحجلة مثلما في السرتون الكبير: دروب) ليس فقط وضع الإنسان في عالمه، وهي الموضوعات الأساسية والمحورية لهذه الأعمال، بل كذلك البنية الشعرية ذاتها، اللغة بقدر ما هي حد أو حافز للابداع، الشكل الذي أصبح لا ينفصل عن المحتوى حيث لا يوجد طريق آخر إلى المضمون إلا من خلال الشكل وبواسطته.

وفي أدب سنوات الستينات لا يعود الاشكال يُطرح. ولا يخلو الأمر، بلا شك، من قوميسيريين ما زالوا يدعون إلى أدب تعليمي وظيفي للنزال. لكن ما يميز حتى أدباً مثل الأدب الكوبي ابتداءً من عام ١٩٥٩ هو اصرار أفضل كتابه على ألا يتركوا أنفسهم يخضعون للنظام. فمن المقبول هناك اليوم أن يكون كاتب ما في خدمة الثورة. ويصنع عملاً يكون التزامه جمالياً محضاً. لهذا من المفهوم أن يؤيد كورتازار الثورة الكوبية لكنه يرفض بشدة أن يصنع أدباً للجماهير، وأن يُشجب بورخس بشكل عام من قبل اليساريين باعتباره كاتب الأرجنتين الرسمية، لكنه

يمتدح من قبل الناس أنفسهم باعتباره مبدع أقاصيص لا يضارع ، وأن ينشر ليثاما ليما (في قلب كوبا) كتابا باطنياً متقشفاً وملغزاً ليس ثورياً واضحاً ، وقد مضى كذلك إلى حد أن يكون على طرفي نقيض مع بعض الشعارات المعارضة للحرية الجنسية الكاملة .

هذا لا يعني القول بأنه لا توجد مشكلات ونزاعات (داخل وخارج كوبا) . فـكثير من المحركين الثقافيين مازالوا يؤمنون بالأدب البناء ، بأدب المعركة ، بالأدب في الخدمة المباشرة للمجتمع وللثورة . لكن أكثر المبدعين عمقاً واستقلالاً في هذه السنوات ، مهما كانت عقيدتهم وانتمائهم كبشر ، ناضلوا ومازالوا يناضلون من أجل أدب يكون التزامه الأسمى تجاه الأدب ذاته . بهذا المعنى ، فإن وضع المثقف والكاتب في أمريكا اللاتينية هو وضع ناقد لا ينفصل عن ملكة التساؤل بحماسة عن الواقع الموجود فيه .

من هنا فربما كان ما يميز عمل هذه السنوات ، في المقام الأول ، هو على وجه الدقة موقف التساؤل الراديكالي عن الكتابة ذاتها وعن اللغة . وإذا كانت طليعة الشعر الآن في البرازيل (كما قال باث بشكل لامع) ، فذلك لأن تلك الطليعة تُدعى «الشعر المحسوس» . وبالمقابل ، فإن الطليعة في الرواية توجد في كوبا ، وفي المكسيك ، وفي الأرجنتين ، علاوة على كونها في البرازيل . إنها طليعة لا تقوم بقطيعة كاملة مع أخصب أعمال العقدين السابقين (بل إنها تواصلها وتكملها ، بأكثر من معنى) لكنها تطرح عدم تضييع الوقت في البحث عن تسام للعمل أكثر من تسامي العمل ذاته . إن القصيدة ، أو الرواية ، لا تقول : بل توجد ، ويمكن أن يكون هذا هو الشعر الذي يجانس بين أعمال شديدة التفاوت مثل ثلاثة غمور حزينة ، وخيانة ريتا هايوارث ، والنواتج لنيكانور بارا ، أو القصائد المحسوسة لأوجستودي كامبوس ، وتجريب نستور سانشث في سيبيريا بلون وتجريب سبيرو ساردوي في من أين هم الممثلون ؟ تساؤل عن العمل نفسه ، عن بنيته وعن لغته ، تساؤل عن الكتابة وعن الورق خالق الكاتب ؛ تساؤل عن الوسط ، عن الكتاب وعن صف الحروف ، تساؤل شامل .

كل واحدة من الأزمات تعمق الانقطاع بين الكاتب وبين وسط يطالب الأدب بأن يكون أي شيء سوى الأدب . وإذا كانت الطليعة قد رفضت السوناتا ونزعة الاعتراف ، وإذا كان الأدب الوجودي قد حطم سحر الفن القصصي البناء ، أو الاحتجاجي ، ووجه اهتمامه باتجاه شعر شديد النقدية ، فإن أدب هذا العقد الأخير يتركز بصورة متعصبة في تحليل العملية الأدبية ذاتها . وفي كل واحد من تلك الانقطاعات ثمة انفصال حاد مع التقاليد المباشرة ، لكن ثمة في الوقت نفسه رباط مع أحد التقاليد السابقة . فحين يجرب الشعر المتعين مع الجانب البصري للموضوع «قصيدة» ، فإنه يبحث عن الشيء ذاته الذي بحث عنه هويدوبرو بتشكيلات خطوطه ، والتي تقبل النقاش لأسباب أخرى . كذلك يواصل الشعراء المحسوسون هويدوبرو حين يفككون الكلمة ويعيدونها إلى فتاتها من الأصوات ، ومن الحروف والوحدات المنعزلة . وبالطريقة ، نفيها ، فإن كثيراً من تجارب نستور سانتشت يمكن أن تكون غير مفهومة بدون معرفة مسبقة بتجارب خوليو كورتاثار .

أود أن أقول إن الانقطاع موجود لكنني أود كذلك أن أقول أن شيئاً يستمر ، ويتغير ويتسع . وعلى النحو نفسه يسعى الانقطاع إلى إقامة نوع من النسب . وليست الطليعة كلها رفضاً للماضي المباشر ، وإذا كان بإمكان نيرودا أن يعود إلى بليك ، فمن المشروع أيضاً أن ينقذ بورخس ماثيدونيو فرناندث من النسيان ، وأن يستحضر أويدوبرو وإيمرسون دفعة واحدة من أجل تسجيل أولى قصائده الأصلية آدم (١٩١٦) . إن الحركة المزدوجة التي يشير إليها باث ، نحو المستقبل ونحو الماضي ، تسمح بتكامل الانقطاع في إطار التقاليد . وكان إليوت قد رأى هذا بوضوح تام (في أحد مقالاته عن التقاليد والنبوغ الفردي) عند الحديث عن التحول المزدوج الذي يحدثه كل عمل رائع : فالعمل يستفيد من أحد التقاليد وفي نفس الوقت يحوله بعمق عند انضمامه إليه . إن وجود الكوميديا الإلهية يعدل بعمق قراءتنا للنشيد السادس من الإنياذة ، وكذلك للنشيد الذي ينادي فيه أوديسيوس الموتى ، في الأوديسه . لكن وجود بوليسييس ، هذه الأوديسه الحديثة

التي تصحح وتسخر من الأوديسه الكلاسيكية، تعدل كذلك رؤيتنا ليس لهوميروس فقط، بل كذلك لدانتي نفسه فزيارة ليوبولد بلوم وستيفان دايدالوس لماخور دبلن هي أيضاً هبوط إلى عالم الموت. لكن، هل نحتاج إلى قول المزيد؟

(ح) التجديد والثورة

إذا كانت العلامة التي تتسم بها الآداب الأمريكية اللاتينية لهذا القرن هي تقاليد الانقطاع (كما رأينا) فإن من المناسب أن نلاحظ أن هذه التقاليد ليست جديدة تماماً في الآداب الأمريكية اللاتينية. بالمراجعة الموجزة لمسار هذه الآداب، منذ الاستقلال، تسمح بتوضيح أنه مثلما هبت طبيعة سنوات العشرينات ضد الحداثة، ظهرت الرومانسية في أمريكا اللاتينية كرد فعل ضد الكلاسيكية الجديدة وضد التراث المدرسي الهسبانو-برتغالي. وجدال عام ١٨٤٢، في تشيلي، الذي يهاجم فيه سارمينتو تلاميد بيو، ويهاجم الأستاذ نفسه، عرضاً، هو عرض من أعراض ذلك الانقطاع، ويسهم في إقامة تقاليده. وغني عن القول إن الحداثة قد ظهرت بالطريقة نفسها في الآداب، الهسبانو-أمريكية باعتبارها انقطاعاً ضد كتبه (الرومانسية)، انقطاعاً يتمتع بكل شراسة الجديد (يجب أن نقرأ ما كتبه باليرا عن داريو لكي نفهم تماماً تفجر هذه الجدة، لكنه في نفس الوقت لا يفعل سوى بدء لحظة جديدة في هذه التقاليد التي ساهمت الرومانتيكية، في جيل آخر، في إقامتها. لهذا السبب عينه، فإن الطليعة حين تقوم بالقطيعة مع بقايا الحداثة، فإنها تساهم مرة ثالثة في العملية نفسها.

إن ما يكمن وراء هذا التجديد، الذي يكاد يكون طقسياً، لعملية سارمينتو بيو، أو يهاجم داريو الشويرين المترهلين الهسبانيين، فإن ما يجري هو عملية طبيعية أو حتمية تماماً: تقاليد مستنفدة توضع موضع التساؤل، ويعاد تقييمها، وتُقلص أو تُصَفَّى في كثير من مقولاتها، ويدخل حيز الصلاحية مكانها اجتهاد جديد، وتقاليد جديدة. وغني عن القول إن عملية هذه الجذرية (لا تتحقق أبداً دون فضائح. فظلم بورخس لداريو يعادل ظلم سارمينتو تجاه بيو. ومن العبث أن يكلف أدق تبحر نفسه عناء إظهار (وهو أمر سهل) أن بيو لم يكن عدواً

للرومانتيكية، بل إنه كان يعرف الرومانتيكية أفضل من سارميينتو. فصورة بيّو قد تغيرت نتيجة الضوء الذي تلقّيه عليها الكلمات الجدالية الملتهبة للكاتب الأرجنتيني. «إننا نحن الشعراء نقف مع سارميينتو»، هكذا قال لي ذات مرة بابلو نيرودا مستحضراً جدال ١٨٤٢ الشهير. لكن ما لم يكن نيرودا يعرفه في تلك اللحظة هو أن شعره حينذاك (١٩٥٢) كان يعتمد بالقدر نفسه تقريباً على الرؤية التعليمية والكلاسيكية الجديدة التي دافع عنها بيّو، وعلى الدفاع الحار عن اللغة الشعبية والتعبيرات الجديدة الذي قام به سارميينتو. والمفارقة النهائية هي التالية: عند العودة إلى الماضي بحثاً عن تقليد يسمح بتدمير تقليد أحدث اعتاد خالقو الانقطاع الاختيار في إطار مواقف كانت تناحرية في زمنهم وحيدها الزمن الآن. ومثل اللاهوتيين المتناحرين، في قصة بورخس الشهيرة، يمكن لتلك التقاليد أن تكتشف أن اختلافاتها تحت بصر الرب (الكلّي القدرة اليوم) هي اختلافات دنيا، وأن الطوائف تختلط في نهاية الأمر، وأن الكل واحد.

لكن النظرة المعاصرة، على نقيض ذلك، تبالغ في الملامح الخاصة، وتمحو التماثلات، وتشدد على التناحرات. من هنا نجد الطليعة عنيفة مع داريو، ونجد الوجوديين يحرقون بورخس، ونجد كثيرين من قصاصي اليوم لا يتحملون كاربنتييه. لكن هذا أيضاً هو السبب في أن بعضاً من أكثرهم وضوحاً قادرون على الاعتراف بالمادة التي يمكن الاستفادة منها في الماضي القريب. هكذا يتخلى كورتاثار عن كل السخط القاتل تجاه بورخس وينسخ (بأسلوبه وبمنظوره الخاص) كثيراً من قصصه، كما ينقل سييرو ساردوي بأقصى الحماس البنيوي الاكتشافات، والحدس المختلط، واللهب المجازي لليثاماليا. وفي البرازيل ليس العمل المتكشف لجواو كابرال دي ميلو نيتو شديد البعد كما يبدو عن التجارب الجذرية للشعر المحسوس، كما يتحقق كثير من مقولات ماريودي أندراي، وفي أي بعد، في الرواية الرحبة لجيمارايش روزا.

انقطاع وتقاليد، اتصال وتجديد: المصطلحات متناحرة لكنها في الوقت ذاته مرتبطة بصورة عميقة وسريّة. لأن الانقطاع ليس ممكناً إلا عن شيء، والتجديد

ليس ممكناً إلا لشيء، وللخلق باتجاه المستقبل يجب في الوقت نفسه الرجوع باتجاه الماضي. الفرق هنا أن هذا الرجوع ليس عودة بل إسقاط للماضي من خلال الحاضر على المستقبل. ومن هنا جاء العنصر الثوري جذرياً لتقاليد الانقطاع هذه. وجدير بنا أن نوضح هنا أن الأمر ليس أمر ثورة بالمعنى الذي اعتادت الكلمة استحضاره في النصوص السياسية. فالثورة السياسية تسعى، بدرجة كبيرة، إلى التحقق أيضاً ضمن سياق ثورة ثقافية، لكن هذا السياق ليس من المعتاد أن يبقى فترة طويلة. وتجربة الثورة الروسية التي اتجهت نحو الستالينية والأشكال الأكثر اعتيادية في الفن الموجّه (واقعية) اشتراكية، إلخ) واضحة بدرجة كافية. وبالمقابل فإن تقاليد الانقطاع ثورية بصورة عميقة لأنها لا يمكن أبداً أن تتحول إلى مؤسسات ولا تقبل التوجيه بيروقراطياً. وحتى حين يحاول الشعراء أنفسهم تنظيمها (كما حدث في السورالية الفرنسية، أو في بعض المدارس العابرة للطليعة الأمريكية اللاتينية) فإن التقسيم الفرعي إلى فرق، والجدال بين الأجيال، والأشكال المتغيرة الأخرى للانقطاع تنتهي بأن تفرض نفسها.

إن الثورة التي نعنيها هنا هي ثورة أخرى: إنها الثورة التي تطرح التساؤل عن الأدب من جانب الأدب ذاته، وعن الكاتب من جانب الكاتب ذاته، وعن الكتابة واللغة من جانبها ذاتها. إنها ثورة دائمة، بتعريفها، ولا يمكن توضيحها إلا باعتبارها حركة.

لقد انتهجت الآداب الأمريكية اللاتينية منذ أصولها عند الاستقلال (قبل ذلك يمكن الحديث عن أدب مكتوب في أمريكا اللاتينية، لكن ليس عن أدب أمريكي لاتيني) تقاليد الانقطاع تلك. لكن لم يحدث أبداً أن كانت تلك التقاليد أكثر حيوية مما هي عليه خلال هذا القرن، ولم يحدث أبداً، منذ أن استقطب انتصار الثورة الكوبية سياسياً ثقافة هذه القارة، أن وجدت تلك التقاليد نفسها في مواجهة المسؤولية الكبرى في أن تكون وتظل ثورية أصيلة. أي نقدية.

[٢] التساؤل عن البنى

(أ) إنقاذ أشكال منسية

إذا كان ثمة ما يميّز التجريب الأدبي لهذه السنوات الأخيرة فهو بحثه النقدي لا داخل الأدب ذاته فقط (إنقاذ أشكال منسية، ونفى الحدود بين الأنواع الأدبية) بل، وبشكل أساسي، خارج الأدب. ويبرر موقف التساؤل دروب البحث هذه، ويوجّه الكثير من الاكتشافات. وليس ممكنا في هذا العمل إجراء تقييم شامل لهذا البحث المزدوج. لكن باستطاعتنا أن نشير هنا إلى بعض مظاهره الأكثر وضوحا. ومن المناسب أن نبدأ بإنقاذ الأشكال الأدبية المنسية لأنها توضح إلى أي درجة يعنى التجريب كذلك عودة باتجاه الماضي، عملية إعادة تقييم وإنقاذ.

ثلاث من الأشكال « المنسية » التي أنقذها الأدب الجديد هي: القصة المسلسلة، والحكاية الشعبية، والشعر القصصي والحوارى. وفي حالة القصة المسلسلة ربما كان ألمع مثال لها هو عمل الروائي الأرجنتيني مانويل بويج. ورغم أنه لم ينشر سوى رواية واحدة هي، خيانة ريتا هابوارث، فإن من المعروف أن بويج يعمل منذ مدة في رواية ثانية وهي أفواه صغيرة ملونة (وقد انتهت فعلا)، ولديه رواية ثالثة لم تكتمل. وفي الخيانة، مثلها في أفواه صغيرة ملونة، يضع مانويل بويج فنه القصصي على مستوى شبه الأدب ذلك المصنوع للاستهلاك «الشعبي»، والذي تستبين مظاهره المعروفة في الحلقات (الإذاعية، والتليفزيونية، أو المطبوعة:، وفي الافلام العاطفية المفرطة، وفي كلمات الأغنيات الشعبية، في التانجو أو البوليرو، على سبيل المثال، إنه يعرض في (الخيانة) بحسٍ مرهف جدا للأسلوب الشفهي في تلك الأشكال، لوحة شاملة لمستهلكي تلك التنوعات المختلفة لنفس الاغتراب القصصي نفسه. ويتركيز بصره على عائلة تصطحب الأم فيها ابنها الصغير، توتو، إلى السينما كل مساء، لتخفيف سأم المقاطعة، خلق مانويل بويج نوعا من مدام بوفاري من زماننا. وإذا كانت شخصية فلوير مغتربة بواسطة الأدب المصطنع للمذهب الرومانتيكي فإن شخصية بويج مغتربة بواسطة تمثيلات الإذاعة، والسينما التجارية، والقصص

المسلسلة . وفيما عدا الخيانة فإن التكنيك نفسه مصطنع في أفواه صغيرة ملونة . هنا يحمل مانويل بويج السخرية إلى آخر مداها . وبقدر ما نجد أن الخيانة (من الناحية الشكلية ، على الأقل) تندرج في تقاليد جويس (صورة الفنان في شبابه) ، وآيفي كومبتون - بيرنت وتلميذته ناتالي ساروت ، فإن أفواه صغيرة ملونة ، هي شكليا ونوعيا ، قصة مسلسلة . فالبنية الخارجية للكتاب ، وليس فقط رؤيته أو لغته ، تعكس بصورة رائعة القصة المسلسلة . والفرق اننا نجد في أفواه صغيرة ملونة - كما في كل سخرية تحترم نفسها - المقدار المضبوط من اليأس الذي يسمح بتميز بويج بالطبع ، ولنقل عن كورين تبادو Corin Tello .

الحكاية الشعبية أصبحت ، كما هو معروف ، في مركز كل فن قصصي . لكن الطبقات المترابطة من التعقيد التي ألحقها الغرب بذلك الشكل ، منذ قرر سرفانتس أن يتأمل لا الواقع الإسباني لعصره فقط في الكيخوته ، بل أن يتأمل كذلك العمل نفسه داخل نصه ذاته (وهي المحاولة التي ربطها ميشيل فوكو بمحاولة فيلاشكيث [فيلاسكينز] في لوحة الوصيفات) وكل تقاليد الرواية النقدية (من ستيرن الى كورتاثر) كانت قد أشارت الى طريق يترك الحكاية الشعبية بعيدة جد البعد . لهذا السبب نفسه يبدو من المبهر جدا أن تعود الحكاية الشعبية إلى موضعها في اثنتين من أكثر التأليف الروائية إثارة للدهشة خلال الأعوام الأخيرة . وأشير بالطبع ، إلى السرتون الكبير : دروب ، لجوان جيما رايش روزا ، وإلى مائة عام من العزلة لجابرييل جارتيا ماركيث .

لأول وهلة ، ليس ثمة شبه كبير بين الروائيتين اللتين ، من ناحية أخرى ، تم إدراكهما وإبداعهما باستقلال كامل لكل منهما عن الأخرى . وانعدام الاتصال بين البرازيل وسائر أمريكا اللاتينية يوضح كيف أن كتاب جيما رايش روزا ، المنشور عام ١٩٥٦ في البرازيل ، لم يبدأ في الوجود بالنسبة للآداب الهسبانو - أمريكية إلا ابتداء من ترجمته إلى الإسبانية التي قام بها أنخل كرسبو عام ١٩٦٧ . يضاف إلى انعدام الاتصال المذكور ، في هذه الحالة ، صعوبة القراءة التي يطرحها نفس نص روزا . لكن إذا كان جيما رايش روزا وجارتيا ماركيث قد أبدعا روايتيهما مديرين

ظهريهما أحدهما للآخر فإن روايتيهما تتأملان وتعكسان بعضهما على نحو ما .

وبقدر ما يركز جيمارايش روزا اهتمامه على حكاية شاب يبحث عن هويته من خلال هوية أبيه المجهول (مما يقرب روايته من رواية بدرو بارامو لرولفو، لو لم تكونا مختلفتين لدوافع أخرى كثيرة) . يركز جارثيا ماركيث روايته على حرفة الحرب لدى الكولونيل أوريليانو بوينديا، ويضفي على هذه الحرفة الإطار المدهش للمحمة عائلية . وبينما يكون روزا كل روايته بدءاً من رؤية دينية أساساً (فالبطل يعتقد أنه قد عقد حلفاً مع الشيطان، وله علاقة جنسية مع شاب يعد بمثابة ملاكه الحارس)، يتجنب جارثيا ماركيث التضمينات الدينية لروايته ويفضل بناء رؤية ميتافيزيقية - جمالية للعزلة مفهومة على أنها اغتراب اجتماعي واغتراب كوني في آن واحد («السلالات المحكوم عليها بمائة عام من العزلة»، هكذا يشير في ختام روايته) . وبينما يقص روزا حكايته بدءاً من مونولوج البطل لا يتخلى جارثيا ماركيث عن امتيازات الراوي الشامل والكلي القدرة : فكتابه، في جملة واحدة، نموذج كامل لكتابة المؤلف .

وإذا طورنا تفرقة أشار إليها رولان بارت بين الكتابة والكلام، أمكننا القول إنه في حين يكتب جارثيا ماركيث كتابه، فإن روزا يتكلمه . وواضح أن التفرقة ظاهرية أكثر منها حقيقية، كما سنرى فيما بعد، لأن الاختلافات التي أشرنا إليها لتونا بين الكتابين (وغيرها مما يمكن الإشارة إليه) لا تخفى الحقيقة الأساسية في أن كليهما يرتبط بتقليد للحكاية الشعبية ويسعى، بطرق مختلفة بالتأكيد، ليس إلى تجديده فقط بل كذلك إلى إنقاذه . لهذا فإن جارثيا ماركيث مثله مثل جيمارايش روزا يتخذ نقطة انطلاقه موقفاً أساسياً في الحكاية الشعبية . في إحدى الحالتين يكون هذا الموقف هو الحلف مع الشيطان، وفي الأخرى اللعنة التي تسقط على أفراد سلالة : سيكون لهم أبناء بذيل خنزير إذا تزوجوا المحارم . وعلى أساس هذا التخطيط الأولي يقيم كل من روزا وجارثيا ماركيث بنيتين تستنسخان (دون أن تكررًا خيالياً) بنية الحكاية الشعبية .

في حالة روزا، المونولوج الشفهي، الاعتراف، التدفق الحر لمن يحكى مارآه

وسمعه، وخبرة كذلك. وفي حالة جارتيا ماركيث، النصيحة، حكاية الجذّات، الأقصوصة بموعظتها الحتمية. وليس من قبيل الصدفة أن تكون المنابع القصصية لكلا الكتاين كامنة في تجربة تجد جذورها في العالم، الفولكلوري، لداخل أمريكا اللاتينية. إذا كان جيها رايش روزا قد أنصت إلى المادة الأولية لروايته من شفاه عمال المناجم mineiros المتمهلين في أيام وليالي عمله كطبيب ريفي في ولاية ميناس جيرائس، فإن جارتيا ماركيث قد سمع من شفتي جدته، قبل أن يبلغ الثامنة، تلك القصص الرائعة التي ستشكل، بعدها بسنوات، المادة المتوهجة لقصصه ورواياته.

(ب) ذوبان الأنواع الأدبية

كانت طليعة سنوات العشرينات قد وضعت الشعر الحوارى بين المخلفات الشعرية التي يجب التخلص منها مرة واحدة وإلى الأبد. وفي إدانة شهيرة للردائل الأدبية في زمنه كان بورخس قد أعلن حوالي عام ١٩٢٥ إلغاء الشعر الحدى ليس فقط لنزعة الاعتراف والـ«عدة الزخرفية» (آه، ياأرواح كيفيدو وفياريل) Villaroel y Quvedo ، بل كذلك «للإسهاب»، أو بالأحرى للحكاية. ورغم ذلك فقد دفعه تطور شعره ذاته أكثر من مرة نحو الحكاية (و«الجنرال كيروجيا يمضي في عربة إلى الموت»، يمكن أن تكون مثالا بديعا)، أما بالنسبة لنزعة الاعتراف فإن كل شعره خلال العقدین الأخيرين هو اعتراف، وجداني بطريقة مرضية لا يمكن تجنبها أحيانا، بوضعه الإنساني المحدود. لكن لا يهم الآن الإشارة إلى تناقضات بورخس («مؤكد أنني أناقض نفسي، فأنا بشر»، هكذا قال في حوار مؤخرا)، بل تحديد نقطة انطلاق. إن ما كان لعنة خلال العشرينات كان عليه أن يتحول إلى ممارسة عادية خلال الأعوام الأقرب.

هل يكون من السهل أن نتبع خطأ يمر خلال نيرودا في بعض قصائد الإقامات (أفكر في تانجو الأرمل، على سبيل المثال)، ونيكانور بارّا في قصائد وقصائد مضادة (لا تنس أنه من عام ١٩٥٤)، وكذلك خلال أوكتافيوباث في الفصل البنفسجي (١٩٥٨)، ليصبّ في شعر قصصي، في شعر لا يستبعد فيه بصورة

منهجية ماهو «حوارى» بل يشكل جزءاً من ذات الإبداع الشعري . لكنني بدل أن أتبع بانوراما أدبية عامة، مستحيلة في حدود هذا العمل، أفضل أن أشير الآن إلى طريقين، مختلفين لكنها متكاملان، لذلك الشعر الذي ينقذ شكلاً منسياً. أحد الطريقين هو الشعر العامي الذي يضم بالطبع الحكاية مع الغنائية. وفي عديد من قصائد المكسيكي سلفادور نوبو نجد نغمة الشعر المنطوق، أو الحوارى الذي كان له أن يتطور في ريودي لابلاتا بتوفيق فريد. وفي أعمال شعراء مختلفين قدر اختلاف سيزار فرناندث مورينو، وإيديا بيلارينيو، وخوان خيلمان من الممكن أن نجد نبرة من ريودي لابلاتا تنقذ من أجل الشعر تأثير التانجو واللغة الشعبية، أو اللهجة الأرجنتينية ونجد ذلك مع اهتمام أكثر بالأسلوب عند الشاعرة الأوروغواية، كما نجده ببراجماتية وتعليمية أكثر لدى خيلمان، لكن ربما بلغت هذه اللغة الجديدة، أو هذا الشكل الجديد أكثر تعبيراته ثراء في آخر كتب فرناندث مورينو.

في (أرجنتيني حتى الموت) ثمة حد أدنى من الحوار لكنه متسق: إنها تجربة الشاعر الذي يترك وطنه، ويجوب أوروبا ويعود بعدها ليتعرف بشكل أفضل على هوية مشار إليها في عنوان الكتاب وذلك بفضل صيغة مذكورة كما وصفها جيدو إي سبانو، بنوع من السخرية والعاطفية في آن واحد، هنا نجد الحدث في حد أدنى، والحكاية لا تكاد توجد، وكل شيء متمركز حول صيغة شخصية. لكن الوسائل الشعرية التي يلجأ إليها فرناندث مورينو، واللهجة العامية المقصودة للنص ولغته المتكلمة الحية التي لا تخشى حتى العامية الأرجنتينية تضع القصيدة في تتابع وجودي (يكاد يكون) تتابع رواية. من هنا الرابطة المتوقعة مع الشعر الحوارى. وليس صدفة، إذن، أن يستكمل هذا الكتاب في كتاب آخر، هو (المطارات)، يقدم «دفعة» جديدة (أو حلقة) من التجربة الوجودية نفسها، التي تحمل شخصية الشاعر، تحمل «شخصه»، إلى مرحلة أكثر تقدماً.

أما الشعر الحوارى بصورة أشد إصراراً فهو الشعر الذي يمارسه شعراء آخرون في زماننا. وكتوضيح كافٍ لهذا الطريق الآخر سأذكر عمل اثنين: أحدهما

برازيلي، والآخر مكسيكي. فمن أجل قص حكاية إحدى ضحايا الجفاف الدوري في الشمال الشرقي في رواية (حياة وموت سيفيرينا) Morte e Vida Severina، يستخدم جوان كابرال دي ميلونيتو الوسائل الأساسية للحكاية بالشعر. وحكايته حكاية تحكى ولا تغنى فقط، وفيها تلخص (بوضوح ودقة ثوريتين يجعلان العمل أكثر كثافة). كل الموضوعات التي استكشفها عديد من الروايات وحتى الأفلام عن الشمال الشرقي بتفصيل شديد، لكن ليس بالفعالية نفسها. وملايسات تحويل قصيدة ميلونيتو إلى مناظر، وتلحينها من جانب تشيكو بواركي دي هولندا، تؤكد طابعها الحوارى وتبين إلى أي درجة يمكن لشكل «منسى» أن يكون صالحاً في زمننا بدرجة أكبر حتى من الأشكال الأكثر انتشاراً.

أما بالنسبة لـ برسيفوني، للمكسيكي هوميرو أريدجيس، Homero Aridjis، فهنا تنمحي تماماً التميزات بين الرواية والقصة من ناحية، والشعر الغنائي من ناحية أخرى. وبرزيفوني، الرواية - القصيدة، أو القصيدة القصصية، هي نص ذو خصائص شعرية رفيعة يطور في عدة تتابعات موجزة موضوع الحب الجنسي. والنص، المكتوب بعد مجموعة القصائد التي تثير الإعجاب والمعنونة: ناظراً إليها وهي نائمة: يوسع إلى نقطة معينة الدلائل الجنسية التي يطرحها هذا الكتاب. لكن هوميرو أريدجيس الآن مهتم بإصرار باستكشاف مزايا القصص الأسوأ صيتاً. ففي برسيفوني لا نجد فقط زوج المحبين، بل كذلك صاحب الماخور والنساء الأخريات، والزبائن، والعالم الخارجي نفسه الذي يحيط، ويلف ويحدد الشخص. لأن برسيفوني ليست هي الشخص ذاته في مجال الجنسية المغتربة للماخور مثلما هي في أمان الغرفة التي تغلق عليها مع الراوي، حبيبها، ليست الشخص نفسه في ضوء الوكر المجذوم، مثلما هي في ضوء الصباح الرائق. ولأنها رواية دون عقدة كافية، وقصيدة ذات عناصر روائية أكثر مما يجب، فإن برسيفوني لا توضح فقط إنقاذ (وإعادة كتابة) نوع أدبي منسى، بل توضح كذلك تطوراً جديداً للأدب الراهن: إنكار الحدود الصريحة بين الأنواع الأدبية. لكن هذا موضوع يتطلب تطويراً على حدة. فإذا كانت

برسيفوني تتأرجح بين الرواية والقصيدة، مبررةً على طريقتها تأكيد أوكتافيو باث أنه لا توجد تفرقة صالحة بين النثر والشعر، فإن من المناسب أن نعلن أن عمل أريدخيس هو أحد أعمال كثيرة توضح اليوم استحالة التمييز بين الأنواع الأدبية المختلفة للبلاغة الكلاسيكية. والموضوع ليس جديداً، ولا حتى في قرننا، فقد ناقشه بصورة مرضية بنيديتو كروتشي، وفي أعقاب الفونسو ريس A. reyes. وما يهمني الإشارة إليه هنا ليس الأساس النظري لهذا النقاش بل تطبيقه العملي على واقع أدبي هو كل يوم أكثر وضوحاً: فلم تختلف الأنواع الأدبية تماماً، لكن حدودها تأخذ في التغير، وتنمحي حتى لا تعود تميز بعضها عن بعض، منتجة أعمالاً لم تعد تنتمي إلى فئة واحدة.

أين نضع، مثلاً، الخالق لبورخس؟ إنه كتاب للنثر والشعر يضم صفحات نثرية لها قوة القصيدة، وبها المادة الوهمية والمجازية نفسها، وقصائد من نثرية لا خلاص لها، ربما كان من الممكن أن تصبح أفضل عن طريق نثر سلس، وأقاصيص بالشعر أو بالنثر (كتبت بصورة لا مبالية). لكن، بالأحرى، فإن كل صفحة من الكتاب تمثل نوعاً أدبياً لا تعرفه البلاغة الكلاسيكية لكنه النوع الأدبي الوحيد الذي يبرر الوضوح السحري، وفزع قراءتها الذي يسبب الدوار. والكتاب عبارة عن «اعتراف». إذ بالنسبة لبورخس، في نهاية مهمته كمجرب أدبي في الأنواع الأدبية الرئيسة الثلاثة (القصيدة، والمقال، والقصة)، فإن الاعتراف هو الشكل النهائي.

لكن المثال الأكثر إثارة للدهشة على هذا التراكم والعدوى بين الأنواع الأدبية، واللذين يسمان الأدب الراهن، وبما كان موجوداً في بعض التجارب التي أجرتها في بوينوس آيرس باسيلييا باباستاماتيو B. Papastamatiu. فنصوصها الحرة، المجموعة في كتاب التفكير العام (١٩٦٥)، وفي المقام الأول قراءة له «ديانا» (في Mundo Nuevo، العدد ٨، باريس، فبراير ١٩٦٧)، توضح إلى أي درجة يمكن الاستغراق في استكشاف للأشكال الأدبية يؤدي إلى تفكك حقيقي للتصنيفات البلاغية المسماة باسم «الأنواع الأدبية». ففي كتابها قراءة

«ديانا»، وهي قصيدة مونتيمايور الشهيرة، لا تكتفي الكاتبة الأرجنتينية بإيراد شذرات، مزاحة عن موضعها ومقدّرة استقرايًّا بصورة مناسبة، من النص الكلاسيكي، بل إنها تُعديها بتطويراتها الشعرية الخاصة. تطويرات هي، في نفس الوقت، تعليق نقدي على النص، ومقابلة، ونص إضافي ونص مضاد، لكنها كذلك عمل مستقل فريد في إبهاره. هنا يقدم النص التمهيدي (ديانا) نوعاً أدبياً، هو الشعر، ليحفز نقيضه: النقد، لكن هذا النقد لا يتحقق بالطريق المعتاد للحواشي والتأويل المنطقي بل بالطريق الملتوى، الذي لا يقل خصوبة، للكولاج Collage، للمقابلة، للتأمل الخيالي، للنقدي والابداعي في آن واحد.

وفي المسرح كذلك، يبدو واضحاً البحث في هذه الدروب ذاتها. فإذا كانت مدرسة العبث (التي لها بين ظهرانينا أتباع مثيرون للاهتمام مثل ايساك تشوكدون، وخورخي ديث، وخوسيه تريانا، وخوخي بلانكو) تبدو كأنها مازالت مقيدة بنص، سواء كان هذا النص مفهوماً بوصفه مادة أولية لعرض طقسي أم لا، فإن الخط الآخر للتجريب يشير بصورة قاطعة إلى إلغاء الفروق البلاغية بين الأنواع الأدبية في نفس الوقت الذي يوضح فيه استيعاباً لأشكال تعبيرية فوق-أدبية. فعن طريق الـ happenings (العروض التلقائية المفتوحة)، أخذت مارتا مينوخين في بوينوس آيرس ومواطنتها كوبي في باريس في تطوير نشاط مسرحي يصبح فيه العنصر الأساسي للدراما، وهو الكلمة، ضائعاً إذا لم يختف تماماً أمام أولوية عناصر العرض. أما الفرقة المسرحية التي يديرها الأرجنتيني رودريجيث آرياس فإنها، معيدة إلى الكلمة قيمتها الحاسمة، قد أنتجت في دراكولا نصاً إذا كان، من ناحية، سخرية من السينما الصامتة، وكذلك سخرية من السخریات من السينما الصامتة، فإنه كذلك تجربة تريد أن تخلق بنية مسرحية تكاد تعتمد كلية على طريقة الإلقاء الشكلية جداً لنص قصصي أساساً. لأن ما يفعله رودريجيث آرياس في دراكولا هو حرمان المسرح من شرط الصراع أو الرياضة اللفظية. وشخصه ليست كذلك: لا يصارعون، بل يقتصرون على تلقي المعلومات عن أحداث تجري خارج المشهد أو يمكنها أن تجري خارجه، أو

على التعليق على تلك المعلومات بأشد الصور الممكنة سلبية . بمعنى أنه إذا كان أرسطو قد استطاع تعريف الدراما باعتبارها تقديم الحدث بواسطة الحدث نفسه فإنه بقدر ما تقدم الملحمة الحدث بواسطة الكلمة يكون هذا مسرحاً ملحماً ، رغم أنه ملحماً بمعنى أكثر حرفية مما اقترح بريخت . وفي الحقيقة . فإن توفيق رودريغث آرياس (وهنا لا أتحدث عن النوعية النهائية للعرض ، فهذا أمر آخر) يكمن في أنه قد حدس أنه في هذه الفترة من التساؤل الشامل عن الأنواع الأدبية ، يجب على المسرح باعتباره حدثاً مقدماً أن يفسح المجال للمسرح باعتباره حدثاً يتم التعليق عليه ، أو مجرد شرحه . بهذا المعنى ، فإن عمله تجريبي بشكل أصيل ويفتح طريقاً أكثر إثارة عن طريق مجرد الأحداث * happenings . ففي هذا الطريق الأخير ، طريق الـ happenings ، محل الحدث محل الكلمة ، مما يفصله بصورة حاسمة عن الأدب .

(ح) الشعر المحسوس والتكنولوجيا

إذا كانت الـ happenings تنتهي بأن تعيد المسرح إلى مختلف أشكال العرض (دون استبعاد الاستعراضية الشبقية أو الطقس العرّيب) مؤكدةً بهذه الطريقة السلبية العدوى التي تصيب الأدب من الفنون الأخرى ، فإن الشعر المحسوس على العكس من ذلك يطرح استيعاب الأدب لفنون من الواضح أنها خارجة عنه ، لكنها ، على نحو ما ، يمكن أن تفيده وتثريه . وأشير إلى الفنون التشكيلية والموسيقا .

وليست هذه مناسبة سرد التاريخ (القصير لكنه الغني) لحركة اخترقت كاللهب في أقل من عقد من الزمان شعر القارات الخمس . تكفي الإشارة إلى أن أحد مصادرها ، وأكثر مراكز إشعاعها قوة ، هو البرازيل . ورغم ظهورها في عدة بلدان

* : happening الكلمة الانجليزية تعني حرفياً الحدث أو الحادثة أو المناسبة . لكننا فضلنا إبقاءها كما هي لأنها في المسرح تعني عرضاً لحدث تلقائي ، أو عرضاً يتكون من مجموعة أحداث غير مترابطة تجمع فيه عناصر من الحياة اليومية بطريقة غير واقعية وعادةً ما يتضمن مشاركة الجمهور - [المترجم] .

في الوقت نفسه تقريباً (في إيطاليا مع كارلو بيلولي، Belloli وفي سويسرا مع ايوجين جومرينجر Gomringer ، وفي السويد مع أوفيند فالستروم، Oyvind Falstrom وفي البرازيل مع الأخوين دي كامبوس) De Campos، فما لاشك فيه أن قدراً غامضاً يجعل هذه الحركة خاضعة لعلامة لغات العالم الجديد: فبينما يولد جومرينجر في بوليفيا ويكتب بالإسبانية قصائده المحسوسة الأولى، يقضي فالستروم السنوات الثلاث الأولى من حياته في سان باولو. من هنا فإن أولئك الشعراء الذين كانوا سيطورون تجاربهم في سياق لغات أخرى يبدوون وكأنهم يحملون من الأصل المصير الأمريكي اللاتيني. هذا التأصل الروحي في العالم الجديد مدين برمزيتته المتجاوزة للواقع لخوان لاريا.

لكنني لا أحاول بهذا القيام بتأميم عبثي للشعر المحسوس. فهذا الشعر بطبيعته ذاتها عالمي بصورة حاسمة ولا يتجاوز الحدود النحوية فقط، بل كذلك الحدود بين الفنون. وحين يتتبع الأخوان دي كامبوس وديسيو بيجناتاري Dicio Pignatari رسم نسب لتجربتهم فإنهم يستحضرون على وجه الدقة الشعر الأنجلو-سكسوني (أ.أ. كمينجز وباوند وجويس)، يستحضرون كذلك سينما آيزنشتين وموسيقا فيبر. ومن ناحية أخرى، فإن الاسم نفسه الذي اختاروه لتسمية مجموعتهم، وهونويجاندرز Noigandres، هو كلمة غامضة تصلهم من التروبادوري البروفنسالي آرنو دانييل عن طريق عزرا باوند (النشيد ٢٠). لهذا فإن من المشروع التأكيد على الأصل الأمريكي اللاتيني بشكل غالب والبرازيلي بوجه خاص لهذه الحركة، دون التخلي عن التشديد على عالميتها. إنه عالمي لأنه أمريكي لاتيني، هذا ما يجب قوله مفسرين التناقض.

إن انتشار الشعر المحسوس، بدءاً من التجارب المنعزلة التي يقوم بها بيلولي في إيطاليا، أو فالستروم في السويد، والتي سيصوغها في نسق وينسقها فيما بعد من البرازيل وسويسرا جومرينجر وماكس بونس وكذلك الأخوان دي كامبوس وديسيو بيجناتاري، تكشف علاوة على ذلك عن ملمح آخر يميز بشدة الأدب الأمريكي اللاتيني الراهن وهي: مهمته العالمية التي ليست سوى الوجه الآخر

لتلك الحداثة التي طاردها داريو والتي جعلت هويدوبرو يهذى تلك الحداثة التي شدد عليها أوكتافيو باث باعتبارها الملمح الأخير لعرضه الذي يثير الإعجاب للوجود المكسيكي (والأمريكي، جزئيا) في عمله تيه الوحشة (١٩٥٠). إننا نحن الأمريكيين اللاتين ولأول مرة معاصرون لكل البشر، هكذا أعلن باث حينئذ. وقد سمح تطور وانتشار الشعر المحسوس بإبراز ذلك.

لكن ثمة ، في هذه التجربة البصرية، واللفظية، والصوتية في آن واحد، شيء أكثر من أهمية شعرية جديدة. ففي المقام الأول، يقبل الشعر المحسوس تحدى التكنولوجيا وبدل الارتداد عن الثورة الصناعية الجديدة، يطرح استخدامها لخدمة الشعر. ولهذا الجهد (مثل كل جهد) تقاليده. فلم يبحث هويدوبرو Huidobro عن شيء آخر، في أعقاب أبوللينير، ودادا، والسورياليين، وكذلك المستقبلين، رغم نفيه لأسباب تتعلق بمجرد إستراتيجيات المدارس، هذه المصادر والموازيات مرات عديدة. إن ما بحث عنه هويدوبرو، ذلك الصعود للتكنولوجيا عبر السمو بالمكان والسرعة، ذلك التحول للشاعر إلى مظلي للفراغ الخيالي، والذي تشهد عليه بحرارة قصيدته التاثور (١٩٣١)، هو بالضبط ما طرحه بشكل منهجي الشعراء المحسوسون.

وغنى عن القول إن انعدام الاتصال الشهير بين البرازيل وبقية أمريكا اللاتينية قد منع الشعراء المحسوسين في ساو باولو من الاستفادة بعمق من تجربة هويدوبرو. وبدلا من البدء من التاثور، فقد ساروا من جديد في طريق الشاعر التشيلي نفسه، مرتكزين بالدقة على مصادره نفسها ومكررين (بتوازٍ غريب أحيانا) جزءا من مساره. ولم يحتاجوا، من جهة أخرى، أن يديروا أبصارهم إلى شعر الطليعة باللغة الإسبانية لأن الشعراء البرازيليين وجدوا في شعراء الحداثة الأسلاف الضروريين لهذا النوع من الاستكشاف. لكن بينما كانت تجارب هويدوبرو مبعثرة بدرجة مفرطة وتستند على حدس شعري قوي يفتقر، كذلك، إلى أي انضباط وينفر من التقولب النظري (البيانات الشهيرة لهويدوبرو هي فوضى من الأفكار الغريبة مع عبارات لامعة وجدلية، لكن قيمتها الجمالية

قليلة)، فإن ما يميز شعراء جماعة نويجاندروز هو القدرة على منهجة أبحاثهم، وعلى تصنيف اكتشافاتهم، ومواصلة تجاربهم ليس في مجال اللغة فقط، بل كذلك في مجال صف الحروف، والفنون التشكيلية والوسائل السمعية البصرية. والنتيجة من ذلك أكمل وأعقد بكثير مما وصل إليه هويدوبرو. وإذا كان الشاعر التشيلي قد رأى إمكانات تطبيق منهجي للتكنولوجيا في الإبداع الشعري، وإذا كان قد حدس أن تحليل اللغة (كما مارس ذلك في ختام التأثر) يمكن أن يكون نقطة انطلاق لجماليات شعرية جديدة، فقد كان من نصيب شعراء جماعة نويجاندروز أن يستكشفوا هذه الدروب إلى آخر مداها!

إن القصيدة - الموضوع*، ذات المسار الطويل جداً والتي يمكن الإشارة إلى أسلاف لها في الشعر الكلداني أو في الشعر الإغريقي، لم يكتشفها هويدوبرو بالتأكيد (كما أنهم أتباعه الشاردين)، لكن ما تجاسر عليه الشاعر التشيلي حقاً إنما كان إمكانية عمل قصائد - موضوع تتخطى الحدود التكنولوجية للشعر السابق. وهذا ما حققه أوجستودي كامبوس، وهارولدودي كامبوس وديسيو بيجناتاري. إذ بمنهج الكولاج (اللتصق) البصري، يؤلف أوجستودي كامبوس في العين بالعين Olho Por Olho توضيحاً تصويرياً ولفظياً في الوقت ذاته للمثل الشهير. لكن التحليل النصي لهذه القصيدة (التي تتكون من هرم من العيون، أشبه بما يظهر في الأضحيات الهمجية للكلدانيين)، وفحص كل واحدة من لوحاتها ومن علاقاتها يسمح برؤية أن القصيدة تتضمن تعليقاً (لفظياً أساساً) على مضمون المثل. فعيون السياسيين مثل فيدل، والنجوم مثل مارلين مونرو، وعيون الشاعر بيجناتاري، تتبادل مع بعض الأصابع، والشفاه، وحتى الأسنان، مضافة على المثل بعدا يتجاوز الأحرف (فوق الحرفي) وبالطريقة نفسها، حين يتلاعب ديسيو بيجناتاري بالحروف الأربعة التي تستخدمها مجلة لايف LIFE عنواناً لها، فإنه لا يكون تابِعاً مثيراً من زاوية صف الحروف فقط، لكنه كذلك يقدم انفصلاً فراغياً

(*) Poema - objeto : الموضوع هنا في مقابل الذات - [المترجم].

يسمح بإعادة تشكيل الكلمة من الداخل ، ويجرر المدلولات الرمزية : وتراكب الحروف الأربعة في فراغ واحد يخلق تخطيطاً يكافئ علامة الشمس ، أي ، علامة الحياة .

هذه الأمثلة وغيرها مما يمكن تذكره تبين بوضوح ، في تقديري ؛ أن الشعر المحسوس يطرح على نفسه استكشاف كل الامكانيات اللفظية للقصيدة وكذلك امكانياتها الصوتية والبصرية إلى حدود لم يحلم بها المصممون الحرفيون للقصيدة - الموضوع (مثل فرنسيسكو أكونيا دي فيجيرون Acuna de Figueroa أو لويس كارول Carol) ، أو حتى أبوللينير في قصائد Calligrammes كاليغرام الأولى) . والتكنولوجيا ، كما أوضح بعض الشعراء المحسوسين الذين هم في الوقت نفسه جامعو حروف ، أو موسيقيون ، أو فنانون تشكيليون (مثل حالة الألماني - المكسيكي ماتياس جوريتز goertz ، لا تحد من القوى بل تطلقها . وإذا كان مكلوهان مخطئاً في إعلانه موت الكتاب في تنبؤاته المرعبة ، فربما لم يكن مخطئاً في إشارته إلى أن الكتاب ، بوصفه موضوعاً ، وبوصفه آلة للقراءة ، لا يقدم سوى واحدة فقط من إمكانيات التواصل الأدبي .

بدءاً من هذا الاعتقاد يحاول الشعراء المحسوسون إفساح حدود الصفحة ، ويلجأون إلى اللون (مثل هارولد دي كامبوس في قصيدة Cristalfome ، ومثل بيجناتاري في هجائيته لشعار كوكاكولا ، « اشرب كوكاكولا » ، تستخدم كأساس اللون الأحمر الداكن للشركة المنتجة والخط نفسه الذي يظهر في إعلاناتها) ، أو يبحثون في الاسطوانات ، وفي التسجيلات ، عن طرق جديدة للشعر . كذلك يمكن أن تكف قراءة كتاب ما عن التحقق بالشكل التقليدي : فبدلاً من البدء من الصفحات الأولى يمكن البدء من النهاية ، كما في الثقافات السامية ، وبدلاً من قراءة الكتاب يمكن تصفّحه بسرعة لقراءة حركة الحروف في الصفحات شبه البيضاء ، مثلما يحدث في Sweethearts أحباب (١٩٦٧) لإيميت ويليامز ، الشاعر والمنظر الأمريكي الشمالي . كل هذه الأشكال ، وغيرها كثير مما يمكن ذكره ، تضع موضع التساؤل على وجه الدقة عادات توصيل الشعر ، وليس الشعر

نفسه الذي ، على العكس ، سوف يستفيد عند تقديمه بشكل يجبر القارئ على عملية فك رموز أشد كثافة بكثير.

ليس صدفة ، إذن ، أن شاعراً بالغ النضج والتركيز على عمله الشعري مثل أوكتافيو باث قد أخذ في أحدث قصائده بعض تجارب الشعر المحسوس وطبقها على مغامرته الخاصة في الابداع - التوصيل . هكذا نجد في القصيدة العظيمة بياض (١٩٦٧) أن هناك صفحات تقسم فيها القصيدة إلى قطاعات بصرية بواسطة حيلة طباعية بسيطة : كل سطر مكتوب بينطين مختلفين للحروف ، مما يقسم البيت إلى شطرتين طباعيتين . ويمكن قراءة القطاعين حسب طريقة السطر العادية ، فنحصل على القصيدة (أ) ، أو نقرأ أولاً الشطرات بالحروف العادية ، ثم الشطرات بالحروف المائلة ، وبذلك نحصل على القصيدة (ب) ، وبعكس الترتيب السابق : أولاً : الشطرات بالحروف المائلة ، ثم الشطرات بالحروف العادية ، فنحصل على القصيدة (ج) . وغنى عن القول إن القصائد الثلاث تنتهي بأن تتوحد في قصيدة واحدة تضم الثلاثة معاً ، وهي القصيدة التي يريد باث توصيلها . لكن هذه الحيلة البسيطة تتكثف القراءة ويضطر القارئ إلى الغوص في نص لا يمكن الوصول إليه تماماً بالنظرة البسيطة .

والتجربة الأحدث لباث هي تجربة الاسطوانات البصرية ، وهي قصائد مكتوبة على اسطوانتين تدوران فوق بعضهما ، بآلية يدوية بسيطة . وكل قصيدة تصور ، سكونياً ، شكلاً ، لكن بإدارة الجزء الأسفل للأسطوانة ، تأخذ في الظهور نصوص جديدة كان يخفيها الشكل الأول وتعد بمثابة نصوص متداخلة يجب فك رموزها في قصيدة عادية . هذا الابتكار الآلي البسيط لا يحفز فقط إمكانات قراءة دائرية (حيث يتم الدوران دائماً إلى الشكل الأول ، الذي هو الأخير الخ) ، بل يفترض كذلك قراءة أثناء الحركة ، قراءة ديناميكية . وفي العمق ، فإن هذه التجربة ، مثل تجارب الشعر المحسوس ، تطرح تأكيد شيء لن يتم التشديد عليه أبداً بما يكفي : ألا وهو أن الشعر فن الحركة ، فن ديناميكي . فالشعر ، كما هو معروف ، يُنتج في الزمن ، إنه بنية صوتية أخضعها اختراع المطبعة للصفحة

مضيفاً عليها طابعاً زائفاً من الإستاتيكية والسكون وعن طريق التجارب البصرية للشعر المحسوس، أو للتسجيل الصوتي في الاسطوانات، لا يعود الشعر إلى تقاليد الشفهية فقط، بل يتحرر كذلك (بصرياً أيضاً) من سكونيته (إستاتيكية). هذا ما أراده أبوللينير بقصائد Calligrammes التي تبدأ في المشي في كل الصفحة، وهذا ما أراده مالارميه من قبل (وهو أبوهم جميعاً) بجعله الفراغ يخدم في Un Coup de dés ضربة حظ(*) بالمعنى المزدوج للفراغ البصري والفراغ الصوتي (الصمت). وهذا ما طرحه الشعر دائماً. ومن المطمئن أن نعلن أنه عن طريق تحالف أكثر خيالاً مع الطباعة، أو مع جهاز التسجيل، أي عن طريق قبول التكنولوجيا، يستعيد الشعر سحره العتيق.

(٣) لغة الرواية

بما أن الرواية هي التي ينتهي الأمر بكل تجريب إلى أن يجد فيها بغيتها، لهذا فإن من المناسب أن نفحص، ولو بسرعة، تطور الرواية الأمريكية اللاتينية في هذا القرن لنرى في مسارها الفعل الآن لقوى التجريب ولقوى التقاليد، والأنقطاع باتجاه المستقبل وكذلك الإنقاذ المتحمس لماهيات معينة.

إن أول ما يلفت انتباه المراقب هو التعايش الراهن لأربعة أجيال من كتاب الفن القصصي على الأقل: أربعة أجيال من السهل فصلها وعزلها في صناديق عازلة لكنها في العملية الفعلية للإبداع الأدبي تبدو وكأنها تقتسم العالم نفسه، وتتنازع شذرات غضة من الواقع ذاته، وتستكشف دروباً غير مطروقة للغة، أو تتناقل الخبرات، والتقنيات، وأسرار المهنة، والألغاز.

ليس من الصعب تجميع تلك الدفعات الأربع وفق منهج الأجيال الذي كان يتمتع به في اللغة القشتالية شراح بارزون مثل أورتيجا إي جاست Ortega y gasset وتلميذه خوليان مارياس Marias. لكن لا يهمني هنا تأكيد التصنيف

(*) Les des هي لعبة النرد أو حجرا الزهر اللذان يرميان لتحديد ما يلعبه كل لاعب في لعبة طاولة الزهر.

البلاغي «للجيل» بقدر ما يهمني الواقع البراجماتي لهذه المجموعات الأربع في الخدمة الفعلية. إن تسلسل الأجيال هو فراش بروكستو(*)، وهو مخاطرة دائمة، إذا لم يتم تناوله ببراعة فائقة، بإرساء مظهر عملية منظمة جداً وربما جامدة تقسم الأدب إلى فترات متناسقة وتثيره لوحة شاملة بعد لوحة هذه الأجيال المختلفة التي اعتادت أن تواجه في الكتب المقررة على طرفين من الفراغ متباعدين، تقتسم في الواقع المجرد المكان نفسه والزمان نفسه، ويتواصل بعضها مع بعض أكثر مما نظن، وكثيراً ما يؤثر أحدها على الآخرين، مكونة بذلك تيار الزمن.

ومن ناحية أخرى فإن الإنتماء إلى الجيل نفسه ليس ضماناً لوحدة الرؤية أو اللغة القصصية. فكيف لا نسلّم، مثلاً، بأنه إذا كان البيري ثيرو أليجيريا والأورجواي خوان كارلوس أونيتي قد ولدا بفارق بضعة أشهر أحدهما عن الآخر، فإن الأول تلميذ لكبار روائي الأرض (تلميذ سرعان ما يتجاوزه قصاص من الجيل التالي مثل خوسيه ماري أريجيداس)، بينما الآخر بشير بروائي التجريب القصصي الذين يركزون بصرهم في المقام الأول على اغتراب إنسان المدينة؟ الآن يبدو هذا بديهياً ويعرفه حتى الأطفال. لكن في عام ١٩٤١ تنافس اليجيريا وأونيتي على جائزة واحدة في مسابقة دولية ولا يجهل أحد من الذي فاز.

لهذا، يبدو لي أن من الأفضل الحديث عن مجموعات لا عن أجيال. وإذا تحدثت عن أجيال فليكن مفهوماً أنها لا تحتل صناديق عازلة وأن كثيرين من أكثر مبدعي الرواية الأمريكية اللاتينية الجديدة أصالة يهربون أكثر مما ينتمون إلى جيلهم الخاص. بعد هذه الملاحظات، لنر ما تقوله لنا لوحة الأجيال.

(أ) وداعاً للتقاليد

حوالي عام ١٩٤٠، كانت الرواية الأمريكية اللاتينية ممثلة بكتاب يشكلون،

(*) بروكر بستييز Procrustes أو Procusto : لص إغريقي خرافي كان يقطع أطراف ضحاياه أو يمدّها لتناسب فراشه - [المترجم].

دون أدنى شك، كوكبة رائعة: أوراثيو كيروجا Quiroga، وبنيتو لينش Lynch، وريكاردو جويرالدس Guiraldes في ريودي لابلاتا، وكانوا يجدون نظراءهم في ماريانو اثنويلا Azuela ومارتين لويس جوثمان guzman في المكسيك، وخوسيه إيوستاسيو ريبيرا Eustasio Ribera في كولومبيا، ورومولو جاييجوس Gallegos في فنزويلا، وجراسيليانو راموس Ramos في البرازيل. هنالك تتمثل تقاليد سارية لرواية الأرض أو للإنسان الريفي، وقائع تمرده وخضوعه، واستكشاف عميق لروابط هذا الإنسان مع الطبيعة المهيمنة، وتطوير للأساطير المحورية لقارة كانوا لا يزالون ينظرون إليها في تفاوتها الرومانتيكي. وحتى أكثرهم تعقلاً (وفي ذهني المكسيكيون، وجراسيليانو راموس، وكيروجا) لم يفلتوا من تصنيف بطولي، ومن رؤية للنماذج النمطية حولت بعض كتبهم، وبالأخص الدوامة، ودونيا باربارا، ودون سييجوندو سومبرا، إلى قصص بطولية (بناء على التصنيفات البلاغية لنورثروب فراي) أكثر من كونها روايات. بمعنى، أنها أصبحت كتباً يشوه واقعيتها الإدراك الميثولوجي بحيث تفلت من تصنيف الوثيقة أو الشهادة الذي أرادته لنفسها.

و ضد هؤلاء الأساتذة على وجه الدقة ستنهض الأجيال التي تبدأ في نشر أكثر أعمالها القصصية أهمية ابتداءً من عام ١٩٤٠. وستكون الدفعة الأولى ممثلة في كتاب من أمثال ميغيل آنخل أستورياس، وخورخي لويس بورخس، وأليخو كاربنتيه، وأجوستين يانيث، وليوبولدو ماريشال، وآخرين. وهم وأمثالهم ممن لا أستطيع ذكرهم هنا حتى لا أقع في فخ عمل مسرد (كتالوج)، هم المجددون العظام للفن القصصي في هذا القرن. ومن المناسب أن أوضح أنني أدرج بورخس الآن (كما أدرجت كيروجا من قبل)، على الرغم من أن عمله الإبداعي حقاً قد تحقق في القصة القصيرة فقط، لأنه يبدو لي مستحيلاً أي اعتبار جدي لنوع الرواية في أمريكا اللاتينية دون دراسة عمله القصصي الثوري حقاً.

وفي كتب هؤلاء الكتاب تجري عملية نقدية ذات أهمية كبرى. إنهم بإدارتهم بصرهم نحو ذلك الأدب الميثولوجي أو أدب الشهادة العاطفية الذي يشكل

أفضل ما في أعمال جاييجوس ، وريبيرا وشركائهما . إن بورخس وماريشال ، وكاربنتيه ، وأستورياس ويانيث Yanez يحاولون تحديد ما في هذا الواقع الروائي من بلاغة عتيقة . وفي نفس الوقت الذي ينتقدونه ، وينفونه حتى في أحوال كثيرة فإنهم يبحثون عن مخارج أخرى . وليس صدفة أن تكون أعمالهم متأثرة بقوة بتيارات الطليعة التي سمحت في أوروبا بتصفية تراث الطبيعة . وإذا كان بورخس قد مر أثناء سنوات تكوينه في جنيف بتجربة التعبيرية الألمانية ، وبالقراءة المزدوجة لجويس وكافكا ، ليصب في إسبانيا في المذهب الحدي وقراءة رامون جومث دي لاسرنا La serna (هذا المنسي العظيم) ، فإن كاربنتيه ، مثل يانيث ، ومثل أستورياس وماريشال كلهم يعرفون على مستويات مختلفة لكن بشهية متماثلة السورالية بالفرنسية المدهشة .

تخرج الرواية الأمريكية اللاتينية من بين أيدي هؤلاء المؤسسين متغيرة بعمق من مظاهرها ، وكذلك في جوهرها . لأنهم ، قبل كل شيء ، مجددون لرؤية لأمريكا ولمفهوم اللغة الأمريكية ، إن هذا الذي لا يتم الإقرار به عادة في عمل بورخس (الذي مازال يطلق عليه لقب العالمي دون الاعتراف بأن من ولد في أرض المهاجرين وتعلم اللغات الأجنبية المختلفة السارية في بوينوس آيرس هو فقط الذي يمكنه أن يسمح لنفسه بترف أن يكون عالمياً ؛ لكن لنواصل حديثنا) ؛ هذا الذي يُنفى عادة في عمل بورخس ، والبالغ الأهمية من أجل تحديد رؤية للعالم للغة بوينوس آيرس ، يبدو بديهياً ، بالطبع ، إذا أخذنا في الاعتبار عمل أستورياس المشبع كله بلغة وبخيال شعب المايا ، والمشبع في الوقت ذاته بالتمرد الملتهب المناهض للامبريالية . ويبدو كذلك بالغ الوضوح في حالة أجوستين يانيث الذي يعلم المكسيك كيف ترى وجوها الخاصة ، وبالأخص أقنعتها الدنيوية المتراكبة ؛ ويبدو أنه لا يقبل الجدل في حالة ليوبولدو ماريشال المبدع بإرادته لرواية «أرجنتينية» ، هي آدم بوينوس آيرس ؛ وكذلك يبدو نمط البداهة في حالة أليجو كاربنتيه ، الذي يبدو الكاريبي بأسره عنده ، وليس كوبا فقط ، متحولاً بفعل الرؤية الشعرية لماضيه وحاضره ، وحتى لزمته الأبدي .

مع أول كتب هؤلاء المؤسسين ينتج، أرادوا أم لم يريدوا، انقطاع كامل بالغ العمق مع التقاليد اللغوية، ومع رؤية ريبيرا وجايينجوس. فابتداءً من تلك الكتب لم يعد من الممكن في أمريكا أن تُصنع الرواية كما كان يصنعها هذان الكاتبان، صحيح أن هذه الكتب الجديدة، حين ترى النور، قليلون هم الذين يقرأونها بكل توهجها. لكن القراء القلقين في سنوات الأربعينات هم الأقلية اليوم. ويكفي القول إن بورخس نشر التاريخ الكوني لسوء السمعة عام ١٩٣٥؛ وأن السيد الرئيس ترجع إلى عام ١٩٤٦؛ وأن على حافة الماء، الرواية الحاسمة لاجوستين يانيث، ترجع إلى عام ١٩٤٧؛ وإن ليوبولدو ماريشال قد نشر روايته الطموح؛ غير المناسبة، عام ١٩٤٨؛ وإن اليخو كاربنتييه قد أدهش بروايته مملكة هذا العالم، عام ١٩٤٩.

أما الأعمال التي سينشرها هؤلاء الروائيون فيما بعد - بدء من أقاصيص بورخس إلى مآدبة سييرو أركانخلو لمارشال، ومرورا برجال من ذرة لأستورياس، وأرض هزيلة ليانيث، وقرن الأنوار لكاربنتييه - فيمكن أن تكون، وهي بالتأكيد، أكثر نضجاً، وأكثر أهمية، لكن لا يهمني هنا أن أتناول الموضوع من هذه الزاوية التقويمية الخالصة بل ما تعنيه تلك الكتب التي تخرج لتلف عبر أراضي أمريكا في الأربعينات، باعتبارها إنقطاعاً حاسماً مع تقاليد نحوية ومع رؤية روائية قائمة.

(ب) الشكل الروائي باعتباره مشكلة

كان على العمل الخصب والمُجدّد لهذه الكوكبة الأولى أن يُنجز بصورة تكاد تكون متزامنة مع عمل الجيل التالي والذي يمكننا، لتوضيحه ببعض الأمثلة، أن نسميه جيل جوان جيما رايش روزا وميجيل أوتيرو سيلفا، وخوان كارلوس أونيتي وإرنستو ساباتو، خوسيه ليثاما ليما وخوليو كورتاثار، خوسيه ماريًا أرجيداس وخوان رولفو. يمكننا التأكيد مرة أخرى أنهم ليسوا الوحيدين، لكننا نذكرهم وحدهم لتوفر على أنفسنا عمل كتالوج. كما علينا مرة أخرى أن نشير إلى أن هؤلاء الكتاب إذا كانت تجمعهم بعض الأمور فإن عمل كل واحد منهم عمل شخصي

وغير قابل للتبادل إلى أقصى درجة . لكن ما يهمني الآن هو توضيح ما يجمعهم . في المقام الأول ، يمكنني القول إن ما يجمعهم هو الأثر الذي تركه في أعمالهم أساتذة الدفعة السابقة . ولنورد مثلاً واحداً : ماذا سيكون من أمر الحجلة ، هذه الرواية الأرجنتينية النموذجية التي هي الحجلة تحت غشائها الفرنسي ، بدون ماثيدونيو فرناندث ، بدون بورخس ، بدون روبرتو آرلت ، بدون ماريشال ، بدون أونيتي ؟ وأوضح أن كورتاثار نفسه هو أول من يعترف بهذه الرابطة المتعددة ، وأحياناً يصنع ذلك على صفحات الرواية حين يسجل ملاحظات لأناه الأعلى الروائي ، موريللي الكلي الوجود ، أو في بعض التكريمات الخفية التي تكون مقاطع تجد جذورها بالتأكيد عند أونيتي أو ماريشال .

الشيء الآخر الذي يجمع بين روائي هذه الدفعة الثانية هو التأثير الواضح لأساتذة أجنب مثل فوكنر ، وبروست ، وجويس ، وحتى جان - بول سارتر . وفيما يتعلق بالتأثيرات ثمة ظلال غريبة . وسأذكر حالة جيمارايش روزا التي تقى دائماً تأثيرات فوكنر على روايته . وبلغ به الأمر أن قال لي يوماً إن القليل الذي قرأه لروائي الجنوب الأمريكي قد جعله في موقف مضاد له ؛ فقد بدا له أن فوكنر معتل في موقفه الجنسي ، وأنه سادي ، إلخ . ورغم ذلك ، فإن آثار فوكنر في روايته العظيمة والوحيدة ، من مونولوج داخلي كثيف ، ومن رؤية لعالم ريفي عاطفي وأسطوري ، ومن روابط دم خفية ، وحضور منذر للقداسة ، تبدو واضحة جداً . إلا أن إيضاح ذلك بسيط . فليس ضرورياً أن يكون قد قرأ فوكنر مباشرة حتى يخضع لتأثيره ، حتى يتنفس جوّه ، وحتى يرث كذلك بعض هواجسه الأسلوبية . فعمل فوكنر يمكن أن يبلغ جيمارايش روزا ، بطريقة خفية جداً ، من خلال كتاب (مثل سارتر) يكون قد قرأهم وأعجب بهم .

لكن التأثيرات ، المعروفة والمعترف بها دائماً على وجه التقريب ، ليست هي ما يميز هذه المجموعة أفضل تمييز ، بل مفهوم الرواية ، الذي يقدم على الأقل ، رغم الاختلافات التي يمكن ملاحظتها بين عمل وآخر ، ملهماً مشتركاً ، وهداً أدنى مشتركاً بين الجميع . فإذا كانت الدفعة السابقة قد جددت القليل في البنية

الخارجية للرواية، واكتفت دائماً تقريباً بانتهاج النماذج التقليدية (ربما كانت آدم بوينوسايرس فقط هي التي طمحت بإفراط واضح، إلى خلق بنية فراغية أكثر تعقيداً)، فإن أعمال هذه الدفعة الثانية قد اتسمت على الأخص بالهجوم على الشكل الروائي وبالتساؤل عن أساس ذاته.

هكذا مضى جيمارايش روزا باحثاً (كما أشرنا في موضع آخر من هذا العمل) في المونولوجات الملحمية - الغنائية التي لا تنتهي للرواة الشفاهيين لقلب البرازيل، عن نموذج لروايته السرتون الكبير، دروب. بينما خلق أونيتي، في سلسلة من الروايات والقصص التي يمكن جمعها تحت عنوان عام هو ملحمة سانتا ماريا، عالماً حلمياً وواقعياً في آن واحد للريودي لابلاتا، عالماً ذاتسلسل وملمس شخصيات جداً، رغم دينه المعترف به لفوكزر. وفي بعض روايات هذه «الملحمة»، وخصوصاً في الترسانة وفي الجبانة، حمل أونيتي البناء الروائي إلى أقصى حدود التنقيح، مقحماً في واقع الريودي لابلاتا نسخة أدبية مطابقة ذات سخرية مرعبة. هذا العالم الروائي يحمل شهاً جوهرياً (وليس عارضاً) مع العالم الروائي للفنزويلي ميغيل أوتيرو سيلفا في دور ميتة، أو مع عالم الأرجنتين إرنستوساباتوفي عن الأبطال والقبور. أما خوان رولفو، فإن روايته بدور بارامو هي نموذج الرواية الأمريكية اللاتينية الجديدة، إنها عمل يستفيد من تقاليد الأرض المكسيكية العظيمة لكنه يحولها يهدمها ويعيد خلقها من خلال تمثيل بالغ العمق لتكنيكات ورؤية فوكزر. إن هذه الرواية الوحيدة حتى الآن لرولفو تسجل علامة رئيسة، فهي حلمية أيضاً مثل عمل أونيتي وتتأرجح بصورة خطيرة بين أشد الواقعيات اتزاناً وبين الكابوس المطلق العنان. وأما خوسيه ماريّا أرجيداس فأقل تجديداً من الجانب الخارجي، لكن رؤيته للهندي البيروي، والتي يصنعها انطلاقاً من نفس لغة الكتشوا، تصفّى بصورة نهائية النزعة الفولكلورية الحسنة النية للمثقفين الأمريكيين اللاتين الذين لا يتحدثون لغات هندية أصلية.

أما الروايتان الأساسيتان حتى الآن لخوليو كورتاثار وخوسيه ليثاماليمّا، فهما من نوع أكثر ثورية، لأنهما لا تهاجمان فقط البنى الروائية بل بنى اللغة ذاتها. هنا نبلغ،

بأكثر من معنى ، ذروة العملية التي بدأها بورخس واستورياس ، وفي الوقت نفسه يفتح منظور جديد تماماً : منظور يتيح وضع عمل الروائيين الأحداث في موضعه بوضوح ودقة . وفي الفردوس يحقق ليثاما ليما بطريقة سحرية ما كان قد طرحه ماريشال عقلياً بروايته : أي خلق حاصل جمع ، أي كتاباً تملئ شكله ذاته طبيعة الرؤية الشعرية التي تلهمه ، إنهاء حكاية من أدب العادات ظاهرياً هي في نفس الوقت بحث حول فردوس الطفولة وجحيم الانحرافات الجنسية ؛ وتتبع وقائع التربية العاطفية والشعرية لشاب من هافانا قبل ثلاثين عاماً يتحول ، بفعل وبفضل الإزاحة المجازية للغة ، إلى مرآة للعالم المرئي ، وغير المرئي بوجه خاص . إن محاولة ليثاما ليما هي من تلك المحاولات التي ليس لها نظير . ها هو ذا البناء الضخم الذي يمكن الآن فقط ، بكثير من التمهّل ودون عجلة ، أم نبدأ في قراءته في كليته .

وحجلة كورتاثار أسهل ظاهرياً ، وهي العمل الذي لا يستفيد فقط من تراث ثري لاقليم الريودي لابلاتا (ما أوضحنا سابقاً) ، بل يستفيد كذلك من بؤرة التوليد الشيطانية التي هي الأدب الفرنسي وبوجه خاص السورالية بكل تحولاتها . لكن إذا كان كورتاثار ينطلق بكل هذه المزايا بينما كان ليثاما ليما في جزيرته منذ ثلاثين عاماً وكأنه ضائع في مكتبة ضخمة من أصابير متنافرة تكاد تأكلها الأخطاء المطبعية ، إذا كان يبدو أن كورتاثار قد كتب الحجلة من مركز العالم الثقافي ، بينما بدأ ليثاما ليما في كتابة فردوسه فيما كان وقتها واحداً من الأطراف الأكثر بعداً لأمريكا اللاتينية ، فالحقيقة هي أن كورتاثار ينطلق من ذلك المثال المؤلة للثقافة ، والذي تمثله باريس ، من أجل نفي الثقافة ، وأن كتابه يود أن يكون ، في المقام الأول ، حاصل طرح ، وليس حاصل جمع ، رواية مضادة ، وليس رواية . لهذا يهاجم ما هورواثي ، رغم عنايته للحفاظ ، هنا وهناك ، على ما هورواثي . إن الشكل الروائي يوضع موضع التساؤل من جانب الكتاب نفسه الذي يبدأ بأن يوضح للقارئ كيف يمكن قراءته ، والذي يمضي لي طرح تصنيفاً للقراء إلى قارئ - أنثى وقارئ - متواطئ ؛ وينتهي حابساً إياه في تجربة دائرية ولا

نهائية حيث يحيل الفصل ٥٨ إلى الفصل ١٣١ الذي يحيل إلى الفصل ٥٨ الذي يحيل إلى ١٣١ وهكذا إلى نهاية الزمان . هنا ليس شكل الكتاب ذاته - وهويته لامركز له ، وفخ ينغلق دائرياً على القارئ ، وأفعى تعض ذيلها - سوى وسيلة أخرى لتأكيد الموضوع العميقة والسرية لهذا الاستكشاف لجسر بين تجربتين (باريس ، وبوينوس آيرس) ، جسر بين ربتين من ربات الشعر (Maga, Talita) جسر بين وجودين يتضاعفان ويتعاكسان خيالياً (أوليفيرا ، وترافلي) . إنها عمل ينسب لتساءل تساؤلاً أفضل ، وهي كذلك عمل حول عملية بسط الكائن الأرجنتيني ، وما هو أكثر من ذلك عمقاً ودواراً ، حول البديل الذي يراقبنا من أبعاد أخرى لحيواتنا . إن شكل الكتاب يختلط مع ما كان يسمى من قبل بمحتواه .

(ح) الآلات العظيمة لعمل الروايات :

إن ما تنقله هذه الدفعة للدفة التالية مباشرة هو ، قبل كل شيء ، وعي بالبنية الروائية الخارجية وحساسية حادة باللغة بوصفها المادة الأولية لما هو روائي . لكن تطور الدفعتين يكاد يكون متزامناً ومتوازياً . والتأخير النسبي الذي ينشربه جيارايش روزا ، وليتاماليا ، وخوليو كورتاشار روائعهم يجعل هذه الروايات لاحقة بعدد من أهم روايات الدفعة التي أدرسها الآن . هنا تتداخل الأجيال ، والتأثير هو تعايش ونقل مباشر أكثر منه ميراثاً . ويكفي القول ، فيما أعتقد ، بأن هذه الدفعة الثالثة تضم كتاباً مثل كارلوس مارتينث مورينو Moreno ، وأوجستورا باسطوس ، Roa Bastos وكلاريس لسبكتور Lispector ، وخوسيه دونوسو Donoso ، ودافيد فينياس Vinas ، وكارلوس فويتس Fuentes ، وجابرييل جارتيا ماركيث ، وسلفادور جارميديا ، garmendia ، وجيرمو كابريرا إنفانتي ، وماريو فارجاس يوسا Ilosa ، نذكرهم لتعرف فيهم ، على وجه الدقة ، على هذا الاهتمام المزدوج بالبنية الخارجية ، وبالدور الخلاق وحتى الثوري للغة . وليس جميع هؤلاء الروائيين مجددون بصورة ملحوظة ، رغم أن بعضهم مجددون حتى آخر حدود التجريب الشامل ، مثلما هي حالة كابريرا إنفانتي . فدونوسو ، مثلاً ، قد تتبع مسارات

القصص التقليدية، لكنه ركز ابتكاره على استكشاف الواقع تحت الأرضي الذي يكمن تحت طبقات النقوش الجصية لرواية العادات التشيلية. والشئ نفسه يمكن قوله عن كارلوس مارتينث مورينو في أورجواي، وعن سلفادور جارمنديا في فنزويلا، ودافيد فينياس في الأرجنتين: فاستكشاف الواقع يحملهم إلى التعبيرية وحتى إلى الكاريكاتور العظيم. ويقاربهم رغم كونهم أكثر تجريبية بمعنى من المعاني، أوجستور واباتوس في ابن الإنسان، التي تثرى الطريقة الطبيعية بتكنيكات من الرواية الخيالية لتنتج عملاً للشجب العنيف ذي النزعة الإنسانية.

لكن الغالبية العظمى من روائي هذه الدفعة الثالثة هم صناع مهرة لآلات عمل الروايات. فبينما تجد كلاريس ليسبكتور، في عصا في الظلام A maca no escuro، والهوى حسب ج. ه. A paixão segundo G. H.، أن الرواية الجديدة الفرنسية حافز على وصف تلك العوالم القاحلة الكثيفة ذات الطابع الكابوسي بصورة ميتافيزيقية والتي لا مخرج منها، والتي هي عوالم شخصها المطاردين، ويستخدم كارلوس فويتس كل تجريب الرواية المعاصرة ليؤلف أعمالاً معقدة وقاسية هي في الوقت نفسه شجب لواقع يؤله بوحشية واستعارات تعبيرية عن بلده، عن مكسيك ميثولوجي- شعري زي أفنعة متراكبة، لا يتصل إلا قليلاً جداً بسطح المكسيك الحالي، لكنه أفضل تمثيل مجازي له. ويستفيد ماريو فارغاس يوسا بدوره من التكنيكات الجديدة (الانقطاع الزمني، المونولوج الداخلي، تعدد وجهات النظر والمتحدثين) ليؤلف بصورة أستاذية بين رؤى بالغة الحداثة وأخرى تقليدية في الوقت ذاته لبلده البيرو. وباستلهامه في الوقت نفسه وبصورة متألّفة فوكنر ورواية الفروسية، وفلوبير، وأرجيداس وموزيل، فإن فارغاس يوسا روائي ذو نفس ملحني تظل الأحداث والشخصيات تقلقه بصورة مفزعة وتجديده هو، بشكل قاطع، شكل جديد للواقعية، واقعية لا تتخلى عن نموذج رواية الإحتجاج وتعرف أن للزمن أكثر من بعد واحد لكنها لا تقرر أبداً رفع قدميها عن الأرض الصلبة المعذبة.

هؤلاء الروائيون الشباب العظام، الذين أصبح النقد في هذا العقد يعترف

بأنهم أساتذة، ليسوا هم الذين استفادوا من أكثر الجوانب تقدماً في أعمال الدفعتين السابقتين، بل مؤلفون آخرون، مثل جارثيا ماركيث وكابريرا إنفانتي، ظهوراً متأخرين عنهم لكنهم قد انتجوا أعمالاً فريدة الأهمية. ففي مائة عام من العزلة مثلما في ثلاثة غمور حزينّة يمكن التعرف، دون أدنى شك، على الشبه بالعالم اللغوي لبورخس أو لكاربنتيه، مع الرؤى التخيلية (الفانتازية) لرولفو أو كورتاثار، مع الأسلوب العالمي لفويتس، أو لفارجاس بوسا. رغم أن ذلك الشبه (الذي هو سطحي في نهاية المطاف) ليس هو المهم حقيقة فيهم.

كلتا الروايتين ترتكز على رؤية حاسمة الوضوح للطابع المختلف لكل فن قصصي. إنها قبل كل شيء إنشاءات لفظية رائعة وتعلنان ذلك بطريقة سامية، وضمنية، مثلما هو الحال في مائة عام من العزلة، حيث تبدو الواقعية التقليدية لرواية الأرض وقد أصابها عدوى الحكاية الجغرافية والأسطورة، وتقدم في المعنفة ممكنة، وهي مشبعة بالدعاية والخيال. لكنها كذلك تعلنان ذلك بطريقة تعليمية كفاحية كما في ثلاثة غمور حزينّة التي جاءت في أعقاب الحجلة، وربما بابتكار روائي أكثر اتساقاً فيها، تضع في مركزها ذاته نفي «حقيقتها»، تخلق وتحطم، وتنتهي بهدم قصصها الذي شيدته بعناية بالغة.

وإذا كان جارثيا ماركيث يبدو وكأنه قد طوّع التعاليم التي استقاها في الآن ذاته من فوكنر، ومن فرجينيا وولف في أورلاندو (الذي ترجمه بورخس إلى الإسبانية) في خلق تلك الـ ماكوندو الخيالية التي يعيش ويموت فيها الكولونيل أوريليانو بوينديا فإن من المناسب أن نحذر من الآن من الانخداع بالمظاهر. فالروائي الكولومبي الذي أصبح مشهوراً يصنع شيئاً أكثر من قصص حكاية لانهاية البهجة. إذ إنه يسمح بأكثر الممارسات خبثاً في غوايتها التفرقة التي تسبب الضيق بين الواقعية والخيال في جسم الرواية ذاته، ليقدّم - في الحجلة نفسها وعلى المستوى المجازي نفسه - «الحقيقة» الروائية لما تحياه وما تحلم به كياناته الروائية. ويتجذرها، في آن واحد، في الأسطورة وفي التاريخ، وبتهريبها لمقاطع بارزة من ألف ليلة وليلة أو من أكثر أجزاء الإنجيل قدماً، لا تبلغ مائة عام من العزلة

تماسكها النهائي إلا في ذلك الواقع البالغ العمق للغة . مما لا يلفت إليه بالضرورة أغلب قرائه الذين يخدعهم أسلوب لا نظير له في خياله ، وسرعته ، ودقته .

أما العملية التي يقوم بها كابريرا إنفانتي فهي تسترعي الانتباه بشكل صارخ لأن روايته بمجملها لا تكتسب معنى إلا إذا فحصناها باعتبارها بنية لغوية-روائية . وعلى عكس مائة عام من العزلة ، التي يرويها راو كلي الوجود وكلي المعرفة ، فإن ثلاثة نمور حزينة ترويها شخصياتها ذاتها ، أو ربما وجب القول أن متحدثيها يروونها ، حيث أن الأمر يتعلق بكولاج أو الصاقات من الأصوات . وكابريرا إنفانتي ، التلميذ الواضح لجويس ، تلميذ الدرجة نفسها للويس كارول ، وهو متلاعب عظيم آخر باللغة ، ولمارك توين الذي اكتشف (قبل كثيرين نعمة الحديث لحوار شخصياته . والبنية اللغوية لـ ثلاثة نمور حزينة تتكون ، بدءاً من العنوان Tres Tristes Tigres ، من كل المدلولات الممكنة لكلمة ، وأحياناً لمقطع من كلمة ، ومن إيقاعات الجملة ، ومن التلاعبات اللفظية غير المسبوقة . ولكونه تلميذاً لأولئك الأساتذة ، وان يكن قبل كل شيء تلميذاً لحاسة السمع لديه ، أدخل كابريرا إنفانتي إلى جسم روايته أشياء ليس مصدرها الأدب بل السينما أو الجاز والموسيقا الكوبية ، داجماً إيقاعات الحديث الكوبي في إيقاعات أكثر الموسيقا إبداعاً في هذا الزمن أو مع الفن الذي استعمرتنا جميعاً غوايته البصرية .

وحين أقول إنه لدى جارتيا ماركث أو كابريرا إنفانتي يسود مفهوم الرواية باعتبارها بنية لغوية لا أنسى (بالطبع) أن «المضامين» في مائة عام من العزلة مثلما في ثلاثة نمور حزينة ذات أهمية دائمة . كيف لا نسلم أن عملية العنف المجنونة في كولومبيا تبدو وقد تتبععتها تماماً ، في سطحها وفي أعماقها التي تسبب الدوار ، يد جارتيا ماركث السحرية؟ وكيف لا نتعرف في هافانا على غروب عهد باتيستا التي تنشط فيها هذه النمر الحزينة على مجتمع قد بلغ نهايته ، شمعة على وشك أن تنطفئ ، أو انطفأت بالفعل ، حين يستحضرها كابريرا إنفانتي في كتابه؟ حسناً ، هذا بديهي . لكن ما يجعل من مائة عام من العزلة ومن ثلاثة نمور حزينة

إبداعين متفردين ليس هو شهادتهما التي يمكن أن يصادفها القارئ في كتب أخرى أقل توفيقاً وشبه - أدبية تماماً. إن ما يجعل هذين العاملين متفردين هو تكريسهما نفسيهما لقضية الرواية باعتبارها خلقاً شاملاً.

(د) المركبة هي الرحلة

مع جارتيا ماركيث وكابريرا إنفانتي ، وكذلك مع فوينتس الذي يتكشف في روايته الأخيرة البالغة التركيب ، تغيير الجلد ، ندخل في نطاق رابع وأحدث أجيال القصاصين حتى الآن . ولا نستطيع بعد الحديث عنهم بتفصيل كبير لأنهم جميعاً تقريباً قد نشروا رواية أولى فقط ، رغم أنهم يعملون في أخرى أو أخريات . لكنني سأستفيد من طابع الجدة المتضمن اشتقاقاً في كلمة رواية *novela* ، لاستبق بعض الاسماء التي تبدو لي ذات أهمية لا تقبل الجدل ، ففي المكسيك ، وكوبا ، والبرازيل ، والأرجنتين ، قبل كل شيء ، يوجد حالياً عدد كبير من الروائيين الشبان يمارسون فن القصص بأقصى مستوى ممكن ، ودون احترام أي قانون أو تقاليد منظورة ، باستثناء قانون التجريب . وهم جوستافو ساينث Sainz ، وفرناندو دل باسو Del Paso ، وسلفادور الشوندو ، Elizondo ، وخوسيه أجوستين Agustin ، وخوسيه إميليو باتشيكو Pacheco ، في المكسيك ، وفي كوبا ، داخل وخارج هذه الجزيرة التي يوحدتها أدها ، سيفيرو ساردوي Sarduy ، وخسوس دياث Diaz ، ورينالدو أريناس Arenas ، وادموندو دسنويس Desnoes ، وفي البرازيل يسمون نيليدا بينيون Pinon ، دالتون تريفيسان Trevisan ، وفي الأرجنتين ، نستور سانشث Sanchez ، ودانييل مويانو Moyano ، وخوان خوسيه هرناندث Hernandez ومانويل بويج Puig ، وليوبولدو جرمان جارتيا German Garcia من المستحيل أن نتحدث عن الجميع ، وهذا التعداد نفسه يشبه المسرد بصورة تثير الشك . وإنني لأفضل أن أخاطر بالخطأ وأختار أربعة من تلك الكوكبة .

* novela : الرواية مشتقة من الفرنسية القديمة novele من اللاتينية novellus التي هي تصغير

novus أي الشيء الجديد [المترجم] .

إن أكثرهم وضوحاً، أو على الأقل، من أنتجوا على الأقل رواية واحدة تميزهم وتفرقهم عن المجموع، هم مانويل بويج، ونستور سانشث، وجوستابوساينث، وسيفيرو ساردوي. ويوحد بين الأربعة وعي حاد بأن (النسيج) أكثر حميمية للرواية لا يكمن لا في الموضوع (كما تظاهر كتاب الأرض الرومانتيكيون بأنهم يعتقدون، وربما كانوا يعتقدون فعلاً)، ولا في البناء الخارجي، ولا حتى في الأساطير. بل يمكن، بشكل طبيعي جداً بالنسبة لهم، في اللغة. أو إذا تبيننا صيغة عممها مارشال ماكلوهان فإن: «الوسيط هو الرسالة». فالرواية تستخدم الكلمة ليس من أجل أن تقول شيئاً عن العالم خارج الأدب على وجه الخصوص، بل من أجل تحويل الواقع اللغوي للقصص نفسه. وهذا التحويل هو ما «تقوله» الرواية، وليس ما جرت العادة على مناقشته باستفاضة حين يجري الحديث عن رواية ما: الحكمة، والشخصيات، والحكاية، والرسالة، والشجب، والاحتجاج، وكأن الرواية هي الـ حقيقة وليست إبداعاً عقلياً موازياً.

وأسارع لايضاح أن هذا لا يعني أنه من خلال اللغة لا تشير الرواية بالطبع إلى حقائق خارج الأدب. إنها تفعل، ولهذا فإنها شعبية جداً. لكن رسالتها الحقيقية ليست في هذا المستوى الذي يمكن أن يستبدل بها فيه - خطبة رئيس أو دكتاتور، أو شعارات لجنة أو شعارات أقرب لراعي أبرشية - إن رسالتها في لغتها. وحيث أن فكرة لغة للرواية تبدو لي ذات أهمية بالغة، فسوف أركز بعض الشيء على هذا الجانب. فحين أتحدث عن لغة ما، فإنني لا أشير بصورة شاملة إلى استخدام أشكال معينة للغة. فاللغة (الخاصة) في الأدب ليست مرادفاً لنسق عام للغة (العامة)، بل (بالإحدى) مرادف لحديث كاتب معين أو نوع أدبي معين. ولغة الرواية الأمريكية اللاتينية مكونة، قبل كل شيء، من رؤية بالغة العمق للواقع المحيط بها، وهي رؤية تدين بإسهامات أساسية لعمل كتاب المقالات والشعراء، مما يظهر مرة أخرى إصطناعية التمييز البلاغي بين الأنواع الأدبية. لهذا، كيف لا نتعرف على الآثار الملتهبة لمارتينث إسترادا في كل ذلك الجيل من قتلة الآباء الذي ظهر في الأرجنتين حوالي أعوام الخمسينات؟ وكيف لاندلحظ أسلوب وحتى ألفاظ

أوكتافيو باث في مقاطع محورية عديدة في روايات كارلوس فوينتس؟ في تلك الاستفادة من عمل كتاب المقالات والشعراء من أجل خلق لغة روائية أظهرت الرواية الأمريكية اللاتينية نضجها. لكنني أود هنا الإشارة إلى خطوة أبعد في هذه العملية: فالرواية، بوضعها موضع التساؤل بنيته ونسيجها، قد وضعت موضع التساؤل لغتها أيضاً وحولت موضوع اللغة الروائية إلى موضوع للرواية ذاتها. هذا الذي رأيناه عند كورتاثار وليثاماليا، عند كابريرا إنفانتي وجاريثاماركث، يظهر (بصورة أوضح) عند الروائيين الجدد.

من هنا فإن أهم ما في كتاب مثل خيانة ريتا هايوارث، لمانويل بويج، ليس هو قصة ذلك الطفل الذي يعيش في مدينة ريفية أرجنتينية ويذهب كل مساء إلى السينما مع أمه، كذلك ليست ذات أهمية مفرطة تلك البنية الروائية التي تستفيد من المونولوج الداخلي لجويس، أو من الحوارات بدون ذات واضحة والتي عممتها ناتالي شاروت. لا. إن ما يهم حقاً في كتاب بويج المدهش هو هذا المتصل للغة المتكلمة التي هي في ذات الآن مركبة القصص والقصص ذاته. إن استلاب السينما للشخصيات، والذي يشير إليه العنوان ويتبدى في أتفه تفاصيل سلوكها - فالشخصيات لا تتحدث إلا عن الأفلام التي شاهدتها، وتضع نفسها بصورة خيالية في مشاهد سينمائية تنتزعها من الأفلام القديمة، وقيمها ونفس حديثها مستمدة من السينما، إنهم السجناء الجدد للكهف الأفلاطوني الذي يخلقه اليوم المخرج السينمائي في العالم بأسره؛ هذا الاستلاب المحوري لا يقصه بويج بدعابة كاسحة وإحساس بالمفارقة شديد الرهافة فقط، بل يعاد خلقه في التجربة الشخصية للقارئ عن طريق اللغة المستلبة التي تستخدمها الشخصيات، وهي لغة تكاد تكون نسخة طبق الأصل من حلقات الراديو، والتلفاز الآن، أو من الروايات المصورة. فاللغة المستلبة توضح استلاب الشخصيات: اللغة المستلبة هي الاستلاب ذاته. الوسيط هو الرسالة، وكذلك المساج، (التدليك) كما يشير ماكلوهان نفسه بولعه المعروف بالتلاعب بالألفاظ.*

* التلاعب هنا يتم بلفظتي: الرسالة = message والتدليك أو المساج = masaje [المترجم].

وفي نحن الإثنان وفي سيبريا بلوز، يكرر نستورسانشث، ولو من بعد أكثر حصراً وعلى الطريقة الفرنسية، محاولة كابريرا إنفانتي لخلق بنية صوتية في المقام الأول. وهو بدوره متأثر بالموسيقا الشعبية (التانجو في هذه الحالة) وبسينما الطليعة. إن وسيطة بسبب نسيجه الروائي، أكثر تعقيداً واختلاطاً من وسيط كابريرا إنفانتي، الذي يحكم فيه وضوح بريطاني حاسم كل أشكال الغيبوبة حكماً نهائياً والذي يكون فيه إخفاء شريحة هامة من «الواقع» (عاطفة إثنين من شخصيات ثلاثة نمور حزينة تجاه المرأة نفسها) علامة على الحياء الروائي قبل كل شيء. لكن لدى سانشث أحياناً ما يصب التوتر والطموح في المبالغة، وحين يكون موفقاً، يتمكن من خلق جوهر روائي واحد تختلط فيه أشياء حاضرة بأشياء ماضية، تختلط فيه كل واحدة من الشخصيات، من أجل تأكيد أن الواقع المحوري الوحيد في هذا العالم المخلوق، الوحيد الذي يقبله ويحمله القصاص على عاتقه بكل مخاطرة، هو وشخصياته، هو واقع اللغة: الزجاج الذي لا يُنفذ شيئاً أحياناً وأحياناً أخرى يصبح غير مرئي لفرط شفافيته. في رواياته لا نجد فقط تأثير مؤلف الحجلة (الذي يكن له شانشث إجلالاً يبلغ حد التقليد) بل إن هناك أيضاً العالم البصري والايقاعي، المتجانس والمجزأ في الوقت نفسه، لآلان رينيه وآلان روب - جريبه في العام الماضي في مارينباد.

ويصل جوستافو ساينث إلى الشيء ذاته عن طريق جهاز قليل الشأن في عالم اليوم مثل طواحين الهواء في عالم سرفانتس: الميكروفون. فروايته الفخ **Gazapo**، تتظاهر بأنها قد سُجّلت على الهواء بذلك الجهاز. لم يعد الأمر يتعلق بتأليف رواية على الآلة الكاتبة، باستخدام ما قاله فلان (رغم نسبته إلى علان للتعمية) كمفاتيح خفية، أو باستخدام عملية تجميل جراحية تخصص فيها بروسث لنقل رأس (أ) على كتفي (ب). لا، لا شيء من ذلك. فساينث ابن لهذا العصر التكنولوجي، ويفضل التظاهر بأنه يستخدم جهاز التسجيل حتى يظل كل شيء في عالم الكلمة المنطوقة.

وتبدو شخصياته وكأنها تسجل ما يجري لها (والحياة، كما نعرف، هي حدث

تلقائي happening متصل ومثل). لكن هذا التسجيل الأساسي يستخدم لإثارة تسجيلات جديدة، أو لمعارضتها في الوقت نفسه، أو أنه مستخدم في إطار قصصي تكتبه إحدى الشخصيات التي ربما كانت الأنا الأعلى للمؤلف. وتسجيل الواقع الروائي داخل الكتاب نفسه، وكذلك تسجيل الكتاب يشتركان في شرط تماثل لفظي وصوتي. كل شيء كلمات في نهاية الأمر. وكما في الكيخوتة الثاني، الذي تناقش فيه الشخصيات الكيخوتة الأول وحتى المغامرات المشكوك في صحتها التي اخترعها لهم أبيًا نيدا، فإن شخصيات ساينتس تراجع وتعيد مراجعة روايتها المسجلة ذاتها. إن الشخصيات حبيسة نسيج عنكبوت أصواتها. وإذا كانت كل تلك المستويات المشكوك في صحتها بدرجة أو بأخرى «للواقع» الروائي لهذه الرواية صالحة، فالسبب هو أن «الواقع» الوحيد الذي «تعيشه» حقاً هذه «الشخصيات» هو واقع الكتاب. بمعنى، واقع الكلمة. وكل ما عدا ذلك قابل للتساؤل ويضعه ساينتس موضع التساؤل.

وقد تركت حتى النهاية عمداً الروائي الذي يتقدم أكثر من الآخرين في هذا النوع من الاستكشافات. وأشير إلى سيبيرو ساردوي الذي أصبح لديه كتابان مطبوعان: إيماءات، الذي يزجي التكريم لنوع من الرواية الجديدة الفرنسية. الكتابات الاستوائية لمدام ساروت -، لكنه ينم عن عين وعن سمع خاصين؛ ومن أين هم المغنون، الذي يبدو لي من الأعمال الحاسمة في هذه المحاولة الجماعية لخلق لغة خاصة للرواية الأمريكية اللاتينية. (وهناك رواية ثالثة، هي كوبرا يجري تأليفها، ومما استبقته الحوارات، يمكن القول إنها تؤكد ما نقوله هنا عن مؤلفها.

وتقدم من أين هم المغنون ثلاثة مشاهد جوهرية من كوبا ما قبل الثورة. وأحد المشاهد يجري في عالم هافانا الصيني، عالم محدود من الجنس الثالث ومن عديمي القيمة، لكنه في نفس الوقت عالم رموز جنسية بالغة العمق ومقلقة؛ ويقدم المشهد الثاني كوبا الزنجية والخلاسية، السطح الملون لخط الاستواء، في حكاية ساخرة وتهكمية هي في الآن ذاته غنائية (وبهذه الصفة أذاعها بنجاح الراديو

الفرنسي)؛ والجزء الثالث يتركز أساساً في كوبا الإسبانية والكاثوليكية في كوبا المحورية. لكن ما يحكيه الكتاب شيء ثانوي بالنسبة لساردوي؛ والمهم هو كيف يحكيه؟. . . لأنه بتوحيده الأجزاء الثلاثة، المتنافرة في مداها واهتمامها، ثمة وسيط يتحول إلى غاية مركبة هي الرحلة في ذاتها. هنا نجد أن اللغة الهافانية للمؤلف (وليس للشخصيات، كما نجد لدى كابريرا إنفانتي) هي البطل الحقيقي. ولغته باروكية بالمعنى العميق لليثاما ليا وليس بمعنى كاربنيتيه، لغة تدور نقدياً، وتهكمياً، حول ذاتها، كما يحدث كذلك لدى الكتاب الفرنسيين لجماعة (كماهم Tel quel) التي يرتبط بها ساردوي بعلاقة خصبة. إنها لغة تتطور على طول الرواية، لغة تحيا، وتعاني، وتفسد وتموت لتنبعث من أشلائها ذاتها مثل صورة المسيح تلك التي يحملونها في الجزء الثالث في موكب إلى هافانا.

بهذه الرواية لساردوي، وكذلك بـ خيانة ريتا هايوارث، بأعمال نستور سامنشث والفخ، لساينث، فإن موضوع الرواية الأمريكية اللاتينية الذي وضعه بورخس واستورياس موضع التساؤل والذي طوره بصورة مذهشة وبدءاً من مجالات مغناطيسية متميزة ليثاماليا وكورتاثار، والذي أثراه، وحوله، وجعله خيالاً جارئاماركيث، وفويتس وكابريرا إنفانتي، يبلغ الآن حد الدوار الحقيقي للابتكار الثري والشعري في آن واحد. إنه الموضوع الدفين لأحدث نوع من الرواية الأمريكية اللاتينية: موضوع اللغة بوصفه موضعاً (مكاناً وزماناً) تحدث فيه الرواية «حقاً». اللغة بوصفها «الواقع» الوحيد والنهائي للرواية. الوسيط الذي هو الرسالة. وغني عن القول، في اعتقادي، إنها كذلك موضوع الشعر المحسوس البرازيلي، وموضوع التجارب الدينامية والبصرية لاوكتافيو باث، وللمسرح التجريبي، ولكل الأدب الأمريكي اللاتيني في بحثه المزدوج عن أرض مجهولة terra incognita وعن تقاليد (جديدة).



الفصل الثاني

الباروك والباروك الجديد

سيفيرو ساردوي (*)

Severo Sarduy

١ - الباروك

من المشروع أن ننقل إلى المجال الأدبي المفهوم الفني للباروك .
فهاتان المقولتان تقدمان تناظراً ملحوظاً من وجهات نظر متنوعة :
فكلتاهما لا تقبل التعريف مثل الأخرى .

A. Moret, El lirismo barroco en Alemania, Lille,
1936

أ. موريه : الغنائية الباروكية في ألمانيا

كان مقدراً للباروك ، منذ مولده ، الغموض والتعدد السيمانطقي (**). فقد
كان يعني اللؤلؤة الكبيرة غير المنتظمة - بالإسبانية Barrueco أو Berrueco ،
وبالبرتغالية Barroco - ، والصخر ، وما هو ملتو ، والكثافة المتراكمة للحجر -
ومعناه Barrueco أو Berrueco ، وربما كان يعني النمو والحوصلة ، وما ينتشر ،
حرّاً وحجرياً في الوقت نفسه ، والورمي ، وما يمتلئ بالتواءات ، وربما كان اسماً
لأحد الطلبة من مدرسة كاراتشي Carracci ، مفرطاً في الحساسية لدرجة
التكلف - هو لو باروتشه أو باروتشي Le Baroque o Barocci (١٥٢٨ -
١٦١٢) - وربما كان في بعض الفيلولوجيا الخيالية ، مصطلحاً قديماً لتقوية الذاكرة

(*) قصاص وكاتب كوبي . (ولد في كاماغوي ١٩٣٧) من أعماله الأساسية : مبادرات (برشلونة
١٩٦٣) ، من أين هم المغنيات ؟ (مكسيكو ١٩٦٧) ، كتابات حول جسد (بوينس آيرس
١٩٦٩) ، أفعى الكوبرا (بوينس آيرس ١٩٧٢) . يسكن في باريس حيث يعمل محكماً في دار نشر
(سوى) Seuil .

** نذكر بأن السيمانطيقا هي علم المدلولات . أو الدلالات وسوف نستعمل الكلمة الأصلية -
[المترجم] .

من الإسكولائية، أو قياساً منطقياً - باروكو Baroco، وأخيراً، وبالنسبة لكتالوج «معاني القواميس» التي هي تراكمات الحماقات المبوبة، فإن الباروك يعادل «الغربة المذهلة» التي تصدم - عند ليتريه Littre، أو «غير المألوف، والبذخ والذوق الفاسد» - عند مارتينث أمادور Martínez Amador.

تتنوع المفاهيم لهذه الكلمة بين عقدة جيولوجية، وتكوين متحرك وحلي من الطين Barro، وقاعدة للاشتقاق أو لؤلؤة، هذا التراكم، وهذا الانتشار بلا ضابط للدلالات، وهذا السلوك العشوائي للتفكير استلزمت عقد مجلس ترينتو el Concilio de Trento * لمقاومة الحجج الإصلاحية ولقى هذا الاحتياج استجابة الأيقونية التربوية التي طرحها الجزويت. وظهر هذا الفن الذي يصدم العين صدماً بكل معنى الكلمة tape - a - l'œil والذي يضع في خدمة التعليم والإيمان كل الوسائل الممكنة، وينكر التمييز، والظل الخلاسي لتدرج الألوان Sfumato من أجل تبني الدقة المسرحية، وتبني الشيء المباغت الذي يتحدد من خلال الغبش، ويبعد السمو الرمزي المتجسد في القديسين وبفضائلهم، من أجل تبني بلاغة ماهو محدد وماهو بدهي هذه البلاغة التي تظهر فيها أقدام المتسولين والأسماك، وصور الفلاحات العذراوات والأيدي الخشنة.

ولن نتبع تغيرات كل واحدٍ من العناصر التي نتجت عن هذا الانفجار الذي يثير تحولاً حقيقياً في التفكير، وانقطاعاً معرفياً^(١) مظهرة آنية وواضحة: فالكنيسة تجعل محورها متعدداً أو مفتتاً، وتنكر للمسار المحدد سلفاً، فاتحة قلب بنائها، الذي تنتشر منه الأشعة، لمسارات محتملة متعددة، مقدمة بذلك تيهها من الأشكال، وتفكك مركز المدينة، وتفقد بنيتها المتعامدة، ومحاور إدراكها الطبيعية

* - مجلس ترينتو: هو مجلس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الذي كان يجتمع في مدينة ترينتو بإيطاليا فيما بين عامي ١٥٤٥ و ١٥٦٣، وكان يدين حركة الإصلاح ويحدد عقائد الكنيسة - المترجم (١) يتعلق الأمر بالانتقال من إيديولوجية إلى إيديولوجية أخرى، وليس بالانتقال من إيديولوجية إلى علم، أي بانقطاع إبستمولوجي (معرفي)، مثل الذي يحدث، على سبيل المثال، عام ١٨٤٥ بين إيديولوجية ريكاردو وعلم ماركس.

- ومن الخنادق، والأنهار، والأسوار، ويتنكر الأدب لمستواه الإشاري، ولصياغته الخطية، ويختفي المركز الوحيد لمسار الكواكب، الذي كان يفترض حتى ذلك الحين أنه دائري، ليصبح مزدوجاً حين يطرح كبلر Kepler القطع الناقص شكلاً لتلك الحركة، ويطرح هارفي Harvey حركة الدورة الدموية، وأخيراً لن يعود الرب نفسه بداهة محورية، فريدة، خارجية، بل لانهائية لضروب يقين «الأنافكر» الشخصي، وتناثراً، متفتتاً يعلن عن عالم العناصر الأولية الذي يأخذ شكل المجرات.

وبدلاً من توسيع مفهوم الباروك، ذلك المجاز المرسل الذي لا يمكن كبحه، يهمننا، على العكس، أن نضيقه، ونقلصه إلى نسق عملي دقيق لا يسمح بفواصل، ولا يسمح بسوء الاستخدام أو السهولة في استخدام المصطلحات التي عانى منها هذا المفهوم مؤخراً وخصوصاً بين ظهرانينا، بل يحدد بقدر المستطاع، ملائمة تطبيقه على الفن الأمريكي اللاتيني الراهن.

٢ - اصطناع.

إذا حاولنا تحديد مفهوم الباروك، في أفضل قواعد النحو باللغة الإسبانية - وهي من عمل إيوجينيو دورس Eugenio d'Ors وجدنا أن هناك مقولة تتضمن، بشكل صريح أو غير صريح، كل التعريفات، وتقوم عليها كل الأطروحات، هي مقولة الباروك باعتباره عودة إلى ماهو بدائي، بقدر ما يكون ذلك البدائي طبيعة. بالنسبة لدورس، (٢) فإن تشوريجيرا Churiguera «يعيد إلى الذاكرة الفوضى البدائية»، «أصوات القمرية*»، وأصوات الأبواق، ترن في حديقة نباتات... وما من مشهد صوتي يحمل مشاعر أكثر باروكية بصورة نوعية... إن الحنين إلى الفردوس المفقود يثير الباروك خفية... إن الباروك «يبحث عن الأصالة، عن البدائية، عن العرى...» بالنسبة لدورس، كما يشير بيرشاربنترا Pierre Charpentrat (٣)، فإن «الباروك هو، قبل كل شيء، وكما

(2) Eugenio d'Ors, Lo barroco, Madrid Aguilar, 1964

* القمرية، طيور تشبه الحمام - [المترجم].

(3) Pierre Charpentrat, Le mirage baroque, Paris, Minuit 1967.

هو معروف ، حرية وثقة في طبيعة يفضل أن تكون مختلطة» . «إنه الباروك بوصفه انغماساً في وحدة الوجود: إن بان Pan ، إله الطبيعة ، يسود كل عمل باروكي أصيل!» .

وعلى العكس يبدو لنا المهرجان الباروكي بتكرار حلقة الحلزونية ، وبزخارفه الأرابيسك ، وبأقنعتة ، وبقبعاته الملفوفة بالسكر وبالحرير المتلألئ ، يبدو لنا تمجيداً للصناعة ، تهكماً وسخريةً من الطبيعة ، أفضل تعبير عن تلك العملية التي تعرف عليها . ج . روسيه (٤) J. Rousset في أدب «عصر» كامل : ألا وهي الاصطناعية . وتسمية الصقور «أعاصير سريعة من النرويج» ، وجزر أحد الأنهار «أقواس يانعة / على ايقاع تياره» ، ومضيق ماجلان « ذو الفضة الهاربة / المفصلة ، الضيقة ، التي تحتضن / محيطاً وآخر» ، هي تدليل على الاصطناعية ، وهذه العملية من وضع الأقنعة ، ومن الالتفاف المتواتر ، ومن السخرية يبلغ من جذريتها أنه من أجل «تفكيكها» كان من الضروري اللجوء إلى عملية مماثلة للعملية التي يسميها تشومسكي (٥) ميتا - ميتا - لغة Metameta lenguaje . والمجاز عند جونجورا هو ، في حد ذاته ، ميتا - لغوي ، بمعنى أنه يرفع إلى الأس التريبيعي مستوى معقداً فعلاً من اللغة ، هو مستوى الاستعارات الشعرية ، التي يفترض أنها بدورها تعقيد لمستوى دلالي أولي ، «عادي» للغة . وفك الرموز الذي يقوم به داماسو ألونسو (٦) Damaso Alonso ينطوي بدوره - كالعرائس الروسية* - ، عند التعليق عليه ، على عملية الاصطناعية الجونجورية . وهذا التعليق القابل للمضاعفة دائماً - هذا النص نفسه يعلق الآن على نص ألونسو ، وربما يعلق نص آخر (أتمنى) على هذا - هو أفضل مثال على هذا الانطواء المطرد لكتابة مامن قبل كتابة أخرى تشكل - كما سنرى - الباروك نفسه .

(4) J. Rousset, La Littérature de l'âge baroque France, paris, 1953.

(5) Noam Chomsky, Structures Syntaxiques Paris , Seuil, 1969.

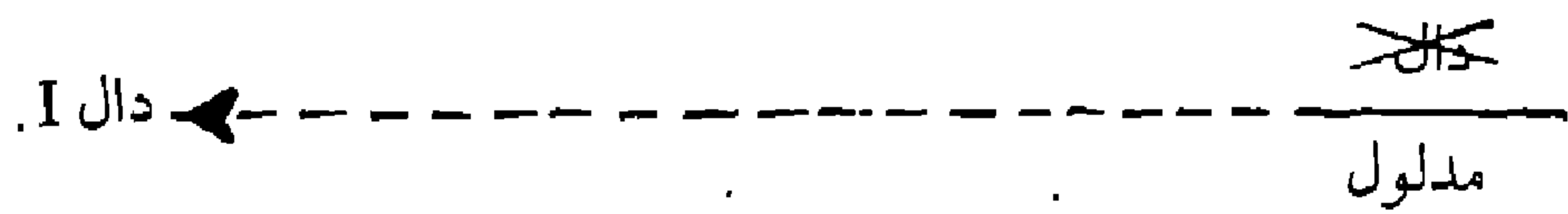
(6) Damaso Alonso, Version en Prosa de "Las Soledades, " de Luis de Gongora Madrid, Sociedad de Estudios y publicaciones, 1956.

* العرائس الروسية : دمي في داخل كلٍ منها واحدة أصغر - [المترجم] .

إن الاصطناعية المفرطة في الممارسة في بعض النصوص ، وبالدرجة الأولى في بعض النصوص الحديثة للأدب الأمريكي اللاتيني ، تكفي إذن للتدليل على وجود الباروك فيها . وسوف نميز ، من هذه الاصطناعية ، بين ثلاث آليات .

(أ) الاستبدال La sustitucion

حين يسمى خوسيه ليثاماليا في الفردوس عضو ذكورة باسم el aguijón del leptosomático macrogenitoma تتبدى الصنعة الباروكية عن طريق استبدال بإمكاننا وصفه على مستوى العلامة : فالبدال الذي يناظر المدلول «ذكورة» تم تجنبه واستبدل به آخر ، بعيداً عنه تماماً من الناحية السيمانطيقية ولا يعمل سوى في السياق الشبقي للحكاية ، أي أنه يناظر الأول في عملية الدلالة . ويمكننا كتابة هذه العملية بالشكل التالي :



ويمكن تبين عملية مماثلة في الأعمال الباروكية ، بالمعنى الأضيق للكلمة كذلك ، للرسام رينيه بورتو كاريرو René Porto carrero . فإذا لاحظنا لوحاته من مجموعة نباتات Flora ، مثلاً ، وكذلك رسومه الأخيرة ، مثل ذلك الرسم الذي يزين ذات غلاف الفردوس (في طبعة Era) ، لرأينا أن عملية الاصطناعية بالاستبدال تعمل بالطريقة نفسها . فالبدال البصري الذي يناظر المدلول «قبعة» قد حل محله قرن الوفرة * المتعدد الألوان ، وحلت محله دعامة نبات مصنوعة فوق زورق . وفي التكوين التخطيطي للرسم فقط يمكنها أن تحتل موضع الدال لـ «قبعة» ونجد مثلاً آخر في معمار ريكاردو بورو Ricardo Porro - و «منهج» démarche هؤلاء المبدعين الكوبيين الثلاثة متماثل في الشكل . هنا تستبدل

* قرن الوفرة أو الحلية القرنية - شكل زخرفي على شكل قرن العنزة أماليتا التي تقول الأساطير الرومانية إنها أرضعت جوبيتر ، ويخرج من القرن فاكهة وغللال رمز الوفرة - [المترجم] .

أحيانا بالعناصر الوظيفية للبنية المعمارية عناصر غيرها يمكنها بإدخالها في ذلك السياق فقط أن تؤدي عمل الدالات، وعمل المرتكزات الميكانيكية، للعناصر الأولى: حيث يتحول الميزاب ليس إلى شكل حيوان قبيح (جارجول gárgola) - وهو الدال الرمزي له منذ الطراز القوطي ومن ثم فهو الدال المعتاد - بل إلى مزمار، أو إلى عظم الفخذ، أو إلى قضيب. والنافورة تكتسب شكل ثمرة البابايا* الكوبية. وهذا الاستبدال الأخير مثير للاهتمام بوجه خاص، حيث أنه لا يقتصر على استبدال بسيط، بل إنه بإبعاد الدال «عادي» من العملية ووضع آخر غريب عنه تماماً في مكانه، فإن مايفعله هو إضفاء الطابع الشبقي على مجمل العمل - الرواية، أو اللوحة، أو المبنى - وفي حالة بورو يجري ذلك من خلال استخدام حيلة لغوية - فكلمة «بابايا Papaya» في اللغة الدارجة الكوبية تعني كذلك العضو الجنسي للمرأة.

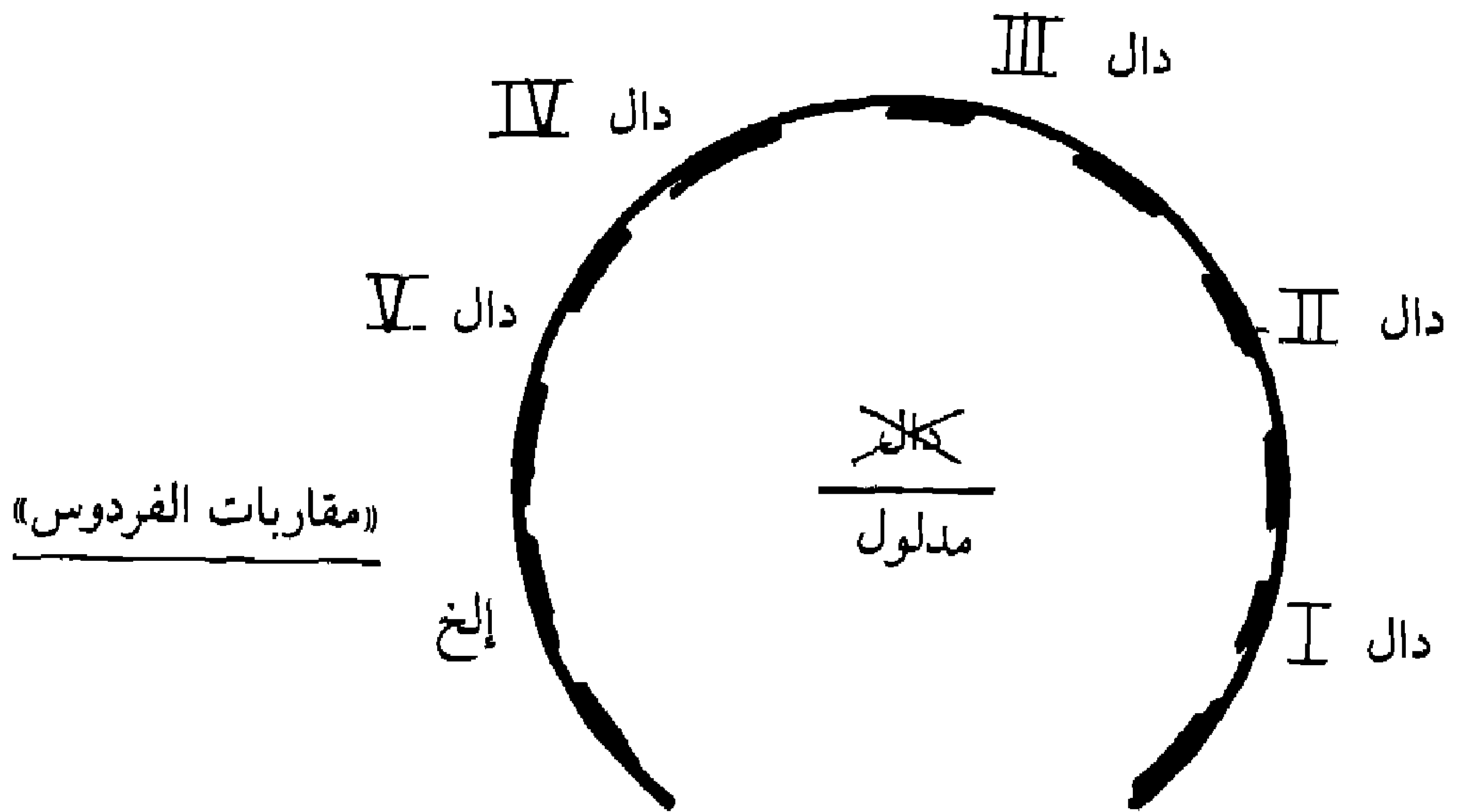
وبالنسبة للآليات التقليدية للباروك فإن هذه الأعمال الحديثة لأمريكا اللاتينية قد حافظت على، ووسعت أحياناً، المسافة بين طرفي العلامة التي تشكل الجزء الجوهري في لغته، على نقيض التلازم الحميم لهذين الطرفين، الذي يعد دعامة الفن الكلاسيكي. ثمرة في الباروك شق، أو فتحة بين المسمى والمسمى ونشوء مسمى آخر، أي مجاز (٧). ثمرة مسافة مبالغ فيها، فكل الباروك ليس أكثر من مبالغة، سنرى أن «مخلفاتها» ليست شبكية بالصدفة.

** Papaya ثمرة شجرة البابايا الاستوائية. تشبه شمامة صغيرة لونها أصفر وطعمها حلو- [المترجم].

(٧) أطرح عناصر دراسة للآليات المجازية في الفردوس، لكن ليس من وجهة نظر العلامة، بل من وجهة نظر الجملة المجازية الواضحة التي تستخدم كلمة مثل في Dispersión / Falsas notas (Homenaje a lezama) في Mundo Nuevo, Paris, 1968 وقد أعيد نشره في Escrito sobre un cuerpo, Buenos Aires, Sudame ricang, 1969 وفي Aproximaciones a Pa- radiso, en Imagen, num. 40, Caracas, enero, 1970 وقد حلل خوليو أورتيجا هذه المسافة المجازية من وجهة نظر نص أرقى: هي «الفاصل» بين الموضوع والمحمول.

(ب) الانتشار (التشعب)*

آلية أخرى لاصطناعية الباروك هي تلك التي تتكون من طمس دال أحد المدلولات المعطاة لكن ليس لإحلال آخر محله، مهما كان بعده عن الأول، بل لإحلال سلسلة من الدالات تتطور بطريقة المجاز المرسل وتنتهي بأن تطوق الدال الغائب، متبعةً مداراً حوله، مداراً يمكننا من قراءته - التي سنسميها قراءة شعاعية - استنتاج الدال. وقد أصبح أداء الآلية الباروكية أكثر صراحة نتيجة غرسها في أمريكا وضم مواد لغوية أخرى إليها - وأنا أشير إلى كل اللغات اللفظية أو غيرها -، وعن طريق إتاحة العناصر المتعددة الألوان عادةً والتي يقدمها لها الإحتكاك الثقافي، مع شرائح ثقافية أخرى. وحضورها دائم بالدرجة الأولى على شكل التعداد العبثي، ومراكمة مختلف العقد الدلالية، والتقابل بين وحدات متنافرة، والقائمة غير المتكافئة والإلصاق (الكولاج Collage). ويمكن على مستوى العلامة أن نوضح الانتشار بالطريقة التالية:



* La proliferación ترجمناها بالانتشار أو التشعب باعتبارها ترجمات ممكنة نظراً لعدم الاستقرار على مصطلحات موحدة في العربية للبنىوية، وسوف نضع الترجمات الممكنة أو التي نراها مناسبة على طول المقال ونوضح أصلها - [المترجم].

هكذا نجد، في الفصل الثالث من رواية قرن التنوير El siglo de las luces، أن أليخو كاربنتييه، من أجل تضمين المدلول «فوضى»، يجري حول الدال (الغائب) تعداداً لأدوات فلكية تستخدم بصورة معقدة، ونستنتج من قراءتها الفوضى الضاربة أطنابها: «الساعة الشمسية الموضوعة في الفضاء، تحولت إلى ساعة قمرية، تشير إلى ساعات مقلوبة. وكان الميزان الهيدروستاتيكي يفيد في التحقق من وزن القطط، وكان التلسكوب الصغير البارز من الزجاج المكسور لإحدى النوافذ يتيح رؤية أشياء، في المنازل القريبة، تثير الضحك المختلط لكارلوس، الفلكي الوحيد في أعلى الصوان».

ونجد المماثل الشكلي البصري لهذه الآلية في «مراكمت» النحات الفنزويلي ماريو أبريو (٨) Mario Abreu. ففي عمله أشياء سحرية، نجد تقابلاً للمواد مختلفة - حذوة حصان، وملعقة، وأربع عصي، وأربعة أجراس، ودبوس صدر، وسلسلة مفاتيح - كلها، مثلما عند كاربنتييه، مستخدمة بطريقة معقدة، أي، مفرغة من وظائفها، بحيث يصل النحات إلى أن يعني لنا أن يصور رمزياً عن طريق التراكم، مدلول «الكأس المقدسة» دون أن يكون الدال المعتاد، المحدد، لـ «الكأس المقدسة» موجوداً في أي لحظة - في أي شكل، مهما بلغ من مجازيته.

وفي أحيان أخرى لا يقودنا تجميع أشياء متنافرة «مفرغة» إلى أي مدلول محدد، ولا بطريقة راقية المجازية. فالقراءة الشعاعية خادعة بالمعنى الذي يعنيه بارت من الكلمة، والتعداد يقدم نفسه على أنه سلسلة مفتوحة، فكأن عنصراً معنياً، يكمل المعنى المتضمن، يختم العملية الدلالية، ولا بد من أن يسارع بإغلاقها مكملاً بذلك المدار المرسوم حول الدال الغائب. هكذا يقدم لنا في Mampulorio، وهو مراكمة أخرى لماريو أبريو، ست ملاعق وكوب، وربما صحن لكن هذه النواة الأولى للمعنى تظل مضطربة، أي تخدع في قراءتها على أنها إعداد وجبة طعام، مثلاً، إذ يظهر علاوة على هذه الأشياء المتماسكة

(8) cf. Zona Franca, Caracas, año III, núm. 47, julio de 1967.

سيمانطيقياً عين مركبة فوق سطح سيمتري على شكل جلد حيوان . ولا تقودنا
القراءة إلا إلى تناقض الدالات التي تنكر بعضها، وتلغي بعضها بدل أن
تتكامل . هكذا فإن «مأدبة» «عين حارسة» / «بدائية» / «طقسية» / إلى آخره،
لا تعمل بوصفها وحدات متكاملة لمعنى واحد، مهما بلغ من اتساعه، بل كأدوات
لنبذه، مع كل محاولة للتشكل، وللاكتمال، تنجح في جعله بلا قيمة، وفي إلغاء
المعنى الأخذ في التفتح، والمشروع غير المكتمل دوماً، وغير المتحقق، للدلالة،
والتعدادات، المزاوجات المتنافرة المباغطة والمدهشة لـ إقامة على الأرض - Re-
sidencia en la tierra لبابلو نيرودا Pablo Neruda، تثير هذه القراءة نفسها
وكذلك تفعل المجرات السيمانطيقية - التفتت، تشتت المعنى - للنشيد الشامل
: Canto General

جواياكيل، مقطع حربة، حافة

نجمة إستوائية،

مزلاج مفتوح

للظلمات الرطبة

التي تتموج

كضفيرة امرأة مبتلة :

باب حديدي أفسده

العرق المر

الذي يبلل العناقيد،

الذي يقطر العاج في الغصون

وينزلق إلى فم البشر

وبعض كحامض بحري . (٩)

وفي البذخ الباروكي لرواية السرتون الكبير: دروب لجوان جيمارايش روزا،

(9) Pablo Neruda, Canto general, parte, XIV poesía XIII.

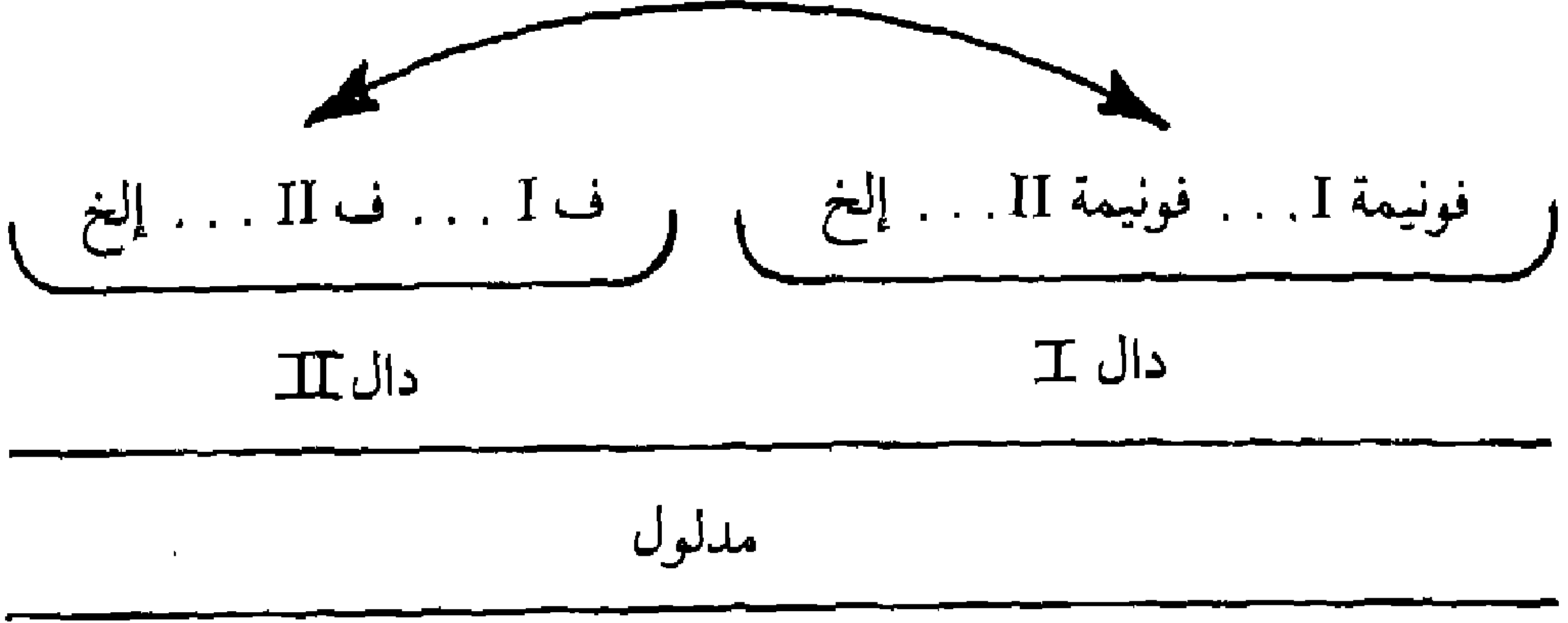
يمكن أن نتبين الطريقتين المذكورتين آنفا بوصفهما ركائز خطابية ، لكنها مصاغتان في عملية بلاغية واحدة : فقد استبعدت من النص كل تسمية مباشرة للمدلول «إبليس» - استبدال - ، أما السلسلة من الأسماء التي تعينه على طول الرواية - إنتشار - فتتيح وتثير قراءة شعاعية لخصاله ، ويظل تنوع الخصال الذي يشير إليه في إثراء ادراكنا له بقدر ما نخمنه . وإطلاق اسم آخر عليه يصبح زيادة في كسوته الشيطانية ، وتوسيعاً لسجل سلطته .

وأخيراً ، ففي الانتشار ، الذي هو عملية الكناية دون منازع ، أفضل تعريف لكل مجاز . إنه التحقق على مستوى الممارسة praxis - وعلى مستوى فك الرموز الذي تمثله كل قراءة - للمشروع وللمهمة التي يظهرها لنا إشتقاق هذه الكلمة : إزاحة ، نقل ، مجاز . والانتشار ، هذا المسار المتوقع ، هذا المدار من التشابهات المختصرة ، يستلزم ، من أجل جعل ما يطمسه قابلاً للتخمين ، ومن أجل لمس الدال المستبعد المطرود ، ورسم الغياب الذي يشير إليه ، يستلزم هذا النقل ، وهذا الدوران حول ما هو غائب وما يمثله غيابه : إنها قراءة شعاعية تتضمن ، دون نظير ، حضوراً ، هو الذي يحدد حين يحذف علامة الدال الغائب ، الذي تشير إليه القراءة دون أن تسميه . في كل واحدة من انعطافاتنا إنه دون أن تسميه ، إنه الطريد الذي يحفظ آثار المنفى .

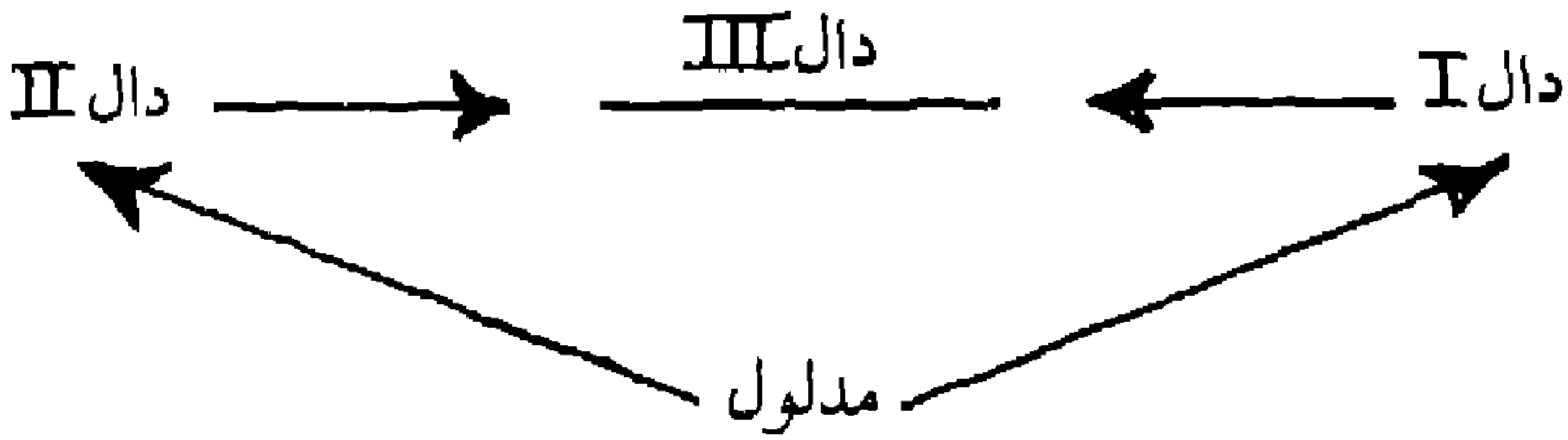
(ج) التكثيف .

تشبه إحدى ممارسات الباروك العملية الحلمية للتكثيف : إحلال ، مرآة ، اندماج ، تبادل بين العناصر - الصوتية ، والتشكيلية ، إلخ - لاثنين من حدود سلسلة دلالية ، ينشأ من تصادمهما وتكثيفهما حد ثالث يلخص سيমানطيقياً الحدين الأولين . والتكثيف هو الشخصية المحورية لأدب جويس ، ولكل عمل لعبى ، وشعار النبالة للويس كارول ، التكثيف ومعناه البدائي ، الإبدال الصوتي ، الذي يمكننا أن نشير إليه ، على مستوى العلامة ، بالطريقة التالية :

إبدال



تكثيف



وقد وجد التكثيف والابدال الصوتي أفضل ممثل لهما، بين ظهرانينا، في أعمال جييرمو كابريرا إنفانتي - ثلاثة نمور حزينة *Très trisles tigres*، وأجساد مقدسة *Cuerpos divinos* - التي تشكل فيها هذه الأشكال، هذه التشوهات للأشكال، الحبكة، والدعامات التي تكون بنية الانتشار الواهن للكلمات. كتب رولان بارت: «لا يمكن للمعنى أن ينشأ إذا كانت الحرية كاملة أو معدومة، فنظام المعنى هو نظام الحرية المشروطة»، (١٠) وفي أعمال كابريرا إنفانتي نجد أن وظيفة هاتين العمليتين هي هذه بالضبط: أن تضع حدوداً، أن تقوم بعمل دعامة

(10) Roland Barthes, *Système de la mode*, Paris, Seuil, 1967

وهيكل للانتاج الطافح من الكلمات - للإقحام ، للامتداد إلى مالا نهاية ، من عبارة ثانوية إلى أخرى - بمعنى أن تجعل المعنى ينشأ هناك حيث كل شيء يدفع إلى اللعب الخالص ، إلى العشوائية الصوتية ، أي إلى اللا-معنى . فالإبدالات من قبيل O se me valla un gayo والتكثيفات من قبيل amosclavo أو maquinoscrito * ، ونكتفي بذكر أبسطها ، تشتط في كل صفحة حرية الكاتب الكاملة في أيامنا - فقد اختفت البلاغة - وتدين أعمال كابريرا إنفانتي بمعناها لهذه «الرقابة» .

هذا اللعب بالتكثيف ، الذي كان يتمثل كلاسيكياً في الفنون البصرية بالتنويعات المختلفة لعدم التشكل anamorfosis ، يجد اليوم إمكانات جديدة بادخال الحركة في الفن (الرسم السينمائي والسينما في ذاتها) . فعن طريق عمل حزرات رأسية في الخشب ، وباستخدام ثلاثة ألوان مختلفة لتغطي كل واحد من هذه الحزرات ، يتوصل كارلوس كروث - ديث Carlos Cruz - Diez لتكوين ثلاث لوحات مختلفة حسب المكان الذي يجد فيه المشاهد نفسه على اليمين ، أو على اليسار ، أو أمام اللوحة . وحركة المشاهد وهي العملية التي تناظر القراءة في هذه الحالة تكشف كل الوحدات التشكيلية في عنصر رابع - هو اللوحة النهائية - لوني و «مفتوح» هندسياً .

كذلك يمكننا التوصل إلى اللوحة النهائية» لـ Julio le Parc من خلال التكثيف . فالشرائط المعدنية المرنة التي تعكس الضوء وتشكل الدعامة المرئية للوحة تسقط بحركتها عدة رسوم لامعة على الخلفية . ولا يشكل العمل أي واحد من هذه الرسوم اللحظية ، التي لا يقسمها بوصفها وحدة سوى الإدراك ، بل تشكله كل هذه الانعكاسات . وعلاقتها مع الشريط المعدني المركزي ، وهو كذلك عنصر يقوم بحركة معقدة تقاوم أي تلخيص إلى أشكال

* أصل الجملة التي جرى فيها الابدال هو O se me voya un gallo وأبدل حرف y مع ll لأنها متماثلان في النطق (يتوه مني ديك) أما التكثيفات فبدلاً من كلمتي amo (سيد) و esclavo (عبد) أصبحت amosclavo وبدلاً من escrito a máquina أصبحت maquinoscrito [المترجم] .

أولية . وكل انعكاس هو بمشابة تخطيط سريع الزوال ، هو «الحظة» لا يمكن الإمساك بها للعمل أو لمعادلته ، إنه عمل جوهره نفسه هو التغير والزمن ، التعديل الميكانيكي لتكوين س ذي متغيرات متعددة مركبة وتراكبها دون أن تتيح اكتشاف المكونات في أي لحظة .

لكن المجال المثالي للتكثيف ، بالطبع ، هو التراكب السينمائي تراكب صورتين أو أكثر تتكثف جميعها في صورة واحدة - أي تكثيف متزامن (سينكروني) - كما يمارسه باستمرار ليوبولدو توري - نيلسون - Leopoldo Torre Nilsson ، وكذلك تراكب مشاهد مختلفة ، تندمج في وحدة مقال واحدة في ذاكرة المشاهد - أي تكثيف متعاقب (دياكروني) - ، وهي طريقة مألوفة عند جلوبير روشا Glauber Rocha .

لكن يجب أن نحدد أننا لا نتحدث هنا عن صنعة بسيطة للكتابة السينمائية ، كما نجدها بدرجة أو بأخرى لدى كل المؤلفين ، بل عن نمط معين أسلوب قصدي لاستخدام هذه الطريقة ، فعند توري نيلسون تتمتع الأشكال التي تتراكب - مثلما لدى آيزنشتين - بقيمة ، ليست قيمة مجرد التسلسل ، بل قيمة المجاز ، فبالإصرار على تشبيهاته يخلق المؤلف توتراً بين دالين ينشأ من تكثيفهما دال جديد . وبالمثل ، ليس الأمر عند روشا مجرد تنويعه لمشاهد متشابهة بنيوياً - كما يحدث في سينما روب - جرييه Robbe - Grillet - ، بل إنه خلق توتر بين مشاهد شديدة الاختلاف والبعد بعضها عن بعض ويجبرنا مؤشراً على «ربطها» بحيث أنها تفقد استقلالها ولا توجد إلا بقدر ما تحقق الاندماج .

وهكذا فإذا كان الدال في الاستبدال يجري الالتفاف حوله وإحلال آخر محله ، وفي الانتشار تجري إحالة سلسلة من الدالات إلى الدال الأول الغائب ، فإننا في التكثيف نشهد الإخراج «الميزانين» والتوحيد بين دالين يأخذان في الاتحاد على المساحة الخارجية للشاشة ، أو للوحة ، أو من داخل الذاكرة .

٣ - المعارضة (الباروديا)

عند تعليقه على المعارضة التي قام بها جونجورا الموّال Gongora عند لوبي دي

فيجا Lope de Vega يستنتج روبر جام Robert Jammes (١١) أنه : «بقدر ما يكون هذا الموال لجونجورا نسخاً واتباعاً (démarquage) لموال سابق يكون من الضروري قراءته استشفافياً* en filigrana لكي يمكن الاستمتاع به تماماً، ويمكن القول إنه ينتمي إلى نوع أدبي أدنى لأنه لا يوجد إلا بالإحالة إلى هذا العمل». وإذا كان هذا التأكيد قد بدا لنا قابلاً للنقاش بالنسبة للباروك الإسباني، فإنه بالنسبة للباروك الأمريكي اللاتيني، الباروك «التصويري»، كما يسميه ليثاما ليما، باروك التوفيق، والتنويع والمزاوجة brazaje، يفرنا بأن نوسع مجاله، لكن مع عكسه تماماً - وهي عملية باروكية -، وبأن نؤكد أنه : بقدر ما يكون عمل مامن أعمال الباروك الأمريكي اللاتيني نسخاً عن عمل سابق فلا بد من قراءته استشفافياً لكي يمكن الاستمتاع تماماً بتبعيته إلى نوع أدبي أرقى، وهو تأكيد سيزداد صحة كل يوم، مع التسليم بأن الإحالات ومعرفتنا بها ستصبح أكثر اتساعاً، كما ستصبح الأعمال الاستشفافية أكثر عدداً، وتكون بدورها تأسيساً ونسخاً عن أعمال أخرى.

بقدر ما تسمح به قراءة استشفافية، يخفى فيها، تحت النص - أو العمل المعماري، أو التشكيلي، إلخ - نص آخر - عمل آخر - يكشفه، ويظهره، ويتيح فك رموزه، فإن الباروك الأمريكي اللاتيني الراهن يشارك في مفهوم المعارضة، كما عرفه عام ١٩٢٩ الشكلي الروسي باختين Backtine (١٢). فوفقاً لهذا المؤلف تستمد المعارضة من النوع الأدبي «الجاد - الهزلي» القديم، الذي يرتبط

(11) Robert Jammes, Études sur l'oeuvre poétique de Don Luis de Gongora y Argote, Bordeaux, Institut d Etudes Iberiques, 1967

* القراءة الاستشفافية تقابل en filigrana بالاسبانية و en filigree بالفرنسية ويقصد بها القراءة من خلال سطح من المخرمات يخفى اجزاء ويظهر أخرى وفقاً لقانون المخرمات الذي يحدد شكلها وهي قراءة إظهار البعض وإخفاء البعض الآخر، وتختلف عن قراءة calquee وتعني القراءة من خلال سطح شفاف - [المترجم].

(12) Michail Backtine, Dostoevskii, Turín, Einaudi, 1968, Cf,

= Critique, Paris, avril في Julia Kristeva كريستيفا

بالفولكلور الكرنفالي - ومن هنا مزجه بين البهجة والتقاليد - ويستخدم اللهجة المعاصرة بجدية، لكنه كذلك يبتكر بحرية، ويتلاعب بتعددية النغمات، أي لهجة الكلام. وأرضية هذا النوع الأدبي - الذي كانت لحظاته العظيمة هي الديالوج السقراطي والسخرية المنيبية* -، وأساس هذا النوع هو الكرنفال، العرض الرمزي والتوفيقي الذي يسود فيه «الشاذ»، والذي تتضاعف فيه الاختلاطات والتدنيسات، التمحور حول الذات واختلاط المشاعر، والذي يكون الفعل الرئيس فيه تنويجاً ساخرًا، أي تمجيداً يخفى تهكماً. أعياد الإله ساتورن، ومواكب الأقنعة في القرن السادس عشر، الساتيريكون، والبويثيو، واحتفالات الأسرار، ورابليه، بالطبع، لكن الكيخوته في المقام الأول: تلك أفضل الأمثلة على ذلك الإضفاء للطابع الكرنفالي على الأدب والذي ورثه الباروك الأمريكي اللاتيني الحديث - وليس عبثاً أن نلاحظ أهمية الكرنفال بين ظهرانينا. إن إضفاء الطابع الكرنفالي يتضمن المعارضة بقدر ما يعادل اختلاطاً ومواجهة وتفاعلاً بين شرائح متميزة، وبين أنسجة لغوية متميزة، بقدر ما يعادل تداخلاً في النصوص أو تناصاً *intertextualidad*. إنها نصوص تقيم في العمل حواراً، عرضاً مسرحياً يكون فيه حملة النصوص - المؤدون الذين يتحدث عنهم جريما Greimas - نصوصاً أخرى، ومن هنا الطابع البوليفوني، الاستريوفوني إذا شئنا أن نضيف اصطلاحاً مستحدثاً لا بد من أنه كان سيعجب باختين للعمل الباروكي، ولكل قانون باروكي، سواء أكان أدبياً أم لا. ويوصفه الباروك مجالاً للحوارية، وللبوليفونية، ولاختفاء الطابع الكرنفالي، للمعارضة وللتناص، (تداخل النصوص) فإنه يقدم نفسه، من ثم، باعتباره شبكة من العلاقات، من الاستشفافات المتتالية لا يكون التعبير التخطيطي عنها خطياً، ثنائي البعد،

= de 1967

- يجدر بنا أن نصحح هنا، فباختين ليس شكلياً، بل يحاول، من منطلقات ماركسية إنهاء القطيعة بين الشكلية والنزعة الايديولوجية - [المترجم].

* المنيبية: نسبة إلى منيبوس Menippos، الكاتب الإغريقي الساخر (القرن الثالث قبل الميلاد) - [المترجم].

مستوياً، بل حجباً، فراغياً ودينامياً. ويدخل في إضفاء الطابع الكرنفالي (وهذا ملمح مميز للمزج بين الأنواع الأدبية، وإقحام نمط من المقال في آخر - رسالة في قصة، وحوار في تلك الرسائل، الخ - أي أن الكلمة الباروكية، كما أشار باختين، ليست مجرد مايشخص بل كذلك ما يتشخص، وأنها مادة الأدب. وفي مواجهة اللغات المتشابهة لأمريكا - وقوانين المعرفة السابقة على كولومبس - وجدت الإسبانية - قوانين الثقافة الأوروبية - نفسها مزدوجة، منعكسة في أنظمة أخرى، في مقالات أخرى. وحتى بعد أن محتها، بعد أن أخضعتها، بقيت منها عناصر معينة جعلتها اللغة الإسبانية تتطابق مع الأنظمة المناظرة للإسبانية وجدت عملية الترادف، المعتادة في كل اللغات، وجدت نفسها متسارعة إزاء ضرورة توحيد الاتساع الهائل للأسماء، على مستوى السلسلة الدلالية. إن الباروك، الذي هو الوفرة المسرفة، قرن الخصب المترع، السخاء والتبذير - ومن هنا المقاومة الأخلاقية التي أثارها في بعض ثقافات الاقتصاد والدقة، مثل الثقافة الفرنسية - إن السخرية من كل وظيفية، من كل تعقل، هو أيضاً الحل لذلك التشبع اللفظي، ولذلك الامتلاء المفرط trop plein للكلمة، ولسخاء الأسماء بالنسبة للمسميات، لما هو قابل للتعداد، لفيض الكلمات فوق الأشياء. ومن هنا أيضاً آلية الدوران حول المعنى فيه، والاستطراد، والحياد آلية التضاعف وحتى تكرار المعنى. إنه الفعل والأشكال التي تبذر، اللغة التي لاتعود من فرط سخائها، تحدد أشياء، بل مسميات أخرى لأشياء، دالات تنطوي على دالات أخرى في آلية دلالية تنتهي بأن تشير إلى نفسها، مبينة نحوها ذاتها وقوالب هذا النحو وتوالدها في عالم الكلمات. التنويعات، التعديلات لنموذج تتوجه كلية العمل وتعزله عن عرشه، تشير إليه، تشوّهه، تضاعفه، تعكسه، تعريه، أو تبالغ في شحنه حتى تملأ كل الخواء، كل الفراغ - اللانهائي - المتاح. ومن كونه لغة تتحدث عن اللغة يتولد السخاء المفرط الباروكي بالإضافة إلى الترادفية، بال «الازدواج» الأولي، وبإتخام الدالات التي يصنفها العمل، والتي تصنفها الأوبرا الباروكية.

بالطبع يكون العمل باروكياً بقدر ماتكون هذه العناصر - أي الإضافة

الترادفية، والمعارضة، إلخ - موجودة في النقاط العقدية لبنية المقال، أي بقدر ما توجه تطوره وتشعبه. ومن هنا يجب التمييز بين الأعمال التي تطفو فوق سطحها شذرات، وحدات دنيا من المعارضة باعتبارها عنصراً ديكورياً وبين الأعمال التي تنتمي بشكل نوعي للنوع الأدبي للمعارضة وتكون بنيتها بمجملها مركبة، ومتولدة بمبدأ المعارضة، وبحسب إضفاء الطابع الكرنفالي. (١٣)

ومن أجل تجنب التعميمات السهلة والتطبيق غير المنظم للمعيار الباروكي سيكون من الضروري وضع ترميز لقراءة الوحدات النصية قراءة استشفافية، وسوف نسميها حُزماً Gramas حسب التسمية التي اقترحتها جوليا كريستيفا. (١٤) يجب، إذن، خلق نظام لفك الرموز ولالاتقاط، خلق صياغة لعملية فك الرموز للباروك.

وسنخاطر هنا بوضع بعض العناصر من أجل سيميولوجية للباروك الأمريكي اللاتيني.

(أ) التناص (تداخل النصوص) La intertextualidad

سنتناول أولاً إدراج نص غريب في النص، كولاجه (تلاصقه) أو تراكبه في سطح النص، هذا الشكل الأولي للحوار، دون أن يتعدل بسبب ذلك أي عنصر من عناصره، ودون أن يتغير صوته: أي الاقتباس، ثم سنتناول الشكل الوسيط للإدراج الذي يندمج فيه النص الغريب في النص الأول، دون أن يكون قابلاً للتمييز عنه، ودون أن يضع حدوده، أو سلطته كجسم غريب على السطح، بل وهو يشكل السمات الأكثر عمقاً للنص المتلقى ناشراً شباكه، معدلاً بأنسجته جيولوجيته: أي الاستحضار La reminiscencia.

(١٣) عند بورخس، على سبيل المثال، لما كان عنصر المعارضة محورياً، فإن الاقتباسات، المحددة الخارجية للمعارضة، يمكن أن تسمح لنفسها بأن تكون زائفة، ويمكن أن تكون مشكوكاً في صحتها.

(14) Julia Kristeva, Pour une sémiologie des paragrammes en Tel Quel, num. 29, Paris, 1967

الاقتباس La cita . يحقق جابريل جارتيا ماركث في مائة عام من العزلة بين إيماءات باروكية أخرى إيماءة من هذا النوع نوع الاقتباس حين يصر، على عكس تجانس اللغة الكلاسيكية، على عبارة مأخوذة مباشرة عن خوان رولفو، ويدرج في الحكاية شخصية من كاربنتيه - هي بيكتور هوجيس من قرن التنوير -، وشخصية أخرى من كورتاثار - هي روكامادور من رواية الحجلة -، وأخرى من فوينتس - هي أرتيميو كروث من رواية موت أرتيميو كروث - ويستخدم شخصية تنتمي بوضوح إلى بارجاس يوسا، ناهيك عن الاقتباسات العديدة من الشخصيات والعبارات، والسياقات - التي تشير في العمل إلى أعمال سابقة للمؤلف. أما الاقتباسات التشكيلية التي يمارسها أنطونيو سيجي Antonio Segui في لوحاته الأخيرة والتي يكسرها تجانس هذه اللوحات والتي تأخذ أشكال الكولاج، و «الاستعارة»، أو الازاحة، فتأتي من الفن التشكيلي، ومن تنضيد الحروف، والنسخ المختلفة، الخ - ومن مختلف القوانين الحضرية - أسهم، أيد تشير، خطوط من النقط، لوحات عابرة، الخ. لكن الاقتباسات التي تشكل مجمل لوحات حفر المصور هو مبرتو بينيا Humberto Pena فتأتي من مجالات تشكيلة أخرى - أو تقوم في التركيبات التشكيلية بهذه الوظيفة -: لوحات تشريح تقطع رسم جسد بالغ الملاءمة ودقته البالغة في إظهار الأحشاء، وقصص كوميدية مصورة من أمريكا الشمالية تشير في المخ إلى فظاعة العبارة الوليدة.

أما الاقتباسات التي يمكن تبيينها في استنساخات اليخاندرو ماركوس Alejan-dro Marcos، ففيها، علاوة على المعارضة، تكرار للمعنى. إن القانون التشكيلي نفسه هو الذي يقوم هنا بدور مجال للاستخلاص، أي بدور مادة قابلة للاقتباس: المنظور، تقابل الضوء والظل، الهندسة، كل العلامات التي تحدد بها المواضع، الفراغ والحجم، والتي استوعبتها العادة، فك الرموز المستخدم خلال قرون عديدة هو نفسه يستخدم هنا لمجرد إظهارها. وبقدر ما تكون تعسفية بقدر ما يكون إظهارها شكلياً. إنها اقتباسات تدرج بالضبط في مجال الباروك لأنها بمعارضتها للقانون الذي تنتمي إليه بتشويههاله، وبإفراغه، وباستخدامه

بصورة عبثية أو لأغراض تشويبية، لاثخيل إلا إلى اصطناعيتها. لا المسافة تنفع، ولا مقياس الأشياء في المنظور، ولا الحجم: كل شيء «يخفق» هنا، حيث لا تظهر سوى الوسائل الطبيعية بشكل مزيف هذه الوسائل التي نستخدمها للإيهام بها، ومن أجل الخداع، جاعلين السطح المستوي الثنائي البعد للقماش يظهر مثل «نافذة» أي، مثل فتحة باتجاه عمق ما. ان الاستخدام على طريقة المعارضة للقانون الذي ينتمي إليه عمل ما، تمجيده والسخرية منه - التتويج والانزال عن العرش عند باختين - في داخل العمل نفسه، هي أفضل الوسائل لكشف هذه المواضع، وهذا الخداع.

ونشير أخيراً في مجال آخر إلى الاقتباسات التي يكسرها ناتاليو جالان Natalio Galán التركيب المتتابع لمؤلفاته الموسيقية مدخلاً فيها، بصورة مباغتة، بعض الإجراءات المأخوذة من الرقصات المضادة، ومن الألحان الكوبية ومن الأصوات الطبيعية.

الاستحضار. La reminiscencia. إن التقاويم الكوبية من العهد الاستعماري، ولافتات وإعلانات ذلك الزمن، والكتب والوثائق - من أعمال مكتبة الدوريات - موجودة على شكل استحضار - أي بشكل لغة إسبانية حذرة، حديثة الغرس في أمريكا، وذات قاموس كلاسيكي -، في مقاطع معينة من رواية الموقف La situación لليساندرو أوتيرو Lisandro Otero رغم أنها لاتزدهر على سطح النص بل هي كامنة دوماً وتحدد النغمة العتيقة للنص المرثي. ويمثل ذلك استحضار نقوش الأرابيسك، ونوافذ الزجاج الملون وأشغال الحديد الباروكية من العهد الاستعماري، وهذا الاستحضار هو الذي يشكل بنية الطبيعة الصامتة لدى أميليا بيلايث Amelia Peláez، إن الدعائم، أو الهيكل العظمي للوحة إيما تحددتها استدارات قضبان الحديد الكريولية واستدارات «انصاف الدوائر» دون أن تبدو تلك الاستدارات على القماش في أي لحظة أكثر من استحضار شكلي يوجه الأحجام، أي يركز أو يطفىء الألوان وفق دوائر أشغال الزجاج المعشق، ويقسم أو يراكب الثمار.

(ب) باطنية النص La intratextualidad

سنجمع في الفقرات التالية النصوص الاستشفافية التي لا تقدم على السطح الظاهري المستوي للعمل باعتبارها عناصر غريبة عنه *aloyenos* - الاقتباسات والاستحضارات -، بل تشارك، عن وعي أو عن غير وعي، في فعل الإبداع نفسه لأنها كافلة في الانتاج المكتوب، في عملية وضع الرموز - عملية الوشم - التي تتكون منها كل كتابة. الحزم التي تنزلق، أو يجعلها المؤلف تنزلق بين الطيات المرئية للسطر، الكتابة داخل الكتابة.

الحُزْم الصوتية. على المستوى نفسه للحروف التي تخلق معنى معيناً على مسار السطر، الثابت، «العادي» للصفحة، توجد تنظيمات أخرى ممكنة لهذه الحروف، لكنها تكون مجرات ممكنة أخرى من المعنى، مستعدة لأن تتحول إلى قراءات أخرى، إلى عمليات فك رموز أخرى، مستعدة لإسماع اصواتها لمن يود سماعها. إن الأسطر الطباعية المتوازية والمنتظمة - التي تتحدد بمفهوما الخطي للزمن - تقدم صوتياتها فوينماتها أمام من يريد تجاوزها لتعطى قراءات أخرى شعاعية، مبعثرة، متراوحة، على شكل مجرات: إنها قراءة لحزم صوتية تطبقها المثالي هو الجناس التصحيفي *anagrama* *، وهو العملية التي لامنازع لها لاختفاء الأسماء، وللتهمك المخفي والقابل للتخمين من جانب الشخص المؤهل لذلك، عملية الضحكة الموجهة إلى الشخص المفسر، لكنها تطبق كذلك في أشكال الخط *caligrama*، وفي الكتابة الأوائلية *acrostico*، وفي الكتابة المتعرجة *bustrofedón* *، وفي كل الأشكال اللفظية والكتابية لعدم التشكل، ولوجهات النظر المزدوجة والمتعارضة للتكعيبية، وهي الأشكال التي يكون

* *anagrama* الجناس التصحيفي أي تغيير ترتيب أحرف كلمة ما بهدف تشكيل كلمة جديدة من الحروف نفسها، *acrostico* هي القصيدة التي إذا جمعت أوائل (أو أواخر) أبياتها شكلت كلمة أو عبارة! وهي كذلك سلسلة الكلمات المرتبة بحيث تكون قراءتها رأسياً مطابقة لقراءتها أفقياً، *bustrofedon* هي الكتابة التي تبدأ من أول السطر وحين ينتهي السطر تستمر من نهاية السطر التالي وليس من أوله (إذا بدأ السطر الأول من اليمين مثلاً فإن السطر الثاني يبدأ من اليسار حيث انتهى الأول) وهكذا - [المترجم].

تطبيقها الخادع هو الجناس الاستهلاكي aliteración . الجناس الاستهلاكي الذي «يصنف» ويبسط، والذي يكشف طبقات عمل صوتي ما، لكن لا تتعدى نتيجته كونها إظهاراً للعمل نفسه . وما من شيء، ما من قراءة أخرى تختفي بالضرورة تحت الجناس الاستهلاكي، ولا تحيلنا آثاره إلا إلى ذاتها، وما يخفيه قناعه هو على وجه الدقة حقيقة أنه ليس أكثر من قناع، من صنعة وتسلية صوتية هي غاية ذاتها . ومن ثم، فإنها بهذا المعنى، عملية حشو ومفارقة، أي عملية باروكية .

إن النزعة اللونية، والتلاعب المتسرر بالأنسجة في اللغة البرتغالية، والتي استكشفها الشاعر الجونجوري جريجوريو دي ماتوس Gregório de Matos، قد قامت بدور الأسس للوحات الفسيفساء الصوتية في كتاب المقالات - المجرات Liuro de ensaios- Galáxias لهارولد دي كامبوس Haroldo de Campos، للجناسات الاستهلاكية التي تمتد على طول صفحات متحركة ولا تميل إلا إلى ذاتها، و «العمود الفقري السيمانيقي» الذي يوحد بينها بالغ الهشاشة مثل :

mesma e mesmirando ensimesma emmimesmando filipendula
de texto extexto /por isso escrevo cravo no vazio osgrifos dêsse
texto os grafos/as garras e da fábula só fica o finar da fábula o finir
da fábula o/finíssono da que em vazio transvasa o que mais vejo
aqui é o papel que/escalpo a polpa das palavras do papel que ex-
palpo os brancos palpos/...

وفي ثلاثة نمور حزينة Tres tristes tigres، التي يمثل عنوانها جناساً استهلالياً، والتي تحمل إحدى شخصياتها اسم بوستروفيدون Bustrofedón (أي الكتابة المتعرجة)، ينبعث الدافع إلى الكتابة بالضبط من الاهتمام الذي تناله الحزم الصوتية . وإذا كان هذا العمل - مثله مثل عمل كينو Queneau - يبلغ حد كونه عملاً فكاهياً، فهذا بالضبط لأنه يأخذ عمل الحزم على محمل الجد .

وقد ذكر كابريرا إنفانتي العبارة الطردية العكسية palindrome * التالية :
Dabale Arroz Ala Zorra El Abad . وتذكر تعليقة على عبارة أخرى من
هذا النوع ، مشهورة في كوبا ، هي Anita Lavala Tina (**).

الحزم السينمائية Gramas semicos . يمكن فك شفرة الحزمة
السينمائية تحت سطر النص ، خلف المقال ، لكن لا القراءة المتجاوزة
لفونيماتها ولا أي توفيق لعلاماتها ، لجسدها على الصفحة ، يمكن أن يفقدنا إليها ،
إن المدلول الذي يشير إليه المقال الظاهر لم يدع دالاتها تطفو فوق السطح النصي :
إنه تعبير إصطلاحي idiom مكبوت ، عبارة مبتسرة بصورة آلية في اللغة المنطوقة
وربما لهذا السبب لاتصل إلى الصفحة ، عبارة مرفوضة ، عاجزة عن الظهور في
الليل الحالك ، في المكعب الأبيض ، الذي يستبعداها ، في حجم الكتاب ، لكن
كمونها يقلق أو يثرى بطريقة ماكل قراءة بريئة . إنها تأويل للمدلول ، غطاء
manteia للمعنى ، التقاط لوحدة المعنى .

«مازالوا يذكرون في تلك القرية يوم أن اختاروه ليكون الملك لولو» وأنت ،
وجع الموت الذي كان قد مر سريعاً فوق خروف ممتدح «من قبل واحد من أولئك
الذين ينزلقون إلى المديح .

إن التعبير الشعبي - الإصابة بالعين mal de ojo - اللعنة الشريرة التي تصيب
الضحية من جراء المديح الذي يكيله لها من يمنع الشر عن غير وعي - «يختفي»
تحت هذه العبارة من الفردوس . ويقود إلى هذا التعبير الإصطلاحي idiom

* Palindrome : هي العبارة التي تقرأ نفس القراءة من اليسار ومن اليمين ، وفي العربية كثير من
هذه العبارات نذكر منها ، مثلاً ، عبارة ؛ قلع مركب بكر معلق- [المترجم] .

** لعنا نذكر أن في تاريخ الأدب العربي المتأخر ، من العهدين المملوكي والعثماني الكثير جداً من
أمثال هذه الالاعيب بالكلمات والحروف والقوافي . وثمة أعمال أدبية كثيرة تقوم عليها مثل
مقامات الحريري وثمة مؤلفات تشمل مختلف العلوم في جداول تقرأ أفقياً في مواضع وعمودياً في
مواضع أخرى . . وقد يكون من الطريف القيام بدراسة مقارنة بينها وبين هذه الأعمال التي
يذكرها الكاتب [المراجع] .

مؤشران سيمانطيقيان هما: وجع الموت، وينزلق إلى المديح. إن «الكبت» الذي كثيراً ما يمارسه ليثاماً يبدو لنا نموذجياً: إذ أن كل الأدب الباروكي يمكن أن يقرأ على أنه حظر أو استبعاد لمعان معينة من مجال النص - كما عند جونجورا، على سبيل المثال، اسم حيوانات معينة يفترض أن لها لعنة شريرة - يقوم المقال بوضع رموزها باللجوء إلى الطريقة النمطية للاستبعاد: وهي الدوران حول المعنى. والكتابة الباروكية - وهي المقابل للتعبير المتحدث - تجد إحدى دعائمها في وظيفة الإخفاء، أو الحذف، أو بالأحرى في استخدام نويات من الدلالات الضمنية، «غير المرغوبة» لكنها ضرورية، تلتقي عندها سهام المؤشرات indicadores. إن الجنس التصحيفي (الذي تقودنا إليه سيميولوجية للحزم الصوتية) والتعبير الاصطلاحي المكبوت (الذي تقودنا إليه سيميولوجية للحزم السيمانطيقية) هما أسهل العمليات الاستطردية في الاكتشاف لكن ربما كانت كل عملية لغوية، كل إنتاج رمزي، قابلة للاستحضار أو للاختفاء، فالتسمية لم تعد تعني الإشارة، بل التحديد، أي التدليل على ماهو غائب. وكل كلمة تكون دعامتها النهائية صورة. والتحدث سيكون بذلك مشاركة في طقس الاستطراد، السكنى في هذا الموضع - كاللغة التي بلا حدود - وهذا الطقس هو المشهد الباروكي. الحزم السنتاجماتية* Gramas sintagmaticos. يتضمن المقال، بوصفه تسلسلاً سنتاجماتياً، تكثيف التابع الذي تقيمه القراءة، وعمليات فك الرموز الجزئية والمضطردة التي تتقدم بالتلازم وتحيلنا ارتجاعياً إلى كليتها باعتبارها معنى مغلقاً. هذه النواة للدلالة بين فاصلتين والتي هي معنى الكلية، تتمثل في العمل الباروكي، باعتبارها التحديد النوعي لمجال أكثر اتساعاً، وباعتبارها لصقاً لمادة غائمة لانهاية تدعمها بوصفها مقولة ويقوم العمل بدور «تصنيف» قواعد النحو

* Sytagmaticos - Sytagmaticos بالفرنسية؛ تعبير عن علاقات حضور in Praesentia بين وحدتين لغويتين متحققتين بالفعل، في اللغوية الوصفية أو التصنيفية Taxonomique، وتقابل Paradigmatiques ≡ Paradigmatiques من Paradigmes (بارادجمات) التي تمثل البعد الرأسي أو التعبير عن علاقات غياب in absentia [المترجم].

لها بوصفها إجراء ضمان وشعار انتهاء إلى نوع قائم «أعم»

والممارسة الملخصة في هذا التكرار للمعنى هي التي تتكون من الإشارة إلى العمل داخل العمل بتكرار عنوانه، بنسخه ملخصاً، بوصفه، وذلك باستخدام أي واحدة من الطرائق المعروفة للإسقاط في الهاوية *Mise en abime* وينسى أولئك الذين يكررون المعنى أنه لو كانت تلك الطرائق فعالة عند شيكسبير أو عند فيلاسكيث، فهذا يعود بالضبط إلى أنها لم تكن كذلك على مستوها. والأمر هنا كما يشير ميشيل فوكو Michel Foucault، هو تمثيل مضمون أكثر اتساعاً من المضمون المصور صراحة، (وبالأخص، في حالة الوصيفات *Las Meninas*)، وأكثر اتساعاً من مضمون «التمثيل» (١٥)، إن العمل داخل العمل، المرأة، الإسقاط في الهاوية *mise en abime*، أو «الدمى الروسية» قد تحولت إلى مهارة فظة، إلى لعب شكلي لا يشير إلى أكثر من موضوعة ولم يتبق شيء من دلالتها الأولية.

أما شكل «تكرار المعنى» المتمثل في الحزم السيئتاجاتية فهو أقل وضوحاً. هنا نجد أن «المؤشرات»، الحاضرة في تسلسل التتابعات أو في التعقيدات الداخلية لها، وفي الوحدات الأكبر والأشمل للمقال، لا تشير إلى أي عمل آخر، وبالطبع لا - في تكرار معنى ساذج - إلى العمل نفسه، بل إلى القواعد النحوية التي تدعمه، إلى القانون الصوري الذي يقوم لها بعمل اللحام، بعمل المرتكز النظري، إلى الصيغة المعترف بها والذي يدعمها بوصفها ممارسة لعملية اختلاف. وبذلك تسبغ عليها «نفوذها» وفي آدم بوينوس آيرس Adam Buenosayres فإن ليوبولدو ماريشال Leopoldo Marechal تعديل لأوسع الوحدات في المقال وفق ما يجسدها يؤكد إنتهاءه إلى فئة «الكتابة / الأوديسية». بالطبع تكون البنية الأولية للتتابع هنا هي المطروحة لدى جويس، وهي التي يحيل «نفوذها»، بقدر ما هي نموذج، إلى كل التقاليد الهوميرية، وهي تقاليد حكاية

(15) Michel Foucault, *Las palabras y las cosas*, México Siglo XXI editores, 1968, p. 25.

يكون محورها المتعامدان هما «الكتاب بوصفه رحلة والرحلة بوصفها كتاباً». لكن الفئة categoria لا تصبح صريحة أبداً بل تتحدد فقط أكثر شباكها اتساعاً، يتحدد عالم يتمدد وتأخذ نقاط الحدث فيه (والتي تحدد إعادة اتصال التتابعات وتنسيقها) في تجسيد مسارات ممكنة: قراءات مدينة من المدن يوم كامل من الأيام، كتاب - رحلة يقيم لدى كتابته هذا المعنى «بطريقة مأكرة»: فكل معنى هو مسار. وتماثل ذلك: الوحدات الكبرى في المقال المسرحي التي تقوم في إخراج الفريديو رودريغث آرياس Alfredo Rodriguez Arias - في إلهة Goddess لخافييه أرويوللو Javier Arroyullo أو في دراكولا Dracula لرودريغث آرياس نفسه - بدور إحداثيات مجال خارج عن التمثيل تتضمنه بدءاً من بعدها وأولويتها. لكن في هذه الحالة فإن قاتون النفوذ - الذي سيكون ذلك الذي تقيمه المواقف المسرحية الصريحة - تجري الإشارة إليه بصورة سلبية. في هذا الإخراج، إذا كان احتجاز الإيماءات يؤكد مواقف محورية معينة - وهي تلك التي تكون معجم «ماهو مسرحي» في التقاليد البرجوازية: من رسائل تحمل تصريحات بالحب، وشخصيات تدخل إلى المشهد حين يتم إعلان أنه في انتظارها، وكوارث سلسلة، وأنباء تؤدي بغتة إلى النهاية السعيدة happy end - فإن ذلك بالضبط من أجل تأكيدها باعتبارها حرفاً ميتاً، والإيحاء بها إلى حد التهكم باستخدام طريقة التصوير البطيء أو «بتعكيرها» بموسيقا مصاحبة مناقضة - فرسائل دراكولا تقرأ على أرضية من موسيقا البوب - من أجل الاستفادة بها من جديد بقدر ما تكون نويات طاقة مسرحية، وإصطلاحات أكيدة، تاريخية بشكل راسخ ويستخدم القانون هنا بقدر ما يكون موقعاً مشتركاً، وهكذا تتحول علاماته إلى نماذج تستعيد المفاصلة عند انتقادها. ليس الأمر، إذن، أمر مسرح فكاهي لا تكون موضوعات السخرية السهلة فيه مجرد اقتباسات بسيطة من مسرح البولفار، بل صياغة في عبارات صريحة لقواعد نحوية تكون صياغتها التهكمية التي تظهرها في مبالغتها وتشوئها، مستفيدة منها هي ذاتها في الوقت الذي تفرض فيه عليها رقابة تتوجهها وتعزلها عن العرش في مجال المشهد الكرنفالي لدى

رودريجيث آرياس، أي أنها تستخدمها من أجل امتداحها والتهكم منها في آن واحد، مثلما تفعل بالمعجم الذي يسبق كل فنان باروكي .

٤ - النتيجة

(أ) الشبقية .

المجال الباروكي هو مجال الوفرة المفرطة والتبديد . وعلى عكس لغة التواصل الاقتصادية المتقشفة التي تتلخص وظيفيتها - في أن تخدم كمركة لمعلومة ما -، تستمتع اللغة الباروكية بالإضافة إلى ذلك بالإفراط، وبالفقدان الجزئي لموضوعها أوبالأحرى، بالبحث، المحبط بحكم تعريفه، عن الموضوع الجزئي objeto parcial . ويمكن تحديد «موضوع» الباروك : فإنه ذلك الذي يسميه فرويد، وفي المحل الأول ابراهام Abraham، باسم الموضوع الجزئي : ثدي الأم، الغائط - ومعادله المجازي : الذهب، المادة المقومة والمرتكز الرمزي لكل ماهو باروكي -، النظرة، والصوت، (١٦) الشيء الغريب دوماً عن كل ما يستطيع الإنسان فهمه، التمثل أو الاستيعاب في التمثل (se) asimilar الآخر وللذات، الترسيب الذي يمكننا وصفه بأنه الغيرية Iteridad (a) (١٧)، لكي نؤكد في المفهوم إسهام لاكان Lacan، الذي يسمى هذا الموضوع على وجه الدقة باسم (a) .

إن الموضوع (a) بقدر ماهو كمية مترسبة، فإنه بالمقدار نفسه كذلك سقوط، وفقدان أو تباين بين الواقع (أي العمل الباروكي المرئي) وبين صورته الشبحية (التشيع بلا نهاية، الانتشار الخائق، الرعب من الفراغ horror vacui الذي يسود المجال الباروكي . والإضافي ذلك الحلزون الآخر أو ذلك «الملاك الآخر الإضافي الذي يتحدث عنه ليثاما - يتدخل كإقرار بالإخفاق : الاخفاق

(١٦) النظرة والصوت : يضيف لاكان هذين الاثنين إلى الموضوعات الجزئية التي حددها فرويد؛

انظر. Curso sobre de objeto (a), in editoen la Ecole Normale.

(١٧) حول Iteridad (a) والعلاقات بين A و (a)، انظر؛

Moustafa Safouan, en Quest - ce que le structuralisme ؟ مصطفى صفوان : في ما

هي البنائية؟

الذي يعني وجود موضوع لا يمكن تمثيله ، ويرفض عبور خط الغيرية Alteridad (و A : هي علاقة ثنائية المعنى مع (a) ، أليس licia (a) التي تزعج Alicia لأن هذه الأخيرة تتمكن من جعلها تمر من الجانب الآخر للمرأة .

ولا يتضمن الاقرار بالاختفاق تعديل المشروع ، بل على النقيض ، يعني تكرار الاضافي ، وهذا التكرار المستحوذ لشيء بلا جدوى ، (بفرض أنه لا يمكن أن يقبل إلى الهوية المثالية للعمل) هو ما يحدد الباروك باعتباره لعباً ، في مقابل تحدد العمل الكلاسيكي باعتباره عملاً . إنه التعجب الذي لا يخطئ والذي يبعث كل ترقب . لدى تشوريغيرا Churiguera أو لدى الأليخادينو Aleijadinho ، وفي كل مقطع من جونجورا أو ليثاما ، وكل فعل باروكي ، سواء انتمى إلى التصوير أو إلى فن صناعة الحلوى : فجملة «ياله من جهد!» ، تتضمن صفة لاتكاد تختفي هي : «ياله من جهد ضائع!» ، ياله من لعب وتبديد ، ياله من مجهود دون وظيفة ! إنه الأنا الأعلى للإنسان الصانع homo faber ، الكائن - من أجل - العمل الذي يعلن عن نفسه هنا متحدياً المتعة ، شبقية الذهب ، البهاء ، الإفراط ، اللذة ، لعب ، وضياح ، وتبديد ، ولذة ، أي شبقية بقدر كونه نشاطاً هو دائماً نشاط لعبي ، وليس أكثر من معارضة لوظيفة إعادة الانتاج إنه تجاوز لما هو مجد ، وللحوار «الطبيعي» للأجساد .

في الشبقية ، تتبدى الاصطناعية ، يتبدى ماهو ثقافي ، في اللعب بالموضوع الضائع ، وهذا اللعب غايته في ذاته وهدفه ليس توصيل رسالة - هي رسالة عناصر إعادة الانتاج في هذه الحالة - بل التبديد بغرض اللذة . ومثل البلاغة الباروكية ، تتمثل الشبقية بوصفها الانقطاع الكامل للمستوى الاشاري المباشر ، والطبيعي للغة - الجسمية - ، مثل الشذوذ الذي يتضمن كل مجاز ، كل صورة . وليس مصادفة تاريخية أن يطالب القديس توماس ، باسم الأخلاق ، باستبعاد كل الصور من المقال الأدبي .

(ب) مرآة .

إذا كان اللعب الباروكي يساوي صفراً بالنسبة لمنفعته ، فليس الحال كذلك

بالنسبة لبنيته . فليست هذه مجرد مظهر بسيط وتعسفي ومجاني ، ليست شيئاً لا مبرر له ولا يعبر عن نفسه إلا لنفسه ، بل على العكس ، فإنها انعكاس يلخص ما يلفها ويتجاوزها ، انعكاس يكرر قصده - بأن يكون كلياً وتفصيلياً في آن واحد ، لكنه لا يفلح في التقاط اتساع اللغة التي تطوقه ، لا يفلح في تنظيم الكون ، مثله في ذلك مثل المرأة التي تركز وتلخص لوحة الزوجين أرنولفيني Arnolfini لفان آيك Van Eyck ، أو مثل المرأة الجونجورية «رغم أنها مقعرة فهي أمينة» : فثمة شيء فيها يقاومها ، يعارض دكتتها ، ينكر صورتها .

لكن هذا الوجود غير المكتمل لكل ماهو باروكي على مستوى التزامن (السينكرونية) لا يمنع تنوع الباروك من القيام بدور الانعكاس الدال على نوع معين من الدياكرونية (ان لم يسهل بالعكس ذلك بحكم إعادة الضبط الدائمة) هكذا يظهر الباروك الأوروبي والباروك من العهد الاستعماري الأمريكي اللاتيني الأول بوصفهما صوراً لكون متحرك وغير متمركز - كما رأينا - لكنه متناغم ، إنها يتكونان كحاملين لانسجام ما : ذلك الانسجام الذي يأتي من التجانس ومن ايقاع اللوجوس (الكلمة) الخارجي الذي ينظمهما ويسبقهما ، حتى اذا كان ذلك اللوجوس يتسم بلا نهائيته ، وبعدم استنفاد انطلاقه . ان نسبة ratio المدينة الليبنتزية تكمن في لانهاية النقاط التي يمكن النظر إليها منها ، وما من صورة يمكن أن تستنفد هذه اللانهاية ، لكن البنية يمكن أن تحتويها بالقوة ، أن تشير إليها باعتبارها امكانية مما لا يعني القول أن بإمكانها أن تدعمها بوصفها راسباً . وهذا اللوجوس يحدد بنفوذه وتوازنه المحورين المعرفين لقرن الباروك : الرب - الفعل ذي القدرة اللانهاية - الجزويتي ، ومجازه الأرضي ، الملك .

وعلى النقيض من ذلك ، يعكس الباروك الراهن ، الباروك الجديد بصورة بنيوية التنافر ، انقطاع التجانس ، انقطاع اللوجوس بوصفه مطلقاً يعكس الافتقاد الذي يشكل أساسنا المعرفي . باروك جديدة عدم التوازن الانعكاس البنيوي لرغبة لا يمكنها أن تبلغ موضوعها ، رغبة لم ينظم اللوجوس من أجلها سوى شاشة تخفي الافتقاد والنقص . لم تعد النظرة مجرد لانهاية : كما رأينا ،

بوصفها موضوعاً جزئياً تحولت إلى موضوع ضائع . والمسار - الواقعي أو اللفظي - لم يعد يقفز فوق تقسيمات لا تحصى ، إذ أننا نعرف أنه يحاول هدفاً يفلت منه دائماً ، أو بالأحرى ، إن هذا المسار قد قسمه هذا الغياب نفسه الذي يتحرك المسار حوله . الباروك الجديد : إنه انعكاس مفتت بالضرورة لمعرفة تعرف أنها لم تعد مغلقة على ذاتها «بهدوء» . إنه فن العزل عن العرش والمناقشة .

(ج) ثورة .

إن العبارة الباروكية الجديدة غير المضبوطة سيتاجماتياً بفعل تلقيها عناصر غريبة متنافرة ، بفعل المضاعفة حتى «فقدان الخيط» للصيغة التي لاحدود لها للإخضاع ، هذه العبارة الباروكية الجديدة - عبارة ليثاما - تبين في عدم صحتها أي في (الاقتباسات الزائفة ، و«الاقحامات» غير الموفقة من لغات أخرى إلى آخره) ، وفي عدم «سقوطها على قدميها» وفي فقدانها للتآلف ، تبين بذلك كله فقداننا للماوراء ailleurs الفريد ، المتناغم ، المتآلف مع صورتنا ، وباختصار مع اللاهوتي فينا .

إنه باروك يقيم بانقلابه ، بسقوطه ، بلغته التصويرية ، وأحياناً بلغته الصريرية ، المتعددة الألوان والفوضوية ، يقيم مجازاً لتحدي الكلية المتمحورة حول المنطق والتي شكلت حتى الآن بنيته وبنيتها بدءاً من تباعده وففوزه ، إنه باروك يرفض كل تأسيس ، ويقيم مجازاً للنظام الخلافي ، وللآلهة التي تجري محاكمتها ، وللقانون الذي يتم تجاوزه . إنه باروك الثورة .



الفصل الثالث

أزمة الواقعية

رامون شيراوا*

Ramon Xirau

١ - الأنماط المختلفة للواقعية الأمريكية اللاتينية

إن التأكيد على أن أزمة الواقعية في الآداب الهسبانية- أمريكية المعاصرة هو قول صحيح إلى حد كبير؛ لكنه كذلك قول غامض إلى حد كبير. فماذا نفهم من الواقعية؟ ومنذ متى توجد -إذا كانت توجد. أزمة للواقعية؟ وهل الأمر أزمة أم تجديد هو، في آن واحد، عودة إلى أشكال تعبيرية- أشكال الباروك، على سبيل المثال- شديدة النمطية بالنسبة للآداب الهسباني عموماً وللآداب الهسبانية- أمريكية على وجه الخصوص؟

لا يمكن إنكار وجود واستمرار تقاليد واقعية ممتدة في الآداب الإسبانية والأمريكية اللاتينية. والحديث بالطبع، يدور حول الواقعية التي تظهرها الصور الأرضية والمتجسدة لنشيد سيدي Cantar del Mio ، والتي توصلها إلى مداها الأقصى الرواية الحرافيشية* - وقد ظهرت متأخرة بعض الشيء في أمريكا في أعمال كونكولوركورفو Concolororvo وفرناندث دي ليزاردي Fernan-

(*) كاتب وفيلسوف مكسيكي (ولد في برشلونه ١٩٢٤) من أعماله الأساسية: معنى الحضور (مكسيكو ١٩٥٣)، ثلاثة من شعراء العزلة (مكسيكو ١٩٥٥)، مدخل إلى تاريخ الفلسفة (مكسيكو ١٩٦٤)، كلمة وصمت (مكسيكو ١٩٦٨)، طبيعة الرجل (بالاشتراك مع ايريك فروم) (نيويورك ١٩٦٨)، مدن (مكسيكو ١٩٧٠)، أو كنافيوباز: معنى الكلمة (مكسيكو ١٩٧٠)، شعر أيبيري- أمريكي، إثنا عشر بحثاً (مكسيكو ١٩٧٢)، وهو أستاذ في الجامعة الوطنية المستقلة في مكسيكو.

** الرواية الحرافيشية أو العيارية ، هنا وفي بقية الكتاب، ترجمة للكلمة الإسبانية Picaresca ويعني الروايات التي تدور حول المتشردين والأفاقين. [المترجم].

dez de Lizardi - ، والتي تبدى على طول التعبيرات الاجتماعية في المسرح الإسباني في القرنين الذهبيين . لكن الواقعية الهسبانية للقرنين الذهبيين ، رغم أن بها قدراً كبيراً من العنصر الاجتماعي ، ليست أبداً تحليلاً اجتماعياً . ان بها القليل جداً من العنصر السيكولوجي وليس بها شيء من العنصر البيولوجي بالمعنى العلمي للكلمة . هذه الواقعية الجسدية والمتجسدة - والموجودة أيضاً في صوفية القديسة تيريسا - كثيراً ما تتخطى حواجز المصدقية Verosimilitud التي كان يقرها كتاب فرنسا الكلاسيكيون . فالتحقق والمصدقية لا يتمتعان إلا بأهمية ضئيلة جداً في الآداب الهسبانية للعصر الكلاسيكي . وبالفعل ، ففي إطار الأدب الواقعي والمدهش ، والصريح بقسوة في بعض الأحيان ، يوجد في أحيان كثيرة نوع من الرغبة في انتهاك الواقع وفي تجاوزه . السيد El Cid واقعي ومتعين ؛ لكن لا يجب أن ننسى أنه يكسب آخر معاركه ، بعد أن أصبح بطلاً أسطورياً ، بعد موته . وسانشوبانثا Sancho Panza متعقل لكنه يلتقط بسهولة عدوى تخيلات وحلم الدون كيخوته . وسانتوس فيجا يقص الحياة المحسوسة لسهول البامبا لكنه يغني قبل كل شيء . ونعرف من أسكاسوبي Ascasubi أن سانتوس فيجا ولد «مغنياً لدرجة أنه مات وهو يغني» . والحقيقة أنه في تقاليدنا تبدى أحيانا كثيرة واقعية للتجسّدات - ومن ثم تنتمي إلى التقاليد المسيحية - لكن ليس من المؤلف وجود واقعية للحقائق ، كذلك تتعذب وتنزف صور المسيح الإسبانية وصور المسيح الشعبية المكسيكية ، إلا أن عذابها وموتها رمزان متجسّدان أكثر من كونها شيء حقيقي .

لكن هل هذا هو الشكل الوحيد للواقعية الذي يظهر المرة بعد الأخرى في آدابنا؟ بالطبع يجب أن تكون الإجابة على هذا السؤال بالنفي . فمنذ القرن الماضي يولد ثمة جديد من الواقعية ، هي واقعية مستمدة إلى حد كبير من فرنسا ، وتقوم على الحقائق على وجه الدقة . والحديث هنا عن واقعية بلزاك ، وديكنز وزولا ، ومن المؤلف أن نجد هذا النوع من الواقعية راجعاً إلى أصل اجتماعي وسيكولوجي ليتحول أحياناً إلى تحليل للعادات وإلى مذهب عادات . كذلك نجد

أن المدرسة الواقعية، في فرنسا أساساً، مرتبطة بالتيارات الفلسفية للعصر، فأوجوست كونت Auguste Comte معاصر لبلزاك، وزولا، الطبيعي، معاصر للمرحلة البيولوجية من الوضعية.

ومن المعروف أن أوجوست كونت كان يفكر في تطور البشرية بدءاً من حقبة لاهوتية- وهي كلمة تعني في أعماله حقبة «سحرية»- إلى أن يصل، عبر الحقبة الميتافيزيقية إلى الحالة الوضعية، حقبة العلم، والتقدم والسعادة البشرية. وبصورة مماثلة كان فريزر Frazer يعتقد أن تطور الحضارات يتبع على الدوام إيقاعاً واحداً ونموذجاً واحداً من السحر إلى الدين، ومن الدين إلى العلم، وهكذا ليس صدفة أنه في اللحظة نفسها التي كان فيها كونت يحاول تأسيس «فيزياء اجتماعية»، هي أم علم الاجتماع، كان بلزاك يكتب، في الكوميديا الإنسانية، «تاريخ مجتمع» (رسالة إلى هيپوليت كاستيل Hyppolite Castille، في الأعمال الكاملة، XXII، ص ٣٦١).

وتكفي أسماء بنيتو بيريث جالدوس Benito Pérez Galdós، وليوبولدو آلاس Leopoldo Alas، وبيريدا Pereda في إسبانيا، أو مانويل باينو-Manu- el Payno، وفيثنتي ريفا بالاثيو Vicente Riva Palacio، ورافاييل دلجادو Rafael Delgado، وإميليو راباسا Emilio Rabasa في المكسيك، وألبرتو بليست جانا Alberto Blest Gana في تشيلي، وتوماس كاراسكيّا Tomas Caasquilla في كولومبيا، تكفي هذه الأسماء لتوضيح نفوذ هذا النوع من الواقعية الأوروبية، الفرنسية أساساً، في آدابنا.

لاشك أن التقاليد الواقعية ذات الطابع الاجتماعي، أوالسيكولوجي أو الطبيعي، خصوصاً في أمريكا اللاتينية، هي تقاليد ذات استمرار قصير نسبياً وذات مدى قصير نسبياً. وبالفعل فإن الواقعية تدخل في أزمة منذ مارتى Marti، وجوتيريث ناجيرا Naguera، وروين داريو، وذلك في ذروة الفترة الواقعية. فالمحدثون لا يبحثون عن وصف ولا عن تحليل للواقع الاجتماعي. بل يبحثون عن تناغم لا بد من تعريفه، مع قدوم داريو، ابتداءً من تقاليد مزدوجة. يكتب

داريُو: «إذا كان ثمة شعر في أمريكانا، فإنه موجود في الأشياء العتيقة: في بالينكي Palenke وأوتاتلان Utatlan، في الهندي الأسطوري وفي الإنكا الحسي والرفيق، في موكتزوما Moctezuma العظيم ذى العرش الذهبي «؛» إنني أسأل عن جونجورا gongora النبيل وعن أقواهم جميعاً، الدون فرنسيسكو دي كيفيدو إي فييجاس Fransisco de Quevedo y Villegas وبصرف النظر عن التقاليد الرمزية الفرنسية («وفي داخلي أقول: فيرلين...») كان داريُو يبحث في هذه «الكلمات التمهيدية» ذات النثر الدنس عن جذرين: الجذر الهندي والجذر الباروكي الإسباني.

إن الواقعية بالتأكيد - وخصوصاً في الرواية وبدرجة أقل أهمية في المسرح - تنتعش في القرن العشرين. والشكل الأعمق للواقعية الجديدة، المرتبطة في المكسيك بالرسوم الجدارية لدييجو ريفيرا Diego Rivera وخوسيه كليمنتي أوروثكو Jose Clemente Orozco، هو الروايات المكسيكية لثورة ١٩١٠. وهي روايات تدور بمجملها حول الثورة، رغم أنها ليست دائماً روايات ثورية لا في الشكل ولا في المضمون. وأشير، بالطبع، إلى الأعمال التي كتبها ماريانو أثويلا Mariano Azuela - أساساً رواية أناس الحضيض Los de abajo -، ومارتين لويس جوثمان Martín Luis Guzmán - السر والأفعى، وظل الزعيم، وذكريات بانشوبيا -، والرواية المفزعة والممتعة لكشافير ايكاثا Xavier Icaza - بانشيتو تشابابوتي -، والرواية الوثائقية ذات النزعة الأهلية لجريجوريو لوبث أي فوينتس Gregorio López y Fuentes - الهندي، ورواية النعومة الكلاسيكية لرافاييل مونيوث Rafael F. Munoz - المدفع لباتشيمبا -، وإلى العمل الزوائي والمسرحي لماورثيو ماجدالينو Mauricio Magdaleno - المسرح الثوري المكسيكي. كذلك أشير إلى المسرح ذى الطابع الاسباني*، الذي

(*) نسبة إلى الكاتب العالمي هنريخ ابسن H. Ibsen (١٨٢٨ - ١٩٠٦) ومسرحياته ذات طابع فلسفي اجتماعي منها بيت اللعبة - والبطة المتوحشة. (المراجع).

يقع بين الطبيعة والفانتازية للكاتب العظيم صامويل آيشيلباوم Samuel Eichelbaum في الأرجنتين أو، أحدث من ذلك، إلى المسرح الجدالي، الذي يقع بين الوثائقي والسياسي، لروودولفو أوسيجلي Rodolfo Usigli في المكسيك. وأشير، أخيراً، إلى الرواية ذات الهدف الثوري التي تجد أفضل ممثليها في شخص الاكوادوري خورخي إيكاثا Jorge Icaza - هواسييونجو، وفي الشوارع-، أو البيروي ثيرو أليجريا - الأفعى الذهبية، والعالم ضيق وغريب.

لكن، رغم القيمة، سواء الأدبية أو الوثائقية، لهذه المجموعات الثلاث من الكتاب، فإن الواقعية ليست هي الحركة الرئيسة في الآداب الأمريكية اللاتينية، مثلما هي ليست هي الحركة الرئيسة في فن التصوير الأمريكي اللاتيني، ابتداءً من سنوات الثلاثينات - ولنتذكر تامايو Tamayo، ولام Lam، وماتا Mata، ولنتذكر كذلك من هم أحدث منهم، موراليس Morales وفرناندث مورو Ferandez Muro وإيرار اثافال Yrrará za bal، وفرنثيسكو توليدو سوتو Francisco Toledo Soto، وكوسونو Kusuno، وكثيرين غيرهم. وما يسود منذ العشرينات والثلاثينات هو أدب يبحث عن واقع «آخر» دون أن يقاطع بسبب ذلك الواقع الذي ولد فيه (١).

ويمكن الاعتراض، بقدر كبير من مظاهر المصادقية، بأننا إذا كنا نشير إلى الواقعية فيجب أن ندرج ضمن تيار معين من تيارات الواقعية الكتاب الثلاثة العظام لأوائل القرن الحالي. أنكون قد نسينا ريفيرا Rivera وجويرالديس Giiraldes، وجاييجوس Gallegos، على هذا السؤال نجيب بسؤال آخر: إلى أي مدى يكون هؤلاء كتاباً واقعيين؟ إن من يبدو من بين الثلاثة أنه يقترب من واقعية محلية، ووطنية وتنزع نحو مذهب العادات هورومولو جاييجوس. لكن

(١) مثلما لا يمكن فهم نقطة فينيغان Finnegans Wake لجويس، بشكل كامل بدون معرفة معينة بالحياة في دبلن وبالتقاليد الأيرلندية الأقدم.

بدرو إنريكيث أورينيا Pedro Henriques Urena قد أوضح بالفعل أن الموضوع المحورية لـ دونيا باربارا Dona Barbaral هي موضوعية النضال ضد «الطبيعة البدائية». «التي تجعل الإنسان بدوره كذلك». في رواية الغناء الواضح Contaelaro كما يكتب إفريكيث أورينيا - نجد أن . الكاتب يبدي ثقة أكبر في انتصار الإنسان على أعدائه البكم ، وعلى تجاوزه الخاصة (التيارات الأدبية في أمريكا الهسبانية، Las corrientes literarias en La América hispana, Fondo de Cultura Económica, México, 1949) إن جاييجوس يواجه ، دون شك ، واقعاً طبيعياً واجتماعياً لكن الأمر كثيراً ما يتعلق بواقع يميل إلى أن يتحول إلى رمز. ويجب أن نتفق مع أ. أندرسون إمبرت E. Anderson Imbert وأ. فلوريت E. Florit حين يقولان ، عند وصف أسلوب ومعنى عمل جاييجوس ، «ثمة تناقضية تظهر في موضوعات رواياته . . . كما تظهر في الهجوم المزدوج لأسلوبه : الإنطباعية الفنية والواقعية الوصفية» الأدب الهسبانو - أمريكي : Literatuvu Hispanoamericana, Nueva York, Holt, (Rineharte Winston, 1960).

أما خوسيه إيوستاسيو ريفيرا Jose Eustasio Rivera ، وهو شاعر بقدر ما هو روائي ، فيخلق في الدوامة واقعاً دغلياً وبدائياً - هو البطل الحقيقي للعمل - تنشأ قوته ، في المقام الأول ، من القوة المجازية والخيالية للمحمة شعرية ، واقعية ورمزية .

أما عمل ريكاردو جيرالديس Ricardo Guiraldes ، الذي تظهر فيه تأثيرات مدارس الطليعة الأوروبية ، فمختلف تماماً . إلا أن نزعتة الأوروبية لا تباعد بينه وبين جذوره الأرجنتينية الواضحة . وفي راوشو Raucha ، يبدو جيرالديس ، في المحل الأول ، رومانسياً ، ويكاد يكون من أتباع روسو Rousseau . ومن المهم أن نلاحظ أن جيرالديس يستخدم في هذه الرواية الريف والمدينة بوصفهما رمزين للمتعارضات : الخير والشر ، الحرية والجنون ، السلام والعذاب . لكن يبدو لي أن سمة ثابتة ذات أهمية كبرى تبدأ في الظهور

ابتداءً من راوشو : هي سمة الدورات . وليس من قبيل المبالغة القول إن راوشو، وشايمাকা Xaimaca، و دون سيجوندو سومبرا Don Segundo Sombra هي روايات دورات على نحو معين . ففي راوشو نمر من حياة الطفولة والبراءة في الريف إلى المدينة إلى باريس لنعود إلى براءة الأرض الأرجنتينية . وهناك دورة مماثلة، رغم أنها أكثر حنيناً، في الرحلة إلى جامايكا .

وإذا اقتبسنا من بورخس وبيوي كاساريس Bioy Casares فإننا في دون سيجوندو سومبرا نجد أن «الجاووشو قد أصبح حزيناً من الناحية العملية» (تصدير للشعر الجاوشو، (طبع صندوق الثقافة الاقتصادي . مكسيكو ١٩٥٥) (Proólogo a Poesía gauchesca, México, Fondo de Cultura Economica, 1955) . لقد تراجعت الحياة الجاوشية أمام الحياة الحضرية والحياة الصناعية . ودون سيجوندو سومبرا ينتمي إلى الفترة المنقرضة تقريباً للحياة الجاوشية ولكن من هو هذا الجاوشو الذي يحمل اسم «سومبرا»؟ ما من شك في أن جيرالديس حاول أن يجعل من دون سيجوندو كائناً مثالياً، نصفه خيال، ونصفه واقع . لكن في رواية جيرالديس شيء أكثر من ذلك . لقد ألح ثيرو أليجريا إلى أن الرواية هي حكاية فكرة أكثر منها حكاية رجل . وتفسير اليجرياليس مقبولا تماماً . فالواقع أن دون سيجوندو يتحول إلى رمز، دون أن يكف عن كونه رجلاً . إنه رمز علاوة على كونه فكرة، وفكرة علاوة على كونه رمزاً . وحين يكتب جيرالديس أن الموضوع هو فكرة أكثر منه رجلاً فإنه لا يشير إلى رمز أو إلى كيان مجرد، بل يشير إلى حقيقة أن الصبي حين يرى دون سيجوندو للمرة الأولى، يراه لحظة واحدة، ويبدو له الدون سيجومدو كائناً جديراً بالاعجاب، وليس كائناً مجرداً من الجسد . والحقيقة أن دون سيجوندو هو نموذج حياة أخلاقية . إنه صموت، قليل الكلام، تهكمي بعض الشيء، لقد كان دون سيجوندو «يفهم الحياة» .

في شايمাকা كتب جيرالديس : «اليوم هو الأبد» . وفي دون سيجوندو

* Sombra : تعني الظل وسيجوندو Segundo تعني الثاني- [المترجم] .

سومبرا تعود الموضوعة المحورية لتصبح هي الزمن . وحين تنفصل الدورتان الكبيرتان - الصبي ومعلمه - في نهاية الرواية نعرف ما إذا كنا قد فهمنا الدروس جيداً، أن اليوم هو الأبد . فالصبي ، حين يتبع الظل الأبدي لدون سيجوندو، قد تعلم كيف يكون رجلاً بالدخول في علاقة مع الحياة المفتوحة للحقول . وحياته الجديدة كمزارع لا يمكن ان تغير الوجود الداخلي الذي تعلّم أن يكونه . إن الدون سيجوندو سومبرا ، القابل للتحديد في المكان والزمان ، يتجاوز الظروف التي يتطور فيها بتحوّله أساساً إلى عمل ذي طابع أخلاقي .

٢ - التأكيد على ما هو خيالي وما هو فانتازي :

خلال السنوات الأولى للحرب العالمية ولدت أوروبا حركات الانقطاع الكبرى، ما سماه أوكتاڤيو باث مراراً «تقاليد الانقطاع»، وما سماه هارولد روزميرج Harold Rosenberg بصورة أكثر ملاءمة «تقاليد الجديد»، الدادية، والمستقبلية والبيان المستقبلي، والسوريالية والبيان السوريلي الأول، ومذهب السمو، ومذهب الحداثة في الآداب الإسبانية، وبعدها على الفور في الآداب الأرجنتينية . وليس ضرورياً أن نعود إلى وصف هذه اللحظة التي شهدت حقاً ميلاد آدابنا من جديد . البحث عن وحدة المعارضات في اللاوعي - الحضور الواضح للرومانسية الألمانية في السوريالية -، والحاجة إلى تأكيد الكاتب أو الفنان عموماً باعتبارهما مبدعين مطلقين . تتوالى الحركات المختلفة - وأحياناً المودات المختلفة - بصورة تثير الدوار وبحركة متسارعة تصل إلى التعبيرات الفنية الأحداث وأحد الجوانب الأساسية لسلسلة المدارس، والمدارس الفرعية، و«المذاهب» المختلفة، هو معنى الزمن . يصبح معنى المستقبل أكثر حدة كما في جزء كبير من الحياة الحديثة وبتأثير التكنولوجيا الجديدة على الفن وعلى الآداب . والحالة الحديثة لهذا التوقير للمستقبل - وهي أيضاً حالة نموذجية لنفي المستقبل - هي الحالة التي تبيّننا المستقبلية حين تبحث عن «السرعة الكلية الوجود» لتجد، في أعمال مارينيتي Marinetti ، وكارّا Carrà ، وبوتشيوني Boccioni ، أن السرعة المطلقة هي السكونية (الاستاتيكية) الفائقة . . .

وترى في أمريكا اللاتينية أصداء الحركات التي تبدأ في أوروبا حتى تكتسب ظلالها وتوجهاتها الخاصة: الإبداعية والحدية، ومذهب الصرير. . . وفيها جميعاً عناصر من اللعب. وعند أفضل الممثلين لكل واحدة منها يوجد إحتياج عميق لخلق حقائق جديدة تتجاوز العالم اليومي. كثيرون هم الكتاب العظام الذين يظهرون خلال اعوام العشرينات ومعهم يولد - إذا نظرنا إلى وحدة الهدف والأسلوب للكتاب الإسبان والأمريكيين اللاتين في المقام الأول - قرن ذهبي جديد لأدبنا. وفي أمريكا - الهسبانية يشارك في حركة التجديد هذه تارة نيرودا بقدر ما يشارك بورخس، وتارة فياوروتيا Villaurrutia بقدر فاييخو Vallejo، وتارة هويدوبرو مثل خوسيه جوروستيتا Jose Gorostiza وتارة فستفال Westphalen مثل كورونيل أورتنشو Coronel Urtecho وتارة ليثاما ليما مثل أوكتافيوبات.

وسوف احاول تحديد معنى الأدب الأمريكي اللاتيني الجديد في لحظتين. الأولى سترمز لها هنا أعمال بيثتي أويدوبرو، وبابلو نيرودا، وخورخي لويس بورخس، وسترمز للثانية، بشكل أساسي، أعمال أوكتافيوبات، وخوليو كورتاثار، وكارلوس فويتس، وجابريل حارثيا ماركث، وخوان رولفو Juan Rulfo، وليثاما ليما(٢).

(٢) كل اختيار للمؤلفين يتضمن بعضاً من الاهواء إلا أنني أعتقد أن المؤلفين الذين أنتقيهم هنا - دون إنكار أهمية الآخرين - يمثلون بوضوح الاتجاه الشديد العمومية الذي يدفع، بطرائق مختلفة، إلى البحث عن واقع «آخر»، من نوع سحري أحياناً، ومن نوع أسطوري أحياناً أخرى، ومن نوع ديني أحياناً ثالثة، هكذا، فإن المؤلفين الذين أحللهم هنا بإيجاز يمثلون أعمالاً ذات قيمة داخلية لا تنكر كما يمثلون اتجاهات أساسية في أدبنا. وبإمكان القارئ الذي يود أن يجد تمثيلاً عاماً دقيقاً للكتاب الأمريكيين اللاتين الأساسيين لهذا القرن أن يرجع إلى مختلف كتب التاريخ الأدبي، وإلى الدراسات الفردية الخاصة وفي نهاية المطاف، إلى الأعمال ذاتها: وهي التي تهم فعلاً. أما فيما يخصني، فإنني أحاول العثور على السمات المختلفة والدروب المختلفة لبحث أدبي لا يكتفي بواقعية منسوبة إلى الحقائق.

٣ - ثلاث مغامرات عظيمة

يمثل فيثنتي هويدوبرو، وبابلو نيرودا، وخورخي لويس بورخس ثلاثاً من المغامرات العظيمة - ثلاثة ينابيع دافقة - للروح الأدبي الجديد. الأولى، تمثل الحاجة إلى تأسيس إبداع مطلق، والثانية، محاولة التوحيد بين السحر، وضروب الكشف غير الواعية والثورة، والثالثة الحاجة إلى خلق عالم تخيلي فانتازي مرغوب ومستحيل.

بدأ فيثنتي هويدوبرو في تطوير أفكاره عن الإبداع الشعري عام ١٩١٣، حين أسس، إستجابةً وتحدياً لروين داريو، مجلة أزرق Azul. إلا أن أفكاره الشعرية الأولى كانت إعلاناً عن عدم الانسجام (مع الشعر القائم) أكثر من كونها عروضاً واضحة لنظرية شخصية.

وفي عام ١٩١٤ يكتب هويدوبرو في بيانه بعنوان Non serviam: «لقد غنيا للطبيعة (الأمر الذي لا يكاد يهمها)، ولم نبدع أبداً حقائق خاصة بنا، كما تفعل هي وكما فعلت في العصور الماضية حين كانت فتيةً وممتلئة بالدوافع الإبداعية»، هنا ترد كلمة «إبداع» مرتين. إن هويدوبرو يعلن مثله الأعلى الشعري المستقبلي. وفي عام ١٩١٦ يلقي خطاباً في المجمع الأثيني الهسباني لبوينوس أيرس. ويؤكد: «أن كل تاريخ الفن ليس سوى تاريخ تطور الإنسان - المرأة للإنسان - الإله». كان الشاعر مقلد الطبيعة. ومنذ الآن سيصبح مبدع حقائق شعرية جديدة نابعة من الروح وليس من العالم. إن «عمل قصيدة، كما تصنع الطبيعة شجرة». هو هدف مذهب الابداعية. وهويدوبرو، الذي كان حينئذ مقيماً في باريس، وصديقاً لأبوللينير ومقلداً له أحياناً، كان يجد موقعه في طليعة الأدب الفرنسي. لكن طليعية هويدوبرو تختلف عن المستقبلية وعن السورالية. فهو لا يعتقد، مع المستقبلين، أن شعر القفز البهلواني، شعر اللطمة، والكلمة، يمثل تجديداً («فليقرأ السيد مارينيتي Marinetti الأوديسة والإلياذة»). ولا يعتقد، مع السوراليين، أن الآلية غير الواعية يمكن أن تكون منبعاً للإبداع الشعري لأن الشعر عمل من أعمال الفكر «وكلمة فكر تتضمن التحكم». وعلى غرار

مالارميه، ورامبو، وريلكه المبكر، يؤمن هويدوبرو بالشعر بوصفه إبداعاً مطلقاً. ومثلهم، وبالأخص مثل مالارميه في Igitur وفي ضربة حظ Un coup de des، يؤمن بأننا يجب أن نهجر الطبيعة من أجل إعادة خلقها. إن الشاعر يتحول، فعلاً، إلى «الإنسان - الإله». (٣)

ولنر كيف يكتمل مصير شعر هويدوبرو - مفهومه للعالم - في أكثر قصائده طموحاً، وربما أجمل قصائده: ألتاتور Altazor.

إن التاتور قصيدة تدرج في هذا النوع من الشعر المعاصر الذي يميل إلى تحويل نفسه إلى ملحمة للوعي وللذاتية. بهذا المعنى تتأخى ألتاتور مع قصيدة Ana basis لسان جون بيرس، والأرض الخراب The waste land لإليوت، وأناشيد Cantos عزرا باوند، و نارسيسوس Narcisse لغاليري أو موت بلا نهاية Muerte Sin fin لحوسيه جورستيثا José Gorostiza. وموضوع التاتور هو الموت. ومنذ المقاطع الأولى نشهد السقوط في فضاء يعلن الشاعر أنه خاو:

Altazor moriras	سَتموت التاتور
Cae	. . . اسقط
Cae eternamente	اسقط أبدياً
Cae al fondo del Infinito	اسقط إلى قاع اللانهاية
Cae al fondo de ti mismo	اسقط إلى قاع ذاتك أنت

وسقوط ألتاتور سقوط داخلي، انهيار للروح. وليست روحاً مجردة: إنها، بشكل ملموس وبأحادية مطلقة Solipsisticamente، روح ألتاتور - هويدوبرو:

(٣) فكرة الإنسان بوصفه مخلوقاً مقدساً لها سوابق في الفكر الغنوصي. وفي عصور أحدث تتمثل فيما سماه برودون بالتقاليد المناهضة للاهوت، وفي فويرباخ الذي يعتبر الإنسان الإله الوحيد للإنسان، وفي ماكس شتيرنر، الذي يعتبر الذات هي الشيء الفريد، وفي فكرة مستقبل سعيد سيتم فيه تقديس الإنسانية (سان سيمون أو كونت). وهي كذلك الفكرة التي تؤكد الهدف الشعري لمالارميه حين يفكر في كتابة «الكتاب» - الكتاب الكامل والمطلق. ويتطابق أويدوبرو مع مالارميه في ترقه إلى القصيدة المطلقة وفي إعلان إستحالتها.

لقد أنصفتني يافيشنتي هويدوبرو
إذ يسقط عني ألم اللسان والجناحين الذابلين .

إلا أن هويدوبرو يحاول ، في تقليد مباشر لويتمان ، أن يكون صوت الكون .
في مواجهة العدم ، والخواء ، والعالم المهجور ، يريد الشاعر أن ينهال على نفسه
« بالتجديفات والصرخات » . وخلال برهة ، يحس بأنه منتصب في العالم الذي
يخلقه خياله : « أنا كل الإنسان » . يود الشاعر أن يشعر بأنه أرضي ، هائل ،
إنساني . يبدو أن الشاعر قد بلغ مرحلة التكامل مع ذات قلب الواقع : إنه وجوده
الخاص بقدر ماهو العالم الذي يخلقه . يبدو أن الخواء قد تلاشى .

أنا كونيّ بلا حدود Soy desmesuradamente cosmico

الأحجار ، والنباتات ، والجبال Las piedras las plantas las montañas

تحيني والنحل والجرذان Me saludan las abejas y las ratas

الأسود والنسور Los lions y las aguilas

النجوم والشفق والفجر Los astros, los crepuscules, las albas

الأنهار والغابات تسألني Los rios las selvas me preguntan

لكن الشاعر يعرف أن هذا العالم هو عالمه هو ، وأن هذا الواقع من إبداعه
هو ، يعرف أن لا شيء يوجد سوى الوضوح الهادي لصاحب بصيرة دون موضوع
للبصر . يريد أن يبلغ حد أن يكون هو الكل ، وبرغبته في أن يكونه (« الحنين إلى
أن أكون طيناً وحجراً أو إلهاً ») يترك الباب مفتوحاً للعذاب ، « عذاب المطلق
والكمال » . لم يعد الشاعر قادراً على أن يؤمن بحقيقة عالمه . ولم يبق له سوى

اللعب بالصور وبالأصوات : La golonniña, la golongira, la golonlira,

la golonbrisa, la golonchilla . حانت ساعة الموت . العالم « يتحلل ببطء »

موت الرب يؤدي إلى موت الإنسان ، القصيدة تلغي الشعر وتلغي الفلسفة بنفس
طريقة موت بلا نهاية لجوروستيئا - القرية من ألتاور هويدوبرو - في انكار
العالم ، وإنكار النباتات ، وإنكار الحيوانات ، والكائنات الخاملة ، وإنكار الشاعر
الذي أنكر العالم الذي خلقه بيديه .

ويمكن في خطوط عريضة أن نتبين أربعة أشكال وأربعة مضامين في شعر بابلو نيرودا. الأول تشكله أشعاره الرومانسية العابثة حيناً، والمشبعة بالحنين حيناً، والتي تمثلها عشرون قصيدة حب وقصيدة يأس واحدة، عام ١٩٣٤.

. Veinte poemas de amor y una cancion desesperada والثاني - أكثرها شخصية بالتأكيد - يولد مع إقامة على الأرض Residencia en la tierra ويظهر من جديد في مناجيات أولية Odas elementales ونجد الثالث في النفس الملحمي لـ النشيد الشامل Canto General، والرابع في القصائد السياسية والدعائية: الإقامة الثالثة Tercera Residencia وجزء كبير من النشيد الشامل.

وإذا اقتصرنا على الأسلوبين أو المرحلتين اللتين تتمتعان بأكبر قيمة، وقوة، وتأثير، فعلينا أن نشير إلى الإقامة الأولى وإلى النشيد الشامل.

كتبت (إقامة على الأرض) في فترة أصبحت فيها السورالية موجودة في الشعر الغنائي باللغة الإسبانية. وأبسط الأمور - وليست بالخطأ دوماً - اعتبار إقامة على الأرض قصيدة سورالية. وما يقرب نيرودا من السورالية هو نوع من الكتابة يغوص في اللاوعي: كتابة حلمية وذات دوافع حلمية. وبالفعل، يكاد يكون من المستحيل دائماً أن نميز، في إقامة على الأرض، بين الحلم والواقع. والرموز الأساسية التي يستخدمها نيرودا (والتي حللها باستفاضة أمادو ألونسو Amado Alonso في شعر وأسلوب بابلونيرودا Poesia y estilo de pablo Neruda) تدخل في التصنيف العامة لـ «التجسيد المادي لما هو لامادي» (أمادو ألونسو (رموز) الورود، والنحل، والحمام، والعصافير، والأجراس، والكروم، والعناصر، والجنس، والرطوبة، والمطر. كل هذه الرموز، ولنكرر هذا من جديد مع أمادو ألونسو، هي «أشكال لتشييء ما هو ذاتي ولإضفاء الذاتية على الموضوعية». كان من الضروري الإشارة إلى هذه العناصر. فهل يمكننا التعميم أكثر من ذلك؟ إن هذا التعميم يحملنا على القول إن شعر إقامة على الأرض يمزج، بطريقة تذكر بما سماه الرواقيون «المزيج النهائي»، بين الخارجي والداخلي، بين

الذاتي والموضوعي ، ويتحقق هذا المزيج الشامل في المادة . هذا النيرودا الذي يؤمن بوجود مادة واحدة وحيدة وبنوع من الاتحاد هو في المحل الأول اندماج في «كثافة» الكل ، عانى من أزمة روحية دفعته إلى تغيير طريقه وأساليبه . وقد بدأت هذه الأزمة قبل الحرب الأهلية الإسبانية لكنها تبدت في المحل الأول بدءاً من هذه الحرب ، حين أصبح نيرودا عضواً في الحزب الشيوعي . تحول نيرودا إلى شاعر إجتماعي - وأحياناً إلى شاعر منشورات - لكنه بلغ حد التحول إلى الشاعر الملحمي في النشيد الشامل . ويكشف النشيد الشامل ، في آن واحد ، عن الكاتب الملتزم ، عن كاتب الكلمة والفعل ، وعن الشاعر المتحضر . ولكنه يكشف في المقام الأول عن شاعر الأرض - شاعر الأرض الهسبانو - أمريكية - الذي لا يذوب في الطبيعة بل يتأملها من أجل رسم لوحات ضخمة ورائعة .

إن نيرودا ، القريب من السوربالية في بداياته ، هو الشاعر القادر على أن يتغنى في أفضل لحظاته بنوع من واحدة المادة الحية ، بنوع من «الهيلوزويستية Hilozoismo» التي تجد إلهامها في ضمير تجسد في المادة .

أما عالم خورخي لويس بورخس فيقدم وجهين متكاملين وغير رمزيين . الأول فانتازي وخيالي نجده ، قبل كل شيء ، في المقالات وفي «القصص» ، (١٤) والثاني ، نجده أساساً ، لكن ليس بطريقة شاملة ، في القصائد . (٥)

لقد أعلن بورخس «شغفه غير المؤمن والمتصل بالصعوبات اللاهوتية» . وأحد شخوصه ، بكلي Buckley ، «لا يؤمن بالله ، لكنه يريد أن يبين للرب أن البشر الفانين قادرون على إدراك العالم» . (٦) وسكان تلون Tlon طبقوا بحماسة

(٤) بالإضافة إلى حركات الطليعة ، تؤثر في كثير من كتاب هذه الفترة أعمال كافكا ، وجويس ، وبروست . وفي أعمال بورخس نجد أن الجذور بشكل أساسي ، هي إنجليزية ، وأن عالمه ، الذي يقارن أحياناً بعالم كافكا ، يبدو أنه لم يتأثر بهذا الأخير إلا قليلاً .

(٥) بالإضافة إلى القصائد يظهر الجانب الآخر من عمل بورخس في دراساته للشعر الجاوشي ، ومؤخراً : Elcompadrito ، بالتعاون مع سيلفينا بولريتش Silwina Bullrich .

(٦) ولم يعلن بورخس عن أوجه شبه مع أونامونو . لكنها بديهية وتذكرنا أعمال بورخس كثيراً بالإنسان المعذب الذي (يحلم به) الرب سوهي موضوعاً أونامونية بلا منازع - مثلها مثل «الحقائق الخيالية التي هي خيال الواقع» الأونامونية .

فينومينية (ظاهراتية) هيوم دون نسيان الأفكار المحورية في كتاب (العالم باعتباره إرادة وتمثلاً) وواقع (تلون) ليس موضوعياً مطلقاً. الشيء الوحيد الذي نعرفه عنها نستقيه من «سلسلة من الأفعال المستقلة». وكما في (ظاهراتية) هيوم - أو أوكهام - يتقلص العالم إلى سلسلة من الانطباعات، التي في ارتباطها، تنتهي بأن تكون أفكاراً عامة. والآليات النفسية، التي تتلخص في «الكيمياء العقلية» التي تحدث عنها تين Taine تجعل من الروح فراغاً لا يكون فيه للأفكار علاقة بأي مرجع واقعي. والشيء نفسه في تلون Tlon، وأوكبار Uqbar، وأوربيس ترتيوس Orlois Tertius. والنتيجة المنطقية لهذه النزعة الظاهراتية الراديكالية («والمفتعلة») هي: أن العالم يتقلص إلى العدم. وربما يتقلص العالم إلى مجرد سلسلة بسيطة من الكلمات أو، كما يفضل بورخس أن يقول: «ربما كان تاريخ العالم هو تاريخ التأكيدات المختلفة - لبضعة مجازات» (كرة باسكال La esfera de pascal) هذه الظاهراتية تتيح لبورخس نفي العالم الموضوعي. كما تتيح له أن يستبدل باللاهوت والميتافيزيقا قصصه الخيالية الفانتازي التي تكتسب قيمة الواقع. وما يمكن تسميته «الميتافيزيقا الفانتازية» عند بورخس يمكن أن يتلخص في بضع أطروحات:

(١) العالم غير واقعي أو هو ذاتي تماماً «والمثال الكلاسيكي هو مثال العتبة التي تبقى طالما يتردد عليها متسول والتي تختفي عن الأبصار عند موته» (Tlon Uqbar, Orbis Tertius).

(٢) العالم مجاز. والأمثلة كثيرة: ما ذكرناه في كرة باسكال، وسور الصين بوصفه عزلة مرغوبة.

(٣) العالم واحد. لكن، هل يمكن أن توجد هوية شخصية إذا كان الكل هو الشيء نفسه؟

(٤) الزمن غير موجود. وهناك أشكال كثيرة لنفي الزمن في (مناقشة Discussion)، و (تاريخ الأبدية Historia de la eternidad) و (استقصاءات أو تحقيقات جديدة Otras inquisiciones).

هذه السلسلة من الأطروحات ليست مستقلة فيما بينها: بل توحيدها فكرة سأشرحها بإيجاز.

إذا كان الزمن دورياً فإن الزمن المتعاقب يكف عن الوجود، وكل لحظة هي الأبد مكرراً أبدياً. «كل الرجال هم شيكسبير». والعالم الدائري هو كذلك عالم تكراري، وبهذه الصفة، فإنه موضع شك دائم. العالم، والنبات، والأرض، والإنسان، يمكن إرجاعها إلى صفر. وكل شيء، النقطة والصفر يتطابقان في تحول يثير الهذيان للتلاشيات وأشكال النمو المطلقة العنان. العالم يمكن ويجب أن يلخص في مجاز. الواقع لفظي بنفس الطريقة التي تكون بها «عظمة كيبيدو لفظية» (استقصاءات جديدة).

من أجل إنكار العالم يستخدم بورخس الإسمية. من أجل إنكاره وتقليصه إلى وحدة، إلى دائرة، إلى مجاز، كان على بورخس أن ينكر الزمن. وبفضل هذا النفي، الممكن منطقياً، وغير المحتمل حيويًا، يؤسس بورخس قصصه. والزمن الذي نفيه هو الزمن الذي نحياه. وأفعالي تنفي كل نفي للزمن، فحياتي تؤكدني باعتباري زائلاً. «إن نفي التابع الزمني، نفي الأنا، نفي عالم الكواكب، هي ضروب يأس ظاهرة وضروب عزاء خفية. فمسيرنا (على عكس جحيم سويند نبورج Swendenborg، وجحيم ميثولوجيا التبت) ليس مفزعاً بسبب لا واقعته، إنه مفزع لأنه غير قابل للرجوع وحديدي. الزمن هو الجوهر الذي صنعت أنا منه الزمن نهر يجرفني، لكنني النهر، إنه غمريلتهمني، لكنني النمر، إنه لهب يهز مشاعري، لكنني اللهب. العالم، لسوء الحظ، واقعي، وأنا، لسوء الحظ، بورخس» (استقصاءات جديدة).

الأطلال الدائرية تنفجر، وتتهاوى القصص، حتى عندما تبقى في جبالها الباهر الحلمى. إننا في مواجهة الحياة، وابتداء من الحياة نعرف أن الحياة موت.

إلا أننا، في قصائد بورخس، نجد بصورة متكررة طريقاً لمواجهة الواقع مختلفة تماماً عن طريق المقالات، والقصص. إن شعر بورخس يتغنى بضواحي المدينة.

هناك حيث تلامس بوينوس آيرس الريف، يكمن الشاعر كمن يكمن على حافة الحياة. الحياة المحسوسة وحياة الأمل. المدينة تنفتح على سهول البامبا الشاسعة، على اتساعات من البامبا محسوسة وملموسة، على مقاس الحواس. لا يعود بورخس يصادف هلع باسكال تجاه الخواء. بل يصادف أرضه المتواضعة المقدسة:

رأيت الموضع الوحيد من الأرض
الذي يمكن للرب أن يسير فيه على راحته.
تعارض رؤية ضواحي بوينوس آيرس مع رؤية القصص. الأرض الآن رقة
وبراءة:

الليل المتضوع كشراب ماتى* نحلى
يقرب مسافات ريفية.

وسهول البامبا بالنسبة لبورخس وكذلك بالنسبة لجيرالديس، ليست الريف أو الجبل فقط مثلما عند روسو Rousseau، بل إنها صورة للأريحية الطبيعية:

أيتها البامبا
إنك طيبة دائماً مثل صلاة السلام لك يا مريم». .
وفي إشارة تبدو موجهة لبورخس القصص، لأحلامه الخاصة في عالم
سحري، لا واقعي و«مغزى»، يكتب بورخس: «وفي حين نظن أننا نمتدح
الوجود نمتدح الحلم واللامبالاة. . . لا يوجد إلا العيش».

في مواجهة بورخس القصص، والمقالات، يكفي أن نعارضه ببورخس الذي
يحيا، ربما بطريقة دينية، في الأرض التي كان من نصيبه أن يولد فيها. إنه محطم
الزمن المتتابع، وخالق الكرات السحرية، ومؤسس أبديات بديعة ومتهاوية،
لكنه كذلك شاعر الأرض الواقعية والبسيطة، والمعجب بخوسيه ارناندث José

* Mate: الماتى - نبات على شكل شجيرة يصنع منه شراب مثل الشاي. وينبت خصوصاً في
الباراجواي - [المترجم].

Hernandez ، وإيلاريو أسكاسوبي Hilario Ascasubi وإيفاريسكو كارييجو
Evaristo Carriego .

(ب) بحث عن المعنى .

إذا كنا نشهد عند هويدوبرو محاولة إبداع مطلق ، وإذا كنا نجد عند نيرودا التغلغل في مادة متجسدة يجرى الحلم بها ، وإذا كنا نرى عند بورخس تعايش واقعين متوازيين (الفانتازيا والعالم المحسوس للشاعر) ، فإننا عند أوكتافيو باث نشهد بحثاً عن المعنى الذي يتجاوز التاريخ ، دون إنكار للتاريخ .

ينطلق أوكتافيو باث من تجربة العزلة كما انطلق منها شعراء جماعة المعاصرين Contemporáneas - خوسيه جوروستييا ، وشافييه فياوروتيا Xavier Villaurrutia ، وسلفادور نوفو Salvador Novo . وينطلق كذلك - حتى حينها لا يتفق باث مع الكتابة الآلية - من التجربة السورالية . وفي الحقيقة فإن باث ، في شعره وفي مقالاته ، يمضي إلى مدى أبعد من العزلة ومن تجربة السوراليين .

في تيه العزلة El laberinto de la soledad يعرف باث العزلة بأنها «الحنين إلى الفضاء» . إذ أن الفضاء ، بالفعل ، يضعنا بوجودنا كجسد تجاه أشياء موجودة . وما هو خارجي لا ينتمي إلى عالم العزلة . بل ينتمي بالأحرى إلى هذا العالم الذي يعرفه باث بأنه «لامبال بنزاع البشر العبي» لكن الذات حين تمتص العالم وتضمه إلى روحها ، تنتهي الأشياء ذاتها والفضاء الذي يحتويها إلى الاختفاء ، كل شيء يذوب في الذات العابرة («هواء رحلة دوما») التي تتأمل أنها الخاص والتي يكون العالم بالنسبة لها مجرد مجاز .

والمجتمع بالنسبة للأوكتافيو باث هو تجربة أصيلة وأصلية . لكن باث ذاته يكتب ، في تيه العزلة : «لقد أصبح تاريخ العالم مهمة مشتركة . وتيهنا هوتيه جميع البشر» .

العزلة بالنسبة لأوكتافيو باث ليست نهاية بل نقطة انطلاق نحو التواصل ، والتعميد ، والجماعة . وحتى نعرف معنى هذه الكلمات في عمل باث ، فإن من

الضروري أن نجيب، بإيجاز، على سؤالين: ماهو أصل عزلة البشر؟ وماهي التجارب المتميزة التي تتيح لنا، ومازلنا داخل عزلتنا، مشاركة أصيلة في جماعة البشر جميعاً؟

يدرك باث الإنسان باعتباره كائناً كاملاً في البداية. لكن هذا الكائن الكلي يبدو لنا على الدوام تقريباً منقسماً، ساقطاً، مكسوراً عند مركزه. وبوصفنا نصف كائنات، ناقصين، جرحنا الزمن، نتجه إلى البحث عن «النصف المفقود» الذي يجب أن نبلغه إذا أردنا أن نكون بشراً كاملين. وتحقق وجودنا يتبدى في أربع تجارب متميزة: هي الصورة الشعرية، والحب، وماهو مقدس، والمعنى الذي يكمن حيث لا تبلغ المعاني اللفظية أو الذهنية.

وتتمثل الصورة الشعرية على أنها كشف أو، كما يقول باث في القوس والقيثار El arco y la lira، على أنها تجل epifanía* لوحدتنا التي تتجاوز كل التناقضات. «الشاعر - كما يكتب باث - يسمى الأشياء، هذه ريشات، وتلك أحجار خشنة صلدة لا يمكن اختراقها، صفراء من الشمس أو خضراء من الطحلب: أحجار ثقيلة. والريشات ريشات: أي خفيفة». وحين يقول الشاعر «الأحجار ريشات» تكون الصورة صارخة لأنها تتحدى مبدأ التناقض. لأنها، بإنكار هوية الأضداد، تهاجم أسس تفكيرنا (القوس والقيثار). في حياتنا اليومية - وكذلك في تفكيرنا المنطقي - نميز بين «الشيء» و «الآخر». أما من نخبرنا به التجربة الشعرية فهو أن «الشيء» هو «الآخر»، أن التقابلات قد توقفت، وأنا في تواصل مفتوح مع أنفسنا ذاتنا ومع العالم الذي يحيط بنا. ولهذا يستطيع أوكتافيو باث أن يكتب أن الشعر هو «دخول في الوجود».

يتضمن شعر باث صوراً للدمار، والعزلة، والموت ويبلغ باث صوراً ممتزجة معها، وتوحيها لها، هي رموز لهذه الوحدة ولهذا التعميد المستعدين. فالشمس، في سمتها، لاتسمح بالظلال، لاتسمح بتغيرات ولا تحولات. كل شيء هو

* التجلي أو الظهور epifanía هنا بالمعنى الديني، وتعني ظهور المسيح لحكاماء المشرق، وكذلك تعني عيدالظهور أو الفطاس - [المترجم].

وجود هكذا في نشيد بين الأطلال Himno entre ruinas :

متوجاً بذاته يفرد النهار ريشاته ،

صرخة صفراء عالية ،

نافورة ساخنة في مركز سماء

محايدة وخيرة! . . .

. . . . الكل إله .

وتجارب الحب والشعور بما هو مقدس شبيهة بالتجربة الشعرية ، وموحدة مثلها . ففي الحب «كل ما هو مربوط بالأرض بحب المادة . . . ينهض ويطير» (La estación violeta الفصل النفسجي) وهنا ، كما في الصورة ، تعود إلى تجربة وحدة الأضداد :

«كل شيء هو وجود ، كل القرون هي القرن الحاضر .

إننا في الحب نحيا «بالأسماء الأولى مترابطة» . الأنا لا يعود يتحقق سوى في الأنت والأنت يكتسب معناه الكامل في الأنا . إننا في النهاية «النحن» . في الحب ، أكثر من أي تجربة إنسانية أخرى نجد ونكون «النصف المفقود» .

وتجربة «الصفة الأخرى» لما هو مقدس تعود إلى أصل عشقي وذات طابع شعري . ويقدم ما هو مقدس نفسه في البداية ، كما يقدم الحب نفسه تحت واجهات غامضة ورغم ذلك متناقضة : إنه يجذبنا وينفرنا . لكن فيما وراء التناقضات ، فإنه فور أن يصبح ما هو مقدس تجربة ، فور أن نعبر «البوابة المظلمة» ، تتوج «تجربة الآخر» في التعميد الذي هو «تجربة الواحد» .

وفي الأعمال الأخيرة لأوكتافيو باث - أساساً في هذه القصيدة الخارقة للعادة المسماة بياض Blanco وفي مقالات تصريحات وانقطاعات y Conjugaciones disuynciones - تأتي تجربة جديدة لتعطينا معنى الجماعة . وهذه التجربة - التي تقوم على أساس زمن دوري قدمه باث منذ حجر الشمس Piedra de sol - هي ، جزئياً ، توحيد للمتعارضات في أبدية العود الأبدي ، في دورة كوكب الزهرة

في الديانات السابقة على كورتيس*. لكن أوكتافيو باث يجد الكشف الحقيقي ،
التجلي الحقيقي ، في معنى صامت يكمن فيما وراء الكلمات ، في معاشة شعرية
تضرب بجذورها بلاشك في عمله لكنها تكشف على وجه الخصوص في سنواته
في الهند . فالمعاني الواقعية تكمن فيما وراء الحواس . هل هي لواقعية هذه
التجربة الأولية؟ ليس هذا في (بياض) حيث المبدأ هو الروح . من دورة إلى دورة ،
من الشبقية إلى الكلمة ، من الحب إلى الأرض ، من الكلمة إلى الزهرة ، ومن
الأرض إلى الزهرة والكلمة :

الروح
اختراع للجسد
الجسد
اختراع للعالم
العالم
اختراع للروح .

إن أوكتافيو باث ، الذي لا يكون الشعر لديه عارياً من اللحم أبداً ، والذي
يكتسب الشعر لديه في أحيان كثيرة نغمات وتشديدات إجتماعية ، هو أساساً
شاعر وكاتب «التحول» إلى واقع آخر أكثر واقعية من واقع الظواهر . وبإث يقول
لنا إن للحياة معنى إذا كنا قادرين على أن نطلق أنفسنا خارج أنفسنا ذاتها لكي
نستعيد أنفسنا في الآخرين . أن نعرف أنفسنا أكثر من ذلك : أن نحيا منسكين في
عالم ومتحولين إلى مانكونه حقيقة» .

والنهر يمتطي مجراه ، يطوي أشعرته ، يجمع صورته ويتداخل في ذاته . (الفصل
العاصف ٧) .

* هو هرنان كورتيس أحد أقطاب اكتشاف وغزو أمريكا اللاتينية - [المترجم] .

(٧) من أجل تحليل مسهب للعلاقات بين الزمن الدوري ، والثورة ، والمشاركة ، والمعنى ، راجع

كتابي : Octavio Paz : sentido de la palabra, México, Joaquín Mortiz, 1970.

(ج) الواقع، والفانتازيا، والصورة، والأسطورة

أنتقى من بين القصاصيين المتأخرين أولئك الذين يطرحون بشكل أكثر حدة مشكلة الواقع والتخيل (الفانتازيا). ويرجع إصراري على أعمال رولفو Rulfo وليثاما ليما Lezama Lima إلى قيمة أعمالهما مثلما يرجع إلى حقيقة أنها من الكتاب القلائل الذين يمثلون حالات حدية يتشابك فيها الواقع والفانتازيا إلى حد تشكيل عالم فريد وكامل. (٨)

وتمزج أعمال خوليو كورتاشار الدعاية بالفانتازيا، والتهكم، والتحليل النفسي، والانطباعية، وكذلك الهموم الاجتماعية في السنوات الأخيرة. والحجلة، أفضل روايات كورتاشار، تضاعف المنظورات والنوافذ المفتوحة على شخصيات حية وحلمية. فالكرونوبيو* والمشاهير هي، بالتأكيد، كائنات من عالم آخر، من عالم متخيل لكنها، قبل كل شيء - أهذا تذكير بسويفت Swift؟ -، دغدغة ساخرة لعالمنا الذي يتحول إلى فانتازيا. واللافتات الباريسية من عام ١٩٦٨ تضيء على الجولة الأخيرة Ultimo round لمساة من الواقع ومن السورالية تتبادل في جو تلك الأيام الثورية. وتذكرنا الإختفاءات الغامضة، باستمرار، بـ «اللعبة الكبيرة» لرينيه دومال René Daumale، ويجيلير ليكونت Gilbert lecomte وسيمما Sima. وعبارة للنين في الجولة الأخيرة تلف دورات حول العالم، ثمانون يوماً وجولة ملاكمة حلمية في آخر أعمال كورتاشار: «يجب أن نحلم، لكن بشرط أن نؤمن بجدية بحلمنا، أن نفحص بعناية الحياة الواقعية،

(٨) يمكننا أن نجد ميلاً معيناً إلى الفانتازيا في المسرح الأمريكي اللاتيني الراهن أيضاً، وهو النوع الأدبي الأقل تطوراً بكثير، في مجموعة، من الشعر، والفن القصصي، والمقال. ومنذ كونرادو ناليه روكسلو Conrado Nalé Roxlo يتغلغل في المسرح الأرجنتيني ميل غنائي غرسه في المكسيك أيضاً زافيه فيأورتيا Xavier Villaurrutia ويطرح المسرح المتأخر لكارلوس فوينتس مشكلات مماثلة لتلك التي تطرحها رواياته. والمسرح «الوثائقي» لفبيثتي لينيرو Vicente Lenéro هو مسرح شهادة ومسرح لاهوتي أكثر من كونه مسرحاً واقعياً. كذلك فإن مسرح عمر دل كارلو Omar del Carlo في الأرجنتين شديد الخيالية والفانتازية.

* الكرونوبيو Cronopios: كائنات خيالية من ابتكار كورتاشار - [المترجم].

أن نواجه ملاحظتنا بحلمنا، أن نحقق بتمحيص تخيلاتنا (فانتازيانا). ويكتب كورتاثار وهو منشغل بالوضع الحرج للإنسان الحديث، : «إنني لا أتذكر، نتيجة لعجزني عن العمل السياسي، لمهنتي الثقافية الموحشة، لبحثي. الانطولوجي العنيد، لألعاب الخيال في أكثر مستوياته إثارة للدوار، لكن كل هذا لا يدور حول نفسه، وليس له أي علاقة بالنزعة الإنسانية المريحة لتأنيقي الغرب. ففي أكثر ما يمكن أن أكتبه سهولة تظهر دائماً رغبة في الاحتكاك بحاضر الإنسان التاريخي، ومشاركة في مسيرته الطويلة نحو أفضل ما لديه بوصفه كتلة اجتماعية وإنسانية» (الجملة الأخيرة).

وفي مفترق طرق مماثل، مع إرادة سياسية أكبر، نجد أعمال كارلوس فوينتس المتجذرة في نقد الحياة المكسيكية تجذرهما في «المنطقة المقدسة» للأساطير. وقد بدأ كارلوس فوينتس عمله بمجموعة قصصية - هي الأيام المقنعة - Los dias enmas-carados ترتبط بالسورالية بقدر ارتباطها بالقصص «القوطية». ويمكن أن نجد تقاليد تخيلية (فانتازية) مماثلة في روايته البديعة أورا Aura وفي (الإقليم الأكثر شفافية La región mas transparente) و (موت أرتيميو كروث La muerte de Artemio Cruz)، يكتب فوينتس أدباً نقدياً وساخراً، وثورياً. وفي رواياته الأكثر حداثة، وخصوصاً في المنطقة المقدسة Zona sagrada ينسج فوينتس الواقع بالفانتازيا. أين السر؟ في ظاهر الأشياء ذاتها في بدايتها، في وضوح الفانتازيات، فيما هو مرئي. إننا نشهد عالماً من التبدلات والتحويلات. والرواية لا تفتقر فقط إلى التطور بالمعنى التقليدي للكلمة، فالحقيقة، كما يكتب فوينتس، هي أنه «لشيء يتطور، كل شيء يتحول» - ولا أدري إن كان يتذكر عن وعي مسرح العالم الكبير - - : «أنت أيضاً تعتقد أننا نمثل؟». هل يمثلون يوليسيس، وتليمال، والضارعات وكلوريا، واللوحات الباروكية، وأرتيميو كروث، ومخاوف الإقليم الأكثر شفافية، والبشر والآلهة؟ لهذا السؤال إجابة واحدة محددة. يكتب فوينتس: «كل هذا يمكن أن يكون تمثيلاً - بروفة - لشيء» (المنطقة المقدسة).

أما مائة عام من العزلة Cien anos de soledad لجابرييل جارثيا ماركث فهي استثنائية. وقد كتب جاك ريتشاردسون Jack Richardson: «نجحت رواية جارثيا ماركث في أن تكون ملحمة في لحظة كان مايم الأدب فيها هو الشيء الخاص والمعقد عن وعي» (Gabriel Carcia Marquez, Master worker, en New York Review of books, volxiv num. 6, 1970, yen Dialogos, Mexico, Mayo - junio de 1970).

نصل إلى نهاية الرواية. فيكتشف أرويليانو بوينديا أن مجمل الرواية قد كتبه ملكيادس أحد الغجر الذين يظهرون في بداية الرواية في ذهن أول سلالة بوينديا. ونقرأ: «لم يستطع أرويليانو أن يتحرك ليس لأن الرعب قد شله، لكن لأنه في تلك اللحظة الرائعة تكشف له المفاتيح الحاسمة للصحائف المرتبة في زمان ومكان البشر: أول السلالة مربوط في شجرة وآخرها يأكله النمل». ونعرف، يقيناً، أن كل الرواية هي مجاز بالغ الشمول وتراجيدي للوضع الإنساني. إنها ذلك، وهي أيضاً شيء أكثر دقة: إنها تاريخ عائلة بأكملها تمر من البراءة إلى الدمار، إنها خلق مكان إسطوري - مركز للعالم مثلما في كل تاريخ سحري - هو ماكوندو، إنها سقوط البشر، استغلال وفساد شعب محدد في هسبانو - أمريكا، إنها حضور المرأة - المرأة - الأم، والمرأة - المؤسسة - التي تسمى أورسولا. إن مائة عام من العزلة، بتجزرها، وصخريتها، وتدققها، هي رواية أرض ورواية أسرة، رواية أرض البشر، رواية الدورات المضطربة الجحيمية التي تحملنا من الفردوس والبراءة إلى الموت. ويسود الرواية السحر، سحر مصنوع من الأرض والحلم وهو أيضاً خرافة وأسطورة أكثر منه تاريخاً. وربما كان أكثر ما في مائة عام من العزلة خروجاً عن المؤلف هو القدرة على القصص بواقعية دقيقة، وأحياناً عارية لدرجة تحويل الواقع إلى أسطورة دون أن تفقد الأسطورة لمستها الواقعية.

وليس من العدل أن نغفل هنا ذكر بعض قصاصي الجيل الجديد: فلنتذكر ماريو فارغاس يوسا Mario Vargas Llosa، الذي يمكن أن نتبين لديه تأثيرات

لفوكنر - مثلما لدى غيره من روائي أمريكا الهسبانية - والذي نكتشف لديه، بالدرجة الأولى، أسلوباً خيالياً بصورة قوية تمتزج فيه، كمالدى فوينتس، وكما لدى جارتيا ماركث، الموضوعات الاجتماعية والأشكال التخيلية، لكن يسود لدى فارجاس يوسا، ماهو إجتماعي، ولنتذكر خوسيه دونوسو José Donoso، الكاتب ذي الأسلوب الكلاسيكي الصارم والاهتمام الرومانسي، والذي قدم في روايات وقصص راقية تحليلات نفسية كما قدم ضروب عنف مفزعة تقال برشاقة لا يملكها سوى قلة من الكتاب المتأخرين، ولنتذكر كابريرا إنفانتي Cabrera Infante، الكاتب الذي ينشغل تحت تأثير جويس، بالبنية اللغوية لأعماله انشغالاً لا يجاريه فيه سوى القلة، ولنتذكر، بين الأكثر شباباً، خوان جارتيا بونثي Juan Garcia Ponce وفيثنتي لينيرو Vicente leñero، وجوستافو ساينث Gustavo Sainz، وسيفيرو ساردوي Severo Sarduy، وسلفادور اليثوندو Salvador Elizondo، ونستور سانتشث Nestor Sanchez وكثيرين غيرهم ممن يبدأون أعمالاً واعدة.

إلا أن هناك روائتين لاتباريهما سوى روايات قليلة في طرح مشكلة العلاقة بين الواقع والفانتازيا: هما بدرو بارامو Pedro Paramo لخوان رولفو، والفردوس Paradiso لخوسيه ليثاما ليما.

نشر خوان رولفو كتابين فقط: قصص السهل المشتعل El llano en llamas، ورواية بدرو بارامو. ويجمع أسلوب رولفو، في قصصه مثلما في روايته، بين اللغة الشعبية واللغة الشعرية. وفي أعماله يبلغ من امتزاج الفانتازي والواقعي أنه في بعض الحالات لا يمكن عملياً التمييز بين الواقع والفانتازيا. ويصوغ كل أعماله القاسم المشترك للوحدة والموت. ففي قصة منحتنا الأرض Nos ha dado la tierra تحاول مجموعة من الرجال، بصورة واقعية، الحياة في مكان قفر ويجدون أنفسهم محكوماً عليهم بالبؤس والموت، وفي قل لهم ألا يقتلوني Diles que no me maten نشهد الميتة العنيفة لعجوز يغتاله ابن رجل كان العجوز قد قتله منذ خمسة وثلاثين عاماً، وفي لوفينا Luvina نجد أنفسنا في قرية

لا يوجد فيها سوى الريح . وتحكي قصة تالبا Talpa رحلة حجيج . من هم الحجاج؟ إنهم تانيلو Tanilo الموشك على الموت، وزوجته، وأخوه الذي يعشق زوجته . ونعرف أنها يجرجرانه عبر جبال ووديان ودروب متربة حتى يعجل بالموت . وفي أناكليتيو مورونس Anacleto Marones تتعايش الخيانة الزوجية والدعاية السوداء .

من المؤكد أن كل قصص رولفو تشير إلى حقائق فيزيائية، تاريخية أو اجتماعية لكنها جميعها مكتوبة بالضمير الأول المفرد، وجميعها تكتسب نغمة اعتراف فكأن على الشخصيات أن تهرب من وحدتها وتوصلها إلى القراء . وفي العادة، «تقع» أقاصيص رولفو في الحاضر وفيها جميعاً، على وجه التقريب، تظهر كلمة «ذاكرة»، أحياناً، بصورة متكررة . وفي لحظة حاسمة من حياتها يكون على الشخصيات أن تتذكر الماضي بينما تود نسيانه بكل طاقتها .

وفي كل أعمال رولفو يغلق الزمن . والمستقبل مختم بتقشف . ولا يبقى سوى الحاضر . وهنا - يكمن الحزن الشديد العمق في قصص رولفو، وفيه تكمن، كذلك، قدريتها . بكلمة واحدة، فإنها عندما تقص الحاضر فقط، حينها لا يستطيع الحاضر أن يفتح على المستقبل، فإن القدر يسود كل شيء، لأن الحرية تتضمن إمكانية المستقبل . لكن شخوص رولفو، التي تحدت بما صنعتها، تظل ساكنة تجاه مصيرها . وباستثناء القصة المرحية أناكليتيو مورونس، ليس ثمة مخرج في الفن القصصي لرولفو .

ونفي المستقبل في قصص رولفو يجعله الزمن ماضياً خالصاً هونفي جزئي - باستثناء حالة لوفينا - . وفي المقابل، فإن النفي الجذري للزمن يوجد في الرواية الرائعة، الواقعية والمتخيلة، التي تعد سلفاً لكثير من الروايات اللاحقة (ربما كان من بينها رواية جارتيا ماركث) وهي رواية بدرو بارامو .

ماهي حبكة بدرو بارامو؟ بالمعنى الكلاسيكي للكلمة ليس للرواية حبكة . وقد قيل إن ما يحدث في بدرو بارامو يمكن أن يجري خلال أعوام، أو شهور، أو لحظات . لكن لحظات الزمن هنا تفتقر إلى الأهمية ففي اللحظة التي تبدأ فيها

الرواية تكون شخصياتها قد ماتت. وفي المسودة الأولى للرواية كان رولفو قد استخدم العنوان المؤقت الهمهمات Los murmullos. وفي الحقيقة فإنها رواية مصنوعة من الأصداء، والرنين. ولأنها رواية ماضٍ حجري كانت فيه الشخصيات (متى؟) واقعية ومتجسدة، فإن بدرو بارامو هي رواية ذاكرة فانتازية، سحرية وواقعية. إن ظاهر الرواية - وظاهر قصص خوان رولفو - واقعي، أما جوهرها الحقيقي، فحلمي.

طبعي ألا يكون من العدل اعتبار ليثاما ليما مجرد كاتب رواية الفردوس Paradiso (١٩٦٨). فإن ليثاما ليما يجد مكانة ضمن تقاليد للأدب الغربي ربما كان أول أساتذتها خوان رامون خيمينيث Juan Ramón Jiménez وفاليري Valéry. ومنذ شبابه اهتم ليثاما بحياة وآداب كوبامثله في ذلك مثل إميليو باياجاس Emilio Ballagas، وأليخو كاربنتييه Alejo Carpentier، ونيكولاس جين Nicolas Guillen، حتى حينها لم تكن أعماله تسعى بحثاً عن إلهام مباشر في الشعر الأفرو-كوبي أو الأفرو-كاريبي. وبوصفه مؤسساً، مع رودريجث فيو Rodríguez Feo لمجلة أصول (أوريجينيس) Orígenes - التي ستولد حولها جماعة الكتاب الكوبيين العظام اليوم: ثيتيوفيتيه Cintio Vitier، وإليسيو ديجو Eliseo Diego - كان ليثاما منذ موت نارسيسوس Muerte de Narciso، التي كتبت عام ١٩٣٧ حين كان الشاعر في السابعة والعشرين من عمره، واحداً من أفضل الأصوات الشعرية للغتنا و موت نارسيسوس، تلك القصيدة المتقشفة، الصعبة، الدقيقة، القاسية مثل بلّورة الصخر، تشهد على هذه «العودة إلى جونجورا» التي بدأها ألفونسو ريس Alfonso Reyes وداماسو ألونسو Dámaso Alonso، والشعراء الأسبان في أعوام العشرينات هذه العودة نفسها، التي تزداد فرديتها، تزداد باروكيتها، تظهر في إشاعة معادية Enemigo rumor ومغامرات سرية Aventuras sigilosas وفي الكتاب الناضج والواضح المسمى دادور Dador أما مقالات ليثاما، المفرطة في الباروكية أحياناً، فتقدم روايات لاهوتية - شعرية للأدب وللحياة. ومن بينها تبرز (أفعى دون لويس دي

جونجورا (Sierpe de Don luis de Góngora)، و(الصور الممكنة - Las im-
 āgenes posibles)، وهذا الكتاب الصعب - «الصعب فقط هو الحافز» هكذا
 كتب ليثاما ليا - الذي هو (التعبير الأمريكي La expresión americana).
 كيف يمكن أن نصنف ليثاما ليا؟ كشاعر بصورة بارزة، كشاعر
 باروكي، وكشاعر كاثوليكي. وأي قراءة لـ «الفردوس لا تأخذ في اعتبارها هذه
 الأبعاد لعمل ليثاما ليا ستكون زائدة عن الحاجة، أو على الأقل، سطحية.
 في خلاصة الأحاديث Suma de conversaciones (لأرماندو ألفاريث برافو
 Armando Alvarez Bravo، وهي تصدر لـ (مدار ليثاما ليا Orbita de
 lezama lima, colección Órbita, la Habana, 1966) تتضح جليلة الإرادة
 الشعرية - الدينية لليثاما - وليثا ماليا، شاعر المجاز والصورة، هو أيضا شاعر
 تجسيد هذا وتلك. فالصورة تقدم باعتبارها «واقع العالم غير المرئي»، أما المجاز،
 المصنوع من توترات متعارضة، فيؤدي إلى التشابهات. العالم الشعري عالم يتكون
 «على صورة وشبه»، وهو كذلك خلق صور وتشابهات. والشعر هكذا هو كشف
 للقداسة. كيف يمكن التحقق من حقيقة وصحة الصور و«التشابهات» بين عالم
 الإنسان والرب؟ إن ليثاما ليا، بوصفه أوغسطيناً أكثر منه توماوياً*، وبوصفه
 منحازاً لآباء الكنيسة أكثر من كونه أرسطوياً، ينكر البراهين. إن ليثاما، المؤمن،
 القريب من ترتوليان، يعرف أنه مامن برهان أكثر من الحمولة الثرية من الصور
 والتشابهات التي أقامها وشيدها الإنسان والتي يواصل الإنسان إقامتها وتشيدها:
 من العصور الأسطورية وحتى أساطير عصرنا. ويجب أن نطبق على أشعاره -
 وهكذا يفعل ليثاما - كلمات ترتوليان: «إنه مؤكد لأنه مستحيل». ويعلق ليثاما
 ليا على ذلك بقوله: «من هذه العبارة يمكننا استنتاج طريقين أو منهجين شعريين:
 ما يمكن تصديقه لأنه لا يصدق (موت ابن الرب) والمؤكد لأنه مستحيل
 (البعث)». وبدل الإنسان المخلوق - من أجل الموت - الذي أعلنه هايدجر

* أوغسطيني: نسبة إلى القديس أوغسطين. وتوماوي نسبة إلى القديس توما الأكويني -
 وأما أرسطوياً فنسبه إلى أرسطو [المترجم].

Heidegger في الوجود والزمان، يحل ليثاماً محله - بصورة لاتصدق، أي، بمسألة من الايمان المتخيل - الإنسان بوصفه «المخلوق من أجل البعث» ليس عالماً آخر ذلك العالم ونادراً ما تصدق هذه الكلمة - كما تصدق هنا - الذي يطلق في لفلفات، ومجازات، وأقاصيص، رواية الفردوس، ذلك العمل المكتوب بجهد والمنقح حتى الكمال. ومن البعث أن نحاول في هذه الصفحات أن نفسر كل التلميحات، والإشارات، والطرق والعمليات الواردة في هذه الرواية الفردوسية والجهنمية، وخصوصاً فيما هو جحيمي منها، في شر العالم، الذي يتحول حتى يكسو باللحم الحي صورة ضروب البعث. إن الفردوس هي واحدة من تلك الخلاصات التي بحث عنها ليثاماً في التعبير الأمريكي. إنها رواية تركز على الحياة البالغة الدقة لها فانا في العقود الأولى من القرن الحالي، وتروي الفردوس البراءة والعنف، السذاجة والانحرافات الجنسية، تتعمق في الشر، في الحرمان وفي الرعب، تسخر من التاريخ وتستبدله بالأسطورة، لكن الأمر هنا أمر أسطورة معتقد فيها وقابلة للاعتقاد، أسطورة هي حقيقة التاريخ. منعطفات كثيفة الأنوار جداً، وفواكه استوائية، ومناقشات غنوصية (الا تسمى الشخصيتين الأكثر حيوية، وأحياناً الأكثر تدميراً في الرواية فرونيسيس وفوتيون Frónesis y Foción)؟ تثري رف المذبح المصنوع من مخمرات وأجزاء غائرة، رف المذبح هذا حيث يصبح سان جورج المضيء هو سان جورج الذي يكاد يكون شريراً لكي يعود فيولد سان جورج المضيء! إن شخصيات الفردوس تتجسد في صورتها وشبهها الخاص لتنتهي بأن تتجسد في صورة وشبه الكل. وفي النهاية تعود الرواية على أعقابها، وتحيلنا إلى دواراتها، إلى ألعابها المشؤومة والمخلصة، إلى وضع إنساني ساقط يمكن استعادته: «الشرير يجد نفسه حيثئذ في يوم الدينونة، في مواجهة البعث» سيكون سان جورج المضيء قد انتصر على الظاهر الظلامي لسان جورج المتخيل بصورة مشؤومة من جانب ارادات مانوية عمياء.

* مانوية Maniqueas: نسبة إلى ماني الفارسي (٢١٦ - ٢٧٦م) الذي دعا جدد بنشوء كل الأشياء عن مبدئين هما النور والظلام اللذان يجسدان الخير والشر - [المترجم]، ومذهبه فرع من الديانة الزرادشتية (المجوسية) وفيه تأثيرات مسيحية. [المراجع، المترجم].

لا ينكر ليثاماً ليها هذا الواقع ، لأنه كإنسان ، ودون أن يؤمن بمطلقات التاريخ ، والعلم ، والتقدم ، والوجود ، يعرف أن حياته من هذا العالم . لكن الواقع التاريخي ، الواقع القابل للتصديق لأنه مرئي ، ليس واقعياً إلا بسبب ما لا يقبل التصديق وما هو صامت ، بسبب ذلك الذي تشير الصور صوبه .

٣ - الواقع «الآخر» للفرن الراهن

من السهل أن نرى ، في أسماء بعض من أفضل كتابنا اليوم ، أن ماتعودنا فهمه على أنه الواقعية (أدب العادات ، الأدب المحلي ذي النزعة المحلية ، الأدب الوثائقي) يمر بأزمة واضحة في أمريكا اللاتينية . وإذا أخذنا في الاعتبار الشعراء على وجه الخصوص - الذين لا تمثل الواقعية أبداً عاملاً حاسماً بالنسبة إليهم - فسوف يكون علينا أن ندرج ، بين مخترعي ومكتشفي العوالم الخيالية ، غالبية الشعراء العظام الأمريكيين اللاتين لهذا القرن ، بل وغالبية الشعراء الأمريكيين اللاتين على طول التاريخ الهسباني - أمريكي . ومن بين مكتشفي الواقع «الآخر» - المتخيل ، والفانتازي ، والسوريالي - : لويس فيلاردي López Velarde ، وجابرييلا ميسترال Gabriela Mistral ، ودلميرا أوجستين Delmira Augustini ، وألفونسينا ستورني Alfonsina Storni ، وبالدوميرو فرناندث مورينو Baldomero Fernández Moreno وماريانو برول Mariano Brull ، وألفونسو ، ريس وسيزار فاييخو ، وزافبيه فيبا أورتيا ، وخوسيه جوروستيثا ، وكورونيل أورتيتشو ، وكاريرا أندراي Carrera Andrade ، وفستفال Westphalen (وهو إلى جانب الإسباني لاريا Larrea يمثلان السوراليين الأصليين الوحيدين في الشعر المكتوب باللغة الإسبانية) ، وموليناري Molinari ، وجونثالث لانوثا Gonzalez Lanuza ، وفرنثيسكولويس برناردث Francisco luis Bernardez ، وثيتيو فيتيه Cintio Vitier ، وإيدا جرامكو Ida Gramcko ، وعلى تشوماثيرو Ali Chumacero ، وبين الأكثر شباباً ، خوسيه إميليوباتشيكو José Emilio Pacheco ، وهوميرو أريدخيس Homero Aridjis ، وروبرتو خواروث Roberto Juarroz ، وأليخاندرأ بيثارنيك Ale-

jandra Pizarnik . . . كل الشعر ينحو نحو الصورة التي نظر إليها فيكو باعتبارها أسطورة مكثفة . كل شعر ينحونحو الأسطورة . فماهي الاسطورة؟ اجابات قليلة هي تلك التي تبدو لي في وضوح هذه الإجابة التي أصبحت كلاسيكية لباتشوفن J. J. Bachofen : «الأسطورة هي تأويل للرموز . إنها تنبسط في سلسلة من الأفعال المترابطة ظاهرياً فيما بينها والتي يضمها الرمز في وحدة واحدة . الأسطورة تشبه مقالاً فلسفياً بقدر ما تنقسم الفكرة الى سلسلة من الصور المترابطة وتترك القارئ يستنتج النتائج النهائية» وبعبارة أخرى ، فإن الأسطورة - مثل الصورة عند باث أو عند ليثاما ليا - تضعنا على حدود ما يمكن أن يقال ، على ضفة الصمت ، على ضفة المدلولات التي تؤسسها الكلمات دون أن تفرغ من قولها . كل صورة ، وكل أسطورة ، إشارة . واللغة التي تستخدمها اليوم غالبية الكتاب العظام لأمريكا الهسبانية هي لغة يكون فيها الشعر هو المحرك الحقيقي ، وفيها يمكن أن تكون الغاية سحرية أو دينية - حتى حين تكون متضمنة ، وحتى حين تكون متجسدة .

إن علينا أن نتحدث عن أدب - وكذلك عن تصوير وعن نحت - هي أكثر من ان تكون تذكيراً بالسوريالية ، وأكثر من أن تكون استمراراً للـ «مذاهب» (isme) التي سادت في سنوات العشرينات وإن جعلتها تلك الحركات ممكنة الوجود : علينا أن نتحدث عن فن لا يكتفي بوصف الواقع ، بل يبحث ، فيما وراء الحقائق والعادات ، عن احساس تلك الحقائق والعادات وفي أحيان كثيرة يجعلنا نرى بوضوح أكبر تلك العادات والحقائق ، دون التخلي أبداً عن الواقع الذي يولد منه الفن .

إن الواقع الأمريكي ، (أو «التجربة الأمريكية» كما يسميها ليثاما ليا) ، يتكشف في الآداب الراهنة لأمريكا اللاتينية باعتباره قابلاً لتحديد موقعه بوضوح - (فماكوندو ، مثلاً ، لا يمكنها أن تكون لاخيالياً ولا فيزيائياً إلا حيث هي ، في مجال أمريكي) - وباعتباره عالمياً في آن واحد .

وأخاطر بطرح الفرضية التالية . يميز كلود ليفي شتراوس - Claude lévi

Strauss بوضوح تام في التفكير البدائي بين الدين والسحر. فالأول يتكون من «أنسنة القوانين الطبيعية»، والثاني في إضفاء الطابع الطبيعي على الأفعال الإنسانية». وجزء كبير من الأدب الأمريكي اللاتيني، الذي يجب الحكم على قيمته في الأساس انطلاقاً بالطبع من وجهة نظر أدبية، يميل نحو التفسيرات السحرية أو الدينية دون أن يتضمن ذلك بالضرورة أن الكتاب الهسبانو-أمريكيين يعتقدون في هذا أو ذاك على وجه الخصوص. والاتجاه الذي يمكن، باتساع كبير، إطلاق اسم الديني عليه، يتمثل جزئياً في أعمال بورخس، وهويدوبرو، وياث، وبالدرجة الأولى، في أعمال ليثاما ليما، أما الاتجاه السحري فيظهر أساساً، لدى نيرودا في مرحلة إقامة على الأرض، وفي «عدوى»، مائة عام من العزلة، وفي الأفعال من بعيد في آخر أعمال فوينتس. وكتاب أمريكا اللاتينية سواء كانوا أكثر دينية أم أكثر سحرية بشكل واضح، كما يرى ريس Reyes، وكما يرى إدموندو أوجورمان Edmundo O Gorman في تاريخ الغزو لأمريكا. هؤلاء الكتاب يحيون واقعاً «مخترعاً» جزئياً على الأقل ويكتشف يوماً بيوم. والدور الذي يلعبونه هو، على وجه الدقة، دور الاستمرار في اختراع وفي اكتشاف هذا الواقع الذي يتكون ويتشكل والذي يسهمون في إقامته.

وقد كتب ألفونسو ريس عام ١٩٣٢ في (في عودة البريد) A Vuelta de correo يقول: «إن الطريقة الوحيدة لأن يصبح المرء قومياً بصورة مفيدة تتلخص في أن يكون عالمياً بصورة سخية، لأن الجزء لا يفهم أبداً بدون الكل. وواضح أن المعرفة والتعليم يميلان إلى البدء من الجزء: لهذا فإن «العالمي» لا يختلط أبداً مع المنبؤ. وصبوب هذه العالمية المتجذرة يتوجه بحماس أدب أمريكا اللاتينية اليوم».



الفصل الرابع

واقعية الواقع الآخر

خورخي إنريكي أدوم(*)

Jorge Enrique Adoum

الواقعية، مثل الجحيم، مملوءة بأصحاب النوايا الطيبة، وفي بعض أوساطها تكمن الكبرياء: ليست كبرياء التأكيد، بفخر، أنه «لا يوجد طريق سوى طريقنا»، كما فعل دافيد ألفارو سيكيروس مشيراً إلى الفن الجداري المكسيكي (وفي الوقت نفسه، كان روفينو تامايو قد وجد طريقاً آخر أشد صلابة فيما يبدو)، بل كبرياء الرغبة في النظر إلى العمل الفني بصورة شاملة من زاوية «علاقته»، «صلته الحميمة»، «تطابقه» مع الواقع - مع واقع واحد - حتى يتم من ذلك استنتاج درجة الخيانة التاريخية لذلك الواقع القابل للتحقق من جانب من ينطلقون من ذلك النوع من الواقعية. كان إعلان سيكيروس وأحكام المعلقين والمنظرين تشبه أن تكون برنامجاً، أكثر منها مذهباً جمالياً، يتشكل إنطلاقاً من الإنجازات، كان «خطأ» مفروضاً في عديد من المرات كما لو كان مفروضاً من قبل جهاز موجه، على مناضليه الذين هم ليسوا شديدي الانضباط، فيما عدا ذلك. ومن أجل تبرير العمل بحجج خارج الفن (ذلك العمل الذي يجد تبريره فنياً في ذاته)، وتبرير الحكم النهائي لرجال جمارك الواقع، أخذت الواقعية تبحث عن تعريفات عديدة ومتكاملة أكثر مما ينبغي، ليكون أي واحد منها دقيقاً، وتغير من نعوتها حتى يكتب لها البقاء، منكرةً على نفسها إمكانية التكهن بأن حدود الواقع -

(*) شاعر وناقد اكوادوري (ولد في امباتو ١٩٢٦) من أعماله الأساسية: إطارات الأرض (أربع مجلدات) (كيتو ١٩٥٣ - ١٩٦٢)، قصيدة القرن العشرين (كيتو ١٩٥٧)، الله أتى بالظل (هافانا ١٩٦٠) الشمس مداسة بالخيول (جنيف ١٩٧٠)، وكان المدير الوطني للثقافة في بلاده.

إن كان له حدود - هي أبعد بكثير مما يبلغ إدراكها القصير النظر الحسن النية . لقد عاد البعد المتعدد للواقع إلى الظهور، على وجه الدقة، حين ابتعد الفن عن الواقعية التعليمية والمتعصبة .

١ - الواقعية والواقع

أ) «المحاكاة الأمنية للواقع»

الواقعية التقليدية (ويندرج في التقليدية مايفترض أن الواقعية الاشتراكية أو الواقعية التي يفترض أنها اشتراكية) بحكم كونها مفردة المحدودية في مفهومها، مفردة السكونية في أشكالها ومحافظة على أي حال لم تكن هي التي حاكت الواقع بأكبر قدر من الأمانة، فمنذ البداية لم تستطع أن تقيم مقياساً للأمانة . ونتج عن هذا أن التكعيبية، على سبيل المثال، كانت أكثر أمانة حيث اكتشفت أن للأشياء وجهاً آخر رغم أنه لا يرى من الزاوية التي يتخذها الرسام مؤقتاً، على هذا النحو تكون أكثر واقعية تلك التفاعلات الحديثة للـ «المحاكاة الأمنية» التي يمثلها ضم الواقع نفسه إلى الفن : ذلك الكولاج الذي يشكل البوب آرت، واستخدام الأصوات «الواقعية» في بداية الموسيقى المتجسدة، وتلك الأشكال اليائسة من الموضوعية، مثل الرواية الجديدة بقوائمها التي تستنفد ما هو مرئي، ومقابلها، التوليد الباروكي الذي يصنعه أليخو كاربنتييه من مشهد، سواء كان هذا المشهد عمارة من العصر الاستعماري أو شاطئ بحر، أو يصنعه ليثاما ليما من العالم الفوضوي والمظلم لغرفته . كان المشهد هو الواقع المرئي الأكثر أهمية بالنسبة للواقعية : بما في ذلك تحويلها الإنسان إلى عنصر من عناصر المشهد . لكن وقائع ماريانو أثويلا التي نجتهد في تسميتها روايات، حتى لا يكون هذا النوع الأدبي يافع أكثر مما ينبغي في أمريكا اللاتينية، لم تتمكن أبداً من تفسيره أو حتى من وصف واقع المشهد المكسيكي مثلما فعلت رواية بدرو بارامو لخوان رولفو - وهي الرواية التي بلغ من قلة «واقعيته» أن تحكي عودة ميت إلى ضيعة لم يعد يقطنها سوى قهقهة من الموت - أو حتى الأفعى المجنحة لـ د . د . هـ . لورانس أو تحت البركان للملك لوري رغم متاهتها السرية الرائعة . وبالنسبة لمشهد البرازيل حدث الشيء ذاته .

فأكثر أبعاد المشهد دقة ليست في روايات جورج أمادو، بواقعيته الغنائية التي تجعلها شبيهة بأفلام إميليو فرناندث، بل في حكايات أكثر الكتاب باروكية في أي لغة لاتينية، وهو جوان جيمارايش روزا، الذي «تتبع المحاور الروحية لمشهد إقليم السرتون». (*)

ب) «التعبير عن الواقع الاجتماعي»

حين تبنت الواقعية هذا التعريف الجديد زادت في ضيق مفهومها للواقع : فلم يعد الأمر يتعلق بكل ما هو مرئي - رغم أن ذلك قليل - بل فقط بالواقع الضخم، بالواقع المفزع لأمريكا اللاتينية : وذلك هو الوضع الاجتماعي للفلاح . عندئذ بدأت معادلة خلافية، تحاول في عمقها أن تكون تعويضاً، بين أفقية الواقعية ورأسية السلوك : وكأنه ليس بإمكان المرء أن يكون واقعياً ووغداً في الوقت نفسه، وذلك ما رأيناه. بدا أن الواقع الاجتماعي، بسبب كونه مفزعاً، يلعب لصالح الفنان، فقد كان يكفي أن يظهر في أعماله هنود، وسكان سهول، وزنوج، وجاوشيون**، وبصورة عارضة، إنسان المدن الفقير، حتى يندرج في صفوف الواقعية والعدالة، وحتى حين كان الأمر يتعلق بأدب عادات فولكلوري بدرجة أو بأخرى (كما في كل مسرح فلورنثيو سانشيث، وروايات لاريتا)، أو باستمرار نزعة طبيعية تحاول الواقعية نفسها أن تهزمها، (كما في الحكايات الذهانية والتنبؤية لهوراثيو كيروجا). وكان يجب أن يمر وقت طويل حتى يمكن، دون حماسة، إدراك التقويم المعادي للجماهير في السلخانة، لإتشيفريا، أو الترفع الأبوي لصاحب العمل في دون سيجوندو سومبرا، أو التقويم الذي يحط من قيمة الهندي في هواسيبونجو، أو الموقف المثالي لسانتوس لوثاردو في (الدونا باربارا)، أو

* شمال شرقي البرازيل وهي منطقة جفاف صحراوي وفاقه شديدة. [المترجم]

** الجاوشو Gaucho : هو أحد سكان سهول البامبا في ريودي لابلاتا بالأرجنتين وفي أوروغواي وجنوب البرازيل. يشتهر بالمهارة في الفروسية وب حياة الترحال وتحمل الحياة الصعبة كما يتميز بالجسارة وارتجال الشعر والغناء - [المترجم]. ويسمون أيضاً الماراغاتوس وحياتهم على الرعي والتنقل ويحتمل أن يكون فيهم بعض الدماء العربية وتدل على ذلك عاداتهم.

الرومانسية المعتلة لأرتورو كوبا في (الدوامة). وقد أشار جلوبيير روشا إلى ماهو غير واقعي في تلك الواقعية، وذلك في معرض إشارته إلى الكانجاسيرو *، وهو فيلم ليا باريتو الذي «يخلق وهم العالم لدى قطاع الطرق في إطار مماثل لوهم العالم لدى قطاع طرق تكساس». من أجل إدراك ذلك كان يجب الانتظار حتى تتطلب الواقعية أن يكون للعمل الفني صدى في الممارسة الثورية، فعند ذلك تم التوافق مع سبرغور الواقع.

وبديهي أن ذلك لم يكن ينطبق - رغم أنه ضمني - على النثر القصصي، أو على الشعر بل على المقالة. فكل الروايات والقصائد مجتمعة لم تكن لتستطيع أبداً أن تفسر واقعنا أو جزءاً منه بأسبابه، وأحياناً بحلوله، كما يفعل كتاب واحد لخصيه كارلوس ماريانجي، أو جيلبرتو فرايري أو إلكيل مارتينث إسترادا. بعدها بكثير، سيخلق أمريكي لاتيني أصيل هو أوسكار لويس، «الرواية - الحقيقة» بروايات (أبناء سانشيث)، و (عائلة بدرو مارتينث)، و (الحياة): ولم يتم تلقي طريقته التي تنقسم بين الأدب والتحقيق، من أجل سبرغور الحقيقة الإنسانية لقومنا، بل من أجل سبرغور الدوافع المختلطة لقاتلين في مع سبق الإصرار لترومان كابوت. إذ إن الفن إذا لم يسائل الواقع أو يعيد خلقه أو يبتكره فإنه يتحول - كما حدث للواقعية، فيما يسميه لويس هارس «لحظة الموقف الثابت»، الذي بلغ من ثباته أنه لم يتغير خلال أربعين عاماً إلا في كوبا - إلى صورة فوتوغرافية لواقع إجتماعي يجد قاعدته الأكثر إجحافاً في الريف لأسباب تتعلق «بالتخلف»، أي بالاستغلال الإقطاعي والأجنبي، وبالحفاظ بالقوة على الهياكل القديمة. والكاتب الذي كان يحاول التمحيص كان بالأحرى هو المراقب العادل لذلك العار الذي يراه من بعيد، لكنه يعتقد أنه يعرفه من خلال جولات قصيرة، أو من خلال زيارات تشبه الإجازات يأخذ فيها ملاحظات على طريقة زولا في محطة السكك الحديدية، ويتصرف بدافع التعاطف وليس بدافع التوحد مع شخصياته، فليس باستطاعته أن

* O Cangaceiro: نمط خاص من قطاع الطرق في البرازيل يحملون السلاح كاحتجاج

اجتماعي أو ديني - [المترجم].

يغير من روحه ولا من جلده . على هذا النحو، ورغم تمرده - أحياناً - بحماسة ضد الواقع الاجتماعي ، ورغم كل نواياه في التضامن ، لم يكن يرى في الفلاح إلا ماهو مرثي ، ماهو خارجي ، وكان يحشره في المشهد ، وكأنه عنصر طبيعة صامتة لا يبلغ مبلغ الشخصية . كانت الزعامات الإقطاعية قد جردت الفلاحين من كل شيء ، أما الواقعية فقد انتزعت أرواحهم . في أدب ذلك الحين بدت أمريكا اللاتينية وكأنها مجال مرسوم : كل هندي فيه هو هندي ، فكأننا بعد أن تركناه معدماً في كل ماكان يملك أردنا تعويضه بأن نمنحه ما لم يطلبه قط ولا يفيد في شيء : ألا وهو وضع الرمز . بدا أن تصويره بصورة مثالية شيء قسري ، وكأن العدالة لا تكفيها الحقيقة الوحشية . وأكثر المثاليين مثالية ، بوجه عام ، هو الواقعية الاشتراكية : إذ تضيف الطابع المثالي على الحاضر في البلدان الوحيدة على ظهر الأرض التي تسمح أليتها الاجتماعية بتخطيط المستقبل ، أو تضيف الطابع المثالي على الظروف «الموضوعية» كي تبتكر لنا مستقبلاً في بلداننا ، وفي كلتا الحالتين تكون النتائج دامية أحياناً ، أم تختلط الحقيقة بالنسخ الخارجي للواقع . فبسبب كونهم موصوفين من الخارج ، بدون عمق داخلي ، كان أولئك الفلاحون يثيرون التعاطف (كما الأم في يوانى لكارلوس لويس فاياس) ، وحتى النفور (كما في هواسييونجو لخورخي إيكاثا) بدل التضامن النضالي . في القارة الزراعية الضخمة ظهر استبداد الموضوع الأدبي : الحقد الطبقي في الريف ، بشخصيات الحادية البعد ، منظومة في فريقين ضحايا حتمية أدبية كان يمكن أن تكون نهائية لو لم يظهر ثيرو أليجريا وخوسيه ماريأ أرجيداس . وأستورياس ، وجراثيليانو راموس . وبعد ذلك رولفو . ففي أعمالهم نجد ، بأبلغ وضوح ، الأبعاد الإنسانية للحتمية التاريخية . وحين كانت الدراما الروائية تجري في وسط مديني ، لم تكن الواقعية تفعل سوى نقل الطريقة نفسها إلى المدينة ، فتحل أصحاب العمل محل ملاك الأراضي ، والعمال محل أقنان الريف (ميجيل أوتيرو سيلفا في فنزويلا ، ونيكوميدس جوثمان في تشيلي) . وحين يعود الفن ، بعد ذلك بزمان ، إلى الريف يجد أن ساكنه يمكن أن يكون رقيقاً أو همجياً ، متعللاً أو استعراضياً ، عنيفاً أو

شديد التحمل : إنسانياً في النهاية . وخرج رابحاً من ذلك الأدب (سالاروي ، وجيمارايش ، ورولفو) ، أو السينما (نيلسون بيريرا ، وجلوبير روشا) ، والمستقبل قبل كل شيء . فليس تحرير الفلاحين فضلاً يستحقونه بسبب الخصائص الروحية لأفرادهم بل حقاً تاريخياً مكتسباً بالقوة .

اتخذ الأدب الأمريكي اللاتيني الراهن من المدينة مسرحاً مفضلاً له ، وهي مجال لم تطرقه الواقعية تقريباً وهناك اكتشاف أن كل منزل تقطنه مجموعة كاملة من النماذج المختلفة والمعقدة ليس من السهل تمييز العدو بدقة من بينها ، كما في الريف الأمريكي اللاتيني ، ولا حتى تحديد وضعه الدقيق في عملية الانتاج ، أي ، طبقته ، بعيداً عن الحكم الآلي والأحقق القائل بأن كل ابن لبرجوازي هو برجوازي . فليس كل ابن لعامل هو بروتيتاري . ومن ثم يتحول الكاتب هو نفسه ، وربما للمرة الأولى في الفن القصصي لأمريكا اللاتينية ، إلى شخصية قصصية ، ويصدر شهادته من داخله ، من وجهة نظره وليس من وجهة نظر المؤلف بشكل حصري . لذلك يصنع أدباً أكثر صدقاً وأكثر أمانة : هو اعتراف طبقة اجتماعية كاملة وليس شهادة شاهد عيان على الأحداث ، هو عويل أو أمل الطبقة المتوسطة الأمريكية اللاتينية ، وكذلك ارتباكها بوصفها ضحية ، ومتواطئة ومهمة في الوقت نفسه . وهذه الطبقة تسكن المدن . وربما كان روبرتو آرلت أول من صادف «الحضيض الميتافيزيقي» للعاصمة الضخمة التي يجري فوق سطحها الواقع القديم ذلك الحضيض الذي سيتبعه خلاله (إرنستو ساباتو) فقط في (تقرير عن العميان) أما ليوبولدو ماريشال فقد اخترع مايقارب الملحمة الرومانسية والفكرية لبوينوس آيرس التي تتلخص عند بورخس في مغامرات «الإشين» ، في «ناصية وسكين» ، أما جرازيليانو راموس فقد اكتشف في (عذاب) أن ريودي جانيرو ، مثل كل مدينة ضخمة ، تحمل قلبها في بطنها ، وصاغ خوان كارلوس أونيتي مدينة خاصة به ، هي سانتاماريا ، وهي مزيج من مونتيفيديو وبوينوس آيرس بالإضافة إلى ما يتخيله ، لتعيش فيها شخصياته الكتومة وحدثها ، وفي (الفردوس) فعل ليثاما ليا أكثر بكثير من مجرد إعادة معايشة هافانا القديمة ، وفي أفضل صفحات

كارلوس فوينتس نجد دليلاً سياحياً - روحياً لمدينة المكسيك، وليها برمتها موجودة في محاورات في الكاتدرائية لفارجاس يوسا. كان ذلك هو الحين الذي اكتشف فيه الأدب أن الواقع الاجتماعي الأمريكي اللاتيني ليس ريفياً فقط، وأن الطبقة المتوسطة الحضرية تشكل هي الأخرى جزءاً من الواقع.

ج) «الأدب في خدمة الشعب»

كان الواقعيون، الذين أشاروا بصواب لايباري إلى أن كل فن هو فن ملتزم بصورة حتمية، يعنون بذلك رغبة صريحة في الالتزام. وكان فنه عادلاً من الناحية السياسية: فرغم أنه لم يجرؤ على تسمية نفسه «إشتراكياً» في كل مكان، إلا أنه أدرك أنه عند وصف أو تحليل الواقع الاجتماعي وجب عليه إدراك وجود قوي ستغيره في مستقبل ليس يوتوبيا بل تاريخياً، وبذلك يتحول ما كان صورة سكونية (إستاتيكية) لواقع أليم إلى إعلان - ولذلك السبب إلى حافز - لحلول سياسية ستقود إلى أشبه الأمور بالسعادة. لكن تلك الواقعية كانت متعصبة فنياً، فقد احتفظت لنفسها بالحق الشامل في الإعلان وفي الالتزام، ولم ترد أن يكون لها «رفاق طريق»، وحاربت السورالية رغم إعلانها الصريح عن عقيدتها: «إن الفن الأصيل لعصرنا مرتبط بالنشاط الاجتماعي الثوري: إنه يميل إلى سحق، إلى تدمير المجتمع الرأسمالي». ناهيك عن استطاعتها قبول التوحيد الذي قام به بريتون بين شعارات ماركس وشعارات رامبو. وبدل أن «تحل جديلاً» تأكيد لينين، «يجب أن نحلم»، وتأكيد جوته «يجب أن نفعل»، فضلت انتزاع كليهما. كان باستطاعتها أن تؤيد كلمات لوتريامون «يجب أن تكون غاية الشعر هي الحقيقة العملية»، لكنها رفضت عملياً كل الشعر، بحق لا تخفيه تجاه الرموز والحماسة للشكل. فلم يكن ثمة شعر واقعي عظيم، باستثناء نيكولاس جيين الذي عرف كيف يطوع الموضوعات الجماعية إلى شكل شعبي قومي، وكذلك بعض إنجازات مانويل بانديرا، وفينيسيوش دي مورايش، وكارلوس دروموند دي أندراي الذين بدأوا، على نحو معين، الشعر العامي، والذين اعتبروا بدورهم «نثرين» من جانب المتطرفين الغنائيين. ورغم ذلك فإن هذه هي لحظة

الشعر الأمريكي اللاتيني العظيم . لكن الواقعية تخلط بين الرؤية الواقعية للواقع والرؤية الواقعية للفن ، وتوحد بين موقف أو سلوك ثوري وبين شكل فني محافظ يحدده بصورة متناقضة . لهذا تتجاهل فيشتي هويدوبرو، وتراكم الصفات الاتهامية ضد أوكتافيو باث ، وتغفل جزءاً كبيراً من شعر نيرودا الرائع وتجدها نفسها في مأزق من أجل تبرير العمق الداكن لصوره في الجزء الذي تنبأه، ولا تجرؤ على تبني سيزار فاييخو لأسباب مبدئية لكنها تغفر له بسبب موته، ولا تحزم أمرها لتحكم بصورة محددة على راؤول جونثالث تونيون . لأن الأمر يتعلق بـ «الكتابة للشعب» : ليس ، أوليس فقط ، من أجل انتزاع إحتكار الاستمتاع الجمالي من البرجوازية ، قبل كل شيء ، بل من أجل أن تصبح الكتب أسلحة تنتزع منها سلطتها السياسية . لكن الكتابة للشعب كانت تعني من ذلك المنظور - المختلف تماماً عن منظور أنطونيو ماتشادو - تسليم منتجات الإبداع الأقل إتقاناً ، وفي أحيان كثيرة ، المنتجات الجانبية ، بحجة أنها «في متناوله» ، لأنها واضحة وبسيطة ، أي ، واقعية . وبصرف النظر عن أن الكتاب الوحيد الذي غير العالم ومفهوم العالم ، وهو رأس المال ، ليس واضحاً ولا بسيطاً ، وكذلك ليست كتابات لينين الفلسفية ولا قصائد ماو بالبسيطة فليس من الممكن الآن الكتابة للشعب في أمريكا اللاتينية ، ففي حالات كثيرة لاتصل إليه ولا حتى وسائل الإعلام (أو وسائل السيطرة ، كما قال أحد الأشخاص) الجماهيرية . ومع الاستثناء الفريد لـ (مارتين فيرو) ، الذي كف في أنحاء معينة عن كونه عملاً لحوسيه فرناندث ليصبح فولكلوراً ، والاستثناء لبعض القصائد التي تحولت إلى أغنيات ليست جماهيرية على الإطلاق فيما عدا ذلك ، فإنه بالنسبة للفلاحين الأميين في جملتهم تقريباً ، وبالنسبة للعمال الذين يعرفون القراءة ، ولا يقرأون عملياً بسبب عدم التعود أو عدم القابلية للقراءة ، أو لأنهم لا يستطيعون دفع ثمن الكتب ، تستوي تماماً رواية اجتماعية لدافيد بينياس مع مجلد أقاصيص خيالية لفليسبرتو إرناندث : لأنها غير موجودين ! أما الطبقات الحاكمة ، أو بالأحرى المجموعات (التي ليست شعباً بل سكاناً) في غالبية بلداننا فإنها تصرح باحتقارها ، إن لم تكن

كراهيتها، للثقافة: ويشهد على ذلك العديد من الموتى لا يكاد يتبقى، إذن، سوى قطاع من الطبقة المتوسطة المدينية باعتبارها الهدف الوحيد للأدب. وتكفي البراهين الإحصائية المؤلة. فكم نسخة نشرت من أكثر الكتب «شعبية»، مثل كتب فارجاس بيللا؟ ورغم أن: عشرين قصيدة حب وقصيدة يأس واحدة قد بلغت خلال أربعين سنة من وجودها المليون نسخة، فذلك رقم صغير بالنسبة لتعداد يبلغ مائتي مليون من السكان(*)، ولا ينبغي أنه «لا يوجد زبائن للشعر». بعبارة أخرى، فإنه مهما كانت الرغبات الطيبة للمؤلفين الواقعيين، فإن أعمالهم لم تصل بدورها إلى جمهورهم، وظل كل أدب «الشجب» في أيدي ذلك القطاع من الطبقة المتوسطة الذي هو، بصورة أو بأخرى، مذنّب أو متواطىء مع الواقع الوحشي نفسه الذي يقدم هذا الأدب شهادته عنه. ذلك هو جمهورنا الوحيد، لكن من هنا أيضاً يخرج موجهو الفعل في أحيان كثيرة، يخرج أولئك الذين يمكنهم تحويل الأفكار إلى أفعال. ولما كان ذلك الجمهور هو الوحيد المصاب برذيلة القراءة فإنه يعرف كل التيارات الأدبية وقد تخلّى عن التوافق مع الواقعية الرتيبة. أما الواقعية بدورها، فبعد أن أدت وظيفتها التاريخية، ظلت تطلب أسلحة مستعارة من التعبيرية، ومن الملصق، ومن الكاريكاتير، لا من أجل تجديد نفسها بل من أجل جعل السمعة السيئة للظلم أشد سوءاً، بينما تنكر على الكاتب ذي الصوت الآخر الحق في أن يقول، وكأنه تحت وطأة القسم، «مجرد الحقيقة، وكل الحقيقة».

على هذا النحو يتضح نجاح الأدب الأمريكي اللاتيني الحالي. والتأكيد على أن الأمر يتعلق برمته بنتائج حملة لتسويق الكتب تعادل الافتراض بأن من الممكن فرض كتاب، أو تيار جمالي، أو جيل من الكتاب على الجمهور القارىء بالسهولة نفسها التي يفرض بها معجون أسنان، أو صنف من السجائر. وتفسر الأمر بالتعميم الخطير والسهل، والذي بمقتضاه يتعلق الأمر «بتصالح البرجوازية مع الأدب»، يعد بمثابة منح البرجوازية الأمريكية اللاتينية فضلاً لا تستحقه: فليست

(*) نذكر أن ذلك كان في أوائل السبعينات.

مؤيدة للأدب بحيث تقرر من تلقاء ذاتها مثل هذا النشر. ألا توجد، في أعمال رولفو، وفارجاس يوسا، وجيما رايش روزا، وكاربنتييه، وفي بعض لحظات كورتاثار وجارثيا ماركيث، وفي كل الشعر المقاتل المتنوع لأيامنا، المشكلات نفسها التي تناولتها الواقعية التقليدية؟ أليست موجودة في مسرح أيامنا، في الانجازات الجادة لإنريكي بوينابنتورا (العريضة، وقائمة الطعام، والأبرياء)، في أقاصيص تحكى لأوسفالدو دراجون، وفي ساعة الأفران، ذلك الفيلم - الفعل، كما أراد له مؤلفاه، سولاناس وختينو؟ ليس ماتغير هو تقويم المشكلات، ولا موقف المثقف في مواجهتها، ففي الموقف العام لغالبية الكتاب الأمريكيين اللاتين المعاصرين تجد تحديداً أكثر دقة، أكثر من الواقعيين أنفسهم الذين اكتفوا بـ «العمل»، في مواجهة مشكلات العالم، ومشكلات بلدانهم في العالم: فقد اختاروا العدالة. ليسوا ثوريين، لكن طبقاً للتعريف الوحيد الصالح - «الثوري هو من يصنع الثورة» - ليسوا كذلك من يضعون هذا التعريف كما لم يكن كل كتاب الواقعية المناضلة. ليسوا رجال فعل لأسباب متنوعة يمكن أن تبدأ بالعجز الجسماني، وهي أسباب، على الأقل واضحة مثل تلك التي تمنع أن يكون رجال الفعل كلهم مثقفين في الوقت نفسه. وبالتأكيد لا تسهم أعمالهم بصورة فورية في تغيير الواقع الاجتماعي مثلما لم يفعل أي عمل، فحتى البيان الشيوعي لم يحقق ذلك إلا بعد ستين عاماً. كذلك فإنها لا تشكل ذلك النوع من الملحمة، العبقرية أحياناً، والمفعمة بالأمل دائماً، للواقعية، والتي لم تكن تمثل الحقيقة التاريخية بل تكاد تكون بديلاً لها. إن كتاب اليوم وكذلك الكتاب السابقين، لكن أولئك كانوا مجرد شهود - يمثلون شريحة من طبقة إجتماعية ممزقة بين وصلات التاريخ وواقعة في الشرك بين ثقافة «التخلف» وتخلف الثقافة، بين اعلان التحولات الهيكلية والاستمرار المتقطع لانظمة الغوريلا، بين الطموح والنضال من أجل الرفاهية الإقتصادية واغتراب المجتمع الاستهلاكي الذي أصبح جنينياً في بعض بلداننا، وهي تتردد بين حماسها للعدالة وظروفها الإقتصادية، بين بقية الطبقة الاجتماعية التي ترفضها - وليست كراهية طبقة كافية لنفي ~~الانتهاك السياسي~~ وبين

الجدران والمزايج التي تمنعها من الدخول في تلك الطبقة التي تتوحد مع مصيرها . وهي ، قبل كل شيء ، تملك وعياً واضحاً بكل تمزقها ، مما يعادل أي تمزق آخر .

ربما يبدأ من هنا ذلك الإصرار الذي تبحث عنه شخصية الرواية الأمريكية اللاتينية الراهنة - ألا وهي المؤلف - عن هويتها ، عن تعريفها بين لحظتين تاريخيتين أو أكثر ، بين عالمين أو أكثر ، بين حضارتين أو أكثر . وقد أشار كاربنتييه بالفعل إلى أنه في أمريكا اللاتينية يوجد العصر الجيولوجي الرابع مع القرن الواحد والعشرين جنباً إلى جنب . هذا الاستغراق الذي كان يملأ الشعر أصبح موضوع الرواية . فالبحث الذي لا ينتهي عن الكائن في متاهته الخاصة ، وفي متاهة الآخرين يمكن أن يكون هو تعريف الجوائز لكورتاثار ، وأحد التعريفات العديدة لروايته الحجلة ، ويجري البحث عن الشخصية في كل دروب حياتها في (موت أرتميو كروث) ، أو (تغير الجلد) ، أو (منطقة مقدسة) لفوينتس ، وهو الشغل الشاغل لأونيتي ، الذي عاجله بصورة صريحة في (الحياة القصيرة) ، وعند كاربنتييه يجري التنقيب الأليم عن الواقع في مستويات مختلفة : عبر عصور تاريخية توجد معاً في (الخطوات الضائعة) ، وعبر التعارض بين العادات الإنسانية البسيطة في (قرن التنوير) ، وعبر عنف الفقير في (المطاردة) ، وعبر الطوائف ، والخرافات ، والمذاهب ، والنظريات في (مملكة هذا العالم) ، ومرة أخرى في (قرن التنوير) ، كما تسعى للتحديد ، ولاكتشاف ذاتها في شخصيات الروايات التنبؤية لمائويل ريوخاس ، (ابن اللص) و(أفضل من الخمر) . ولعل ذلك كان دائماً هو موضوع ، وقد يكون كذلك دافعاً ، كل أدب عظيم .

ربما وجد القراء أنهم هم أيضاً ، للمرة الأولى ، شخوص لهذا الأدب . إنه يعبر عن تردداتهم ، وإضطرابهم ، وشكهم ، وصلبهم المذنب . وربما يرفض هذا الأدب مبدأ الواقعية القديمة ذاك الذي يقضي بأنه : إذا لم يتغير الواقع الاجتماعي - ذلك الاقتصاد الغبي للاستغلال - بيدين ، يد أوليجاركية ويد إمبريالية فليس من سبب لكي يتغير الفن . وربما يفهم هذا الأدب أنه حتى قبل حل المشكلات القديمة الدامية ، قد ولدت مشكلات أخرى لأمريكا اللاتينية ، من بينها التساؤل

عن ذلك الكائن الذي شكله، أو أساء تشكيله، أو شوهه الواقع، والذي يعد التنقيب عنه أميناً بقدر أمانة التنقيب عن الواقع الاجتماعي، وحتماً إذا فكرنا منذ الآن في الإنسان الجديد.

وكل أولئك الكتاب، باستثناءات معدودة لا يستحق الأمر عناء ذكرها يؤمنون بالمصير المشترك لأمريكا اللاتينية. وهذا المصير المشترك بالنسبة لبعضهم هو البديل للثقافة الأمريكية اللاتينية التي يضعون وجودها موضع الشك بوصفها كذلك. لكن اليقين في المستقبل لا يمكن أن يجعلنا نتوافق مع بربرية الحاضر، مع الهجوم الأحق أو التعذيب. والاعتداءات الصارخة والهزائم العابرة، والتناقضات الضخمة، وتأخر الحلول تخلق نوعاً من عدم الأمان، والشك، والاضطراب - وهي أعراض الإلحاح، في نهاية المطاف - وتخلق ذلك التوتر في الضمير الذي يمزقه الواقع، كل الواقع. وحيث أن الواقعية، رغم احتجاجها لواقعها الاجتماعي من خلال «المحاكاة الأمنية»، قد تضامنت جمالياً مع بقية الواقع، وأقرت به وقبلته فإن الجيل الجديد من الكتاب، وبالأخص الروائيين، قد حمل الرغبة في تغيير الواقع إلى آخر مدى، وبدأ بالشك فيه، والنفور منه وإحتقاره، من هنا ينبع عنف هذا الأدب الذي يثير حنق بعض المعلقين ودهشة العديد من القراء. فلم يعد الفن، ولا يريد أن يكون هادئاً، لم يعد يملك راحة من يتحمل أو يقبل الواقع نفسه الذي يريد تغييره، بل إنه يتمرد ضده، وضد بنيته ذاتها، وضد جهود منطقته، ويفهم الإبداع باعتباره واقعاً في حد ذاته تسوده قوانين أخرى، ومفاهيم أخرى للزمن، وللاستمرار، وللمكان، وللحركة. (وفي ذهني لوبارك، وسوتو، ومعركتهما المظفرة ضد السكونية القديمة للفنون التشكيلية، ضد الفنون التشكيلية.) وليست «الفوضى» هي ما يجب أن نتحدث عنه عند الإشارة إلى الأدب والفن الأمريكيين اللاتينيين الراهنين، ولا حتى عند الإشارة إلى عنصر الحرية المطلقة - الفجور - الذي استخدمه فايخو بمعناه العميق ربما عن وعي للمرة الأولى، بل يجب أن نتحدث عما سماه جلوبيروشا «جماليات العنف». وقد قال سينمائي آخر، هو الكوبي سانتياجو ألفاريز Alvarez: «في

واقع مختلف مثل واقعنا يجب على الفنان أن يولد عنفاً ذاتياً، أن يترك نفسه ينساق عن وعي إلى توتر إبداعي في مهنته» كذلك قالت إحدى شخصيات أحد أفلام ألكسندر كلوجه : A. Kluge : «في مواجهة ماهو غير إنساني في هذا الوضع لا يملك الفنان إلا أن يستجيب بأن يزيد من صعوبات إبداعه ذاته». ربما ليس ذلك فقط، بل ذلك أيضاً. وذلك العنف، وذلك الاضطراب، شكلان كذلك، إذ يمكن فك وإعادة ترتيب (الدار الخضراء) أو (الحجلة)، بطريقة مختلفة كل مرة دون أن تكفا عن ضم واقع أدبي متماسك. وفي (رحلة إلى البذرة) لكاربنتيه، تجري الأحداث في الاتجاه العكسي وتعود الأشياء إلى أصلها. وفي قصة كورتاثار، (السماء الأخرى)، تدخل الشخصية قاعة جوميس في بونوس آيرس وتخرج من قاعة فيفين بباريس، لكنها تخرج قبلها بقرن عام ١٨٧٠. كذلك فإن (المهرجان) لأريولا، وخوسيه تريجو تجريان، في الوقت نفسه، في قرنين مختلفين. وفي موت أرتميو كروث، تمر الأعوام على الترتيب التالي: ١٩٤١، ١٩١٩، ١٩١٣، ١٩٢٤، ١٩٢٧، ١٩٤٧، ١٩١٥، ١٩٣٤، ١٩٣٩، ١٩٥٥، ١٩٠٣، ١٨٨٩. وربما ضمت مائة عام من العزلة قرونًا عديدة. وبالتأكيد ليست كل هذه الوسائل جديدة، لكنها الآن فقط تشكل، بدل كونها اكتشافاً أصيلاً معزولاً، ظاهرة عامة لأدبنا على مستوى الجيل ومستوى القارة.

٢ - الواقعية والواقع الآخر

كان برتولت بريخت هو الذي أشار إلى أن معيار الاتساع، وليس معيار التضييق هو أكثر مايناسب مفهوم الواقعية. والواقع، مع التسليم بأنه يضم الإنسان (الذي يملك الهوس المتأصل في أن يفكر ويحلم)، هو واقع لانهاثي، وفي أمريكا اللاتينية فإن كل الحقيقة، بما في ذلك المرئية، مازالت تنتظر الاكتشاف: فحتى حدود الملكيات الإقطاعية الضخمة ليست معروفة. وأقل من ذلك الحدود بين ماهو واقعي وما هو خيالي. (١) وقد أكد ليوبولدو ماريشال أنه ليس ثمة اختلاف

(١) انظر الفصل السابق، أزمة الواقعية.

بين العالمين، بافتراض أن كل ما يخرج من العدم واقعي . وكورتاثار بدوره يعلن :
« » الواقع يبدو لي خيالياً لدرجة أن قصصي بالنسبة لي واقعية بصورة
حرفية». وقد اكتشف ميغيل أنخل أستورياس وأليخو كاربنتيه (في مملكة هذا
العالم)، ثم أوجستوروا باسطوس، حين انشغلوا بمواطنيهم الهنود الأصليين أو
الزنوج، أن عقلية هؤلاء مصاغة من ميثولوجيات مكونة من آلهة حلمية، ولعنات
نباتية، ونذر سيئة عادة، ومخاوف بلا شكل . كما في رسوم ويلفريدو لام . وفي
البداية ظهرت بحذر تقريباً، هذه العناصر باعتبارها عناصر لشخصية البطل
(وحتى في نطاق الواقعية القديمة يتكشف العنصر الغيبي في سلوك الشخصيات في
روايات مجموعة جواياكيل، أو في روايات رومولو جاييجوس أو جورج أمادو)،
لكنها بعد ذلك تحولت إلى موضوعات وشخصيات قائمة بذاتها : سكان مفارقين
للطبيعة من المخلوقات الخرافية Cronopios ، والشياطين، والأرواح المعذبة
ونباتات خيالية من نباتات الوحوش والأساطير، تتابع من الأحداث الفريدة
بالنسبة للمنطق اليومي والواقعي البائس (في نهاية المطاف، فإن ثمرأ يتجول في
منزل خال، بدل القط، هو مجرد مسألة جغرافية). الأمر يتعلق بسوريالية أقرب
بكثير إلى الخيال الشعبي من الوقائع الحمراء للواقعية . وقد أصبح معروفاً - أكان
بريتون هو الذي قالها؟ - أن السوريالية قبل أن تصبح مذهباً جمالياً في أوروبا،
كانت واقعاً يومياً في المكسيك . وفي كل بلادنا تقريباً، فلم يستطع أي كاتب أن
يتخيل أخبار صحفنا . وعند بورخس نجد أن البعد التخيلي (الفانتازي) هو
بالأحرى ميتافيزيقي، وهو يدسه في العالم الواقعي كلما عن له ذلك . كتاب غير
شعبيين؟ من يدري؟ فالشعوب كانت أشد جسارة : اخترعت التنين، والنافورة
التي تتكلم، والحصان المجنح، وأساطير الواقع العديدة . وبعدها بقرون، أدان
كاتب حكايات أسطورية عبقرية، هو اي برادبوري، بقسوة وعدل أكثر من
الواقعية المناضلة، العقلية الغبية والجشعة للرأسمالية والحمق الأعمى للأنظمة
الشمولية . وكل ذلك الأدب، من أجل تقديم شهادة على الإنسان من الداخل
على وجه الدقة، يعيد تأكيد وممارسة حقه في الحكم : وهو المجال الوحيد الذي لم

تدخله الشرطة، بعد، لحسن الحظ. وذلك الواقع الآخر لم يكن، في أعماقه، سوى النصف المكمل للواقع القديم: فتلک المغامرة العظيمة لما هو خيالي، والتي هي (مائة عام من العزلة) هي في الوقت نفسه الملحمة الساخرة لنضالات معينة متكررة في أمريكا اللاتينية. وهي ساخرة لأن الدعابة أحد أشكال التساؤل والتحدي، والرفض لهذا الواقع. أرادت الواقعية أن تكون مفارقة، ومن المؤكد أنها عاجلت موضوعات دامية - الوحشية المألوفة، المألوفة آلام الملايين، والجور الديني للنظام - لكنها طبقت جديتها على كل جوانب الواقع المعتاد تقريباً، مما جعلها في أحيان كثيرة تشبه الحذقة. أخذت الواقع على محمل الجد، كما يجب، لكنها سقطت في شرك تلك الوطنية التعليمية التي بمقتضاها يكون ما هو سيئ شيئاً حسناً إذا كان وطنياً، باستثناء الاستغلال الاقتصادي والطبقات الهزلية. (أشار ماركس إلى أن الخجل هو بداية الثورة، وأممنا لم نخجل بعد، ليست بعد «نمراً متحفزاً») وقد قال فارجاس يوسا أن الوطنية كلما زادت، كلما وجب أن تزيد القسوة، حتى تبين لنا جوانب الخجل، حتى تظهر لنا أين يكمن لا الصديد التاريخي فقط بل كذلك تهكمية الكائن البشري وفضاضته وتفاهته وقد فعل أنطونيو سيجي ذلك في الرسم. كان من الضروري أن نبدأ في رؤية أنفسنا، دون شفقه لكن دون رضى كذلك، وكان الواقع نفسه قد دمر النماذج النمطية للوطنية. عندئذ سمح الأدب الأمريكي اللاتيني لنفسه بالضحك، ضحك من نفسه، في المقام الأول، لطم نفسه، جعل من نفسه أدباً مضاداً، سخر من جدوى وكفاءة «ثقافة» معينة (قال فانون «إنني أضع كلمة (ثقافة) بين فاصلتين، ولا أدري هل لأنها اصطلاح جديد أم لأنها كلمة أجنبية») لإنسان أمريكا اللاتينية المستعمر، وعاشت المواطن المنفي. عادت ابتسامة ماتشادو دي أسيس للظهور، بعد ما يقرب من ٧٠ عاماً، مع جيمارايش روزا، أظهر أريولا وإليثوندو التفاهة الفاقعة الألوان لبعض الدوائر المكسيكية، وأظهر مانويل بويج الاغتراب الصغير للبرجوازية الصغيرة الريفية الأرجنتينية. وها نحن نعرف أن (ماكوندو) تقع في كل بلد من بلدان أمريكا اللاتينية، ويعرف كل واحد منا كل

واحدة من شخصياتها، ونصادفها كل يوم، ويجعلنا مجرد اسمها نبتسم!

٣ - الواقعية والأسلوب

بسبب إنشغالها بشجب الواقع الكبير ورغبتها في الإسهام، بصورة فورية، في تغييره، فهمت الواقعية الفن باعتباره سلاحاً مباشراً لاحتاج إلى إرشادات من أجل استخدامه. كان المهم هو ما يجب أن يقال، مكتوباً بالصدفة، كيفما اتفق، وجرى بعناد غرس الفصل الشاذ بين المحتوى والشكل من أجل انكار قيمة الشكل دائماً، كان أدباً يكاد يكون غريزياً - بأسوأ معاني الكلمة -، صنع عقيدة من التلقائية التي لا تتفق مع الطابع العلمي للمادية الجدلية. ولم تخلق مشكلات جمالية حتى تحلها، فقد كان لديها أكثر مما يكفي من المشكلات الإنسانية التي لم تحل بعد. وإذا كانت قد فهمت جيداً الالتزام بالواقع الاجتماعي، فإنها أغفلت التزاماتها تجاه الأدب. كانت، بشكل عام، كتابة خطية، مرتبة، بسيطة، تكاد دائماً تكون متعاقبة زمنياً، عرضاً للمبادئ، وتتابعاً لمراحل النضال الظاهرية، لا تنطبق على الحقيقة الفوضوية، الباروكية، السورالية لبلداننا إلا أن الواقعية، رغم نقشفها ومطالبتها بأسلوب صحفي للأدب، قد اعترفت بأبوة النزعة الجمالية التي تبدت في كنعان، لجارسا أرانيا، أو بإضفاء الطابع الشعري بصورة مفرطة على الواقع المألوف، أو بالإسراف في الغنائية، لدى جورج أمادو، هذه الغنائية التي تبلغ حافة اليأس في على حافة الماء، لأجوستين يانيث، وهو كاتب من طراز جيد، لكونه أكثر أصالة، من (حكام الندى) للهايتي جاك رومان. أما وعي الأسلوب بذاته، والذي يسميه فورينجر «إرادة الشكل» فقد جاء بعد ذلك حين بدأ فهم الأدب بوصفه مهنة، وبوصفه انضباطاً من أجل البحث والإدراك، لا تبرره النوايا بل النتائج، مثل كل الأفعال الإنسانية. هذا الوعي يتخذ أشكالاً متعددة من حماسة بورخس حتى الشراء الدافق لجيمارايش روزا أو «النسيان» الظاهري للأسلوب. عند كورتاثار. كان للواقعية الاشتراكية أسلوب، نعم، لكنه لم يكن يتمشى مع أهدافها. وينبع الكثير من تناقضاتها من حقيقة أنه لا إيديولوجيتها ولا فنانونها قد تمكنوا من اكتشاف أو تطوير جماليات طبقية، وأقل من

ذلك، لغة طبقية. وبصورة متناقضة فإنه بينما يعد كل ماليس واقعية اشتراكية خيانة، أو على الأقل، مصالحة مع البرجوازية، يظل بعض موجهي الثقافة الاشتراكية في فرض جماليات برجوازية بصورة عميقة على شعوبهم. ففي بلدان أوروبا حيث انتزعت البروليتاريا السلطة من البرجوازية، تملك الطبقة الحاكمة الجديدة الجماليات البرجوازية أيضاً بدل أن تطبق جمالياتها الخاصة، فكأن الأمر يتعلق برمز يمنحها الوعي بانتصارها: من أشكال تصوير ذي نزعة طبيعية إلى لغة وتكنيك أدب تخلت عنهما البرجوازية نفسها منذ زمن بعيد، إلى عمارة مختنقة بين تلك «القصور» أصبح معروفاً أنها تشبه كعك الأعراس - إلى تلك المباني من أجل العمال، الساحقة إنسانياً والبائسة جمالياً، إلى الأثاث من طراز باهت، إلى العروض التي ليست أقل تدهوراً لمجرد أنها تتناول موضوعات شعبية، إلى رباط العنق وحتى الياقة المنشأة أيام الأحد. وقد لاحظ رولان بارت أن الواقعية قد نقلت عن طيب خاطر لغة الرواية البرجوازية في القرن التاسع عشر إلى موضوعات وشخصيات القرن العشرين، وأن الصفات التي كانت تستخدم لوصف الأرستقراطيين وسيدات البلاط قد استخدمت، في تحويل ذي طابع مثالي للنظام القائم، في وصف العمال والفلاحين. فليس الموقف الارستقراطي بل الالتحام بالشعب - والاحترام لحقيقته ولغته - هو الذي يجعل من غير الممكن أن يكون جامع الحروف «أنيقاً» والحائكة «راقية». لقد جعل المؤلف الأمريكي اللاتيني شخصياته تتحدث بالרטانة الشعبية لكنه بقي على مسافة كافية بحيث لا يحدث خلط بشأن بلاغته. وبيقين بعيد أن أعماله، رغم كل شيء، لن يقرأها الشعب الذي «يتحدث» فيها، صنع قوائم طويلة من الألفاظ الشعبية المستخدمة مع مقابلها بلغة الطبقة التي تقرأ.

إن كتاب اليوم يستخدمون اللغة الشعبية، ولأنهم يكتبون بدءاً من الشخصية فقد شرعوا في المغامرة العظيمة لإعادة هيكلة اللغة القشتالية*. وليس الأمر مجرد

* Castellano : تسمية أدق للغة الإسبانية حيث أن ما نسميه الإسبانية هو لغة إقليم قشتالة وليس لغة إسبانيا بكاملها. إذ توجد فيها لغات أخرى غير الإسبانية [المترجم].

جهد شخصي خالص للابتكار بل اكتشاف الإمكانيات اللانهاية لخلق لغات أدبية تكمن في رطانات ولهجات أمريكا. ثمة موقف طبقي في قطع العلاقات مع أكاديميات اللغة ودعاة النقاء اللغوي، وهو موقف فخور. فقد انطلق خوسيه ماري أريجيداس من المصالحة بين اللغة القشتالية ولغة الكتشوا، وفرناندو دل باسو يلتقط ويبتكر لغة مكسيكية في أكثر الجهود اللغوية طموحاً في الأدب الأمريكي، ولا يرضى جيمارايش روزا بالتعبيرات الشعبية بل إنه يتبنى في الأدب مزيجاً فريداً مستعاراً من فلاحي ميناش جيرايش، وباستمتاع، يكتب «بالأرجنتينية» رودولفو والش ومانويل بويج والشعراء خوان خيلمان، وسيزار فرناندث مورينو، وفرنثيسكو أوروندو. ولما كان ذلك لا يجري على مستوى الفولكلور أو الكريولية* بل على مستوى أدب عظيم، فإن تياراً متعدد الاتجاهات من المعرفة المتبادلة يبدأ في التكون، ونبدأ في التفاهم بكل تلك اللغات التي هي اللغة الأمريكية اللاتينية، ونصفي، مع إقليمية الأدب السابق، قوائم المفردات في نهاية الكتب. (في إطار ذلك الموقف، يصبح مفهوماً السبب في أن خورخي سانخيس، البوليفي وواضع شعار «الانتقال من الشهادة إلى الاتهام»، قد أخرج فيلمه أوكامو بكامله باللغة الأيمارا.)

أما ظاهرة الباروك في الأدب الأمريكي اللاتيني المعاصر(٢)، بصرف النظر عن كل التفسيرات التي يمكن تقديمها، فتجد مبرر وجودها في طابع أمريكا اللاتينية. فواقعها ذاته باروكي، بدءاً من أسلوب غاباتها - هذا الباروك النباتي المتشابك - ووصولاً إلى نمط من السلوك الإنساني، وبخاصة في المدن. ومهما كانت تعريفات الباروك، فقد وجد دائماً في المشغولات اليدوية الشعبية: الأشياء المصنوعة من

* Criollismo، من Criollo وقد سبق شرحها وهي تطلق على المولودين في أمريكا مقابل القادمين من أفريقيا من الزنوج، وعلى المولودين هناك من أبوين أوروبيين وقد تعمم استخدامها ليعني كل ما هو أمريكي مقابل كل ما هو وافد. وتمثل في الأدب تمجيد الابتكارات والعادات المحلية الأمريكية [المترجم].

(٢) انظر، الباروك والباروك الجديد، في هذا الكتاب.

الذهب والفضة، ومن القش المصفور ومن الخشب، من شعر الخيل ومن نواة العاج، التي تصور في أشكال مصغرة طابع المعابد الخلاسية - غابة الأحجار - وتبشر بباروك أفلام مثل الرب والشیطان في أرض الشمس، و الأرض المنتشية، و أنطونیو داش مورتش، في اللغو، الإسباني والأمريكي اللاتيني الأصل، للخطب التي لا تحتمل للشخصيات الهامة، و«للصحافة العظيمة»، وللإعلانات في الإذاعة وكذلك في أدب معين. لكنه الآن فقط يكتسب قصداً أدبياً إختيارياً، حين يرد الكاتب ضد النسقية والهزال اللفظيين السابقين عليه، وحين يعلن أن إحدى مهامه التي لا تقل أهمية عن غيرها (بصرف النظر عن متعتها المعذبة)، هي البحث عن لغة وخلق لغة، أي إعادة هيكلة لغته، أو إعادة اكتشاف لغته ذاتها. هذا - بطريقة أو بأخرى - هو ما فعله في وقت معاً كاربنتييه وليثاما ليا في كوبا، وجيمارايش روزا في البرازيل، وفرناندو دل باسو وكارلوس فوينتس في المكسيك، وماريشال في الأرجنتين. وهذا ما فعله دوماً الشعراء العظام فاييخو، ونيرودا، وباث، فشعر التمزق الميتافيزيقي، والتدفق الحسي أو الشبق التراجيدي، كان في كل الأحوال ابتكار لغة تدين لها الرواية الراهنة بالكثير، وهكذا فإن أفضل صفحات أفضل القصاصيين المعاصرين عبارة عن شعر. لكن الشعر مراوغ ومستقل، وحين انتزعت منه الرواية مهنته القديمة في الإنشاد الإيمائي، تحول ليصبح عميقاً وباطنياً، أي ذاتياً، واليوم، حين ورثت الرواية ذاتيته، وفضلاً عن ذلك أضفت الطابع الشعري بصورة رفيعة على مطاردها للكلمة - لم يقل أحدهم، مبالغاً، إن الكلمة الآن هي الشخصية الحقيقية للرواية؟ - يحصل الشعر من الرواية دينه، وعلى سبيل التعويض، يضيف على نفسه الطابع الروائي، ويأخذ في حكاية حكايات بولع ملحوظ باللغة الشفوية المألوفة، ويفتش عن صعوبات الموضوعية والحديث الشعبي الأجلش: هذا ما يفعله إرنستو كاردينال، وروبرتو فرناندث ريتامار، وجونثالو روخاس، وفايد خميس، وإنريكي لين، وخوسيه إميليوباتشيكو. وأحياناً يجري ذلك بدعابة مرة، تكون غالباً أفضل وسيلة للوصول إلى الأعماق، مثلما في الشعر المضاد

لنيكانور بارا، وفي أحيان أخرى، كما في حالة البرازيليين، يبلغ الشعر المحسوس أبعد نقاط موضوعية الواقع. إن الشعر، هو الآخر، قد تخلص طواعية من الجلال الذي بدا أنه كامن فيه (الشعر المكتوب بالاسبانية على الأخص) ومثله كمثّل الرواية والمسرح، ولم يعد ينظر إليه هو نفسه بالقدر نفسه من الجدية. فالفن، في نهاية المطاف ليس، بهذه الأهمية، إذ لا يقدم حلولاً، وهذا معروف، بل يطرح أسئلة، لا يقدم تفسيرات، بل يطالب بها. والتساؤلات الإنسانية الفورية الكبيرة لا تطلب إجابات فنية، بل شرخاً في التاريخ، مؤلماً وعنيفاً، ولا يمكن للأدب أن يحققه. فهذا الأدب لا يفعل، في أقصى الحالات، سوى التبشير بذلك الشرخ والانتفاء إليه. وفي الحالات الأشد نبلاً يفعل ذلك مهما كانت العواقب.



المحتوى

تصدير الترجمة	٥
مقدمة	١٠

الباب الأول

أدب من آداب العالم	٣٣
الفصل الأول : لقاء الثقافات	٣٥
الفصل الثاني : التعدد اللغوي	٦٨
الفصل الثالث : التعدد الثقافي	٨٨
الفصل الرابع : الوحدة والتنوع	١٢١
الفصل الخامس : أمريكا اللاتينية في الآداب الأخرى	١٥٦
الفصل السادس : بلوغ سن الرشد	٢٠٣

الباب الثاني

انقطاع التقاليد	٢٢٥
الفصل الأول : التقاليد والتجديد	٢٢٧
الفصل الثاني : الباروك والباروك الجديد	٢٦٩
الفصل الثالث : أزمة الواقعية	٢٩٨
الفصل الرابع : واقعية الواقع الآخر	٣٣٠

المترجم في سطور :

مئات من الابحاث العلمية
والأدبية .

- يعمل مساعداً لعميد كلية الآداب
لتطوير برامج الإنسانيات
والتخطيط - كلية الآداب - جامعة
الكويت ، ومستشاراً لتحرير مجلة
«الثقافة العالمية» التي يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون
والآداب ، وأميناً عاماً للجنة
التخطيط الشامل للثقافة العربية
(المنظمة العربية للتربية والثقافة
والعلوم) .

المراجع في سطور

- د. شاكراً مصطفى .
- دكتوراه في الآداب .
- عمل في التدريس الثانوي
والجامعي في سورية ، وفي السلك
السياسي ممثلاً لبلاده عشر
سنوات في السودان وكولومبيا
والبرازيل .
- عمل وزيراً للإعلام في سورية
(١٩٦٦/٦٥) .
- له عدد من المؤلفات يتجاوز الثلاثين
في التاريخ والآداب بالإضافة الى



الأحزاب السياسية
في العالم الثالث

تأليف : د. أسامة الغزالي حرب

صدر عن هذه السلسلة

- ١ - الحضارة تأليف : د/ حسين مؤنس
- ٢ - اتجاهات الشعر العربي المعاصر تأليف : د/ إحسان عباس
- ٣ - التفكير العلمي تأليف : د/ فؤاد زكريا
- ٤ - الولايات المتحدة والمشرق العربي تأليف : د/ أحمد عبدالرحيم مصطفى
- ٥ - العلم ومشكلات الإنسان المعاصر تأليف : زهير الكرمي
- ٦ - الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها تأليف د/ عزت حجازي
- ٧ - الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية تأليف : د/ محمد عزيز شكري
- ٨ - تراث الإسلام (الجزء الأول) ترجمة : د/ زهير السمهوري
- تحقيق وتعليق : د/ شاكر مصطفى
- مراجعة : د/ فؤاد زكريا
- ٩ - أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة تأليف : د/ نايف خرما
- ١٠ - جحا العربي تأليف : د/ محمد رجب النجار
- ١١ - تراث الإسلام (الجزء الثاني) ترجمة : د/ حسين مؤنس
- د/ إحسان العمدة
- مراجعة : د/ فؤاد زكريا
- ١٢ - تراث الإسلام (الجزء الثالث) ترجمة : د/ حسين مؤنس
- د/ إحسان العمدة
- مراجعة : د/ فؤاد زكريا
- ١٣ - الملاحة وعلوم البحار عند العرب تأليف : د/ أنور عبد العليم
- ١٤ - جمالية الفن العربي تأليف : د/ عفيف بهنسي
- ١٥ - الإنسان الحائر بين العلم والخرافة تأليف : د/ عبد المحسن صالح
- ١٦ - النفط والمشكلات المعاصرة للتنمية العربية تأليف : د/ محمود عبد الفضيل
- ١٧ - الكون والثقوب السوداء إعداد : رؤوف وصفي
- مراجعة : زهير الكرمي

- ١٨ - الكوميديا والتراجيديا
ترجمة : د/ علي أحمد محمود
- ١٩ - المخرج في المسرح المعاصر
مراجعة : د/ شوقي السكري
- ٢٠ - التفكير المستقيم والتفكير الأعوج
د/ علي الراعي
- ٢١ - مشكلة إنتاج الغذاء في الوطن العربي
تأليف : سعد أردش
- ٢٢ - البيئة ومشكلاتها
ترجمة : حسن سعيد الكرمي
- ٢٣ - الرق
مراجعة : صدقي حطاب
- ٢٤ - الإبداع في الفن والعلم
تأليف : د/ محمد علي الفرا
- ٢٥ - المسرح في الوطن العربي
تأليف : رشيد الحمد
- ٢٦ - مصر وفلسطين
د/ محمد سعيد صباريني
- ٢٧ - العلاج النفسي الحديث
تأليف : د/ عبدالسلام الترماني
- ٢٨ - أفريقيا في عصر التحول الاجتماعي
تأليف : د/ حسن أحمد عيسى
- ٢٩ - العرب والتحدي
تأليف : د/ علي الراعي
- ٣٠ - العدالة والحرية في فجر النهضة
عواطف عبدالرحمن
- ٣١ - الموشحات الأندلسية
تأليف : د/ عبدالستار إبراهيم
- ٣٢ - تكنولوجيا السلوك الإنساني
ترجمة : شوقي جلال
- ٣٣ - الإنسان والثروات المعدنية
تأليف : د/ محمد عماره
- ٣٤ - قضايا أفريقية
تأليف : د/ عزت قرني
- ٣٥ - تحولات الفكر والسياسة
تأليف : د/ محمد زكريا عناني
- ٣٦ - الحب في التراث العربي
ترجمة : د/ عبدالقادر يوسف
- ٣٧ - المساجد
مراجعة : د/ رجا الدريني
- في الشرق العربي (١٩٣٠ - ١٩٧٠)
تأليف : د/ محمد جابر الأنصاري
- الحب في التراث العربي
تأليف : د/ محمد حسن عبدالله
- المساجد
تأليف : د/ حسين مؤنس

- ٣٨ - تكنولوجيا الطاقة البديلة تأليف : د/ سعود يوسف عياش
- ٣٩ - ارتقاء الإنسان ترجمة : د/ موفق شخاشيرو
- مراجعة : زهير الكرمي
- ٤٠ - الرواية الروسية في القرن التاسع عشر تأليف : د/ مكارم الغمري
- ٤١ - الشعر في السودان تأليف : د/ عبده بدوي
- ٤٢ - دور المشروعات العامة في التنمية الاقتصادية تأليف : د/ علي خليفة الكواري
- ٤٣ - الإسلام في الصين تأليف : فهمي هويدي
- ٤٤ - اتجاهات نظرية في علم الاجتماع تأليف : د/ عبدالباسط عبدالمعطي
- ٤٥ - حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي تأليف : د/ محمد رجب النجار
- ٤٦ - دعوة إلى الموسيقى تأليف : د. يوسف السيسي
- ٤٧ - فكرة القانون ترجمة : سليم الصويض
- مراجعة : سليم بسيسو
- ٤٨ - التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان تأليف : د/ عبدالمحسن صالح
- ٤٩ - صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي تأليف : صلاح الدين حافظ
- ٥٠ - التكنولوجيا الحديثة والتنمية الزراعية تأليف : د/ محمد عبدالسلام
- ٥١ - السينما في الوطن العربي تأليف : جان ألكسان
- ٥٢ - النفط والعلاقات الدولية تأليف : د/ محمد الرميحي
- ٥٣ - البدائية ترجمة : د/ محمد عصفور
- ٥٤ - الحشرات الناقلة للأمراض تأليف : د/ جليل أبو الحب
- ٥٥ - العالم بعد مائتي عام ترجمة : شوقي جلال
- ٥٦ - الإدمان تأليف : د/ عادل الدمرداش
- ٥٧ - البيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية تأليف : د/ أسامة عبدالرحمن
- ٥٨ - الوجودية ترجمة : د/ إمام عبد الفتاح
- ٥٩ - العرب أمام تحديات التكنولوجيا تأليف : د/ انطونيوس كرم
- ٦٠ - الايديولوجية الصهيونية (الجزء الأول) تأليف : د/ عبد الوهاب المسيري
- ٦١ - الايديولوجية الصهيونية (الجزء الثاني) تأليف : د/ عبد الوهاب المسيري
- ٦٢ - حكمة الغرب (الجزء الأول) ترجمة : د/ فؤاد زكريا

- ٦٣ - الإسلام والاقتصاد تأليف : د/ عبدالهادي علي النجار
- ٦٤ - صناعة الجوع (خرافة الندرة) ترجمة : أحمد حسان عبد الواحد
- ٦٥ - مدخل إلى تاريخ الموسيقى المغربية تأليف : عبدالعزيز بن عبد الجليل
- ٦٦ - الإسلام والشعر تأليف : د/ سامي مكّي العاني
- ٦٧ - بنو الإنسان ترجمة : زهير الكرمي
- ٦٨ - الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية تأليف : د/ محمد موفاكو
- ٦٩ - ظاهرة العلم الحديث تأليف : د/ عبدالله العمر
- ٧٠ - نظريات التعلم (دراسة مقارنة) ترجمة : د/ علي حسين حجاج
- (الجزء الأول) مراجعة : د/ عطيه محمود هنا
- ٧١ - الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي تأليف : د/ عبدالمالك خلف التميمي
- ٧٢ - حكمة الغرب (الجزء الثاني) ترجمة : د/ فؤاد زكريا
- ٧٣ - التخطيط للتقدم الاقتصادي والاجتماعي تأليف : د/ مجيد مسعود
- ٧٤ - مشاريع الاستيطان اليهودي تأليف : د/ أمين عبدالله محمود
- ٧٥ - التصوير والحياة تأليف : د/ محمد نبهان سويلم
- ٧٦ - الموت في الفكر الغربي ترجمة : كامل يوسف حسين
- ٧٧ - الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً مراجعة : د/ إمام عبد الفتاح
- ٧٨ - قضايا التبعية الإعلامية والثقافية تأليف : د/ أحمد عثمان
- ٧٩ - مفاهيم قرآنية تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن
- ٨٠ - الزواج عند العرب (في الجاهلية والإسلام) تأليف : د/ محمد أحمد خلف الله
- ٨١ - الأدب اليوغسلافي المعاصر تأليف : د/ جمال الدين سيد محمد
- ٨٢ - تشكيل العقل الحديث ترجمة : شوقي جلال
- ٨٣ - البيولوجيا ومصير الإنسان مراجعة : صدقي حطاب
- ٨٤ - المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية تأليف : د/ سعيد الحفار
- ٨٥ - دول مجلس التعاون الخليجي تأليف : د/ رمزي زكي
- ومستويات العمل الدولية تأليف : د/ بدرية العوضي

- ٨٦ - الإنسان وعلم النفس
 ٨٧ - في تراثنا العربي الاسلامي
 ٨٨ - الميكروبات والإنسان
 ٨٩ - الإسلام وحقوق الإنسان
 ٩٠ - الغرب والعالم (القسم الأول)
 ٩١ - تربية اليسر وتخلف التنمية
 ٩٢ - عقول المستقبل
 ٩٣ - لغة الكيمياء عند الكائنات الحية
 ٩٤ - النظام الإعلامي الجديد
 ٩٥ - تغيير العالم
 ٩٦ - الصهيونية غير اليهودية
 ٩٧ - الغرب والعالم (القسم الثاني)
 ٩٨ - قصة الانثروبولوجيا
 ٩٩ - الأطفال مرآة المجتمع
 ١٠٠ - الوراثة والإنسان
 ١٠١ - الأدب في البرازيل
 ١٠٢ - الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية
- تأليف : د/ عبد الستار إبراهيم
 تأليف : د/ توفيق الطويل
 ترجمة : د/ عزت شعلان
 مراجعة : د/ عبد الرزاق العدواني
 د/ سمير رضوان
 تأليف : د/ محمد عماره
 تأليف : كافين رايلي
 ترجمة : د/ عبدالوهاب المسيري
 د/ هدى حجازي
 مراجعة : د/ فؤاد زكريا
 تأليف : د/ عبدالعزيز الجلال
 ترجمة : د/ لطفي فطيم
 تأليف : د/ أحمد مدحت اسلام
 تأليف : د/ مصطفى المصمودي
 تأليف : د/ أنور عبدالملك
 تأليف : د/ ريجينا الشريف
 ترجمة : أحمد عبدالله عبدالعزيز
 تأليف : كافين رايلي
 ترجمة : د/ عبد الوهاب المسيري
 د/ هدى حجازي
 مراجعة : د. فؤاد زكريا
 تأليف : د. حسين فهميم
 تأليف : د. محمد عماد الدين اسماعيل
 تأليف : د. محمد علي الربيعي
 تأليف : د. شاكر مصطفى
 تأليف : د. رشاد الشامي

- ١٠٣ - التنمية في دول مجلس التعاون
تأليف : د. محمد توفيق صادق
- ١٠٤ - العالم الثالث وتحديات البقاء
تأليف : جاك لوب
- ١٠٥ - المسرح والتغير الاجتماعي
في الخليج العربي
ترجمة : أحمد فؤاد بليغ
- ١٠٦ - « المتلاعبون بالعقول »
تأليف : هيربرت. أ. شيللر
- ١٠٧ - الشركات عابرة القومية
ترجمة : عبدالسلام رضوان
- ١٠٨ - نظريات التعلم (دراسة مقارنة)
الجزء الثاني
مراجعة : د. عطية محمود هنا
- ١٠٩ - العملية الإبداعية في فن التصوير
تأليف : د. شاكر عبدالحميد
- ١١٠ - مفاهيم نقدية
ترجمة : د. محمد عصفور
- ١١١ - قلق الموت
تأليف : د. أحمد محمد عبدالخالق
- ١١٢ - العلم والمشتغلون بالبحث
العلمي في المجتمع الحديث
ترجمة : شعبة الترجمة باليونسكو
- ١١٣ - الفكر التربوي العربي الحديث
تأليف : د. سعيد اسماعيل علي
- ١١٤ - الرياضيات في حياتنا.
ترجمة : د. فاطمة عبدالقادر المما
- ١١٥ - معالم على طريق تحديث الفكر العربي
تأليف : د. معن زيادة

سلسلة عالم المعرفة

عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت- وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير ١٩٧٨ ويتولى الاشراف عليها لجنة تضم عددا من الشخصيات العلمية المعروفة على مستوى الوطن العربي كله.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ العربي بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة وكذا ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها - ترجمة وتأليف:

١ - الدراسات الإنسانية : الفلسفة، علم النفس والتربية، علم الاجتماع، السياسة والاقتصاد، التاريخ، الدراسات الحضارية، والجغرافيا وأدب الرحلات.

٢ - الدراسات الأدبية واللغوية : الآداب العالمية، الأدب العربي، علم اللغة.

٣ - الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن، المسرح، الموسيقى، الفنون التشكيلية، الفنون الشعبية.

٤ - الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته، التكنولوجيا والإنسان، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة،

فلك) والرياضة التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم).

أما بالنسبة لنشر الأعمال الإبداعية، المترجمة أو المؤلفة، من شعر وقصة ومسرحية فأمر غير وارد في الوقت الحالي.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع المؤلف أو المترجم تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل خمسة عشر فلساً عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي أو تسعمائة دينار أيهما أكثر بالإضافة إلى مائة وخمسين ديناراً كويتياً مقابل تقديم المخطوطة المؤلفة أو المترجمة من نسختين مطبوعة على الآلة الكاتبة.



الاشتراك السنوي : وهو مقصور على الفئات التالية :

- المؤسسات والهيئات داخل الكويت ١٠ دنانير
- المؤسسات والهيئات في الوطن العربي ١٢ ديناراً
- المؤسسات والهيئات خارج الوطن العربي ٨٠ دولاراً أمريكياً
- الافراد خارج الوطن العربي ٤٠ دولاراً أمريكياً

الاشتراكات :

ترسل باسم الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

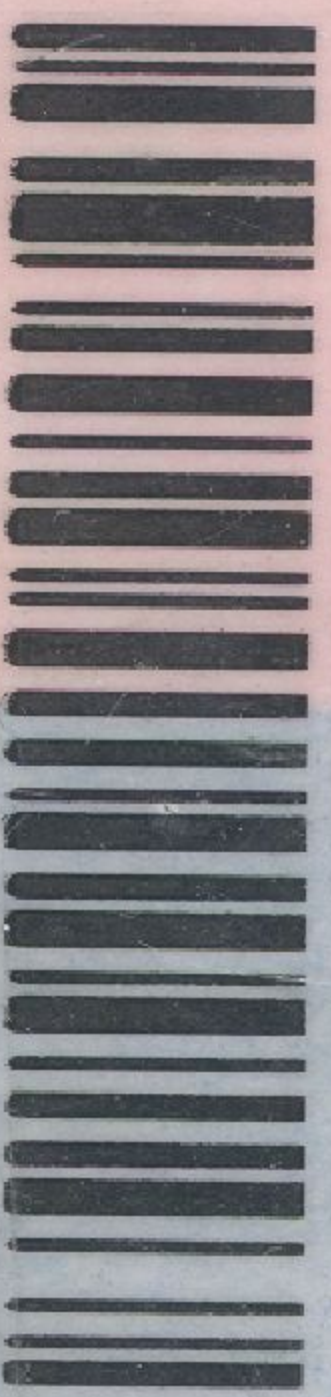
ص.ب ٢٣٩٩٦ الصفاة/ الكويت - 13100

برقياً ثقف - تلکس ٤٤٥٥٤ TLX No 44554 NCCAL

سعر النسخة	البلد
٥٠٠ فلس	* الكويت
١٠ ريالات	* السعودية
دينار واحد	* العراق
٧٥٠ فلس	* الأردن
١٥ ليرة	* سوريا
١٥ ليرة	* لبنان
دينار واحد	* ليبيا
١٥ درهم	* المغرب
١ ¼ دينار	* تونس
٢٠,- دينار	* الجزائر
١,- جنيه	* مصر
١,- جنيه	* السودان
١ ريال	* عمان
٨٠٠ فلس	* اليمن الجنوبية
١٠ ريالات	* اليمن الشمالية
دينار واحد	* البحرين
١٠ ريالات	* قطر
١٠ دراهم	* الامارات العربية

طبع من هذا الكتاب خمسون ألف نسخة

Bibliotheca Alexandrina



0408201